



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغات



ارسلنا
عليكم يا صابغ
الرماد

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

الأمم

في تفسيرين كما جلا الله المنزلة

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ كاظم حكايم الشيرازي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل

كاتب:

آيت الله ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابي طالب (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٣٣	الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل المجلد ٤
٣٣	اشاره
٣٤	اشاره
٣٧	[اتمه سورة المائده]
٣٧	اشاره
٣٧	الآيتان [سوره المائده (٥): الآيات ٤١ الى ٤٢]
٣٧	اشاره
٣٧	سبب النزول
٣٩	التفسير
٣٩	اشاره
٣٩	التحكيم بين الأنصار و الأعداء:
٤٤	الآيه [سوره المائده (٥): آيه ٤٣]
٤٤	اشاره
٤٤	التفسير
٤٤	الآيه [سوره المائده (٥): آيه ٤٤]
٤٤	اشاره
٤٤	التفسير
٤٩	الآيه [سوره المائده (٥): آيه ٤٥]
٤٩	اشاره
٤٩	التفسير
٤٩	اشاره
٤٩	القصاص و العفو:
٥٣	الآيه [سوره المائده (٥): آيه ٤٦]

٥٣ اشاره

٥٣ التفسير

٥٦ الآية [سوره المائده (٥): آيه ٤٧]

٥٦ اشاره

٥٦ التفسير

٥٦ اشاره

٥٦ الامتناع عن الحكم بالقانون الإلهي:

٥٨ الآية [سوره المائده (٥): آيه ٤٨]

٥٨ اشاره

٥٨ التفسير

٦٢ الأيتان [سوره المائده (٥): الآيات ٤٩ الى ٥٠]

٦٢ اشاره

٦٢ سبب النزول

٦٣ التفسير

٦٣ اشاره

٦٤ سؤال:

٦٤ الجواب:

٦٦ الآيات [سوره المائده (٥): الآيات ٥١ الى ٥٣]

٦٦ اشاره

٦٦ سبب النزول

٦٧ التفسير

٦٧ اشاره

٧١ الاعتماد على الغرباء:

٧٣ الآية [سوره المائده (٥): آيه ٥٤]

٧٣ اشاره

٧٣ التفسير

٧٨	الآيه [سوره المائده (٥): آيه ٥٥]
٧٨	اشاره
٧٨	سبب النزول
٧٩	التفسير
٧٩	اشاره
٨٠	شهاده الأحاديث و المفسرين و المؤرخين:
٨٢	الزد على اعتراضات ثمانية:
٩٠	الآيه [سوره المائده (٥): آيه ٥٦]
٩٠	اشاره
٩٠	التفسير
٩٢	الآيات [سوره المائده (٥): الآيات ٥٧ الى ٥٨]
٩٢	اشاره
٩٢	سبب النزول
٩٣	التفسير
٩٣	اشاره
٩٤	الأذان شعار اسلامي كبير:
٩٥	نزول الأذان وحيا على النبي:
٩٧	الآيات [سوره المائده (٥): الآيات ٥٩ الى ٦٠]
٩٧	اشاره
٩٧	سبب النزول
٩٧	اشاره
٩٨	التفسير
١٠١	الآيات [سوره المائده (٥): الآيات ٦١ الى ٦٣]
١٠١	اشاره
١٠١	التفسير
١٠٦	الآيه [سوره المائده (٥): آيه ٦٤]

١٠٦ اشارة

١٠٦ التفسير

١١١ الأيتان [سوره المائده (٥): الآيات ٦٥ الى ٦٦]

١١١ اشارة

١١١ التفسير

١١٥ الآية [سوره المائده (٥): آيه ٦٧]

١١٥ اشارة

١١٥ التفسير

١١٥ اشارة

١١٥ اختيار الخليفه مرحله انتهاء الرساله:

١١٧ نزول آيه التبليغ:

١٢٠ حادثه الغدير بايجاز:

١٢٤ محاورات و شبهات:

١٢٥ اشارة

١٢٧ ١- هل معنى «المولى» هو «الأولى بالتصرف»؟

١٢٩ ٢- ترابط الآيات -

١٣٠ ٣- أتذكر الصّاح كلّها هذا الحديث؟

١٣٠ ٤- لم يستدل على و أهل البيت عليهم السلام بهذا الحديث؟

١٣٢ ٥- مفهوم الجملة الأخيره من الآية

١٣٣ ٦- هل يمكن وجود وتينين فى وقت واحد؟

١٣٥ الأيتان [سوره المائده (٥): الآيات ٦٨ الى ٦٩]

١٣٥ اشارة

١٣٥ سبب النزول

١٣٥ اشارة

١٣٦ التفسير

١٣٩ الأيتان [سوره المائده (٥): الآيات ٧٠ الى ٧١]

١٣٩ اشارة

١٣٩ التفسير

١٤٢ الآيات [سوره المائده (٥): الآيات ٧٢ الى ٧٤]

١٤٢ اشارة

١٤٢ التفسير

١٤٦ الآيات [سوره المائده (٥): الآيات ٧٥ الى ٧٧]

١٤٦ اشارة

١٤٦ التفسير

١٥٠ الآيات [سوره المائده (٥): الآيات ٧٨ الى ٨٠]

١٥٠ اشارة

١٥٠ التفسير

١٥٣ الآية [سوره المائده (٥): آيه ٨١]

١٥٣ اشارة

١٥٣ التفسير

١٥٧ الآيات [سوره المائده (٥): الآيات ٨٢ الى ٨٦]

١٥٧ اشارة

١٥٧ سبب النزول

١٥٧ اشارة

١٥٧ المهاجرون الأول في الإسلام:

١٦١ التفسير

١٦١ اشارة

١٦١ حقد اليهود و مؤده النصارى:

١٦٤ الآيات [سوره المائده (٥): الآيات ٨٧ الى ٨٩]

١٦٤ اشارة

١٦٤ سبب النزول

١٦٤ اشارة

لا تتجاوزوا الحدود! ١٦٤

التفسير ١٦٤

اشاره ١٦٤

القسم و كفارته: ١٦٤

الآيات [سوره المائده (٥): الآيات ٩٠ الى ٩٢] ١٧١

اشاره ١٧١

سبب النزول ١٧١

التفسير ١٧٢

اشاره ١٧٢

مراحل تحريم الخمر و حكمها النهائي: ١٧٢

الآثار المهلكه للخمر و الميسر: ١٧٥

الآيه [سوره المائده (٥): آيه ٩٣] ١٧٨

اشاره ١٧٨

سبب النزول ١٧٨

التفسير ١٧٨

الآيات [سوره المائده (٥): الآيات ٩٤ الى ٩٦] ١٨١

اشاره ١٨١

سبب النزول ١٨١

التفسير ١٨٢

اشاره ١٨٢

أحكام الصيد عند الإحرام: ١٨٢

حكمه تحريم الصيد حال الإحرام: ١٨٧

الآيات [سوره المائده (٥): الآيات ٩٧ الى ٩٩] ١٨٩

اشاره ١٨٩

التفسير ١٨٩

اشاره ١٨٩

- أهميه الكعبه: ١٩١
- الآيه [سوره المائده (٥): آيه ١٠٠] ١٩٢
- اشاره ١٩٢
- التفسير ١٩٢
- اشاره ١٩٢
- الأكثرية ليست دليلا على الطهاره: ١٩٢
- الآيتان [سوره المائده (٥): الآيات ١٠١ الى ١٠٢] ١٩٥
- اشاره ١٩٥
- سبب النزول ١٩٥
- التفسير ١٩٦
- اشاره ١٩٦
- الأستله الفضوليه: ١٩٦
- سؤال: ١٩٨
- الجواب: ١٩٨
- الآيتان [سوره المائده (٥): الآيات ١٠٣ الى ١٠٤] ٢٠٠
- اشاره ٢٠٠
- التفسير ٢٠٠
- بحوث ٢٠١
- اشاره ٢٠١
- وثن اسمه «الأسلاف»: ٢٠٣
- تناقض بلا مبرر: ٢٠٤
- الآيه [سوره المائده (٥): آيه ١٠٥] ٢٠٥
- اشاره ٢٠٥
- التفسير ٢٠٥
- اشاره ٢٠٥
- كل امرئ مسئول عن عمله: ٢٠٥

٢٠٦ ردّ على اعتراض:

٢٠٨ الآيات [سوره المائده (٥): الآيات ١٠٦ الى ١٠٨]

٢٠٨ اشاره

٢٠٨ سبب النزول

٢٠٩ التفسير

٢١٤ الآية [سوره المائده (٥): آيه ١٠٩]

٢١٤ اشاره

٢١٤ التفسير

٢١٧ الآية [سوره المائده (٥): آيه ١١٠]

٢١٧ اشاره

٢١٧ التفسير

٢١٧ اشاره

٢١٧ نعم الله على المسيح:

٢٢٠ الآيات [سوره المائده (٥): الآيات ١١١ الى ١١٥]

٢٢٠ اشاره

٢٢٠ التفسير

٢٢٠ اشاره

٢٢٠ قصة نزول المائده على الحواريين:

٢٢٢ ملاحظات:

٢٢٢ اشاره

٢٢٢ ١- ما القصد من طلب المائده؟

٢٢٣ ٢- ما المقصود بعبارته هَلْ يَشْتَطِيعُ رَبُّكَ؟

٢٢٣ ٣- ما هي تلك المائده السماويه؟

٢٢٣ ٤- هل نزلت عليهم مائده؟

٢٢٤ ٥- ما العيد؟

٢٢٤ ٦- لماذا العقاب الشديد؟

٢٢٥ «العهد الجديد» و المائدة.

٢٢٦ الآيات [سوره المائده (٥): الآيات ١١٦ الى ١١٨]

٢٢٦ اشاره

٢٢٦ التفسير

٢٢٦ اشاره

٢٢٦ براه المسيح من شرك أتباعه:

٢٣٠ الآيتان [سوره المائده (٥): الآيات ١١٩ الى ١٢٠]

٢٣٠ اشاره

٢٣٠ التفسير

٢٣٠ اشاره

٢٣٠ الفوز العظيم:

٢٣٣ سوره الأنعام

٢٣٣ اشاره

٢٣٥ سوره محاربه أنواع الشرك و الوثنيه

٢٣٧ الآيتان [سوره الأنعام (٦): الآيات ١ الى ٢]

٢٣٧ اشاره

٢٣٧ التفسير

٢٣٧ اشاره

٢٣٨ هل الظلمه من المخلوقات؟

٢٣٩ التور رمز الوحده، و الظلمه رمز التشتت:

٢٤٠ ما معنى الأجل المسمى؟

٢٤٢ الآية [سوره الأنعام (٦): آيه ٣]

٢٤٢ اشاره

٢٤٢ التفسير

٢٤٤ الآيتان [سوره الأنعام (٦): الآيات ٤ الى ٥]

٢٤٤ اشاره

٢٤٤التفسير

٢٤٤الآية [سورة الأنعام (٦): آية ٦]

٢٤٤اشاره

٢٤٤التفسير

٢٤٤اشاره

٢٤٤مصير الطغاه: ..

٢٤٩الآية [سورة الأنعام (٦): آية ٧]

٢٤٩اشاره

٢٤٩التفسير

٢٤٩اشاره

٢٤٩منتهى العناد!

٢٥١الآيات [سورة الأنعام (٦): الآيات ٨ الى ١٠]

٢٥١اشاره

٢٥١التفسير

٢٥١اشاره

٢٥١خلق المبررات: ..

٢٥٤الآية [سورة الأنعام (٦): آية ١١]

٢٥٤اشاره

٢٥٤التفسير

٢٥٤الآيتان [سورة الأنعام (٦): الآيات ١٢ الى ١٣]

٢٥٤اشاره

٢٥٤التفسير

٢٥٤اشاره

٢٥٨سؤال:

٢٥٨الجواب:

٢٤١الآيات [سورة الأنعام (٦): الآيات ١٤ الى ١٦]

٢٦١ اشارة

٢٦١ التفسير

٢٦١ اشارة

٢٦١ لا ملجأ غير الله!

٢٦٥ الأيتان [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٧ الى ١٨]

٢٦٥ اشارة

٢٦٥ التفسير

٢٦٥ اشارة

٢٦٥ قدره الله القاهره:

٢٦٩ الأيتان [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٩ الى ٢٠]

٢٦٩ اشارة

٢٦٩ التفسير

٢٦٩ اشارة

٢٦٩ أعظم الشاهدين:

٢٧٣ الآيات [سوره الأنعام (٦): الآيات ٢١ الى ٢٤]

٢٧٣ اشارة

٢٧٣ التفسير

٢٧٣ اشارة

٢٧٣ أشد الظلم:

٢٧٨ الأيتان [سوره الأنعام (٦): الآيات ٢٥ الى ٢٦]

٢٧٨ اشارة

٢٧٨ التفسير

٢٧٨ اشارة

٢٧٨ حجب لا تقبل الاختراق:

٢٨٠ الصاق تهمة عظيمه بأبي طالب مؤمن قريش:

٢٨٧ الأيتان [سوره الأنعام (٦): الآيات ٢٧ الى ٢٨]

٢٨٧ اشاره

٢٨٧ التفسير

٢٨٧ اشاره

٢٨٧ يقظه عابره عقيمه:

٢٨٨ ملاحظات:

٢٩٠ الآيات [سوره الأنعام (٦): الآيات ٢٩ الى ٣٢]

٢٩٠ اشاره

٢٩٠ التفسير

٢٩٠ اشاره

٢٩٠ فى تفسير الآيه الأولى احتمالان:

٢٩٤ الآيتان [سوره الأنعام (٦): الآيات ٣٣ الى ٣٤]

٢٩٤ اشاره

٢٩٤ التفسير

٢٩٤ اشاره

٢٩٤ المصلحون يواجهون الصعاب دائما:

٢٩٨ الآيتان [سوره الأنعام (٦): الآيات ٣٥ الى ٣٦]

٢٩٨ اشاره

٢٩٨ التفسير

٢٩٨ اشاره

٢٩٨ الأموات المتحركون:

٣٠٢ الآيه [سوره الأنعام (٦): آيه ٣٧]

٣٠٢ اشاره

٣٠٢ التفسير

٣٠٢ اشاره

٣٠٣ إشكال:

٣٠٣ الجواب:

- الآية [سورة الأنعام (٦): آية ٣٨] ----- ٣٠٥
- اشاره ----- ٣٠٥
- التفسير ----- ٣٠٥
- ملاحظات: ----- ٣٠٧
- اشاره ----- ٣٠٧
- ١- هل هناك بعث للحيوانات؟ ----- ٣٠٧
- ٢- الحشر و التكليف: ----- ٣٠٩
- ٣- هل تدل هذه الآية على التناسخ؟ ----- ٣١٠
- الآية [سورة الأنعام (٦): آية ٣٩] ----- ٣١٢
- اشاره ----- ٣١٢
- التفسير ----- ٣١٢
- اشاره ----- ٣١٢
- الضم و البكم: ----- ٣١٢
- الآيات [سورة الأنعام (٦): الآيات ٤٠ الى ٤١] ----- ٣١٤
- اشاره ----- ٣١٤
- التفسير ----- ٣١٤
- اشاره ----- ٣١٤
- التوحيد الفطري: ----- ٣١٤
- بحوث ----- ٣١٥
- الآيات [سورة الأنعام (٦): الآيات ٤٢ الى ٤٥] ----- ٣١٧
- اشاره ----- ٣١٧
- التفسير ----- ٣١٧
- اشاره ----- ٣١٧
- مصير الذين لا يعتبرون: ----- ٣١٧
- ملاحظات: ----- ٣٢٠
- الآيات [سورة الأنعام (٦): الآيات ٤٦ الى ٤٩] ----- ٣٢٣

٣٢٣ اشارة

٣٢٣ التفسير

٣٢٣ اشارة

٣٢٣ اعرفوا واهب النعم!

٣٢٧ الآية [سوره الأنعام (٦): آيه ٥٠]

٣٢٧ اشارة

٣٢٧ التفسير

٣٢٧ اشارة

٣٢٧ معرفه الغيب:

٣٣١ الآية [سوره الأنعام (٦): آيه ٥١]

٣٣١ اشارة

٣٣١ التفسير

٣٣٣ الآياتان [سوره الأنعام (٦): الآيات ٥٢ الى ٥٣]

٣٣٣ اشارة

٣٣٣ سبب النزول

٣٣٣ اشارة

٣٣٥ مكافحه التفكير الطبقى:

٣٣٧ امتياز كبير للإسلام:

٣٣٩ الآياتان [سوره الأنعام (٦): الآيات ٥٤ الى ٥٥]

٣٣٩ اشارة

٣٣٩ التفسير

٣٤٢ الآيات [سوره الأنعام (٦): الآيات ٥٦ الى ٥٨]

٣٤٢ اشارة

٣٤٢ التفسير

٣٤٢ اشارة

٣٤٢ الإصرار العقيم:

٣٤٤ بحوث

٣٤٧ الآيات [سوره الأنعام (٦): الآيات ٥٩ الى ٦٢]

٣٤٧ اشاره

٣٤٧ التفسير

٣٤٧ اشاره

٣٤٧ أسرار الغيب:

٣٥٥ الآياتان [سوره الأنعام (٦): الآيات ٦٣ الى ٦٤]

٣٥٥ اشاره

٣٥٥ التفسير

٣٥٥ اشاره

٣٥٥ التور الذى يضىء فى الظلام:

٣٥٧ ملاحظات:

٣٥٩ الآية [سوره الأنعام (٦): آيه ٦٥]

٣٥٩ اشاره

٣٥٩ التفسير

٣٥٩ اشاره

٣٥٩ ألوان العذاب:

٣٦٠ بحوث

٣٦٣ الآياتان [سوره الأنعام (٦): الآيات ٦٦ الى ٦٧]

٣٦٣ اشاره

٣٦٣ التفسير

٣٦٥ الآياتان [سوره الأنعام (٦): الآيات ٦٨ الى ٦٩]

٣٦٥ اشاره

٣٦٥ سبب النزول

٣٦٦ التفسير

٣٦٦ اشاره

٣٦٦ اجتناب مجالس أهل الباطل:

٣٦٧ سؤالان:

٣٦٩ الآية [سورة الأنعام (٦): آية ٧٠]

٣٦٩ اشاره

٣٦٩ التفسير

٣٦٩ اشاره

٣٦٩ الذين اتخذوا الدين لعبا:

٣٧٢ الآياتان [سورة الأنعام (٦): الآيات ٧١ إلى ٧٢]

٣٧٢ اشاره

٣٧٢ التفسير

٣٧٢ اشاره

٣٧٣ سؤال:

٣٧٤ الجواب:

٣٧٥ الآية [سورة الأنعام (٦): آية ٧٣]

٣٧٥ اشاره

٣٧٥ التفسير

٣٧٨ الآية [سورة الأنعام (٦): آية ٧٤]

٣٧٨ اشاره

٣٧٨ التفسير

٣٧٨ اشاره

٣٧٩ هل كان آزر أباً إبراهيم؟

٣٨٢ الآيات [سورة الأنعام (٦): الآيات ٧٥ إلى ٧٩]

٣٨٢ اشاره

٣٨٢ التفسير

٣٨٢ اشاره

٣٨٢ أدله التوحيد في السموات:

٣٨٨ كيفية استدلال إبراهيم على التوحيد:

٣٨٨ ملاحظات

٣٩١ الآيات [سورة الأنعام (٦): الآيات ٨٠ الى ٨٣]

٣٩١ اشاره

٣٩١ التفسير

٣٩١ اشاره

٣٩٤ ما معنى «الظلم» هنا؟

٣٩٧ الآيات [سورة الأنعام (٦): الآيات ٨٤ الى ٨٧]

٣٩٧ اشاره

٣٩٧ التفسير

٤٠٠ ملاحظات

٤٠٠ اشاره

٤٠٠ ١- أبناء التبي:

٤٠٢ ٢- لماذا وردت أسماء الأنبياء في ثلاث مجموعات في ثلاث آيات؟

٤٠٣ ٣- أهمية الأبناء الصالحين في تعريف شخصيه الإنسان:

٤٠٣ ٤- جواب على اعتراض:

٤٠٤ الآيات [سورة الأنعام (٦): الآيات ٨٨ الى ٩٠]

٤٠٤ اشاره

٤٠٤ التفسير

٤٠٤ اشاره

٤٠٤ ثلاثه امتيازات مهمه:

٤٠٩ الآية [سورة الأنعام (٦): آيه ٩١]

٤٠٩ اشاره

٤٠٩ سبب النزول

٤٠٩ اشاره

٤٠٩ الغافلون عن الله:

٤١٠ التفسير

٤١٢ ملاحظات:

٤١٤ الآية [سورة الأنعام (٦): آية ٩٢]

٤١٤ اشاره

٤١٤ التفسير

٤١٥ بحوث

٤١٥ اشاره

٤١٥ ١-الإسلام دين عالمي

٤١٧ ٢-العلاقة بين الإيمان بالقرآن و الإيمان بالآخره

٤١٨ ٣-أهميه الصلاه

٤١٩ الآية [سورة الأنعام (٦): آية ٩٣]

٤١٩ اشاره

٤١٩ سبب النزول

٤٢٠ التفسير

٤٢١ ملاحظات:

٤٢٣ الآية [سورة الأنعام (٦): آية ٩٤]

٤٢٣ اشاره

٤٢٣ سبب النزول

٤٢٣ التفسير

٤٢٣ اشاره

٤٢٣ الصّالون:

٤٢٤ هنا ينبغي الالتفات إلى نقطتين:

٤٢٤ الآيتان [سورة الأنعام (٦): الآيات ٩٥ الى ٩٦]

٤٢٤ اشاره

٤٢٤ التفسير

٤٢٤ اشاره

٤٢٤ فائق الإصباح:

٤٣٣ الآيه [سوره الأنعام (٦): آيه ٩٧] -

٤٣٣ اشاره

٤٣٣ التفسير

٤٣٥ الأيتان [سوره الأنعام (٦): الآيات ٩٨ الى ٩٩] -

٤٣٥ اشاره

٤٣٥ التفسير

٤٤٣ الآيات [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٠٠ الى ١٠٣] -

٤٤٣ اشاره

٤٤٣ التفسير

٤٤٣ اشاره

٤٤٣ خالق كل شيء:

٤٤٧ بحوث

٤٤٧ اشاره

٤٤٧ ١- لا تدركه الأبصار:

٤٥٠ ٢- الله خالق كل شيء

٤٥١ ٣- ما معنى «بديع»؟

٤٥٢ ٤- ما معنى «للطيف»؟

٤٥٤ الآيات [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٠٤ الى ١٠٧] -

٤٥٤ اشاره

٤٥٤ التفسير

٤٥٤ اشاره

٤٥٤ ليس من واجبك الإكراه:

٤٥٨ الآيه [سوره الأنعام (٦): آيه ١٠٨] -

٤٥٨ اشاره

٤٥٨ التفسير

- ٤٥٨ اشاره
- ٤٥٩ بحوث
- ٤٦١ الآياتان [سورة الأنعام (٦): الآيات ١٠٩ إلى ١١٠]
- ٤٦١ اشاره
- ٤٦١ سبب النزول
- ٤٦٢ التفسير
- ٤٦٧ الآية [سورة الأنعام (٦): آية ١١١]
- ٤٦٧ اشاره
- ٤٦٧ التفسير
- ٤٦٧ اشاره
- ٤٦٧ لماذا لا يرعوى المعاندون؟
- ٤٦٩ الآياتان [سورة الأنعام (٦): الآيات ١١٢ إلى ١١٣]
- ٤٦٩ اشاره
- ٤٦٩ التفسير
- ٤٦٩ اشاره
- ٤٦٩ وساوس الشياطين:
- ٤٧٠ ملاحظات:
- ٤٧٢ الآياتان [سورة الأنعام (٦): الآيات ١١٤ إلى ١١٥]
- ٤٧٢ اشاره
- ٤٧٢ التفسير
- ٤٧٥ الآياتان [سورة الأنعام (٦): الآيات ١١٦ إلى ١١٧]
- ٤٧٥ اشاره
- ٤٧٥ التفسير
- ٤٧٦ لا أهميه للكثرة العددية:
- ٤٧٩ الآيات [سورة الأنعام (٦): الآيات ١١٨ إلى ١٢٠]
- ٤٧٩ اشاره

٤٧٩ التفسير

٤٧٩ اشاره

٤٧٩ لا بدّ من إزاله آثار الشرك:

٤٨٣ الآية [سوره الأنعام (٦): آيه ١٢١]

٤٨٣ اشاره

٤٨٣ التفسير

٤٨٥ الآيات [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٢٢ الى ١٢٣]

٤٨٥ اشاره

٤٨٥ سبب النزول

٤٨٦ التفسير

٤٨٦ اشاره

٤٨٦ الإيمان و التّؤيه الواضحه:

٤٩٠ الآية [سوره الأنعام (٦): آيه ١٢٤]

٤٩٠ اشاره

٤٩٠ سبب النزول

٤٩٠ التفسير

٤٩٠ اشاره

٤٩٠ الله أعلم حيث يجعل رسالته:

٤٩٣ الآيات [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٢٥ الى ١٢٧]

٤٩٣ اشاره

٤٩٣ التفسير

٤٩٣ اشاره

٤٩٣ الإمدادات الإلهيه:

٤٩٤ ملاحظات

٤٩٤ اشاره

٤٩٤ ١- ما المقصود من «الهدايه» و «الضلاله»؟

٢- المقصود من «الصدر» ٤٩٤

٣- «الحرج» بمعنى الضيق الشديد ٤٩٤

٤- معجزة قرآنيه علميه: ٤٩٥

٥- ما هو شرح الصدر؟ ٤٩٥

الآيتان [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٢٨ الى ١٢٩] ٤٩٨

اشاره ٤٩٨

التفسير ٤٩٨

الآيات [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٣٠ الى ١٣٢] ٥٠١

اشاره ٥٠١

التفسير ٥٠١

اشاره ٥٠١

إتمام الحجبه: ٥٠١

الآيات [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٣٣ الى ١٣٥] ٥٠٤

اشاره ٥٠٤

التفسير ٥٠٤

الآيه [سوره الأنعام (٦): آيه ١٣٦] ٥٠٦

اشاره ٥٠٦

التفسير ٥٠٦

الآيه [سوره الأنعام (٦): آيه ١٣٧] ٥٠٩

اشاره ٥٠٩

التفسير ٥٠٩

الآيتان [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٣٨ الى ١٣٩] ٥١٢

اشاره ٥١٢

التفسير ٥١٢

الآيه [سوره الأنعام (٦): آيه ١٤٠] ٥١٦

اشاره ٥١٦

- التفسير ٥١٦
- الآية [سورة الأنعام (٦): آية ١٤١] ٥١٨
- اشاره ٥١٨
- التفسير ٥١٨
- اشاره ٥١٨
- درس عظيم على درب التوحيد: ٥١٨
- بحوث ٥٢٠
- اشاره ٥٢٠
- ١- ارتباط هذه الآية بالآيات السابقة ٥٢٠
- ٢- ماذا تعنى جمله ٥٢١
- ٣- ما هو المراد من الحق الذى يجب إعطاؤه؟ ٥٢١
- الآيات [سورة الأنعام (٦): الآيات ١٤٢ الى ١٤٤] ٥٢٣
- اشاره ٥٢٣
- التفسير ٥٢٣
- الآية [سورة الأنعام (٦): آية ١٤٥] ٥٢٨
- اشاره ٥٢٨
- التفسير ٥٢٨
- اشاره ٥٢٨
- بعض الحيوانات المحرمة: ٥٢٨
- جواب على سؤال: ٥٣١
- الآيتان [سورة الأنعام (٦): الآيات ١٤٦ الى ١٤٧] ٥٣٣
- اشاره ٥٣٣
- التفسير ٥٣٣
- اشاره ٥٣٣
- ما حرم على اليهود: ٥٣٣
- بحثان ٥٣٥

٥٣٥ اشارة

٥٣٥ ١-ماذا كان يقترف بنو إسرائيل؟

٥٣٥ ٢-ما معنى «إنا لصادقون»؟

٥٣٧ الآيات [سورة الأنعام (٦): الآيات ١٤٨ الى ١٥٠]

٥٣٧ اشارة

٥٣٧ التفسير

٥٣٧ اشارة

٥٣٧ التملص من المسؤولية بحجه «الجبر»:

٥٤٣ الآيات [سورة الأنعام (٦): الآيات ١٥١ الى ١٥٣]

٥٤٣ اشارة

٥٤٣ التفسير

٥٤٣ اشارة

٥٤٣ الأوامر العشرة:

٥٤٥ بحوث

٥٤٥ اشارة

٥٤٥ ١-الشروع بالتوحيد و الختم بنبذ الاختلاف

٥٤٦ ٢-التأكيدات المتتابعه

٥٤٧ ٣-التعاليم و الأوامر الخالده

٥٤٧ ٤-أهميه الإحسان إلى الوالدين

٥٤٨ ٥-قتل الأولاد من الإملاق و الجوع

٥٤٨ ٦-ما هو المقصود من الفواحش؟

٥٤٩ ٧-لا تقربوا هذه الذنوب

٥٤٩ ٨-الذنوب الظاهره و الباطنه

٥٤٩ ٩-الوصايا العشر عند اليهود

٥٥٠ ١٠-كيف غيّرت هذه الآيات وجه المدينة المنوره؟

٥٥٢ الآيات [سورة الأنعام (٦): الآيات ١٥٤ الى ١٥٧]

٥٥٢ اشاره

٥٥٢ التفسير

٥٥٢ اشاره

٥٥٢ رد حاسم على المتحججين و المتعللين:

٥٥٨ الآية [سوره الأنعام (٦): آيه ١٥٨]

٥٥٨ اشاره

٥٥٨ التفسير

٥٥٨ اشاره

٥٥٨ توقعات باطله و مطالب مستحيله:

٥٦٠ لا فائده للإيمان بدون عمل:

٥٦١ الآيات [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٥٩ الى ١٦٠]

٥٦١ اشاره

٥٦١ التفسير

٥٦١ اشاره

٥٦١ رفض المفترقين للصفوف و نفيهم:

٥٦٢ بحثان

٥٦٢ اشاره

٥٦٢ ١-من هم المقصودون في الآية؟

٥٦٣ ٢-بشاعه التفرقه و زرع الاختلاف

٥٦٤ حملات كاتب «المنار» الظالمه على الشيعة:

٥٦٨ ثواب أكثر، عقاب أقل:

٥٦٨ بحوث

٥٦٨ اشاره

٥٦٨ إن المقصود من قوله: «جاء به»

٥٦٩ ٢-أجر الحسنه، عشره أضعاف

٥٧٠ ٣-لماذا كفاره يوم واحد ستين يوماً؟

- ٥٧١ ٤- منتهى اللطف الزباني
- ٥٧٢ الآيات [سورة الأنعام (٦): الآيات ١٦١ الى ١٦٣] .
- ٥٧٢ اشاره
- ٥٧٢ التفسير
- ٥٧٢ اشاره
- ٥٧٢ هذا هو طريقى المستقيم
- ٥٧٥ كيف كان التّبيّ أول مسلم؟
- ٥٧٧ الآية [سورة الأنعام (٦): آيه ١٦٤] -
- ٥٧٧ اشاره
- ٥٧٧ التفسير
- ٥٧٨ بحثان
- ٥٧٨ ١- ربّما حملنا وزر غيرنا -
- ٥٧٩ ٢- هل أن أعمال الآخرين الصالحة تنفعنا؟
- ٥٨٢ الآية [سورة الأنعام (٦): آيه ١٦٥] -
- ٥٨٢ اشاره
- ٥٨٢ التفسير
- ٥٨٢ اشاره
- ٥٨٣ التفاوت بين أفراد البشر و مبدأ العدالة:
- ٥٨٥ خلافة الإنسان فى الأرض:
- ٥٨٧ سورة الأعراف
- ٥٨٧ اشاره
- ٥٨٩ لمحه سريعه عن محتويات هذه السوره:
- ٥٩١ أهميه هذه السوره:
- ٥٩٣ الآيات [سورة الأعراف (٧): الآيات ١ الى ٣] .
- ٥٩٣ اشاره
- ٥٩٣ التفسير

الآيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ٤ الى ٥] ٥٩٧

اشاره ٥٩٧

التفسير ٥٩٧

اشاره ٥٩٧

الأقوام التي هلكت و بادت: ٥٩٧

بحوث ٥٩٨

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ٦ الى ٩] ٦٠١

اشاره ٦٠١

التفسير ٦٠١

اشاره ٦٠١

التحقيق الشامل: ٦٠١

المساءله لماذا؟ ٦٠٣

التوفيق بين آيات المساءله فى القرآن: ٦٠٣

ما هو ميزان الأعمال يوم القيامة؟ ٦٠٥

الآيه [سوره الأعراف (٧): آيه ١٠] ٦٠٩

اشاره ٦٠٩

التفسير ٦٠٩

اشاره ٦٠٩

مكانه الإنسان و عظمته فى عالم الوجود: ٦٠٩

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١١ الى ١٨] ٦١١

اشاره ٦١١

التفسير ٦١١

اشاره ٦١١

قصة عصيان إبليس ٦١١

بحثن ٦١٢

اشاره ٦١٢

١- سجود الملائكة لم يكن سجود عباده - ٦١٢

٢- إبليس لم يكن من الملائكة - ٦١٢

أول قياس هو قياس الشيطان: ٦١٤

إبليس أول القائلين بالجبر: ٦٢٠

فلسفه خلق الشيطان و حكمه إمهاله: ٦٢٢

فرضيه تطور الأنواع و خلقه آدم: ٦٢٥

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٩ إلى ٢٢] - ٦٢٦

اشاره - ٦٢٦

التفسير - ٦٢٦

اشاره - ٦٢٦

وساوس شيطانيه في حلاله: ٦٢٦

بحوث - ٦٣٠

اشاره - ٦٣٠

١- كيفيه وسوسه الشيطان - ٦٣٠

٢- ماذا كانت الشجره الممنوعه؟ - ٦٣١

٣- هل ارتكب آدم معصيه؟ - ٦٣٤

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ٢٣ إلى ٢٥] - ٦٣٨

اشاره - ٦٣٨

التفسير - ٦٣٨

اشاره - ٦٣٨

رجوع آدم إلى الله و توبته: ٦٣٨

قضه آدم و مستقبل هذا العالم: ٦٣٩

تعريف مركز - ٦٥٩

سرشناسه: مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور: الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل / تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست: [ویرایش ۲]

مشخصات نشر: قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری: ج ۲۰

شابک: ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۱۰(ج.۱۰)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱۱(ج.۱۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۱۲(ج.۱۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۳(ج.۱۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی: فهرست نویسی قبلی

یادداشت: کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است

یادداشت: کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت: کتابنامه

موضوع: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)

رده بندی کنگره: BP۹۸/م ۷ ۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی: م ۷۹-۱۰۳۹۱

اشاره

الآيتان [سورة المائدة (5): الآيات 41 الى 42]

اشاره

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ
لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتِيكَ يُحْزِنُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَ
مَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ
عَظِيمٌ (41) سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَالُونَ لِلشُّحِّ فَإِنْ جَاؤَكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَ
إِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (42)

سبب النزول

وردت روايات عديدة في سبب نزول الآيتين الأخيرتين أوضحها ما نقل عن الإمام الباقر عليه السلام في هذا المجال، و خلاصه ذلك أن أحد وجهاء اليهود في منطقته خبير كان متزوجا، فارتكب عملا غير شرعي و مخالفا للعفة مع امرأه

متزوج من عائلته خبيريه مشهوره،فاغتم اليهود كيف ينفذون حكم التوراه (الرجم)فى وجيههم ذلك و فى شريكته فى الذنب،فأخذوا يبحثون عن حل لهذه المعضله لينفذوها من العقوبه المذكوره،و فى نفس الوقت ليظهروا التزامهم بالأحكام الإلهيه،و دفعهم هذا الأمر إلى الاستعانه بأبناء طائفتهم الموجودين فى المدينه المنوره،و طلبوا منهم أن يسألوا عن حكم هذه الحادته من النبى محمد صلى الله عليه و آله و سلم(حتى إذا كان الحكم بسيطا و خفيفا أخذوا به،و إذا كان شديدا تجاهلوه و تناسوه،و لعلهم أرادوا بسؤالهم ذلك أن يلفتوا انتباه نبى الإسلام إلى أنفسهم و ليظهروا أنفسهم بأنهم أصدقاء للمسلمين).

و لهذا الغرض توجه عدد من وجهاء يهود المدينه للقاء النبى محمد صلى الله عليه و آله و سلم، فسألهم النبى صلى الله عليه و آله و سلم إن كانوا سيقبلون بكل حكم يصدره،فأجابوه بأنهم قدموا إليه لهذا السبب!فتزل فى تلك الأثناء حكم رجم مرتكب الزنا مع المرأه المحصنه، لكن اليهود لم يبدوا استعدادا لقبول هذا الحكم،بدعوى أن ديانتهم تخلو من مثله، فرد عليهم النبى صلى الله عليه و آله و سلم بأن هذا الحكم هو نفس ذلك الذى هو عندهم فى التوراه، و سألهم إن كانوا يقبلون بحضور أحد علمائهم ليتلو عليهم حكم التوراه فى تلك القضيه ليأخذوا به،فوافقوا على ذلك،فسألهم النبى عن رأيهم فى العالم اليهودى (ابن صوريا)الذى كان يقطن منطقه(فدك) فأجابوه بأنه خير من يعرف التوراه من اليهود.

فبعث النبى صلى الله عليه و آله و سلم إلى هذا العالم،فلما قدم عنده أقسم عليه النبى صلى الله عليه و آله و سلم بالله الواحد الأحد الذى أنزل التوراه على موسى و فلق البحر لإنقاذ بنى إسرائيل و أغرق عدوهم فرعون و أنزل عليهم نعمه فى صحراء سيناء،أن يصدق القول إن كان حكم الرجم قد نزل فى التوراه فى مثل تلك الواقعه أم لم ينزل؟فأجاب العالم اليهودى(ابن صوريا)بأنه مرغم بسبب القسم الذى أقسمه عليه النبى أن يقول الحقيقه و يعترف بوجود حكم الرجم فى التوراه.

فسأل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ اليهود عن سبب احجامهم عن تطبيق الحكم المذكور، فأجاب (ابن صوريا) بأنهم كانوا يطبقون هذا الحكم بحق العامّة من أبناء طائفتهم و يصنونون الأثرياء و الوجهاء منهم من تنفيذ هذا الحكم بحقهم، فأدى هذا التهاون إلى انتشار الخطيئه المذكوره بين أثرياء اليهود حتى بادر إلى ارتكابها ابن عم لأحد رؤساء الطائفه، فلم يطبق بحقه الحكم الشرعى بحسب العاده المتبعه لديهم، و صادف فى نفس ذلك الوقت أن ارتكب نفس الخطيئه أحد عامّة الناس من أبناء الطائفه، فأرادوا تطبيق حكم الرجم بحقه لكن أقاربه اعترضوا على ذلك، وقالوا:

إذا كان لا بدّ من تنفيذ هذا الحكم فيجب أن ينفذ بحق الاثنين (الوجه اليهودى و الشخص الآخر العادى)، فعمد عند ذلك علماء الطائفه إلى سنّ حكم أخف من الرجم و هو أن يجلد الزناه ٤٠ جلده و تسود وجوههم و يركبوا دابه و يطاف بهم فى أزقه و أسواق المنطقه! فأمر النبي محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على الفور أن يرجم ذلك الرجل الوجه و المرأه الشريه أمام المسجد (١) و أشهد الله فى ذلك الحين بأنّه هو أول شخص يحيى حكم الله بعد أن أماته اليهود.

فى تلك الأثناء نزلت الآيتان الأخيرتان و تحدّثنا عن القضيئه المذكوره بالإيجاز.

التفسير

إشاره

التحكيم بين الأنصار و الأعداء:

تدلّ هاتان الآيتان و الآيات التى تليهما، على أنّ للقاضى المسلم الحقّ فى ظل شروطه خاصّه فى الحكم فى جرائم الطوائف الأخرى من غير المسلمين،

ص: ٦

١ - ١) - ذكرت الزوايات التى جاء بها (البيهقى) فى الجزء الثامن من سننه، ص ٢٦٦ أن علماء اليهود حين قدموا إلى النبي كانوا قد جلبوا معهم الرجل و المرأه الزانين.

و سيأتي شرح هذا الموضوع في تفسير نفس هذه الآيات.

لقد بدأت الآيه الاولى-من الآيتين الأخيرتين-الخطاب بعبارة **يَا أَيُّهَا الرِّسُولُ** وقد وردت هذه العبارة في مكانين من القرآن: أولهما في الآيه موضوع البحث، والثاني في الآيه (٦٧) من نفس هذه السوره و التي تتعرض لقضيه الولايه و الخلافه. و ربّما جاء استخدام هذا التعبير من أجل إثارة أكثر لدافع الشعور بالمسؤوليه لدى النبي صلى الله عليه و آله و سلمّ و تعزيز ارادته، و مخاطبته بأنّه هو رسول الله، و عليه أن يستقيم و يصمد في إبلاغ الحكم المكلف به.

بعد ذلك تطمئن الآيه النبي صلى الله عليه و آله و سلمّ -كتمهيد لبيان الحكم التالي-فتقول: **لَا يَخْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ .**

و يرى البعض أن عبارة **يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ** تختلف عن عبارة «يسارعون إلى الكفر» و ذلك لأنّ العبارة الاولى تقال بشأن أفراد كافرين غارقين في كفرهم، و يتسابقون فيما بينهم للوصول إلى آخر مرحله من الكفر، أمّا العبارة الثانيه فتقال في من يعيشون خارج حدود الكفر لكنهم يتسابقون للوصول إليه (١).

و بعد أن تذكر الآيه تجاوزات المنافقين و الأعداء الداخلين، تتناول وضع الأعداء الخارجيين و اليهود الذين كانوا سببا لحزن النبي صلى الله عليه و آله و سلمّ فتقول الآيه: **وَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا...**

ثمّ تشير الآيه إلى قسم من تصرفات هؤلاء المشوبه بالنفاق و الرياء، و فتؤكّد أنّهم إنّما يستمعون كلام النبي لا لأجل أطاعته، بل لكي يجعلوا من ذلك وسيله لتكذيب النبي و الافتراء عليه حيث تقول الآيه: **سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ .**

و لهذه الجملة القرآنيه تفسير آخر، هو أنّ هؤلاء اليهود يستمعون كثيرا إلى أكاذيب قاداتهم و زعمائهم، لكنهم لا يبدون استعدادا لاستماع قول الحق

ص: ٧

ثم تفسح الآيه الصفه الثالثه لليهود، فتبين أنهم يتجسسون على المسلمين لمصلحه قوم آخرين ممن لا يحضرون الاجتماعات الإسلاميه التي تعقد في مجلس النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتقول الآيه: سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ... .

و في تفسير آخر لهذه الجملة قيل أن هؤلاء اليهود كانوا يستمعون إلى أوامر جماعتهم فقط-و قد كلفهم قومهم بأن يقبلوا ما وافق أهواءهم من أقوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم، و أن يخالفوا أو يرفضوا ما كان عكس ذلك من أقواله صلى الله عليه وآله وسلم، و بناء على هذا السلوك فإن ما كان يظهر من طاعه هؤلاء لبعض أقوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن في الحقيقه إلا طاعه منهم لأقوال كبارهم و وجهائهم الذين أمرهم باتباع هذا الأسلوب، و لذلك أشارت الآيه على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يحزن لمخالفات هؤلاء، فهم لم يحضروا عنده أبدا من أجل الاستماع إلى الحق و أتباعه! ثم تذكر الآيه انحرافا آخر لهؤلاء اليهود، فتشير إلى تحريفهم لكلام الله سبحانه و تعالى من خلال تحريف الألفاظ أو تحريف المعاني الوارده في هذا الكلام، فهم إن وجدوا في كلام الله حكما يخالف مصالحهم أولوه أو رفضوه جملة و تفصيلا، كما تقول الآيه: يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ... (٢).

و الأعجب من ذلك أن هؤلاء قبل أن يحضروا مجلس النبي كانوا يقررون كما يأمرهم كبارهم أنهم إن تلقوا من محمد صلى الله عليه وآله وسلم حكما موافقا لميولهم و أهوائهم قبلوا به، و إن كان مخالفا لهوى أنفسهم ردوه و ابتعدوا عنه، تقول الآيه الكريمة: يَقُولُونَ إِنِ أَوْتِينَا هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَمْ تَأْتِنَا بِهِ فَخُذُوا... .

فهؤلاء قد غرقوا في الضلال و تحجرت عقولهم لغايه أنهم كانوا يرفضون كل شيء يخالف ما عندهم من أحكام محرفه، دون أن يبذلوا جهدا أو عناء في التفكير

١-١) - في التفسير الأول تكون اللاء في عبارته (للكذب) لام التعليل بينما في التفسير الثاني فهي لام التعديه.

٢-٢) - تحدثنا عن أساليب التحريف التي اتبعها اليهود في تفسير الآيه (١٣) من نفس هذه السوره.

لمعرفه الحقيقه، و قد أبعدهم هذه الحاله عن طريق الرشاد و أخرجتهم من جاده الصواب، بحيث لم يبق أمل في هدايتهم، فاستحقوا بذلك عذاب الله، و لم تعد تنفع فيهم شفاعه الشافعين، و في هذا المجال تقول الآيه الكريمه: وَ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً و قد تدنست قلوب هؤلاء إلى درجه لم تعد قابله للتطهير، و حرهم الله لذلك طهاره القلوب، فتقول الآيه: أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ... و عمل الله مقرون بالحكمه دائماً، لأن من يقضى عمرا في الانحراف و يمارس النفاق و الكذب و يخالف الحق و يرفض الحقيقه، و يحرف قوانين الله لن يبقى له مجال للتوبه و العوده إلى الحق، حيث تقول الآيه الكريمه في هذا المجال: لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

أما الآيه الثانيه فتؤكد -مره أخرى- على أن هؤلاء لديهم آذان صاغيه لاستماع حديث النبي صلى الله عليه و آله و سلم لا لإطاعته بل لتكذيبه، أو كما يقول تفسير آخر فإن هؤلاء آذانهم صاغيه لاستماع أكاذيب كبارهم، فتقول الآيه: سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ.. و قد تكررت هذه الجملة في آيتين متتاليتين تأكيداً و اثباتاً لوجود هذه الصفه الشنيعه في هؤلاء.

كما أضافت الآيه صفه شنيعه أخرى تصف بها اليهود، و هي تعودهم و ادمانهم على أكل الأموال المحرمه و الباطله من الربا و الرشوه و غير ذلك، حيث تقول الآيه: أَكَالُونَ لِلسُّخْتِ.. (١).

ثم تخير الآيه النبي بين أن يحكم بينهم أو أن يتجنبهم و يتركهم، حيث تقول الآيه: فَإِنْ جَاؤَكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ... و لا يعنى التخيير أن يستخدم النبي صلى الله عليه و آله و سلم ميله و رغبته في اختيار أحد الأمرين المذكورين، بل إن

ص: ٩

١ - ١) - تعنى كلمه (سحت) في الأصل نزع القشره، أو شدّه الجوع، ثم أطلقت على كل مال غير مشروع، أى محرم، و بالأخص الرشوه، لأن مثل هذه الأموال تنزع الصفاء و الموده عن المجتمع و تزيل عنه البركه و الرخاء مثلما يؤدي نزع قشر الشجره إلى ذبولها و جفافها و على هذا الأساس فإن لكلمه (سحت) معنى واسعاً، و إذا ورد في بعض الروايات مصداق خاص لها فلا يدل ذلك على اختصاص الكلمه بذلك.

المراد من ذلك هو أن يراعى النّبي الظروف و الملابس المحيطة بكل حاله، فإن رأى الوضع يقتضى الحكم بينهم حكم، وإن رأى خلاف ذلك تركهم و أعرض عنهم.

و لكى تعزز الآيه الاطمئنان فى نفس النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم، إن هو ارتأى الإعراض عن هؤلاء لمصلحه أكدّت قائله: وَ إِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا....

كما أكدّت ضروره اتباع العدل و تطبيقه إذا كانت حاله تقتضى أن يحكم النّبي بين هؤلاء فقالت الآيه: وَ إِن حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ .

و قد اختلف المفسّرون فى قضيه تخيير النظام الإسلامى بين الحكم فى غير المسلمين بأحكام الإسلام أو الإعراض عنهم، و هل أن هذا التخيير باق على قوته أو أنه أصبح منسوخا؟ و يرى البعض أنّ الناس فى ظل الحكم الإسلامى مشمولون من الناحيتين الحقوقية و الجزائية بالقوانين الإسلاميه، سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين. و بناء على هذا الرأى فإن حكم التأخير إمّا أن يكون منسوخا و إمّا أنه يخص غير الكفار الذميين، أى يخض أولئك الكفار الذين لا- يعيشون فى ظل حكم اسلامى، بل يرتبطون بالمسلمين باتفاقيات أو موثيق، أو يكون بينهم علاقات ود و تراور.

و يعتقد مفسّرون آخرون أنّ الحاكم المسلم يكون مخيرا- حتى فى الوقت الحاضر لدى التعامل مع غير المسلمين، فهو إمّا أن يطبق فيهم الأحكام الإسلاميه إذا اقتضت الضروره و المصلحه ذلك، و إمّا أن يعرض عنهم و يحيلهم إلى قوانينهم الخاصيه بهم، بحسب ظروف و ملابس كل حاله «للاطلاع أكثر على تفاصيل هذا الحكم تراجع كتب الفقه».

اشاره

وَ كَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣)

التفسير

تتابع هذه الآيه موضوع الحكم بين اليهود تطرقت إليه الآيتان السابقتان، اللتان بينتا أن اليهود كانوا يأتون إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم و يطلبون منه الحكم فيهم، وقد أظهرت هذه الآيه الأخيره الاستغراب من حاله اليهود الذين كانوا مع وجود التوراه بينهم، و احتوائها على حكم الله، يأتون إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم و يطلبون منه الحكم فيهم بالرغم من وجود التوراه عندهم، فتقول: وَ كَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ....

و يجب الانتباه إلى أن المقصود من الحكم في الآيه هو حكم الرجم للزاني المحصن من الرجال و النساء و المذنب ورد في التوراه أيضا، في سفر التثنيه الفصل الثاني و العشرين.

و العجيب في أمر هؤلاء اليهود أنهم مع وجود التوراه بينهم و عدم اعترافهم بنسخها من قبل القرآن و رفضهم للشريعه الإسلاميه، كانوا حين يرون حكما في التوراه لا يوافق ميولهم و أهوائهم يتركون ذلك الحكم و يبحثون عن حكم آخر في

مصادر لم يقرّوا و لم يعترفوا بها.

و الأ-عجب من ذلك أنّهم حين كانوا يطلبون التحكيم من نبي الإسلام بينهم، كانوا لا- يقبلون بحكمه إذا كان مطابقا لحكم التّوراه لكنه لم يوافق ميولهم و رغباتهم حيث تقول الآ-يه: ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ إِلَّا لَأَنْ هُوَ لَمْ يَكُنْ بِمُؤْمِنِينَ فِي الْحَقِيقَةِ، و لو كانوا مؤمنين لما استهزءوا هكذا بأحكام الله، حيث تؤكّد الآيه قائله: وَمَا أُؤْتِيكَ بِالْمُؤْمِنِينَ .

و قد يرد اعتراض في هذا المجال و هو: إن الآ-يه الشريفه تقرّ بوجود حكم الله في التّوراه و نحن نعلم عن طريق القرآن و الروايات الإسلاميه، بأن التّوراه قد أصابها التحريف قبل ظهور نبي الإسلام محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم؟ إنّ جوابنا على هذا الاعتراض هو أننا أوّلا- لا- نقول بأن التحريف قد أصاب التّوراه كلّها، بل نقر بوجود أحكام في التّوراه تطابق الحقيقه و الواقع، و حكم الرجم-الذى هو موضوع بحثنا الآن-من الأحكام التي لم تصبها يد التحريف في التّوراه.

ثانيا: إنّ التّوراه مهما كان حالها لا يعتبرها اليهود كتابا محرفا، و لذلك فإن الغرابه هنا تكمن في رفض اليهود العمل بحكم الله مع وجوده في توراتهم.

ص: ١٢

اشاره

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا أُسْتُخِفُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَ كَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَ اخْشَوُا اللَّهَ وَ لَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَ مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)

التفسير

إن هذه الآيه و الآيه التي تليها تكملان البحث أو الموضوع الوارد في الآيات السابقه، و تبين هذه الآيه أهميه الكتاب السماوى الذى نزل على النبى موسى عليه السلام أى التوراه، حيث تشير إلى أن الله أنزل هذا الكتاب و فيه الهدايه و النور اللذان يرشدان إلى الحق، و أن النور و الضياء الذى فيه هو لإزاحه ظلمات الجهل من العقول فتقول الآيه: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ...

و لذلك فإن الأنبياء الذين أطاعوا أمر الله، و الذين تولوا مهامهم بعد نزول التوراه كانوا يحكمون بين اليهود بأحكام هذا الكتاب، تقول الآيه الكريمه: يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا .

كما أنّ علماء اليهود و وجاءهم و مفكريهم المؤمنين الأتقياء، كانوا يحكمون وفق هذا الكتاب السماوى الذى وصل أمانه بأيديهم و كانوا شهودا عليه، حيث تقول الآية: وَ الرَّبَّائِيُونَ وَ الْأَخْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَ كَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ (١).

ثمّ توجه الآيه الخطاب إلى أولئك العلماء و المفكرين من اليهود الذين كانوا يعيشون فى ذلك العصر، فتطلب منهم أن لا يخافوا الناس لدى بيان أحكام الله، بل عليهم أن يخافوا الله، فلا تسول لهم أنفسهم مخالفه أوامره أو كتمان الحق، و إن فعلوا ذلك فسيلقون الجزاء و العقاب، فتقول الآية هنا: فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَ اخْشَوْنِ .

ثمّ تحذر الآيه من الاستهانه و الاستخفاف بآيات الله، فتقول: وَ لَا تَسْتَرْوَا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا... .

و حقيقه كتمان الحق و أحكام الله نابعه إمّا عن الخوف من الناس، و إمّا بدافع المصلحه الشخصيه، و أيا كان السبب فهو دليل على ضعف الإيمان و انحطاط الشخصيه، و قد أشير فى الجمل القرآنيه أعلاه إلى هذين السببين.

و تصدر الآيه حكما صارما و حازما على مثل هؤلاء الأفراد الذين يحكمون خلافا لما أنزل الله فتقول: وَ مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ .

و واضح أنّ عدم الحكم بما أنزل الله يشمل السكوت و الابتعاد عن حكم الله الذى يؤدى بالناس إلى الضلال، كما يشمل التحدث بخلاف حكم الله.

و واضح-أيضا- أنّ للكفر مراتب و درجات مختلفه، تبدأ من إنكار أساس وجود الله و يشمل عصيان أوامره، لأنّ الإيمان الكامل يدعو و يحثّ الإنسان على

ص: ١٤

١ - ١) - لقد تطرقنا إلى معنى كلمه (ربانى) و مصدرها لدى تفسير الآيه (٨٠) من سوره آل عمران، أمّا كلمه (أخبار) فهى صيغه جمع من (حبر) على وزن (فكر) فهى تعنى كل أثر خير، أطلقت على المفكرين الذين يخلفون أثارا خيره فى مجتمعهم، و يطلق أيضا على حبر الدواه الذى يستعمل للكتابه لما فيه من أثر خير.

العمل وفق أوامر الله، و من لا عمل له ليس له ايمان كامل.

و تبين هذه الآيه-أيضا-المسؤوليه الكبرى التي يتحملها علماء و مفكر و أكل أمه حيال العواصف الاجتماعيه، و الأحداث التي تقع في بيئاتهم، و تدعو بأسلوب حازم لمكافحه الانحرافات و عدم الخوف من أى بشر-كائنا من كان-لدى تطبيق أحكام الله.

ص: ١٥

اشاره

وَ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)

التفسير

اشاره

القصاص و العفو:

تشرح هذه الآيه الكريمه قسما آخر من الأحكام الجنائيه و الحدود الإلهيه التي وردت في التوراه، فتشير إلى ما ورد في هذا الكتاب السماوى من أحكام و قوانين تخص القصاص، و تبين أن من يقتل إنسانا بريئا فإنَّ لأولياء القتيل حق القصاص من القاتل بقتله نفسا بنفس. حيث تقول الآيه في هذا المجال: وَ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ .

كما بينت أن من يصيب عين انسان آخر و يتلفها، يستطيع هذا الإنسان المتضرر في عينه أن يقتص من الفاعل و يتلف عينه، إذ تقول الآيه في هذا المجال:

وَ الْعَيْنَ بِالْعَيْنِ....

و كذلك الحال بالنسبه للأنف و الأذن و السن و الجروح الأخرى، وَ الْمَأْنَفُ بِالْمَأْنَفِ وَ الْمَأْذُنُ بِالْمَأْذُنِ وَ السِّنُّ بِالسِّنِّ وَ الْجُرُوحُ قِصَاصٌ... .

و على هذا الأساس فإنَّ حكم القصاص يطبق بشكل عادل على المجرم الذى يرتكب أحد الجرائم المذكوره، دون الالتفات إلى عنصره أو قوميته أو طبقته الاجتماعيه أو طائفته، و لا مجال أبدا لاستخدام التمايز القومى أو الطبقي أو الطائفي لتأخير تطبيق حكم القصاص على الجانى.

و بديهى أن تطبيق حكم القصاص على المعتدى شأنه شأن الأحكام الإسلاميه الأخرى، مقيد بشروط و حدود ذكرتها كتب الفقه، و لا يختص هذا الكلام و لا ينحصر بنى إسرائيل و حدهم، لأنَّ الإسلام-أيضا- جاء بنظيره كما ورد فى آيه القصاص فى سورة البقره-الآيه (١٧٨).

و قد أنهت هذه الآيه التمايز غير العادل الذى كان يمارس فى ذلك الوقت حيث ذكرت بعض التفاسير أن تمايزا غريبا كان يسود بين طائفتين من اليهود، هما بنو النضير و بنو قريظه الذين كانوا يقطنون المدينه المنوره فى ذلك العصر، لدرجه أنه إذا قتل أحد أفراد طائفه بنى النضير فردا آخر من طائفه بنى قريظه فالقاتل لا- ينال القصاص، بينما فى حاله حصول العكس فإن القاتل الذى كان من طائفه بنى قريظه كان ينال القصاص إن هو قتل واحدا من أفراد طائفه بنى النضير.

و لما امتد نور الإسلام إلى المدينه سأل بنو قريظه النبى صلّى الله عليه و آله و سلم عن هذا الأمر، فأكد النبى صلّى الله عليه و آله و سلم أن لا فرق فى الدماء بين دم و دم... فاعترضت قبيله بنى النضير على حكم النبى محمّد صلّى الله عليه و آله و سلم و ادعت أن حكمه حطّ من شأنهم، فنزلت الآيه الأخيره و بينت أن هذا الحكم غير مختص بالإسلام، بل حتى الديانه اليهوديه أوصت بتطبيق قانون القصاص بصوره عادله (١).

و لكى لا يحصل و هم أن القصاص أو المقابله بالمثل أمر الزامى لا يمكن

ص: ١٧

الحيده عنه، استدركت الآيه بعد ذكر حكم القصاص فبيّنت أن الذي يتنازل عن حقه في هذا الأمر و يعفو و يصفح عن الجاني، يعتبر عفوه كفاره له عن ذنوبه بمقدار ما يكون للعفو من أهميه فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ... (١).

و يجب الانتباه إلى أنّ الضمير الوارد في كلمه (به) يعود على القصاص، و كانت الآيه جعلت التصديق بالقصاص عطيه أو منحه للجاني و استخدام عباره «التصدق» و الوعد الذي قطعه الله للمتصدق، يعتبران عاملا محفزا على العفو و الصّفح، لأنّ القصاص لا يمكنه أن يعيد للإنسان ما فقداه مطلقا، بل يهبه نوعا من الهدوء و الاستقرار النفسى المؤقت، بينما العفو الذي وعد به الله للمتصدق، بإمكانه أن يعوضه عما فقداه بصورة أخرى، و بذلك يزيل عن قلبه و نفسه بقايا الألم و الاضطراب، و يعتبر هذا الوعد خير محفز لمثل هؤلاء الأشخاص.

و

قد ورد عن الحلبي قال سألت أبا عبد الله-الإمام الصادق- عليه السلام عن قوله الله عزّ و جلّ: فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَ... قال: «يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما عفى» (٢).

و تعتبر هذه الجملة القرآنيه في الحقيقه خير جواب مفحم للذين يزعمون أن القصاص ليس بقانون عادل، و يدعون أنه يشجع روح الانتقام و المثلّه.

و الذي يفهم من الصياغه العامه للآيه هو أنّ جواز القصاص إنّما هو لإخافه و إرعاب الجناه و بالنتيجه لضمان الأمن لأرواح الناس الأبرياء، كما أنّ الآيه فتحت باب العفو و التوبه، و بذلك أراد الإسلام أن يحول دون ارتكاب مثل هذه الجرائم باستخدام الروادع و الحوافز كالخوف و الأمل، كما استهدف الإسلام من ذلك-أيضا- الحيلولة دون الانتقام للدم بالدم بقدر الإمكان-إذا استحق الأمر

ص: ١٨

١-١) -لقد أورد الكثير من المفسرين احتمالا آخر، و هو أن الضمير الوارد في كلمه «له» يعود على شخص الجاني، بحيث يصبح المعنى أن الذي يتنازل عن حقه يرفع بذلك القصاص عن الجاني و يكون ذلك كفاره لعمل الجاني، إلا أن ظاهر الآيه يدل على التفسير الذي أشرنا إليه أعلاه.

٢-٢) -نور الثقلين، الجزء الأول، ص ٦٣٧.

ذلك.

و في الختام تؤكد الآيه قائله: وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

و أى ظلم أكبر من الانجرار وراء العاطفه الكاذبه، و ترك القاتل دون أن ينال قصاصه العادل بحجه لا ضروره فى غسل الدم بالدم، و فسح المجال للقتله للتمادى بارتكاب جرائم قتل أخرى، و بالنهايه الإساءه عبر هذا التغاضى إلى أفراد أبرياء، و ممارسه الظلم بحقهم نتيجة لذلك.

و يجب الانتباه إلى أنّ التوراه المتداوله حاليا قد اشتملت على هذا الحكم أيضا، و ذلك فى الفصل الواحد و العشرين من سفر الخروج، حيث جاء فيها أنّ النفس بالنفس و العين بالعين و السن بالسن و اليد باليد و الرجل بالرجل و الحرق بالحرق و الجرح بالجرح و الصفعه بالصفعه (سفر الخروج، الجمل ٢٣ و ٢٤ و ٢٥).

ص: ١٩

اشاره

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦)

التفسير

بعد الآيات التي تحدثت عن التوراه جاءت هذه الآيه، وهي تشير إلى حال الإنجيل و تؤكد بعثه و نبوه المسيح عليه السّلام بعد الأنبياء الذين سبقوه، و تطابق الدلائل التي جاء بها مع تلك التي وردت في التوراه، حيث تقول الآيه: وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ... و لهذه الجملة القرآنيه تفسير آخر و هو أنّ عيسى المسيح عليه السّلام قد أقرّ بحقيقه كلّ ما نزل في التوراه على النّبي موسى عليه السّلام كإقرار جميع الأنبياء عليهم السّلام بنبوه من سبقوهم من الأنبياء، و بعداله ما جاؤوا به من أحكام.

ثمّ تشير الآيه الكريمه إلى إنزال الإنجيل على المسيح عليه السّلام و فيه الهدايه و النور فتقول: وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ و قد أطلق اسم النور في القرآن المجيد على التوراه و الإنجيل و القرآن نفسه، حيث نقرأ بشأن التوراه قوله تعالى: إِنَّا

و أما الإنجيل فقد أطلقت عليه الآيه الأخيره اسم التور.

و القرآن- أيضا- حيث نقرأ قوله تعالى: قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتَابٌ مُبِينٌ (٢).

فكما أنّ التور يعتبر- فى الحقيقه- ضروره حتميه لجميع الموجودات من أجل أن تواصل حياتها، كذلك تكون الأديان الإلهيه و الشرائع و الكتب السماويه ضروره حتميه لنضوج و تكامل بنى الإنسان.

و قد ثبت من حيث المبدأ أنّ مصدر كل الطاقات و القوى و الحركات و كل أنواع الجمال هو التور، فكذلك الحال فى تعليمات الأنبياء و ارشاداتهم، فلولاها لساد الظلام كل القيم الإنسانيه سواء الفرديه منها أو الاجتماعيه، و هذا ما نلاحظه فى المجتمعات الماديه بكل وضوح.

لقد كرر القرآن الكريم فى مجالات متعدده أنّ التوراه و الإنجيل هما كتابان سماويان، و مع أن هذين الكتابين- دون شك- منزلان فى الأصل من قبل الله سبحانه و تعالى، لكنهما- بالتأكيد- قد تعرضا بعد حياه الأنبياء إلى التحريف، فحذفت منهما حقائق و أضيفت إليهما خرافات، و أدى ذلك إلى أن يفقدا قيمتهما الحقيقيه، أو أنّ الكتب الأصلية تعرضت للنسيان و التجاهل و حلت محلها كتب أخرى حوت على بعض الحقائق من الكتب الأصلية (٣).

و على هذا الأساس فإنّ كلمه التور التى أطلقت فى القرآن الكريم على هذين الكتابين، إنما عنت التوراه و الإنجيل الأصليين الحقيقين.

بعد ذلك تكرر الآيه التأكيد على أن عيسى عليه السلام لم يكن وحده الذى أيد

ص: ٢١

١-١) -المائده، ٤٤.

٢-٢) -المائده، ١٥.

٣-٣) -راجع كتابى «الهدى إلى دين المصطفى» و«أنيس الأعلام» لمعرفة تفاصيل التحريف الوارد فى الإنجيل و الدلائل التاريخيه على ذلك.

و صدق التوراه، بل أن الإنجيل-الكتاب السماوى الذى نزل عليه-هو الآخر شهد بصدق التوراه حيث تقول الآيه: مُصَدَّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاهِ... .

و فى الختام تؤكد الآيه أنّ هذا الكتاب السماوى قد حوى سبل الرشاد و الهدايه و المواعظ للناس المتقين، حيث تقول: وَ هُدًى وَ مَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ .

و تشبه هذه العبارة،عبارة أخرى وردت فى بدايه سوره البقره،حين كان الحديث يدور عن القرآن الكريم،حيث جاء قوله تعالى: هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ .

إن هذه الصفه لا تنحصر بالقرآن وحده،بل أن كل الكتب السماويه تحتوى على سبل الهدايه للناس المؤمنين المتقين،و المراد بالمتقين هم أولئك الذين يبحثون عن الحق و الحقيقه و المستعدون لقبول الحق،و بديهي أن الذين يغلقون أبواب قلوبهم إصرارا و عنادا بوجه الحق،لن ينتفعوا بأى حقيقه أبدا.

و الملفت للنظر فى هذه الآيه أيضا،أنها ذكرت أولا أنّ الإنجيل(فيه هدى)ثم كررت الآيه كلمه(هدى)بصوره مطلقه،و قد يكون المراد من هذا الاختلاف فى التعبير هو بيان أنّ الإنجيل و الكتب السماويه الأخرى تشتمل على دلائل الهدايه للناس-جميعا- بصوره عامه،و لكنّها بصوره خاصه-تكون باعنا لهدايه و تربيته و تكامل الأتقياء من الناس الذى يتفكرون فيها بعمق و تدبر.

اشاره

وَ لِيُحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧)

التفسير

اشاره

الامتناع عن الحكم بالقانون الإلهي:

بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى نزول الإنجيل، أكدت الآيه الأخيره أن حكم الله يقضى أن يطبق أهل الإنجيل ما أنزله الله في هذا الكتاب من أحكام، فتقول الآيه: وَ لِيُحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ... .

و بديهى أن القرآن لا يأمر بهذه الآيه المسيحيين أن يواصلوا العمل بأحكام الإنجيل فى عصر الإسلام، و لو كان كذلك لناقض هذا الكلام الآيات القرآنيه الأخرى، بل لناقض أصل وجود القرآن الذى أعلن الدين الجديد و نسخ الدين القديم، لذلك فالمراد هو أن المسيحيين تلقوا الأوامر من الله بعد نزول الإنجيل بأن يعملوا بأحكام هذا الكتاب و أن يحكموها فى جميع قضاياهم (١).

و تؤكد هذه الآيه فى النهايه فسق الذين يمتنعون عن الحكم بما أنزل الله

ص: ٢٣

١ - ١) - إن الحقيقة التى أكدها الكثير من المفسرين هى أن جملة «قلنا» تكون مقدره هنا فى هذه الآيه حيث يصبح مفهوم الآيه كما يلى: «قلنا ليحكم أهل الإنجيل...».

من أحكام و قوانين فتقول: وَ مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

و يلفت النظر اطلاق كلمه «الكافر» مره و «الظالم» أخرى و «الفاسق» ثالثه، فى الآيات الأخيره على الذين يمتنعون عن تطبيق أحكام الله، و لعل هذا التنوع فى اطلاق صفات مختلفه إتما هو لبيان أنّ لكل حكم جوانب ثلاثه:

أحدها: ينتهى بالمشرع الذى هو الله.

و الثانى: يمس المنفذين للحكم (الحاكم أو القاضى).

الثالث: يرتبط بالفرد أو الأفراد الذين يطبق عليهم الحكم.

أى أنّ كل صفه من الصفات الثلاث المذكوره قد تكون إشاره إلى واحد من الجوانب الثلاثه، لأنّ الذى لا يحكم بما أنزل الله يكون قد تجاوز القانون الإلهى و تجاهله، فيكون قد كفر بغفلته هذه، و من جانب آخر ارتكب الظلم و الجور بابتعاده عن حكم الله -على انسان برىء مظلوم، و ثالثا: يكون قد خرج عن حدود واجباته و مسؤوليته، فيصبح بذلك من الفاسقين (لأنّ «الفسق» كما أوضحنا، يعنى الخروج عن حدود العبوديه و الواجب).

اشاره

وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَ مُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مَنَاجَاً وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨)

التفسير

تشير هذه الآيه إلى موقع القرآن بعد أن ذكرت الآيات السابقه الكتب السماويه التي نزلت على الأنبياء السابقين.

و كلمه «مهيمن» تطلق في الأصل على كل شيء يحفظ و يراقب أو يؤتمن على شيء آخر و يصونه، و لما كان القرآن الكريم يشرف في الحفاظ على الكتب السماويه السابقه و صيانتها من التحريف اشرافا كاملا، و يكمل تلك الكتب، لذلك أطلق عليه لفظ «المهيمن» حيث تقول الآيه: وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا

فالقرآن بالإضافة إلى تصديقه الكتب السماويه السابقه،اشتمل-أيضا-على دلائل تتطابق،مع ما ورد فى تلك الكتب،فكان بذلك حافظا و صائنا لها.

إنّ الكتب السماويه جاءت كلها متناسقه فى المبادئ و الهدف الواحد الذى تبنى تربيته الإنسان و السمو به إلى مراتب الكمال المعنوى و المادى،على الرغم من الفوارق الموجوده بين هذه الكتب و التى تنبع من مقتضى التكامل التدريجى للإنسان،حيث أن كل شرعه جديده ترتقى بالإنسان إلى مرحله أسمى من مراحل الرقى و الكمال الإنسانى،و تشتمل على خطط و برامج أكثر شمولاً و تطورا، و الإتيان بعبارته: مُهَيِّمِنًا عَلَيْهِ بعد جملة مُصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّ يَدَيْهِ يدل على هذه الحقيقه،أى أنّ القرآن فى الوقت الذى يصدّق الكتب السابقه،يأتى فى نفس الوقت ببرامج و خطط أكثر شمولاً للحياه.

ثمّ تؤكّد على النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلهِ وَ سَلَّمَ انطلاقاً من الحقيقه المذكوره-ضروره الحكم بتعاليم و قوانين القرآن بين الناس،حيث تقول فَأَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ... .

و قد اقترنت هذه الجملة بالفاء التفريعيه،فتدلّ على شموليه أحكام الإسلام بالنسبه لأحكام الشرائع السماويه الأخرى،و لا تعارض هنا بين هذا الأمر و بين ما سبق من أمر فى آيه سابقه و التى خيرت النَّبِيَّ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلهِ وَ سَلَّمَ بين الحكم بين اليهود أو تركهم لحالهم،لأنّ هذه الآيه ترشد النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلهِ وَ سَلَّمَ-إن هو أراد أن يحكم بين أهل الكتاب-إلى أنّ عليه أن يحكم بتعاليم و قوانين القرآن بينهم.

ثمّ تؤكّد عليه أن يتعد عن أهواء و ميول أهل الكتاب،الذين يريدون أن يطوعوا الأحكام الإلهيه لميولهم و رغباتهم،و أن ينفذ ما نزل عليه بالحق،حيث تقول الآيه: وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ... .

و لأجل إكمال البحث تشير الآيه إلى أن كل مله قد أفردت لها شرعه و نظام

للحياه يهديها إلى السبيل الواضح، حيث تقول: لِكَلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهَاجًا... .

و كلمه «شرع» أو «الشريعة» تعنى الطريق الذى يؤدى إلى المءاء و ينتهى به، و اطلاق كلمه «الشريعة» على الدين لأن الدين ينتهى بحقائق و تعاليم هدفها تطهير النفس الإنسانيه و ضمان الحياه السليمه للبشريه، أما كلمه «النهج» أو «المنهاج» فتطلقان على الطريق الواضح.

نقل (الراغب) فى كتابه (المفردات) عن ابن عباس قوله بأن الفرق بين كلمتى «الشريعة» و «المنهاج» هو أن الاولى تطلق على كل ما ورد فى القرآن، و أن المنهاج يطلق على ما ورد فى سنه النبى محمد صلى الله عليه و آله و سلم (و هذا الفرق مع كونه جميلا، إلا أننا لا نملك دليلا جازما لتأييده) (١).

ثم تبين الآيه أن الله لو أراد أن يجعل من جميع أبناء البشر أمه واحده، تتبع ديننا و شرعه واحده لقدر على ذلك، لكن هذا الأمر يتنافى مع قانون التكامل التدريجى، و حركه مراحل التربيه المختلفه، فتقول: وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ... .

و جمله لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ.. إشاره إلى ما قلناه سابقا من أن الله قد أودع لدى أفراد البشر استعدادات و كفاءات تنمو فى ظل الاختبارات و فى ضوء تعاليم الأنبياء، فعند ما يطوى بنو الإنسان مرحله معينه، يجعلهم الله فى مرحله أسمى و حين تنتهى مرحله تربويه يأتى الله بمرحله تربويه أخرى على يد نبى آخر، كما يحصل بالضبط للمراحل التعليميه التى يمر بها الشاب فى مدرسته.

ص: ٢٧

١ - ١) - يعتقد البعض من كبار المفسرين بوجود فرق بين «الدين» و «الشريعة» و يقولون بأن الدين هو مبدأ التوحيد و المبادئ الأخرى المشتركة بين جميع الديانات، لذلك يكون الدين واحدا فى كل الأحوال و الأزمنه، و الشريعة هى القوانين و الأحكام و التعاليم التى تختلف أحيانا بين ديانه و أخرى لكننا لا نملك - أيضا - دليلا واضحا يؤيد هذا القول، لأن هاتين الكلمتين استخدمتا فى الكثير من الموارد للدلاله على معنى واحد.

بعد ذلك تخاطب الآيه-في الختام-جميع الأقبوام و الملل، و تدعوهم إلى التسابق في فعل الخيرات بدل تبذير الطاقات في الاختلاف و التناحر، حيث تقول: فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ مؤكدہ أن الجميع يكون مرجعهم و عودتهم إلى الله الذى يخبرهم في يوم القيامه بما كانوا فيه يختلفون: إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

اشاره

وَ أَنْ أُحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَ اخْذِرْهُمْ أَنْ يُفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصَيِّبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (۴۹) أَ فَحُكِّمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۵۰)

سبب النزول

نقل بعض المفسرين فى سبب نزول هذه الآيه عن ابن عباس قوله: أن رهطا من وجهاء اليهود تأمروا و اتفقوا على الذهاب إلى النبى محمد صلى الله عليه و آله و سلم بغيه حرفه عن الإسلام، فذهبوا إليه صلى الله عليه و آله و سلم و ذكروا له أنهم قوم من مفكرى و علماء اليهود، و أنهم إن اتبعوه صلى الله عليه و آله و سلم اقتدى بهم بالتأكييد بقيه اليهود، و زعموا أن بينهم و بين جماعه أخرى نزاع (فى قضيه قتل أو أمر آخر) و طلبوا من النبى محمد صلى الله عليه و آله و سلم أن يحكم فى النزاع المزعوم لمصلحتهم، و وعدوه أنه إن استجاب لأمرهم يؤمنوا به، فامتنع النبى محمد صلى الله عليه و آله و سلم عن إصدار حكم غير عادل، فنزلت الآيه المذكوره (۱).

ص: ۲۹

تكرر هذه الآية تأكيد الباري عزّ وجلّ على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم في أن يحكم بين أهل الكتاب طبقاً لأحكام الله، وأن لا يستسلم لأهوائهم ونزواتهم، فتقول: **وَ أَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ...**

و التكرار للأمر هنا إما أن يكون بسبب المواضيع التي اشتملت عليها الآية، وإما لأن موضوع الحكم في هذه الآية يختلف عن موضوع الحكم في الآيات السابقة، حيث كان موضوع الحكم في الآيات السابقة هو الزنا مع المحصنه، و موضوع الحكم في هذه الآية هو القتل أو شيء آخر.

ثم تحذر الآية النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مؤامره هؤلاء الذين أرادوا عدول النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن شرعه الحقّ والعدل، و طالبتة بأن يراقب تحركاتهم، حيث تقول: **وَ اخذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ...**

و أكدت هذه الآية استمراراً لخطابها لنبي الإسلام محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن هؤلاء الكتابيين إن لم يذعنوا لحكمه العادل فإن ذلك يكون دلالة على أن ذنوبهم و آثامهم قد طوّقتهم فحرمتهم من التوفيق، و أن الله يريد أن يعاقبهم و يعذبهم بسبب بعض ذنوبهم، حيث تقول الآية: **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاغْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ...**

و سبب ذكر «بعض الذنوب» لا كلها، قد يكون لأن عقاب كل الذنوب لا يتم في الحياه الدنيا بل يذوق و بال بعضها، و الباقي منها يوكل أمرها إلى العالم الثاني، أي بعد الموت.

و لم تصرّح هذه الآية بنوع الذنوب التي طوقت و أحاطت بهؤلاء، و يحتمل أن تكون إشاره إلى المصير الذي أحاط بيهود المدينة، بسبب الخيانات المتواليه التي مارسوها، ممّا اضطرهم إلى ترك بيوتهم و مغادره المدينه المنوره، أو أن يكون فشل هؤلاء و حرمانهم من التوفيق نوعاً من العقاب لهم على ذنوبهم السابقه، لأنّ

الحرمان من التوفيق يعتبر-بحد ذاته-نوعاً من العقاب، أى أن الذنوب المتتاليه و العناد و الإصرار على الذنب، جزاؤهما الحرمان من الأحكام العادله، و التورط بالضلال و الحيره متاهات الحياه.

و تشير الآيه فى النهايه إلى أنّ إصرار هؤلاء القوم من أهل الكتاب على باطلهم يجب أن لا يكون باعثاً للقلق عند النبى، لأنّ الكثير من الناس منحرفون عن طريق الحق، أى أنّهم فاسقون، حيث تقول الآيه: **وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ** .

سؤال:

يمكن أن يعترض البعض بأنّ هذه الآيه توحى باحتمال صدور الانحراف عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و العياذ بالله، و أن الله يحذره من ذلك، فهل أنّ هذا الأمر يتلائم و منزله العصمه التى يتمتع بها النبى صلى الله عليه و آله و سلم؟

الجواب:

إنّ العصمه لا تعنى مطلقاً استحاله صدور الخطأ من المعصوم، و لو كان كذلك لما بقيت لهم مكرمه أو فضل، و معنى العصمه هو أنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم و الأئمه عليهم السّلام مع وجود احتمال صدور الذنب أو الخطأ منهم إلا أنّهم لا يرتكبون الذنب أبداً و إن كان عدم ارتكاب الذنب من قبل المعصوم ناشئ عن التنبيه و التحذير و التذكير الإلهى للمعصوم، أى أن التنبيه الإلهى يعتبر جزءاً من عامل العصمه لدى النبى صلى الله عليه و آله و سلم و الذى يحول دون ارتكاب الخطأ، و سنبادر إلى توضيح موضوع العصمه لدى الأنبياء-بتفصيل أكثر- عند تفسير آيه التطهير (الآيه ٣٣ من سوره الأحزاب يا ذن الله).

أمّا الآيه الأخرى فتساءلت بصيغته استفهام استنكارى، هل أنّ هؤلاء الذين يدعون أنّهم اتباع الكتب السماويه يتوقعون أن تحكّم بينهم (الخطاب للنبى صلى الله عليه و آله و سلم) بأحكام الجاهليه التى فيها أنواع التمايز المقيت؟ حيث تقول الآيه: **أَفَحُكِّم**

لكنّ أهل الإيمان لا يرون أى حكم أرفع و أفضل من حكم الله، حيث تتابع الآيه قولها: وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ .

و لقد بينا-عند تفسير الآيات السابقه-أن نوعا من التمايز الغريب كان يسود الأوساط اليهوديه بحيث لو أن فردا من يهود بنى قريظه قتل فردا من يهود بنى النضير لتعرض للقصاص، بينما لو حصل العكس لم يكن ليطبق حكم القصاص فى القاتل، و قد شمل هذا التمايز المقيت-أيضا-حكم الغرامه و الديه عند هؤلاء، فكانوا يأخذون ضعف الديه من جماعه، و لا يأخذونها من جماعه أخرى، أو يأخذون أقل من الحدّ المقرر، و لذلك استنكر القرآن هذا النوع من التمايز و اعتبره من أحكام الجاهليه، فى حين أنّ الأحكام الإلهيه تشمل البشر أجمعين و تطبق دون أى تمايز.

و

جاء فى كتاب «الكافى» عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام أنّه قال:

«الحكم حكمان: حكم الله، و حكم الجاهليه، فمن أخطأ حكم الله حكم بحكم الجاهليه» (1).

و هكذا يتّضح أنّ أى مسلم يتبع الأحكام الوضعيه و لا يلتزم بالأحكام و القوانين الإلهيه السماويه إنّما يسير فى الحقيقه فى طريق الجاهليه.

ص: ٣٢

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضِعَّ بُحُوا عَلَىٰ مَا اسْتَرَوْا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣)

سبب النزول

نقل الكثير من المفسرين أن (عباده بن صامت الخزرجي) قدم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد غزوه بدر و ذكر له أن له حلفاء من اليهود ذوى عده و عدد، و أكد للنبي أنه يريد البراءة من صداقتهم و من عهده معهم ما داموا يهددون المسلمين بالحرب، و قال بأنه يريد أن يكون حليفاً لله و لنبية دون سواهما، أما عبد الله بن أبي فرفض التنصل من عهده مع اليهود، و اعتذر بأنه يخشى المشاكل و ادعى أنه يحتاج إلى اليهود.

و أظهر النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلَّم خشيته على عباده و عبد الله من صداقه اليهود مشيرا إلى أنّ خطر صداقه اليهود على عبد الله أكبر من خطرهما على عباده بن صامت، فقال عبد الله بأنه ما دام الأمر كذلك فإنه سيتخلى عن صداقته و عهده مع اليهود، فنزلت الآيات الأخيرة و هي تحذر المسلمين من التحالف مع اليهود و النصارى.

التفسير

إشارة

لقد حذرت الآيات الثلاث الأخيره المسلمين- بشده- من الدخول فى أحلاف مع اليهود و النصارى، فالآيه الاولى منها تمنع المسلمين من التحالف مع اليهود و النصارى أو الاعتماد عليهم (أى أنّ الإيمان بالله يوجب عدم التحالف مع هؤلاء إن كان ذلك لأغراض و مصالح ماديه) حيث تقول الآيه: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ...**

و كلمه «أولياء» صيغه جمع من «ولى» و هى مشتقه من مصدر «الولايه» و هى بمعنى التقارب الوثيق بين شيئين، و قد وردت بمعنى «الصداقه» و «التحالف» و «الإشراف».

لكن بالنظر إلى سبب النزول و القرائن الأخرى الموجوده، فإنّ المراد ليس منع المسلمين من اقامه أى علاقات تجاريه و اجتماعيه مع اليهود و النصارى، بل المقصود هو منع المسلمين من التحالف مع هؤلاء أو الاعتماد عليهم فى مواجهه الأعداء.

و كانت قضيه التحالف رائجه فى ذلك العصر بين العرب، و كان يطلق على ذلك «الولاء».

و الملفت للنظر فى هذه الآيه أنّها لم تعتمد تسميه «أهل الكتاب» لدى تحدثها عن اتباع الديانتين السماويتين المعروفتين، بل استخدمت كلمتى «اليهود و النصارى» و ربّما يكون هذا إشاره إلى أنّ اليهود و النصارى لو كانوا يعملون

بكتاييهم السماويين، لكان اتباع هذين الدينين خير حليفين للمسلمين، لكنهم اتحدوا معا- لا بأمر من كتاييهم- بل لأغراض سياسيه و تكتلات عنصريه و أمثال ذلك.

بعد ذلك تبين الآيه سبب هذا النهى فى جمله قصيره، و تقول بأن هاتين الطائفتين إنما هما أصدقاء و حلفاء أشباههما من اليهود و النصرارى حيث تقول:

بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

أى أنهما يهتمان بمصالحهما و مصالح أصدقائهما فقط، و لا يعيران اهتماما لمصالح المسلمين، و لذلك فإن أى مسلم يقيم صداقه أو حلفا مع هؤلاء فإنه سيصبح من حيث التقسيم الاجتماعى و الدينى جزءا منهم، حيث تؤكد الآيه فى هذا المجال بقولها: وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ .

و بديهى أن الله لا يهدى الأفراد الظالمين الذين يرتكبون الخيانه بحق أنفسهم و إخوانهم و أخواتهم المسلمين و المسلمات، و يعتمدون على أعداء الإسلام تقول الآيه: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

و تشير الآيه التالىة إلى الأعداء التى كان يتشبث بها أفراد ذوى نفوس مريضه لتبرير علاقاتهم اللاشرعيه مع الغرباء، و اعتمادهم عليهم و تحالفهم معهم، مبررين ذلك بخوفهم من الوقوع فى مشاكل إن أصبحت قدره يوما فى يد حلفائهم الغرباء، فتقول الآيه: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ (١) .

و يذكر القرآن الكريم هؤلاء الضعفاء ذوى النفوس المريضه ردا على تعللهم فى التخلى عن حلفهم مع الغرباء، فيبين لهم أنهم حين يحتملون أن يمسك اليهود و النصرارى يوما بزمام قدره و السلطه يجب أن يحتملوا- أيضا- أن ينصر الله

ص: ٣٥

١- ١) - إن كلمة (دائره) مشتقه من المصدر (دور) أى الشىء الذى يكون فى حاله دوران، و بما أن القدرات الماديه و الحكومات هى فى حاله دوران دائم على طول التاريخ، لذلك يقال لها (دائره) كما تطلق هذه الكلمه- أيضا- على أحداث الحياه المختلفه التى تدور حول الأشخاص.

المسلمين فتقع القدره بأيديهم، حيث يندم هؤلاء على ما أضمره في أنفسهم، كما تقول الآية: فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ .

و يشتمل هذا الجواب القرآنى فى الحقيقه على جانبين:

أولهما: أنّ أفكارا كهذه إنما تخرج من قلوب مريضه لأفراد تزلزل ايمانهم و أصبحوا يسيئون الظن بالله، و لو لم يكونوا كذلك لما سمحوا لهذه الأفكار بأن تداخل نفوسهم.

أمّا الجانب الثانى فى هذا الجواب فهو مواجهتهم بنفس الحجه التى أوردوها لتعلمهم ذلك، إذ أنّ احتمالهم لوقوع السلطه بيد اليهود و النصرى يقابله- بالضروره- احتمال آخر و هو انتصار المسلمين و استلامهم لمقاليد الأمور، و بهذا لا يكون هناك أى مجال لتشبت هؤلاء بحلفهم مع أولئك أو الاعتماد عليهم.

و على أساس هذا التفسير فإنّ كلمه(عسى) التى لها مفهوم الاحتمال و الأمل، تبقى فى هذه الآية محتفظه بمعناها الأصلى لكن بعض المفسرين قالوا بأنّها تعنى هنا الوعد الجازم من قبل الله للمسلمين، و هذا ما لا يتلائم و ظاهر كلمه(عسى) البتّه.

أمّا المراد من جمله أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ التى جاءت بعد كلمه(الفتح) فى هذه الآية فيحتمل أنّها تعنى أنّ المسلمين فى المستقبل- إمّا أن يتغلبوا و ينتصروا على أعدائهم عن طريق الحرب أو بدونها كأن تتوسع قدرتهم إلى درجه يضطر بعدها الأعداء إلى الخضوع و الاستسلام للمسلمين دون الحاجه إلى الدخول فى حرب.

و بتعبير آخر: كلمه(الفتح) تشير إلى الانتصار العسكرى للمسلمين، و أنّ جمله أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ إشاره إلى الانتصارات الاجتماعيه و الاقتصاديه و ما شابه ذلك.

إن بيان هذا الاحتمال من قبل الله سبحانه و تعالى، مع كونه -عزّ و جلّ- عالماً بجميع ما سيحصل في المستقبل، يدل على أنّ الآية تشير إلى الانتصارات العسكريه و الاجتماعيه و الاقتصاديه التي سيحرمها المسلمون في المستقبل.

و تشير الآية في الختام إلى مصير عمل المنافقين، و تبين أنه حين يتحقق الفتح للمسلمين المؤمنين و تنكشف حقيقه عمل المنافقين يقول المؤمنون -بدهشه-: هل أنّ هؤلاء المنافقين هم أولئك الذين كانوا يتشددون بتلك الدعاوى و يجلفون بالايمان المغلظه بأنهم معنا، فكيف وصل الأمر بهم إلى هذا الحد؟ حيث تقول الآية: وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَفْسَدُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ.. (١).

إنّ هؤلاء لنفاقهم هذا ذهبت أعمالهم أدراج الرياح، لأنها لم تكن نابعه من نيه خالصه صادقه، و لهذا فقد أصبحوا من الخاسرين -سواء في هذه الدنيا أو الآخره معا- حيث تؤكد الآية هذا الأمر بقولها: حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ .

و الجمله الأخيره تشبه -في الحقيقه- جوابا لسؤال مقدر، و كأن شخصا يسأل: ماذا سيكون مصير هؤلاء؟ فيجاب بأنّ أعمالهم أدراج الرياح، و ستطوقهم الخساره من كل جانب، أي أنّ هؤلاء -حتى لو كانت لهم أعمال صدرت عنهم بإخلاص و نيه صادقه- فهم لا يحصلون على أي نتيجه حسنه من تلك الأعمال الصالحه لانحرافهم صوب النفاق و الشرك بعد ذلك: و قد شرحنا هذا الأمر في الجزء الثانی من تفسيرنا هذا عند تفسير الآية (٢١٧) من سوره البقره.

ص: ٣٧

١- ١) - في هذه الآية تكون كلمه «هؤلاء» مبتدأ و خبرها جمله «الذين أقسموا بالله» أمّا جمله «جهد إيمانهم» فهي مفعول مطلق.

على الرّغم من أنّ الواقعة-التي ذكرت سببا لنزول الآيات الأخيره-تحدثت عن شخصين هما«عباده بن الصامت»و«عبد الله بن أبي»إلا أنّ ممّا لا شك فيه أنّ هذين الشخصين لا يشار إليهما باعتبارهما شخصيتين تاريخيتين-فحسب-بل لأنّهما يمثلان مذهبين فكريين و اجتماعيين.يدعو أحدهما إلى التخلي عن التعاون و التحالف مع الغرباء،و عدم تسليم زمام المسلمين بأيديهم،و عدم الثقة بتعاونهم.

و المذهب الآخر يرى أنّ كل انسان أو شعب فى هذه الدنيا المليئه بالمشاكل و الأهوال يحتاج إلى من يتكى و يعتمد عليه،و أن الحاجه تدعو أحيانا إلى انتخاب الدّعم و السند من بين الغرباء بحجه أن الصداقه معهم لا تخلو من قيمه و فائده،و لا بدّ أن تظهر ثمارها فى يوم من الأيام.

و قد دحض القرآن الكريم رأى المذهب الثّانى بشدّه،و حذر المسلمين بصراحه من مغبه الوقوع و التورط فى نتائج مثل هذا النوع من التفكير،لكن البعض من المسلمين-و مع الأسف-قد نسوا و تجاهلوا هذا الأمر القرآنى العظيم،فانتخبوا من بين الغرباء و الأجانب من يعتمدون عليهم،و قد أثبت التّاريخ أن كثيرا من النكبات التى أصابت المسلمين تنبع من هذا الاتجاه الخاطئ! و بلاد الأندلس تعتبر دليلا حيّا و بارزا على هذا الأمر،و تظهر كيف أن المسلمين بالاعتماد على قواهم الذاتيه-استطاعوا أن يبنوا أكثر الحضارات ازدهارا فى الأندلس-أسبانيا اليوم- لكنّهم نتيجة لاعتمادهم على قوى غريبه أجنبيه فقدوا تلك المكتسبات العظيمه بكل سهوله.

و الإمبراطوريه العثمانيه التى سرعان ما ذابت كذوبان الجليد فى الصيف، تعتبر دليلا آخر على هذه الدعوى.

كما أنّ التّاريخ المعاصر يشهد على ما أصاب المسلمين من خسائر و مصائب

كبيره بسبب انحرافهم عن رسالتهم و اعتمادهم فى كثير من الأمور على الأجانب الغرباء، و العجب كل العجب من أن هذا السبب ما زال يلف العالم الإسلامى، و لم توقظه بعد الكوارث و النكبات التى أصابته بسبب اعتماده على القوى الأجنبية.

على أى حال فإن الأجنبى أجنبى، و مهما اشترك معنا فى المصالح و تعاون معنا فى مجالات محدوده فهو فى النهايه يعتزل عَنَّا فى اللحظات الحساسه، و كثيرا ما تنالنا منه-أيضا-ضربات مؤثره.

و ما على المسلمين اليوم إلا أن ينتبهوا أكثر من أى وقت مضى إلى هذا النداء القرآنى و لا يعتمدوا على أحد سوى الله و قواهم الذاتيه التى وهبها الله لهم.

لقد اهتم نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم كثيرا بهذا الأمر، حتى أنه رفض مساعده اليهود فى واقعه «أحد» حين أعلن ثلاثمائه منهم استعدادهم للوقوف بجانب المسلمين ضد المشركين، فأعادهم النبي إلى حيث كانوا و لما وصلوا إلى منتصف الطريق، و امتنع عن قبول عرضهم فى حين أن مثل هذا العدد من الناس كان يمكن له أن يلعب دورا مؤثرا فى واقعه أحد، فلما ذا رفضهم النبي صلى الله عليه و آله و سلم؟ لقد رفضهم لأنه لم يستبعد منهم أن يخذلوه و يخذلوا المسلمين فى أخرج اللحظات و أكثرها خطوره أثناء الحرب، و يتحولوا إلى التعاون مع العدو و يقضوا على ما تبقى من جيش المسلمين فى ذلك الوقت.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَزِدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)

التفسير

بعد الانتهاء من موضوع المنافقين، يأتي الكلام في هذه الآية الكريمة - عن المرتدين الذين تنبأ القرآن بارتدادهم عن الدين الإسلامي الحنيف، وهذه الآية أتت بقانون عام يحمل إنذاراً لجميع المسلمين، فأكدت أن من يرد عن دينه فهو لن يضر الله بارتداده هذا أبداً، ولن يضر الدين ولا المجتمع الإسلامي أو تقدمه السريع، لأن الله كفيل بإرسال من لديهم الاستعداد في حمايه هذا الدين، حيث تقول الآية الكريمة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَزِدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ... .

ثم تتطرق الآية إلى صفات هؤلاء الحماة الذين يتحملون مسئولية الدفاع العظيمه، وتبينها على الوجه التالي:

١-إنهم يحبون الله ولا يفكرون بغير رضاه، فالله يحبهم وهم يحبونه، كما تقول الآية: يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ .

٢-و٣-يبدون التواضع والخضوع والرافة أمام المؤمنين، بينما هم أشداء أقوياء أمام الأعداء الظالمين-حيث تقول الآية: أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ

٤-إن شغلهم الشاغل هو الجهاد في سبيل الله، إذ تقول الآية: يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

٥-وآخر صفه تذكرها الآية لهؤلاء العظام، هي أنهم لا يخافون لوم اللاتيمين في طريقهم لتنفيذ أوامر الله والدفاع عن الحق، حيث تقول الآية: وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ... فهؤلاء بالإضافة إلى امتلاكهم القدره الجسمانيه، يمتلكون الجرأه والشجاعه لمواجهه التقاليد الخاطئه، والوقوف بوجه الأغلبيه المنحرفه التي اعتمدت على كثرتها في الاستهزاء بالمؤمنين.

وهناك الكثير من الأفراد المعروفين بصفاتهم الطيبه، لكنهم يبدون الكثير من التحفظ أمام الفوضى السائده في المجتمع و هجوم الأفكار الخاطئه لدى سواد الناس أو من الأغلبيه المنحرفه، و يمتلكهم الخوف والجبن، و سرعان ما يتركون الساحه و يخلونها للمنحرفين، في حين أن القائد المصلح و من معه من الأفراد بحاجه إلى الجرأه و الشهامه لتطبيق أفكارهم و اصلاحاتهم. و على عكس هؤلاء فالذين لا يمتلكون هذه الصفات الروحيه الرفيعه، يقفون سدًا و حائلًا دون حصول الإصلاحات المطلوبه.

و تؤكد الآية في الختام-على أن اكتساب أو نيل مثل هذه الامتيازات الساميه(بالإضافه إلى الحاجه لسعي الإنسان نفسه) مرهون بفضل الله الذي يهبها لمن يشاء، و لمن يراه كفوًا لها من عباده، حيث تقول الآية في هذا المجال: ذَلِكُمْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ... .

و فى النهايه تبين الآيه أن مجال فضل الله و كرمه واسع، و هو يعرف الأفكاء و المؤهلين من عباده، و كما تقول الآيه: **وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**.

لقد نقلت الروايات الإسلامية التى أوردها المفسرون أقوالا- كثيرة حول هويه الأشخاص المعنيين بهذه الآيه، فمن أنصار الإسلام هؤلاء الذين مدحهم الله بهذه الصفات؟ فى الكثير من الروايات الواردة عن طرق الشيعة و السنه نقرأ أن هذه الآيه نزلت فى حق (على بن أبى طالب عليه السلام) و قتاله للناكثين و القاسطين و المارقين (مثيرى حرب الجمل، و جيش معاويه، و الخوارج)، و مِمَّا يدل على ذلك قول النبى صلى الله عليه و آله و سلم حين رأى عجز قاده جيش الإسلام عن فتح حصن خيبر، حيث وجه صلى الله عليه و آله و سلم لهم الخطاب فى إحدى الليالى و فى مقر جيش الإسلام قائلا:

لأعطين الرايه غدا رجلا يحب الله و رسوله و يحبه الله و رسوله، كرازا غير فرار، لا يرجع حتى يفتح الله على يده» (١).

و نقرأ فى روايه أخرى أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم سئل عن هذه الآيه فوضع صلى الله عليه و آله و سلم يده الشريفه على كتف «سلمان» و قال ما مضمونه: «هذا و أنصاره و بنى قومه...» و بذلك تتبأ النبى عن إسلام الإيرانيين و جهودهم و مساعيهم المشره فى خدمه هذا الدين فى المجالات المختلفه، ثم

قال صلى الله عليه و آله و سلم: «لو كان الدين (و فى روايه أخرى- لو كان العلم-) معلقا بالثريا لتناوله رجال من أبناء فارس» (٢).

و ذكرت روايات أخرى أن هذه الآيه نزلت فى شأن أنصار المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف الذين سيواجهون الارتداد و المرتدين بكل قوه

ص: ٤٢

١ - ١) - و قد ورد فى تفسير (البرهان) و (نور الثقلين) العديد من الروايات، منقوله عن أئمه أهل البيت عليهم السلام فى هذا المجال، كما نقل (الثعلبى) و هو أحد علماء السنه هذه الروايات (راجع كتاب إحقاق الحق، ج ٣، ص ٢٠٠).

٢ - ٢) - مجمع البيان، ج ٣، ص ٢٠٨ - نور الثقلين، ج ١، ص ٦٤٢ - أبو نعيم الأصفهاني فى الحليه، ج ٦، ص ٦٤ نقلوا هذا الحديث على الوجه التالى: «لو كان العلم منوطا بالثريا لتناوله رجال من أبناء فارس» أما ابن عبد البر فقد نقل الحديث على الصورة التالى: «لو كان الدين عند الثريا لناله سلمان...» و ذلك فى الإستيعاب، ج ٢، ص ٥٧٧.

و حزم، و يملؤون العالم قسما و عدلا و إيمانا.

و ممّا لا شك فيه أنّه لا تناقض بين هذه الروايات الواردة في تفسير الآيه الأخيره، لأنّ الآيه-جريا على أسلوب القرآن الكريم- تبين مفهوما كليا عاما، بحيث تعتبر «على بن أبى طالب عليه السّلام» أو «سلمان الفارسي» مصداقين مهمين ضمن هذا المفهوم الذى يشمل أفرادا آخرين يسيرون على نفس النهج، حتى لو لم تتطرق الروايات إلى أسمائهم.

إنّ الأمر الذى يثير الأسف فى هذا المجال، هو تدخل العصبية الطائفية و القومية فى تفسير هذه الآيه، و التى أدخلت أفرادا لا يمتلكون أى كفاءه و لا يتمتعون بأى من الصفات المذكوره ضمن مصاديق هذه الآيه و اعتبرتهم ممّن نزلت الآيه فى شأنهم، و من هؤلاء الأفراد «أبو موسى الأشعري» الذى ارتكب تلك الحماقه التاريخيه المعروفه التى دفعت بالإسلام نحو هاويه السقوط، و وضعت أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام فى أخرج موقف (1).

و الغريب فى هذا الأمر هو انتقال آثار التطرف الذى نلاحظه فى الكتب العلميه-بشكل رهيب- إلى سواد الناس، بل إلى متعلميهم، و كأن هناك يدا خفيه تسعى الى تشتيت صفوف المسلمين، و تحول دون اتحاد كلمتهم، و قد سرى هذا التطرف ليشمل تاريخ ما قبل الإسلام، بحيث نرى هؤلاء المتطرفين و قد سمّوا شارعا فخرما يقع بجوار بيت الله الحرام باسم «أبى سفيان» و هذا الشارع هو أكبر و أفخم بكثير من شارع «إبراهيم الخليل عليه السّلام» مؤسس الكعبه الشريفه.

و أخذ أمثال هؤلاء المتطرفين يصمون كثيرا من المسلمين و بكل بساطه بالشرك، لا لشيء إلا لأنّ تحرك هؤلاء المسلمين لا يتفق مع أهوائهم و طريقتهم

ص: ٤٣

١ - ١) - تفسير الطبرى، ج ٦، ص ١٨٤- إلا- أنّ بعض الروايات ذكرت فقط «قوم أبى موسى» للإشارة إلى أهل اليمن الذين هبوا لنصره الإسلام فى أخرج اللحظات، و استثنى أبو موسى تلميحا إلى قومه، بينما تصرح الروايات الأخرى بأن (سلمان الفارسي) و قومه هم المشمولون بهذه الآيه.

الخاصه، و كأن الإسلام ينحصر فى هذه الطريقه، أو كأنهم -وحدهم- سدنه القرآن و حفظته دون غيرهم، أو كأنهم هم المكلفون -دون غيرهم- ببيان من هو المسلم و من هو الكافر، فيشيرون بكلمه واحده إلى هذا بأنه مشرك و إلى ذاك بأنه مسلم، وفق ما تشتهيه أهواؤهم و رغباتهم.

فى حين أننا نقرأ فى الروايات الوارده فى تفسير الآيات الأخيره، أنّ الإسلام حين يصبح غريباً بين أهله يبرز أشخاص كسلمان الفارسى لإعاده مجد الإسلام و عظمته، و هذه بشاره وردت على لسان النبى صلى الله عليه و آله و سلم لقوم سلمان.

و المثير للدهشه و الحيره أن كلمه التوحيد التى هى رمز لوحده المسلمين، أصبحت اليوم تستخدم من قبل جهات معلومه للتفريق بين المسلمين و اتهامهم بالشرك و الوثنيه، و قد خاطب أحد العلماء هؤلاء المتطرفين بقوله: إنكم قد وصلت بكم الحاله إلى درجه أن إسرائيل إذا تسلطت على جماعه منكم فرحت جماعه أخرى بهذا التسلط، و إذا ضربت إسرائيل الجماعه الأخرى فرحت الجماعه الأولى بهذا العمل، أو ليس هذا هو ما يتغيه و يهدف إليه أعداء الإسلام؟ و من الإنصاف القول بأن اللقاءات المتكرره التى حصلت بيننا و بين عدد من علماء هؤلاء المتعصبين المتطرفين، كشفت القناع عن أنّ الواعين منهم كثيراً ما لا يرضون بهذا الوضع، و قد التقت بأحد علماء اليمن فى المسجد الحرام فقال أمام جمع من كبار مدرسى الحرم المكى: إنّ اتهام أهل القبلة بالشرك يعتبر ذنباً كبيراً، استقبجه السلف الصالح كثيراً، و قد صدر هذا القول منه حين كان الحديث يدور حول مسأله حدود الشرك، و قد أعرب هذا العالم عن استيائه لما يقوم به بعض الجهلاء من اتهام الناس بالشرك مشيراً إلى أن هؤلاء يتحملون بعملهم هذا مسئوليه عظيمه.

اشاره

إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥)

سبب النزول

جاء في تفسير مجمع البيان - و تفاسير و كتب أخرى - نقلا عن عبد الله بن عباس قوله: أنه كان في أحد الأيام جالسا إلى جوار بئر زمزم، و يروى للناس أحاديث النبي صلى الله عليه و آله و سلم، فتقرب إليهم فجاءه رجل كان يرتدى عمامه، و يضع على وجهه نقابا، و كان كلما تلا ابن عباس حديثا عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم تلا هو حديثا عن النبي مستهلا قوله بعبارة: «قال رسول الله...» فأقسم عليه ابن عباس أن يعرف نفسه، فرفع هذا الشخص النقاب عن وجهه و صاح أيها الناس من عرفني فقد عرفني و لم يعرفني فأنا جندب بن جنادة البدرى أبو ذر الغفارى، سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بهاتين و إلا صمتا، و رأيته بهاتين و إلا فعميتا،

يقول: «على قائد البرره، و قاتل الكفره منصور من نصره، مخذول من خذله».

و

أضاف أبو ذر: أما إنى صليت مع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يوما من الأيام صلاه الظهر فسأل سائل فى المسجد فلم يعطه أحد فرفع السائل يده الى السماء و قال: اللهم أشهد بأننى سألت فى مسجد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فلم يعطنى أحد شيئا، و كان على عليه السلام

راكعا فأومى إليه بخنصره اليمنى و كان يختتم فيها فاقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره و ذلك بعين النبى صلى الله عليه و آله و سلم فلما فرغ من صلاته رفع رأسه إلى السماء و قال: «اللهم موسى سألك فقال: رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي وَ اخْلُ عُنُقَهُ مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَ اجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي، فَأَنْزَلَتْ عَلَيْهِ قِرْآنًا ناطقا: سَيَسْأَلُكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا... اللهم و أنا محمّد نبيك و صفيك اللهم فاشرح لي صدري و يسر لي أمرى و اجعل لي وزيراً علياً أشدد به ظهري».

قال أبو ذر رحمه الله: فما استتم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم كلامه حتى نزل جبرائيل من عند الله عزّ و جلّ فقال عليه السلام: يا محمّد اقرأ، قال: و ما اقرأ؟ قال: اقرأ: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ (١)**.

و طبعى أنّ سبب النزول هذا قد نقل عن طرق مختلفة (كما سيأتى تفصيله) بحيث تختلف الروايات أحيانا بعضها عن البعض الآخر فى جزئيات و خصوصيات الموضوع، لكنها جميعا متفقه من حيث الأساس و المبدأ.

التفسير

إشارة

ابتدأت هذه الآية بكلمه «إنّما» التى تفيد الحصر، و بذلك حصرت ولايه أمر المسلمين فى ثلاث هم: الله و رسوله صلى الله عليه و آله و سلم، و الذين آمنوا و أقاموا الصّلاه و أدوا الزّكاه و هم فى حاله الركوع فى الصّلاه كما تقول الآية: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ**.

و لا شك أنّ الرّكوع المقصود فى هذه الآية هو ركوع الصّلاه و لا يعنى الخضوع، لأنّ الشارع المقدس اصطلح فى القرآن على كلمه الرّكوع للدلاله على الركن الرابع للصلاه.

ص: ٤٦

و بالإضافة إلى الروايات الواردة في شأن نزول الآية، والتي تتحدث عن تصدق علي بن أبي طالب عليه السلام بخاتمه في الصلاة- وستتطرق إليها بالتفصيل- فإن جملة يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ تعتبر دليلاً على هذا الأمر، وليس في القرآن أثر عن ضروره أداء الزكاه مقرونه بالخضوع، بل ورد التأكيد على دفع الزكاه بتيّه خالصه و بدون منه.

كما لا شك في أنّ كلمه «الولى» الواردة في هذه الآية، لا تعنى الناصر و المحب، لأنّ الولاية التي هي بمعنى الحب أو النصره لا تنحصر في من يؤدون الصلاة و يؤتون الزكاه و هم راعون، بل تشمل كل المسلمين الذين يجب أن يتحابوا فيما بينهم و ينصر بعضهم البعض، حتى أولئك الذين لا زكاه عليهم، أو لا يمتلكون-أساساً- شيئاً ليؤدوا زكاته، فكيف يدفعون الزكاه و هم في حالة الركوع؟! هؤلاء كلهم يجب أن يكونوا أحياء فيما بينهم و ينصر بعضهم البعض الآخر.

و من هنا يتّضح لنا أنّ المراد من كلمه «ولى» في هذه الآية، هو ولاية الأمر و الإشراف و حق التصرف و الزعامه الماديه و المعنويه، خاصّه و قد جاءت مقترنه مع ولاية النبي صلى الله عليه و آله و سلم و ولاية الله حيث جاءت الولايات الثلاث في جملة واحده.

و بهذه الصوره فإن الآية تعتبر نصّاً قرآنيا يدل على ولاية و إمامه علي بن أبي طالب عليه السلام للمسلمين.

شهاده الأحاديث و المفسرين و المؤرخين:

لقد قلنا أنّ الكثير من الكتب الإسلاميه و مصادر أهل السنّه تشتمل على العديد من الروايات القائله بنزول هذه الآية في شأن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، و قد ذكرت بعض هذه الروايات قضيه تصدق الإمام علي عليه السلام بخاتمه على السائل و هو في حالة الركوع، كما لم تذكر روايات أخرى مسأله التصدق

هذه، بل اكتفت بتأييد نزول هذه الآية في حق علي عليه السلام.

وقد نقل هذه الروايات كل من ابن عباس، وعمار بن ياسر، و عبد الله بن سلام، و سلمه بن كهيل، و أنس بن مالك، و عتبه بن حكيم، و عبد الله بن أبي، و عبد الله بن غالب، و جابر بن عبد الله الأنصاري، و أبي ذر الغفاري (١).

و بالإضافة إلى الرواه العشره المذكورين، فقد نقلت كتب الجمهور (أهل السنه) هذه الروايه عن علي بن أبي طالب عليه السلام نفسه (٢).

و الطريف أنّ كتاب (غايه المرام)، قد نقل ٢٤ حديثاً عن طرق أهل السنه و ١٩ حديثاً عن طرق الشيعة (٣).

و قد تجاوز عدد الكتب التي أوردت هذه الروايات الثلاثين كتاباً، كلها من تأليف علماء أهل السنه، منهم: محب الدين الطبري في ذخائر العقبي ص ٨٨ و العلامه القاضي الشوكاني في تفسير فتح القدير ج ٢، ص ٥٠، و من هذه المصادر المعتمده أيضاً: جامع الأصول، ج ٩، ص ٤٧٨، و في أسباب النزول للواحدى ص ١٤٨، و في لباب النقول للسيوطى ص ٩٠، و في تذكره سبط ابن الجوزى ص ١٨، و في نور الأبصار للشبلنجى ص ١٠٥، و في تفسير الطبري ص ١٦٥، و في كتاب الكافي الشافى لابن حجر العسقلانى ص ٥٦، و في مفاتيح الغيب للرازي ج ٣، ص ٤٣١، و في تفسير الدرّ المنثور ج ٢، ص ٣٩٣، و في كتاب كنز العمال ج ٦، ص ٣٩١، و في مسند ابن مردويه و مسند ابن الشيخ، بالإضافة إلى صحيح النسائي، و كتاب الجمع بين الصحاح الستة، و كتب عديده أخرى نقلت حديث الولاية (٤).

اذن كيف يمكن -و الحال هذه- انكار هذه الأحاديث و المصادر التي نقلتها،

ص: ٤٨

١-١) -راجع كتاب إحقاق الحق، ج ٢، ص ٣٠٩-٤١٠.

٢-٢) -راجع كتاب (المراجعات) للسيد عبد الحسين شرف الدين، ص ١٥٥.

٣-٣) -منهاج البراعه، ج ٢، ص ٣٥٠.

٤-٤) -راجع كتاب إحقاق الحق، ج ٢، و كتاب (الغدیر) ج ٢، و كتاب المراجعات للاطلاع على تفاصيل أكثر بهذا الشأن.

فى حىن أنّها اكتفت فى مجال أسباب نزول آيات أخرى بحدىث واحد أو حدىثىن؟! لعل التطرف الطائفى هو سبب تجاهل كل هذه الأحادىث و الشهادات التى أدلى بها العلماء فى مجال سبب نزول هذه الآيه.

فلو أمكن التغاضى عن كل الزوايات التى وردت فى تفسىر هذه الآيه، و هى روايات كثره للزم أن لا نعتمد على أى روايه فى تفسىر النصوص القرآنيه، لأننا قلما نجد أسبابا لنزول آيه أو آيات قرآنيه جاءت مدعومه بهذا العدد الكبىر من الزوايات، كما ورد فى هذه الآيه الكرىمه.

إنّ هذه القضىه كانت بدرجه من الوضوح بحدىث أنّ حسان بن ثابت الشاعر المعروف الذى عاصر و اصطحب النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم جاء بمضمون آيه الولايه فى قالب شعرى من نظمه الذى قاله فى حق على بن أبى طالب عليه السّلام حىث يقول:

فأنت الذى أعطيت إذ كنت راعا

زكاه فدتك النفس يا خير راع

فأنزل فىك الله خير ولايه

و بىنها فى محكمات الشرائع

و قد وردت هذه الأشعار باختلافات طفيفه فى كتب كثره، منها كتاب تفسىر (روح المعانى) للآلوسى، و كتاب (كفايه الطالب) للكنجى الشافعى، و كتب كثره أخرى.

الزد على اعتراضات ثمانيه:

لقد أصرت جماعه من المتطرفىن من أهل السنّه على تكرار الاعتراضات حول نزول هذه الآيه فى حق على بن أبى طالب عليه السّلام، و كذلك على تفسىر (الولايه) الوارده فى الآيه الكرىمه بمعنى الإشراف و التصرف و الإمامه، و فىما يلى نعرض أهم هذه الاعتراضات للبحث و النقد، و هى:

١- قالوا: أنّ عباره «الذىن» المقترنه بكلمه «آمنوا» الوارده فى الآيه: لا- يمكن أن تطبق على المفرد، و ذلك ضمن اعتراضهم على الزوايات التى تقول

بنزول هذه الآية في حق علي بن أبي طالب عليه السّلام و قالوا: أنّ الآية أشارت بصيغه الجمع قائله الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ فكيف يمكن أن تكون هذه الآية في حق شخص واحد كعلي عليه السّلام؟ الجواب:

لقد زخرت كتب الأدب العربي بجمل تمّ التعبير فيها عن المفرد بصيغه الجمع، و قد اشتمل القرآن الكريم على مثل هذه الجمل، كما في آيه المباهله، حيث وردت كلمه «نساءنا» بصيغه الجمع مع أنّ الزوايات التي ذكرت سبب نزول هذه الآية أكّدت أن المراد من هذه الكلمه هي فاطمه الزهراء عليها السّلام وحدها، و كذلك في كلمه (أنفسنا) في نفس الآية و هي صيغه جمع، في حين لم يحضر من الرجال في واقعه المباهله مع النبي صلى الله عليه و آله و سلم غير علي عليه السّلام.

و كذلك نقرأ في الآية (١٧٢) من سوره آل عمران في واقعه أحد قوله تعالى:

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا...

و قد بينا في الجزء الثالث من تفسيرنا هذا عند تفسير هذه الآية، أن بعض المفسرين ذكروا أنّها نزلت بشأن (نعيم بن مسعود) الذي لم يكن إلا واحدا.

و نقرأ في الآية (٥٢) من هذه السوره -أيضا- قوله تعالى: ...يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصَِّبَنَا دَائِرَةٌ... في حين أن هذا الجزء من الآية نزل في شخص واحد، كما جاء في سبب النزول، و هو (عبد الله بن أبي) و قد مضى تفسير ذلك.

و كذلك في الآية الاولى من سوره الممتحنه، و الآية الثامنه من سوره (المنافقون) و الآيتين (٢١٥ و ٢٧٤) من سوره البقره، نقرأ فيها كلها عبارات جاءت بصيغه الجمع، بينما الذي ذكر في أسباب نزول هذه الآيات هو أنّ المراد في كل منها شخص واحد.

و التعبير بصيغه الجمع عن شخص واحد في القرآن الكريم إقيا أن يكون بسبب أهميه موقع هذا الشخص و لتوضيح دوره الفعال، أو لأجل عرض الحكم القرآني

بصيغه كليه عامه حتى إذا كان مصداقه منحصرًا في شخص واحد، وقد ورد في كثير من آي القرآن ضمير الجمع للدلاله على الله الواحد الأحد، وذلك تعظيمًا له جل شأنه.

و بديهي أنّ استخدام صيغه الجمع للدلاله على الواحد يعتبر خلافًا للظاهر، و لا يجوز بدون قرينه و لكن مع وجود الروايات الكثيره الوارده في شأن نزول الآيه تكون لدينا قرينه واضحه على هذا التفسير و قد اكتفى في موارد أخرى بأقل من هذه القرينه؟! ٢- وقال الفخر الرازي و متطرفون آخرون: أنّ عليًا عليه السلام بما عرف عنه من خشوع و خضوع إلى الله، بالأخص في حاله الصلاه (إلى درجه، أنهم استلوا أثناء صلاته سهمًا كان مغروزا في رجله، دون أن يحس بالألم كما في (الروايه المعرفه) فكيف يمكن القول بأنه سمع أثناء صلاته كلام السائل و التفت إليه؟! الجواب:

إنّ الذين جاؤوا بهذا الاعتراض قد غفلوا عن أن سماع صوت السائل و السعي لمساعدته لا يعتبر دليلًا على الانصراف و التوجه إلى النفس، بل هو عين التوجه إلى الله، و على عليه السلام كان أثناء صلاته يتجرد عن ذاته و ينصرف بكله إلى الله، و معروف أن التنصل عن خلق الله يعتبر تنصلاً أيضاً عن الله، و بعبارة أوضح: أن أداء الزكاه أثناء الصلاه يعد عباده ضمن عباده أخرى، و ليس معناه القيام مباح ضمن العباده، بعبارة ثالثه: إنّ ما يلائم روح العباده هو الانشغال و الانصراف أثناءها إلى الأمور الخاصيه بالحياه و الشخصيه، بينما التوجه إلى ما فيه رضی الله تعالى يتلائم بصوره تامه مع روح العباده و يؤكدها.

و من الضروري أن تؤكده هنا أن الذوبان في التوجه إلى الله، ليس معناه أن يفقد الإنسان الإحساس بنفسه، و لا أن يكون بدون إرادته، بل الإنسان بإرادته يصرف عن نفسه التفكير في أي شيء لا صله له بالله.

و الطّريف في الأمر أنّ الفخر الرازي قد أوصله تطرّفه إلى الحدّ الذي اعتبر فيه إيماءه الإمام على عليه السّلام إلى السائل بأصبعه- لكي يأخذ الخاتم-مصداقا للفعل الكثير المنافي للصلاه،في حين أن هناك أفعالا يمكن القيام بها أثناء الصّلاه أكثر بكثير من تلك الإيماءه التي قام بها الإمام عليه السّلام،و في نفس الوقت لا تضر و لا تمس الصّلاه بشيء،و من هذه الأفعال قتل الحشرات الضاره كالحيه و العقرب،و رفع الطفل من محله و وضعه فيه،و إرضاع الطفل الرضيع،و كل هذه الأفعال لا تعتبر من الفعل الكثير في نظر الفقهاء،فكيف يمكن القول بأن تلك الإيماءه تعتبر من الفعل الكثير؟! و قد لا يكون هذا الخطأ غريبا عن عالم استولى عليه التطرف! ٣-أمّا الاعتراض الآخر في هذا المجال،فهو أنّ كلمه(ولى)الوارده في الآيه تعنى الصديق و الناصر و أمثالهما،و ليست بمعنى المتصرف أو المشرف أو ولى الأمر.

الجواب:لقد بينا في تفسير هذه الآيه أن كلمه(ولى)-الوارده فيها-لا-يمكن أن تكون بمعنى الصديق أو الناصر،لأنّ هاتين الصفتين قد ثبتت شموليتهما لكل المسلمين المؤمنين،و ليستا منحصرتين بالمؤمنين المذكورين في الآيه و الذين يقيمون الصّلاه و يؤتون الزّكاه أثناء الركوع،و بعبارة أخرى:إنّ الصداقه و النصره حكمان عامان،بينما الآيه-موضوع البحث-تهدف إلى بيان حكم خاص بشخص واحد.

٤-و قالوا-أيضا-أنّ علينا عليه السّلام لم يكن يمتلك شيئا من حطام الدنيا حتى تجب عليه الزّكاه،و لو قلنا بأنّ المراد في الآيه هو الصداقه المستحبه فهي لا تسمى زكاه؟! الجواب:

أولا:إنّ التّاريخ يشهد على امتلاك على عليه السّلام المال الوفير الذي حصل عليه

من كدّ يمينه و عرق جبينه و تصدق به في سبيل الله، و قد نقلوا في هذا المجال أنّ عليّاً عليه السّلام أعتق و حرر ألف رقبه من الرقيق، كان قد اشتراهم من ماله الخاص الذي كان حصيله كدّه و معاناته، أضف إلى ذلك فقد كان عليه السّلام يحصل -أيضا- على حصته من غنائم الحرب، و على هذا الأساس فقد كان على عليه السّلام يمتلك ذخيره بسيطه من المال، أو من نخلات التمر ممّا يتعين فيهما الزّكاه.

و نحن نعلم -أيضا- ان الفوريه الواجبه في أداء الزّكاه هي «فوريه عرفيه» لا تتنافى مع أداء الصّلاه، أي لا فرق في أداء الزّكاه سواء كان وقت الأداء قبل وقت الصّلاه أو أثناءها.

ثانيا: لقد أطلق القرآن الكريم في كثير من الحالات كلمه الزّكاه على الصدقه المستحبه، و بالأخص في السور المكيه، حيث وردت هذه الكلمه للدلاله على الصدقه المستحبه، لأنّ وجوب الزّكاه كان قد شرع بعد هجره النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم إلى المدينه، كما في (الآيه ٣ من سوره النمل، و الآيه ٣٩ من سوره الروم، و الآيه ٤ من سوره لقمان، و الآيه ٧ من سوره فصلت و غيرها).

٥- و يقولون: إنهم حتى لو أذعنوا بأن عليا عليه السّلام هو الخليفه بعد النّبي مباشره، فهذا لا يعنى أن يكون على عليه السّلام وليا في زمن الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم، لأنّ ولايته في زمن النّبي لم تكن ولايه فعليه، بل كانت ولايه بالقوه، و أن ظاهر الآيه -موضوع البحث- يدل على الولايه الفعليه.

الجواب:

نلاحظ كثيرا في كلامنا اليومي -و كذلك في النصوص الأدبيه- اطلاق اسم معين أو صفه خاصّه على أفراد لا يتمتعون بمزاياها الفعليه، بل يمتلكون المزيه أو المزايا بالقوه، و هذا مثل أن يوصى انسان في حياته و يعين لنفسه وصيا و قيما على أطفاله فيكون الشخص الثّاني فور اقرار الوصيه من قبل الشخص الأوّل وصيا و قيما، و يدعى بهذين العنوانين حتى لو كان الإنسان الموصى باقيا على قيد

ص: ٥٣

و نحن نقرأ فى الروايات التى نقلت فى أسانيد الشيعه و السنه عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم بحق على عليه السلام أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم دعا عليا: وصيه و خليفته، فى حين أن هذين العنوانين لم يكونا ليتحققا فى زمن النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

و القرآن المجيد- أيضا- يشتمل على مثل هذه التعابير، و من ذلك ما ورد عن (زكريا) الذى توسل إلى الله بقوله: .. فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِئُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ.. (١) و المعروف أن المراد- هنا- من كلمه (ولى) المشرف الذى يتولى شؤون الإشراف بعد الموت كما يعين الكثير من الناس فى حياتهم من يقوم مقامهم بعد الموت، و يسمى الشخص المعين منذ لحظه تعيينه بالنائب أو الخليفه مع كون هذه الصفات بالقوه، و ليست بالفعل.

٦- و احتجوا- أيضا- بقولهم: لماذا لم يعتمد على عليه السلام على هذا الدليل الواضح للدفاع عن حقه؟ الجواب:

لقد لاحظنا- من خلال البحث الذى تناول الروايات فى سبب نزول هذه الآيه- أن هذا الحديث قد نقل فى كتب عديده عن الإمام على عليه السلام نفسه، و من ذلك ما جاء فى مسند «ابن مردويه» و «ابن الشيخ» و «كنز العمال» و هذا بذاته دليل على استدلال الامام على عليه السلام بهذه الآيه الشريفه.

و نقل فى كتاب (الغدير) القيم عن كتاب (سليم بن قيس الهلالي) حديث مفصل مفاده أن عليا عليه السلام حين كان منشغلا بحرب صفين، تحدث فى ميدان الحرب امام جمع من الناس مستدلا بدلائل عديده فى إثبات حقه، و كان من جمله ما استدل به الإمام على عليه السلام هذه الآيه الكريمه (٢).

و جاء فى كتاب (غايه المرام) نقلا عن أبى ذر رضى الله عنه أنّ عليا عليه السلام استدل فى يوم الشورى بهذه الآيه (١).

٧- وقد ادعوا- أيضا- أنّ هذا التفسير الذى أوردناه موضوع البحث لا- يتناسب أو لا يتلاءم مع الآيات الواردة قبل و بعد هذه الآيه، لأن تلك الآيات جاءت فيها كلمه «الولاية» بمعنى الصداقه.

الجواب:

لقد قلنا مرارا- أنّ الآيات القرآنيه بسبب نزولها بصورة تدريجيه، و بحسب الوقائع المختلفه تكون دائما ذات صله بالأحداث التى نزلت الآيات فى شأنها، أى أنّ الآيات الواردة فى سوره واحده أو الآيات المتعاقبه، ليست دائما ذات مفهوم مترابط، كما لا تشير دائما إلى معنى واحد، و لذلك يحصل كثيرا أن تروى لآيتين متعاقبتين حادثتان مختلفتان أو سببان للنزول، و تكون النتيجة أن ينفصل مسير و اتجاه كل آيه- لصلتها بحادثه خاصه- عن مسير الآيه التالیه لها لاختلاف الحادثه التى نزلت بشأنها، و بما أنّ آيه **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ**... بدلاله سبب نزولها جاءت فى شأن تصدق الإمام على عليه السلام أثناء الركوع، أمّا الآيات السابقه و اللاحقه لها- كما رأينا و سنرى- فقد نزلت فى أحداث أخرى، لذلك لا يمكن الاعتماد- هنا كثيرا على مسأله ترابط المفاهيم فى الآيات.

و هناك نوع من التناسب بين الآيه- موضوع البحث- و الآيات السابقه و اللاحقه لها، لأنّ الآيات الأخرى تضمنت الحديث عن الولاية بمعنى النصره و الإعانه، بينما الآيه- موضوع البحث- تحدثت عن الولاية بمعنى القيادة و التصرف، و بديهي أنّ القائد و الزعيم و المتصرف فى أمور جماعه معينه، يكون فى نفس الوقت حاميا و ناصرا و صديقا و مجبا لجماعته، أى أن مسأله النصره و الحمايه تعتبر من مستلزمات و شؤون الولاية المطلقه.

ص: ٥٥

٨- وأخيراً قالوا: من أين أتى على عليه السلام بذلك الخاتم النفيس؟ و سألوا أيضاً: ألا يعتبر ارتداء خاتم بتلك القيمه العاليه نوعاً من الإسراف؟ ألا تعتبر هذه الأمور دليلاً على عدم صحه التفسير المذكور.

الجواب:

إنّ المبالغات الواردة بشأن قيمه الخاتم الذى تصدق به على عليه السلام أثناء الركوع لا أساس لها مطلقاً، ولا يقوم عليها أى دليل مقبول- وما جاء فى قيمه ذلك الخاتم من أنّه كان يعادل خراج الشام مبالغه أقرب إلى الأسطوره منه إلى الحقيقه، وقد جاء ذلك فى روايه ضعيفه (١) و لعل هذه الروايه وضعت لتشويه حقيقه القضيّه الأصليه و إظهارها بمظهر الأمر التافه، وقد خلت الروايات الصحيحه-التي وردت حول سبب نزول هذه الآيه-من أى أثر لمثل هذه الأسطوره.

و على هذا الأساس لم يتمكن أحد من تهميش هذه الوقعه التاريخيه التي أشارت إليها الآيه الكريمه-بمثل هذه الحكايه التافهه.

ص: ٥٦

١- ١) -جاءت هذه الروايه مرسله فى تفسير البرهان، ج ١، ص ٤٨٥.

اشاره

وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)

التفسير

جاءت هذه الآيه مكمله لمضمون الآيه السابقه، وهى تؤكد و تتابع الهدف المقصود فى تلك الآيه، و تعلن للمسلمين أن النصر سيكون حليف أولئك الذين يقبلون القيادة المتمثله فى الله و رسوله و الذين آمنوا، الذين أشارت إليهم الآيه السابقه.

و تصف الآيه الذين قبلوا بهذه القيادة بأنهم من حزب الله المنصورون دائما، حيث تقول وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ .

و تشتمل هذه الآيه-أيضا-على قرينه أخرى تؤكد المعنى المذكور فى تفسير الآيه السابقه لكلمه (الولاية) و هو الإشراف و التصرف و الزعامه، لأن عباره (حزب الله) و التأكيد على أن الغلبه تكون لهذا الحزب-فى الآيه-لهما صلته بالحكومه الإسلاميه، و لا علاقته لهما بقضيه الصداقه التى هى أمر بسيط و عادى، و هذا يؤكد بنفسه أن الولاية-الوارده فى الآيه-تعنى الأشرف و الحكم القيادة بالإسلام و المسلمين، لأن معنى الحزب يتضمن التنظيم و التضامن

و الاجتماع لتحقيق أهداف مشتركه.

و يجب الانتباه إلى نقطه مهمه و هى أنّ المراد بعبارة الَّذِينَ آمَنُوا الواردة فى هذه الآيه ليسوا جميع الأفراد المؤمنين، بل ذلك الشخص الذى ذكر فى الآيه السابقه و أشير إليه بأوصاف معينه.

أمّا قضيه الغلبه أو الإنتصار كفلته الآيه لحزب الله فهل هو الإنتصار المعنوى وحده، أم يشمل الإنتصار على كل الأصعبه و فى جميع المجالات الماديه و المعنويه؟ لا- شك أنّ الإطلاق فى الآيه الكريمه يدل على الإنتصار الشامل فى جميع الجبهات، و بديهى أنّ أى جماعه تنضوى تحت لواء حزب الله، أى تتحلى بالإيمان القوى و تلتزم التقوى و تدأب على العمل الصالح و تسعى إلى الاتحاد و التكافل و التضامن و تتمتع بالوعى الكافى، فهى لا- شك ستنال النصر فى كل المجالات و على جميع الأصعبه، و العجز الذى نشهده اليوم بين المسلمين عن نيل مثل هذا الإنتصار إنّما هو بسبب افتقارهم- فى الغالب- إلى الصفات التى ذكرناها أعلاه، و التى هى صفات الأفراد المنضوين تحت لواء حزب الله، و لذلك فهم بدلا من أن يستخدموا قواهم و طاقتهم فى طرد الأعداء و حل مشاكلهم الاجتماعيه يصرفون هذه القوى فى إضعاف بعضهم البعض.

و قد ذكرت الآيه (٢٢) من سوره المجادله- أيضا- قسما من صفات حزب الله، سنأتى على شرحها بإذن الله عند تفسير هذه السوره.

ص: ٥٨

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَ لَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَ الْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (۵۷) وَ إِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَ لَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (۵۸)

سبب النزول

جاء في تفاسير (مجمع البيان) و (أبو الفتوح الرازي) و (الفخر الرازي) أن اثنين من المشركين يدعيان (رفاعه) و (سويد) تظاهرا بإعلان الإسلام ثم انضموا إلى المنافقين، و كان لبعض المسلمين صحبه مع هذين الشخصين و يظهرون لهما التودد، فنزلت الآيتان الأخيرتان و نهت هؤلاء المسلمين من عملهما ذلك (و يتضح هنا أنه حين تتحدث هاتان الآيتان عن الولايه فالمقصود هو الصيحه و الصداقه و الموده لأن سبب نزولهما يختلف عن سبب نزول الآيتين السابقتين، و لا يمكن اعتبار إحداهما قرينه للأخرى).

أمّا بخصوص سبب نزول الآيه الثانيه من الآيتين الأخيرتين، فنقل أنّ جماعه من اليهود و بعضا من النصارى حين كانوا يسمعون صوت الأذان، أو

حينما يرون المسلمين و هم يقيمون الصلاه يبادرون إلى الاستهزاء بهم، لذلك حذر القرآن المجيد المسلمين عن التودد إلى هؤلاء و أمثالهم.

التفسير

إشاره

يحذر القرآن في الآيه المؤمنين من اتخاذ أصدقاء لهم من بين المنافقين و الأعداء، إلا أنه لأجل استثاره عواطف المؤمنين و استقطاب انتباههم إلى فلسفه هذا الحكم خاطبهم بهذا الأسلوب، كما تقول الآيه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَ لَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَ الْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَ لِتَأْكِيدِ التَّحْذِيرِ تَقُولُ الْآيَةُ فِي الْخَتَامِ: وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ بِمَعْنَى أَنَّ التَّوَدُّدَ مَعَ الْأَعْدَاءِ وَ الْمُنَافِقِينَ لَا يَتَنَاسَبُ وَ التَّقْوَى وَ الْإِيمَانَ أَبَدًا.

«الهزو» هو الكلام المصحوب بحركات تصور السخرية، و يستخدم للاستخفاف و الاستهانه بشيء أو شخص معين، و فسّر «الراغب» في كتابه (المفردات) الهزو بأنه يقال لفعل المزاح و الاستخفاف الذي يصدر بشأن شخص في غيابه، كما يطلق في حالات نادره على المزاح أو الاستخفاف الذي يحصل بشخص معين في حضوره.

أما «اللعب» فهو الذي يصدر عبثًا و بدون هدف صحيح، أو خاليا من أى هدف و سميت بعض أفعال الصبيان لعبًا لنفس السبب.

و الآيه الثانيه من الآيتين الأخيرتين تتابع البحث في النهى عن التودد إلى المنافقين و جماعه من أهل الكتاب الذين كانوا يستهزئون بأحكام الإسلام، و تشير إلى واحد من ممارساتهم الاستهزائية دليلا و شاهدا على هذا الأمر، فتقول:

إِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَ لَعِبًا...

(١)

ص : ٦٠

(١-١) -اختلف المفسرون في الضمير الوارد في كلمه (اتخذوها) هل يعود إلى الصلاه أو إلى النداء و تفيد أسباب النزول-التي

بعد ذلك تبين الآيه الكريمه دوافع هذا الاستهزاء، فتذكر أنّ هذه الجماعه إنّما تفعل ذلك لجهلها و ابتعادها عن الحقائق، فتقول:
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ

الأذان شعار اسلامى كبير:

إنّ لكل أمّه فى أى عصر أو زمان كانت-شعار خاص بها تنادى به أفرادها و تستحث به همهم للقيام بواجباتهم الفرديه و الاجتماعيه، و يشاهد هذا الأمر فى عالمنا الحاضر بصورة أوسع.

فالمسيحيون ينادون قومهم و يدعونهم لحضور الصلاه فى الكنائس بدق الناقوس و هذه هى طريقتهم و شعارهم سابقا و حاضرا. و الإسلام جاء بالأذان شعارا لدعوه المسلمين، حيث يعتبر هذا الشعار أكثر تأثيرا و جاذبيه فى نفوس الناس قياسا بشعارات الديانات و الأمم الأخرى، فقد ذكر صاحب تفسير (المنار) أنّ بعض المسيحيين المتطرفين حين يستمعون إلى أذان المسلمين لا يجدون بدأ من يعترفوا بتأثيره المعنوى العظيم فى نفوس سامعيه، و ينقل صاحب المنار- أيضا- أنّ بعضهم فى إحدى مدن مصر شاهد جماعه من النصارى كانوا قد اجتمعوا أثناء أذان المسلمين للاستماع إلى هذا اللحن السماوى.

فأى شعار أقرب إلى الذوق و آنس إلى الأسماع من شعار يبدأ بذكر اسم الله و يشهد بتوحيده و وحدانيته و نبوه رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم، و يدعو إلى الفلاح و العمل الصالح، و ينتهى- كذلك- بذكر الله!! فبدايته اسم «الله» و ختامه اسم (الله) فى جمل موزونه متناغمه، ذات عبارات قصيره واضحه المعنى و ذات محتوى تربوى بّناء.

و لذلك أكّدت الروايات الإسلاميه كثيرا على ضروره أداء الأذان، فقد ورد

(١)

أشير إليها سابقا- صحه الاحتمالين، لأنّ المنافقين و الكفار كانوا يستهزئون بالأذان و الصلاه معا، لكن ظاهر الآيه يعزز الاحتمال الأول، أى أن الضمير يعود على الصلاه.

ص: ٦١

عن النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم حديث معروف في هذا المجال، أنه قال: المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة (١) و هذا العلو هو نفس علو منزله القيادة التي تدعو الناس إلى الله وإلى عباده كالصلاة.

إن صوت الأذان الذي ينطلق في أوقات الصلاه من مآذن المدن الإسلامية بمثابة نداء الحريه و النسيم الذي يهب الحياه لروح الاستقلال و المجد، و يدغدغ أذان المسلمين الأبرار و يثير الرعب و الخوف في نفوس الأعداء الحاقدين، و يعتبر رمزا من رموز بقاء الإسلام، و الدليل على هذا الأمر اعتراف أحد رجالات انجلترا المعروفين الذي قال أمام جمع من المسيحيين: ما دام اسم النبي محمد صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم يرفع على المآذن، و ما دامت الكعبه باقيه و ما دام القرآن يهدى و يوجه المسلمين، فلا يمكن أن تترسخ قواعد سياسته الإنجليز في الأراضي الإسلامية (٢).

و بالرغم من ذلك فإن بعض المسلمين البؤساء أراحوا مؤخرا هذا الشعاع الإسلامي العظيم-الذي هو سند و مستمسك حتى على صمود و مقاومه دينهم و ثقافتهم على مر العصور-من إذاعاتهم و وضعوا مكانه برامج رخيصه، نسأل الله أن يهدى هؤلاء للعودة إلى صفوف المسلمين.

و من الطبيعي أن الأذان-لفحواه و محتواه الجميل البديع-يحتاج أدائه إلى صوت مقبول، لكي لا يشوه الأداء غير المستساغ هذا المحتوى الجميل الجذاب.

نزول الأذان وحيا على النبي:

وردت في بعض الروايات المنقوله من طرق أهل السنه قصص غريبه حول تشريع الأذان لا- تتناسب و لا- تتلاءم مع المنطق الإسلامي، و مما نقلوا في هذا الباب أن النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم بعد أن سأله أصحابه عن إيجاد طريقه لمعرفة أوقات الصلاة،

ص: ٦٢

١- (١) -الوسائل: ج ٥، ص ٣٧٦، باب ٢، ح ٢١.

٢- (٢) -صاحب هذا القول «كلودستون» الذي يعتبر من السياسيين المتفوقين في عصره.

استشار الصحابه،فقدم كل منهم اقتراحا،و من ذلك رفع علم خاص فى أوقات الصَّلاه أو إشعال نار،أو دق ناقوس،لكن النَّبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ لم يوافق على أى من هذه الاقتراحات،ثمَّ أن عبد الله بن زيد و عمر بن الخطاب-رأيا فى المنام- شخصا يأمرهما بأداء الأذان لإعلان وقت الصَّلاه،و علمهما كيفية هذا الأذان،فقبل النَّبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ ذلك (١).

إنَّ هذه الروايه المختلفه تعتبر اهانته لمنزله النَّبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ الرفيعه،حيث تدعى أن النَّبى-بدلا من أن يعتمد على الوحي-استند على حلم رآه أفراد من أصحابه فى تشريع الأذان.

و الصحيح فى هذا الباب ما

ورد فى روايات أهل البيت عليهم السَّلام من أن الأذان نزل وحيًا على النَّبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ،يحدثنا الإمام الصادق عليه السَّلام أنَّ النَّبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ كان واضعا رأسه فى حجر على عليه السَّلام حين نزل جبرائيل بالأذان و الإقامه،فعلَّمهما للنَّبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ ثمَّ رفع النَّبى رأسه و سأل عليًا إن كان قد سمع صوت أذان جبرائيل،فردَّ على عليه السَّلام بالإيجاب،فسأله النَّبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ مرَّه ثانيه إن كان قد حفظ ذلك،فردَّ على عليه السَّلام بالإيجاب أيضا-ثمَّ طلب النَّبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ من على عليه السَّلام أن ينادى بلالا-الذى كان يتمتع بصوت جيد-و يعلمه الأذان و الإقامه،فاستدعى على عليه السَّلام بلالا و علمه الأذان و الإقامه (٢).

و للاستزاده من التفاصيل فى هذا الباب يمكن مراجعه كتاب(النص و الاجتهاد)للسيد عبد الحسين شرف الدين-ص ١٢٨.

ص: ٦٣

١-١) -تفسير القرطبي.

٢-٢) -الوسائل، ج ٤، ص ٦١٢.

اشاره

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْتَهُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠)

سبب النزول

اشاره

نقل عن عبد الله بن عباس أنّ جماعه من اليهود جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وطلبوا منه أن يشرح لهم معتقداته، فأخبرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه يؤمن بالله الواحد الأحد، و يؤمن بأنّ كل ما نزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى وجميع الأنبياء هو الحقّ، وأنّه لا يفرق بين أنبياء الله، فأجابوه بأنهم لا يعرفون عيسى ولا يؤمنون بنبوته، ثم قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّهم لا يعرفون ديناً أسوأ من دينه! فنزلت هاتان الآيتان ردّاً على هؤلاء الحاقدين.

فى هذه الآيه يأمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يسأل أهل الكتاب عن سبب اعتراضهم و انتقادهم للمسلمين، و هل أن الإيمان بالله الواحد الأحد و الإعتقاد بما أنزل على نبي الإسلام و الأنبياء الذين سبقوه يجابه بالاعتراض و الانتقاد، حيث تقول الآيه:

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَ مَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ...

(١)

و تشير هذه الآيه-أيضا-إلى جانب آخر من جوانب صلف و وقاحه اليهود و تطرفهم غير المبرر، و نظرتهم الضيقه الأحاديه الجانب التي دفعت بهم إلى الاستهانه بكل شخص و دين غير أنفسهم و دينهم، و هم لتطرفهم ذلك كانوا يرون الحق باطلا و الباطل حقًا.

و تأتي فى آخر الآيه عبارته تبين عله الجملة السابقه، حيث تبين أن اعتراض اليهود و انتقادهم للمسلمين الذين آمنوا بالله و بكتبه، ما هو إلا لأن أكثر اليهود من الفاسقين الذين انغمسوا فى الذنوب، و لذلك فهم-لأنحرافهم و تلوثهم بالآثام- يعيرون على كل انسان ظاهر اتباعه للصواب و سيره فى طريق الحق حيث تؤكد الآيه: وَ أَنْ أَكْثَرَ كُمْ فَاسِقُونَ .

و بديهي أن المقاييس فى محيط موبوء بالفساد و الفسق، تنقلب-أحيانا- بحيث يصبح الحق باطلا و الباطل حقا، و يصبح العمل الصالح و الإعتقاد النزيه شيئا قبيحا مثيرا للاعتراض و الانتقاد، بينما يعتبر كل عمل قبيح شيئا جميلا جديرا بالاستحسان و المديح، و هذه هى طبيعه المسخ الفكرى الناتج عن الانغماس فى الخطايا و الذنوب إلى درجه الإدمان.

و تجدر الإشارة إلى أن هذه الآيه تنتقد جميع أهل الكتاب، و واضح أنها

ص: ٦٥

١ - ١) - إن كلمة «تنقمون» مشتقة من المصدر «نقمه» و تعنى فى الأصل إنكار شىء معين نطقا أو فعلا- كما تأتي بمعنى إيقاع العقاب أو الجزاء.

عزلت حساب الأقلية الصالحة بدقه عن الأكثرية الآثمه باستخدام كلمه (أكثر كم) فى العبارة الأخيره منها.

الآيه الثانيه تقارن المعتقدات المحرفه و أعمال أهل الكتاب و العقوبات التى تشملهم بوضع المؤمنين الأبرار من المسلمين لكى يتبين أى الفريقين يستحق النقد و التفریح، و هذا بذاته جواب منطقی للفت انتباه المعاندين و المتطرفين فى عصبيتهم.

و فى هذه المقارنه تطلب الآيه من النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يسأل هؤلاء: هل أن الإيمان بالله الواحد و بكتبه التى أنزلها على أنبيائه أجدر بالنقد و الاعتراض، أم الأعمال الخاطئه التى تصدر من أناس شملهم عقاب الله؟ فتخاطب الآيه النبى بأن يسأل هؤلاء: إن كانوا يريدون التعرف على أناس لهم عند الله أشد العقاب جزاء ما اقترفوه من أعمال، حيث تقول: قُلْ هَلْ أُتْبِكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمْ مُثَوَّبَةً عِنْدَ اللَّهِ... (١).

و لا شك أن الإيمان بالله و كتبه ليس بالأمر غير المحمود، و أن المقارنه الجاريه فى هذه الآيه بين الإيمان و بين أعمال و أفكار أهل الكتاب، هى من باب الكنايه، كما ينتقد انسان فاسد إنسانا تقيا فيسأل الإنسان التقى ردا على هذا الفاسد: أيهما أسوأ الأتقياء أم الفاسدون.

بعد هذا تبادل الآيه إلى شرح الموضوع، فتبين أن أولئك الذين شملتهم لعنه الله فمسخهم قرودا و خنازير، و الذين يعبدون الطاغوت و الأصنام، إنما يعيشون فى هذه الدنيا و فى الآخره وضعا أسوأ من هذا الوضع، لأنهم ابتعدوا كثيرا عن طريق الحق و عن جاده الصواب، تقول الآيه الكريمة:

ص: ٦٦

١- ١) - إن كلمه (مثوبه) و كذلك كلمه (ثواب) تعنيان- فى الأصل- الرجوع أو العوده إلى الحاله الأولى، كما تطلقان- أيضا- لتعنيا المصير و الجزاء (الأجر أو العقاب) لكنهما فى الغالب تستخدمان فى مجال الجزاء الحسن، و أحيانا تستخدم كلمه (الثواب) بمعنى العقاب و فى الآيه جاءت بمعنى المصير أو العقاب.

مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلَّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ

(١)

و سنتطرق إلى معنى المسخ الذى يتغير بموجبه شكل الإنسان، و هل أنّ هذا التغير فى الشكل يشمل صورته الجسميه، أم المراد التغير الفكرى و الأخلاقى؟ و ذلك عند تفسير الآيه (١٦٣) من سوره الأعراف، و بصوره مفصله بإذن الله.

ص: ٦٧

١ - ١) - إنّ كلمه (سواء) تعنى فى اللغه (المساواه و الاعتدال و التساوى) و ان وجه تسميه الصراط المستقيم فى الآيه: سَوَاءِ السَّبِيلِ لأنّ جميع أجزاء هذا الطريق مستويه و لأن طرفيه متساويان و ممهدان، كما تطلق هذه التسميه على كل طريقه تتسم بالاعتدال و تخلو من الانحراف، و يجب الانتباه هنا- أيضا- إلى أن عبارته عِبَادَةُ الطَّاغُوتِ عطف على جملة مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ و كلمه (عبد) فعل ماض و ليست صيغه جمع لعبد مثلما احتمله البعض من المفسرين و إطلاق تسميه عِبَادَةُ الطَّاغُوتِ على أهل الكتاب، إمّا أن يكون إشاره إلى عباده العجل من قبل اليهود، أو إشاره إلى انقياد أهل الكتاب الأعمى لزعمائهم و كبارهم المنحرفين.

اشاره

وَ إِذَا جَاؤُكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي
الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ أَكَلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْ لَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّائِيُّونَ وَ الْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَكَلِهِمُ السُّحْتَ
لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣)

التفسير

الآيه الاولى من هذه آيات الثلاث- و استكمالا للبحث الذى تناولته الآيات السابقه حول المنافقين- تكشف عن ظاهره الازدواجيه
النفاقية عند هؤلاء، و تنبيه المسلمين إلى أن المنافقين حين يأتونهم يتظاهرون بالإيمان و قلبهم يغمره الكفر، و يخرجون من
عندهم المسلمين و لا يزال الكفر يملأ قلوبهم، حيث لا يترك منطق المسلمين و استدلالهم و كلامهم فى نفوس هؤلاء المنافقين
أى أثر يذكر، تقول الآيه الكريمة:

وَ إِذَا جَاؤُكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ...

و لذلك يجب على المسلمين أن لا ينخدعوا بهؤلاء الذين يتظاهرون بالحق و الإيمان،

و يبدون القبول لأقوال المسلمين رياء و كذبا.

و تؤكد الآية أنّ المنافقين مهما تستروا على نفاقهم، فإنّ الله يعلم ما يكتُمون.

ثمّ تبين الآية الأخرى علائم من نوع آخر للمنافقين، فتشير إلى أنّ كثيرا من هؤلاء فى انتهاجهم طريق العصيان و الظلم و أكل المال الحرام، يتسابقون بعضهم مع بعضهم الآخر تقول الآية: وَ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ... (١) أى أن هؤلاء يسرعون الخطى فى طريق المعاصى و الظلم، و كأنّهم يسعون إلى أهداف تصنع لهم الفخر و المجد، و يتسابقون فيما بينهم فى هذا الطريق دون خجل أو حياء.

و تجدر الإشارة- هنا- إلى أنّ كلمة «إثم» قد وردت بمعنى (الكفر) كما وردت لتعنى جميع أنواع الذنوب أيضا، و بما أنّها اقترنت فى هذه الآية بكلمة (العدوان) قال بعض المفسرين: أنّها تعنى الذنوب التى تضرّ صاحبها فقط، على عكس العدوان الذى يتعدى طوره صاحبه إلى الآخرين، كما يحتمل أن يكون مجيء كلمة (العدوان) بعد كلمة (الإثم) فى هذه الآية، من باب ما يصطلح عليه بذكر العام قبل الخاص، و أن مجيء كلمة «السحت» بعدهما هو من قبيل ذكر الأخص.

و عليه فالقرآن قد ذم المنافقين، أولا لكل ذنب اقترفوه، ثم خصص ذنبين كبيرين لما فيهما من خطر- و هما الظلم و أكل الأموال المحرمه، سواء كانت ربا أم رشوه أم غير ذلك.

و خلاصه القول أن القرآن الكريم قد ذم هذه الجماعه من المنافقين من أهل الكتاب، لوقاحتهم و صلفهم و تعنتهم فى ارتكاب أنواع الآثام و بالأخص الظلم

ص: ٦٩

١- ١) - لقد بينا معنى (السحت) فى تفسير الآية (٤٢) من هذه السوره، و شرحنا معنى (يسارعون) فى تفسير الآية (٤١) من هذه السوره أيضا، فى هذا الجزء. أمّا كلمة (إثم) فقد شرحنا معانيها فى تفسير الآية (٢١٩) من سوره البقره، فى المجلد الأول.

و أكل المال الحرام، و لكى يؤكد القرآن قبح هذه الأعمال، قالت الآية: لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ... .

و تدل عبارته كَانُوا يَعْمَلُونَ على أنّ هذه الذنوب لم تكن تصدر عن هؤلاء صدفة، بل كانوا يمارسونها دائما مع سبق إصرار.

بعد ذلك تحمل الآية الثالثة على علمائهم الذين أيدوا قومهم على ارتكاب المعاصى بسكوتهم، فتقول: لَوْ لَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّائِيُّونَ وَ الْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ السُّخْتَ... .

و قد أشرنا سابقا إلى أنّ كلمه (ربّانيون) هي صيغه جمع لكلمه (ربّانى) المشتقه من كلمه (رب) و تعنى العالم أو المفكر الذى يدعو الناس إلى الله، لكنّها قد أطلقت فى كثير من الحالات على علماء المسيحيين، أى رجال الدين المسيحي.

أمّا كلمه (أخبار) فهى صيغه جمع لكلمه (خبر) و هى تعنى العلماء الذين يخلفون أثارا حسنه فى المجتمع، لكنّها أطلقت فى موارد كثيره على رجال الدين اليهود.

أمّا خلو هذه الآية من كلمه (العدوان) التى وردت فى الآية قبلها، فقد استدل بعضهم من ذلك على أن كلمه (الإثم) الوارده هنا تشمل جميع المعانى التى تدخل فى إطار هذه الكلمه و من ضمنها (العدوان).

لقد وردت فى هذه الآية عبارته قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ التى تختلف عمّا ورد فى الآية السابقه، و لعل هذه إشاره إلى أن العلماء مكلفون بردع الناس عن النطق بما يشوبه الذنب من قول، كما هم مكلفون بمنع الناس عن ارتكاب العمل السىء، و لربّما تكون كلمه (قول) الوارده هنا بمعنى (العقيدته) أى أن العلماء الذين يهدفون إلى إصلاح أى مجتمع فاسد، عليهم أولا أن يصلحوا أو يغيروا المعتقدات الفاسده التى تشيع فى هذا المجتمع، فما لم يحصل التغيير الفكرى لا- يمكن توقع حصول اصلاحات جذريه فى الجوانب العمليه، و بهذه الصوره تبين الآية للعلماء أنّ الثوره

الفكرية هي الأساس و المنطلق لكل إصلاح يراد تحقيقه في كل مجتمع فاسد.

و في الختام، يمارس القرآن الكريم نفس أسلوب الذم الذي أتبعه مع أهل المعاصي الحقيقيين، فيذم العلماء الساكتين الصامتين التاركين للأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و يصبح صمتهم هذا، كما تقول الآية: لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

و هكذا تبين أنّ مصير الذين يتخلون عن مسئوليته الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر العظيمه و خاصه إن كانوا من العلماء يكون كمصير أصحاب المعاصي، و هؤلاء في الحقيقة شركاء في الذنب مع العاصين.

و نقل عن ابن عباس المفسر المعروف قوله: بأنّ هذه الآية أعنف آية و بخت العلماء المتجاهلين لمسؤولياتهم الصامتين عن المعاصي.

و بديهى أنّ هذا الحكم لا ينحصر في علماء اليهود و النصارى، بل يشمل كل العلماء مهما كانت دياناتهم إن هم سكتوا و صمتوا أمام تلوث مجتمعاتهم بالذنوب و تسابق الناس في الظلم و الفساد، ذلك لأنّ حكم الله واحد بالنسبة لجميع البشر.

و ورد عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام في إحدى خطبه، أنّ سبب هلاك الأقسام السابقة هو ارتكابهم للمعاصي و سكوت علمائهم عليهم و امتناعهم عن النهي عن المنكر فكان ينزل عليهم -لهذا السبب- البلاء و العذاب من الله، و أنّ على الناس أن يأمروا بالمعروف و ينهوا عن المنكر لكي لا يتورطوا بمصير أولئك الأقسام (١).

كما ورد بنفس هذا المضمون

كلام للإمام على عليه السلام في (نهج البلاغه) في آخر خطبته القاصعه (الخطبه ١٩٢) قوله عليه السلام: «فإنّ الله سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكم إلاّ لتركهم الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر فلعن السفهاء لركوب المعاصي و الحلما لترك التناهي...».

ص: ٧١

و يلفت الانتباه هنا أيضا أنّ الآيه السابقه حين كانت تتحدث عن سواد الناس جاءت بعباره (يعملون) بينما حين صار الحديث فى هذه الآيه عن العلماء جاءت بعباره (يصنعون) و الصنع هو كل عمل استخدمت فيه الدقه و المهاره، بينما العمل يطلق على جميع الأفعال حتى لو كانت خاليه من الدقه، هكذا فإن هذه العبارة (يصنعون) تتضمن بحدّ ذاتها ذما أكبر، و ذلك لأنّ سواد الناس إن ارتكبوا ذنبا يكون ارتكابهم هذا-غالبا-بسبب جهلهم، بينما العالم الذى لا- يؤدى واجبه فهو يرتكب إثما عن درايه و علم و تفكير، و لهذا يكون عقابه أشد و أعنف من عقاب الجاهل.

اشاره

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَ كُفْرًا وَ أَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَ الْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَ يَسْمَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)

التفسير

تبرز هذه الآيه واحدا من المصاديق الواضحه للأقوال الباطله التي كان اليهود يتفوهون بها، وقد تطرقت الآيه السابقه إليها-أيضا- و لكن على نحو كلي.

و يتحدث لنا التاريخ عن فتره من الوقت كان اليهود فيها قد وصلوا إلى ذروه السلطه و القدره، و كانوا يمارسون الحكم على قسم مهم من المعموره، و يمكن الاستشهاد بحكم سليمان و داود كمثال على حكم الدوله اليهوديه، و قد استمر حكم اليهود بعدهما بين رقى و انحطاط حتى ظهر الإسلام، فكان إيذانا بأفول الدوله اليهوديه، و بالأخص في الحجاز، إذ أدى قتال النبي صلى الله عليه و آله و سلم لليهود بنى النضير و بنى قريظه و يهود خيبر إلى إضعاف سلطتهم بصوره نهائيه.

و فى ذلك الوضع كان البعض من اليهود حين يتذكرون سلطتهم القويه السابقه، كانوا يقولون استهزاء و سخرية-إنَّ يد الله أصبحت مقيده بالسلاسل (و العياذ بالله)و أنه لم يعد يعطف على اليهود! و يقال: أنَّ المتفوه بهذا الكلام كان الفخاس بن عازوراء رئيس قبيله بنى القينقاع، أو النباش بن قيس كما ذكر بعض المفسرين.

و بما أنَّ سائر أبناء الطائفة اليهوديه أظهرهم[□] و الرضى عن أقوال كبار قومهم هؤلاء، لذلك جاء القرآن لينسب هذه الأقوال إلى جميعهم، كما تقول الآيه: [□]قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ... .

و يجب الانتباه إلى أنَّ كلمه (اليد) تطلق فى اللغه العربيه على معان كثيره و منها (اليد العضويه) كما أن معانيها (النعمة) و (القدره) و (السلطه) و (الحكم)، و بديهى أنَّ المعنى الشائع لها هو اليد العضويه.

و لما كان الإنسان ينجز أغلب أعماله المهمه بيده، فقد أطلقت من باب الكنايه على معان أخرى.

و تفيدنا الكثير من الروايات الوارده عن أهل البيت عليهم السلام أنَّ هذه الآيه تشير إلى ما كان اليهود يعتقدون به حول القضاء و القدر و المصير و الإراده، حيث كانوا يذهبون إلى أنَّ الله قد عين كل شىء منذ بدء الخليقه، و أنَّ كل ما يجب أن يحصل قد حصل، و أنَّ الله لا يستطيع من الناحيه العمليه إيجاد تغيير فى ذلك (1).

و بديهى أنَّ تتمه الآيه التى تتضمن عباره [□]بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ - كما سيأتى شرحه- تؤيد المعنى الأول، كما يمكن أن يقترن المعنى الثانى بالمعنى الأول فى مسير واحد، لأنَّ اليهود حين أفل نجم سلطانهم، كانوا يعتقدون أن هذا الأقول هو مصيرهم المقدر، و أنَّ يد الله مقيده لا تستطيع فعل شىء أمام هذا المصير.

و الله تعالى يرد على هؤلاء توبيخا و ذما لهم و لمعتقدتهم هذا بقوله:

ص: ٧٤

عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمَا قَالُوا...

ثم لكي يبطل هذه العقيدة الفاسده يقول سبحانه و تعالى بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ... فلا إجبار فى عمل الله كما أنه ليس محكوما بالجبر الطبيعى و لا الجبر التاريخى، بل أن إرادته فوق كل شىء و تعمل فى كل شىء.

و الملفت للنظر هنا أن اليهود ذكروا اليد بصيغته المفرد كما جاء فى الآيه موضوع البحث، لكن الله تعالى من خلال رده عليهم قد ثنى كلمه اليد فقال: بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ و هذا بالإضافة إلى كونه تأكيداً للموضوع، هو كناية لطيفه تظهر عظمه جود الله و عفوه، و ذلك لأن الكرماء جداً يهبون ما يشاءون للغير ببيدين مبسوطتين، أضف إلى ذلك أن ذكر اليدين كناية عن القدره الكامله، أو ربما يكون إشاره إلى النعم الماديه و المعنويه، أو الدنيويه و الأخرويه.

ثم تشير الآيه إلى أن آيات الله التى تفضح أقوال و معتقدات هؤلاء تجعلهم يوغلون أكثر فى صلفهم و عنادهم و يتمادون فى طغيانهم و كفرهم بدلا من تأثيرها الايجابى فى ردهم عن السير فى نهجهم الخاطئ حيث تقول الآيه الكريمه:

و ليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً و كفراً...

بعد ذلك تؤكد الآيه على أن صلف هؤلاء و طغيانهم و كفرهم سيجر عليهم الوبال، فينالهم من الله عذاب شديد فى هذه الدنيا، من خلال تفشى العداة و الحقد فيما بينهم حتى يوم القيامه، فتقول الآيه الكريمه: وَ أَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَ الْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ... .

و قد اختلف المفسرون فى معنى عباره الْعَدَاوَةَ وَ الْبَغْضَاءَ الوارده فى هذه الآيه، لكننا لو تغاضينا عن الوضع الاستثنائى غير الدائم الذى يتمتع به اليهود فى الوقت الحاضر، و نظرنا إلى تاريخ حياتهم المقترن بالتشتت و التشرذم، لثبت لدينا أن هناك عامل واحد لهذا الوضع التاريخى الخاص لهؤلاء، و هو انعدام الاتحاد و الإخلاص فيما بينهم على الصعيد العالمى، فلو كان هؤلاء يتمتعون بالوحده

و الصدق فيما بينهم،لما عانوا طيله تاريخ حياتهم من ذلك التشرد و الضياع و التشتت و التعاسه.

و قد شرحنا قضيه العداوه و البغضاء الدائمه بين أهل الكتاب بشيء من التفصيل عند تفسير الآيه(١٤)من نفس هذه السوره.

و تشير الآيه-فى الختام-إلى المساعى و الجهود التى كان يبذلها اليهود لتأجيج نيران الحروب،و عناية الله و لطفه بالمسلمين فى انقاذهم من تلك النيران المدمره الماحقه،فتقول كُلاًّ مَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ... .

و تعتبر هذه الظاهره إحدى معاجز حياه النبى الأكرم محمد صلى الله عليه و آله و سلم،لأنّ اليهود كانوا الأقوى بين أهل الحجاز و الأ-عرف بمسائل الحرب،بالإضافه إلى ما كانوا يمتلكون من قلاع حصينه و خنادق منيعه،ناهيك عن قدرتهم المالىه الكبيره التى كانت لهم عوناً فى كل صراع بحيث أن قريشا كانوا يستمدون العون منهم،و كان الأوس،و الخزرج يسعى كل منهما إلى التحالف معهم و كسب صداقتهم و نيل العون منهم فى المجال العسكرى،لكنهم فقدوا فجأه قدرتهم المتفوقه-هذه-و طويت صفحه جبروتهم دفعه واحده،بشكل لم يكن متوقعا لديهم،فاضطر يهود بنى النضير و بنى قريظه و بنى القينقاع إلى ترك ديارهم،كما استسلم نزلاء قلاع خيبر الحصينه و سكان فدك من اليهود خاضعين للمسلمين،و حتى أولئك الذين كانوا يقطنون فى فيافى الحجاز منهم اضطروا إلى الخضوع أمام عظمه الإسلام،فهم بالإضافه إلى عجزهم عن نصره المشركين اضطروا إلى ترك ميدان النزال و الصراع.

ثم تبين الآيه-أيضا-أنّ هؤلاء لا- يكفون عن نثر بذور الفتنة و الفساد فى الأرض فتقول: وَ يَشِيعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا... و تؤكد أيضا قائله: وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ .

و يستدلّ من هذا على أن أسلوب المواجهه القرآنى لليهود لم يكن يتركز على

أساس عنصرى مطلقا، بل أن المعيار الذى استخدمه القرآن فى توجيه النقد إليهم، هو معيار الأعمال التى يمكن أن تصدر من أى جنس و عنصر أو طائفه، و سنلاحظ فى الآيات القادمه أن القرآن على الرغم من كل ما صدر من هؤلاء، قد ترك باب التوبه مفتوحا أمامهم.

ص: ٧٧

اشاره

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَ لَوْ أَنَّهْمُ آفَامُوا التَّوْرَاهُ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمُ أُمَّهٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمُ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦)

التفسير

بعد أن وجهت الآيات السابقه النقد لنهج و أسلوب أهل الكتاب، جاءت هاتان الآيتان وفقا لما تقتضيه مبادئ التربيه الإنسانيه لتفتحا باب العوده و التوبه أمام المنحرفين من أهل الكتاب، لكي يعودوا إلى الطريق القويم، و لتريهم الدرب الحقيقي الذي يجب أن يسيروا فيه، و لثمن دور تلك الأقلية من أهل الكتاب التي عاشت في ذلك العصر لكنها لم تواكب الأكثرية في أخطائها، فتقول الآيه الاولى في البدء: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ .

بل ذهبت إلى أبعد من هذا فوعدهتهم بالجنه و نعيمها، إذ قالت: وَ لَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، و هذه إشاره إلى النعم المعنويه الأخرويه.

ثم تشير الآية الثانية إلى الأثر العميق الذي يتركه الإيمان و التقوى- في الحياه الدنيويه للإنسان، فتؤكد أن أهل الكتاب لو طبقوا التوراه و الإنجيل و جعلوهما منهاجا لحياتهم و عملوا لكل ما نزل عليهم من ربهم، سواء في الكتب السماويه السابقه أو في القرآن، دون تمييز أو تطرف لغمرتهم النعم الإلهيه من السماء و الأرض، فتقول الآية: **وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ...**

و بديهي أن المراد من اقامه التوراه و الإنجيل هو اتباعهم لما بقى من التوراه و الإنجيل الحقيقيين في أيديهم في ذلك العصر، و لا يعنى اتباع ما حرّف منهما و الذى يمكن معرفته من خلال القرائن.

و المراد بجمله **مَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ** هو كل الكتب السماويه و الأحكام الإلهيه، لأن هذه الجمله يفهم منها الإطلاق، و هى فى الحقيقه إشاره إلى النهى عن خلط العصبيات القوميه بالوسائل الدينيه الإلهيه، فليس المهم كون هذا الكتاب عربيا أو ذلك الكتاب يهوديا، بل المهم هو الأحكام الإلهيه الوارده فيهما و فى كل الكتب السماويه، أى أن القرآن أراد أن يطفى- ما أمكنه ذلك- نار العصبيه القوميه عند هؤلاء، و يمهد السبيل إلى التغلغل فى أعماق نفوسهم و قلوبهم، لذلك فالضمائر الوارده فى هذه الآيه تعود إلى أهل الكتاب و هى: (إليهم، من ربهم، من فوقهم، و من تحت أرجلهم) و ما ذلك إلا لكى يترك هؤلاء عنادهم و صلفهم، و لكى لا- يتصوروا أن الخضوع و الاستسلام أمام القرآن يعنى استسلام اليهود للعرب، بل هو استسلام و خضوع لربهم العظيم.

و لا- شك أن المراد باقامه التوراه و الإنجيل هو العمل بالمبادئ السماويه الوارده فيهما، لأن جميع المبادئ و التعاليم كما أسلفنا سابقا- التى جاء بها الأنبياء أينما كانوا- واحده لا فرق بينها غير الفرق بين الكامل و الأكمل، و لا يتنافى هذا مع النسخ الذى ورد فى بعض الأحكام الوارده فى الشريعه اللاحقه

لأحكام وردت في شريعته سابقه.

و مجمل القول هو أن الآيه الأخيره تؤكد مرّه أخرى هذا المبدأ الأساسى القائل بأن اتباع التعاليم السماويه التى جاء بها الأنبياء، ليس لأعمار الحياه الآخره التى تأتى بعد الموت فحسب، بل أنّ لها-أيضا-انعكاسات واسعه على الحياه الدنيويه الماديه للإنسان، فهى تقوى الجماعات و تعزز صفوفها و تكثف طاقاتها، و تغدق عليها النعيم و تضاعف امكانياتها و تضمن لها الحياه السعيده المقترنه بالأمن و الاستقرار.

و لو ألقينا نظره على الثروات الطائله و الطاقات البشريه الهائله التى تهدر اليوم فى عالم الإنسان نتيجته للانحراف عن هذه التعاليم، و فى صنع و تكديس أسلحه فتاكه، و فى صراعات لا مبرر لها و مساع هدامه لرأينا أن ذلك كله دليل حى على هذه الحقيقه، حيث أنّ الثروات التى تستخدم لإشاعه الدمار فى هذا العالم- إذا أمعنا النظر جيدا- إن لم تكن أكثر حجما من الثروات التى تنفق فى سبيل البناء، فهى ليست بأقلّ منها.

إنّ العقول المفكره التى تسعى و تعمل جاهده-اليوم-لإكمال و توسيع انتاج الأسلحه الحربيه، و لتوسيع بقعه النزاعات الاستعماريه، إنّما تشكل جزءا مهما من الطاقات البشريه الخلاقه التى طالما احتاجها المجتمع البشرى لرفع احتياجاته، و كم سيصبح وجه الدنيا جميلا- و جذابا لو كانت كل هذه الطاقات تستغل فى سبيل الإعمار؟ و جدير بالانتباه هنا-أيضا-إلى أن عبارتى مِنْ فَوْقِهِمْ و مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ الواردتان فى الآيه الأخيره، معناهما أن نعم السماء و الأرض ستغمر هؤلاء المؤمنين، كما يحتمل أن تكونا كناية عن النعم بصوره عامّه كما ورد فى الآثار الأدبيه العربيه و غيرها قولهم: (إنّ فلانا غرق فى النعمه من قمه رأسه حتى

ص: ٨٠

أخمص قدمه).

كما أنّ هذه الآيه تعد جوابا على أحد أقوال اليهود الذى ورد ذكره فى الآيات السابقه، حيث تؤكد أنّ سبب انقطاع نعم الله عنهم، ليس هو ما زعموه من أن ذات الله المقدسه المنزهه قد شابها البخل (و العياذ بالله) أو أن يده أصبحت مغلوله، بل لأنّ أعمالهم الخبيثه قد انعكست آثارها فى حياتهم الماديه و المعنويه فسودتهما، فإن لم يتوبوا لن ينقذهم الله من آثار هذه الأعمال.

و فى الختام تشير الآيه الكريمه إلى الأقلية الصالحه من أهل الكتاب الذين اختاروا طريق الاعتدال فى حياتهم خلافا لنهج الأغلبيه المنحرفه، فعزل الله حسابهم عن حساب هذه الأكثرية الضاله، حيث تقول الآيه: مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ .

وقد وردت عبارات مشابهه عن الأقلية الصالحه من أهل الكتاب، فى الآيتين (١٥٩ و ١٨١) من سوره الأعراف، و الآيه (٧٥) من سوره آل عمران.

ص: ٨١

اشاره

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)

التفسير

اشاره

اختيار الخليفه مرحله انتهاء الرساله:

إن لهذه الآيه نفسا خاصا يميزها عما قبلها و عما بعدها من آيات، إنها تتوجه بالخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحده و تبين له واجبه، فهي تبدأ بمخاطبه الرسول:

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ

و تأمره بكل جلاء و وضوح أن بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ (١).

ثم لكي يكون التوكيد أشد و أقوى- تحذره و تقول: وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ .

ثم تطمئن الآيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم و كأن أمرا يقلقه- و تطلب منه أن يهدئ من روعه و أن لا يخشى الناس: فيقول له: وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ .

و في ختام الآيه إنذار و تهديد بمعاقبه الذين ينكرون هذه الرساله

ص: ٨٢

١- ١) -عبارة «بَلِّغْ» كما يقول الراجب في «المفردات» أكثر توكيدا من «أبلغ».

الخاصّه و يكفرون بها عنادا، فتقول: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .

أسلوب هذه الآيه، و لحنها الخاص، و تكرر توكيداتها، و كذلك ابتداءؤها بمخاطبه الرسول ﷺ يا أَيُّهَا الرَّسُولُ التي لم ترد في القرآن الكريم سوى مرّتين، و تهديده بأنّ عدم تبليغ هذه الرساله الخاصّه إنّما هو تقصير- و هذا لم يرد إلّا في هذه الآيه وحدها- كل ذلك يدل على أنّ الكلام يدور حول أمر مهم جدا بحيث أن عدم تبليغه يعتبر عدم تبليغ للرساله كلها.

لقد كان لهذا الأمر معارضون أشداء إلى درجه أنّ الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم كان قلقا لخشيته من أنّ تلك المعارضه قد تثير بعض المشاكل بوجه الإسلام و المسلمين، و لهذا يطمئنّه الله تعالى من هذه الناحيه.

هنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي- مع الأخذ بنظر الإعتبار تأريخ نزول هذه الآيه- و هو قطعاً في أواخر حياه الرسول الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم: ترى ما هذا الموضوع المهم الذي يأمر الله رسوله- مؤكّداً- أن يبلغه للناس؟ هل هو ممّا يخص التوحيد و الشرك و تحطيم الأصنام، و هو ما تمّ حله للنبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و للمسلمين قبل ذلك بسنوات؟ أم هو ممّا يتعلق بالأحكام و القوانين الإسلاميه، مع أنّ أهمها كان قد سبق نزوله حتى ذلك الوقت؟ أم هو الوقوف بوجه أهل الكتاب من اليهود و النصراني، مع أنّنا نعرف أنّ هذا لم يعد مشكله بعد الانتهاء من حوادث بني النضير و بني قريظه و بني قينقاع و خيبر و فدك و نجران؟ أم كان أمراً من الأمور التي لها صلّه بشأن المنافقين، مع أنّ هؤلاء قد طردوا من المجتمع الإسلامى بعد فتح مكّه، و امتداد نفوذ المسلمين و سيطرتهم على أرجاء الجزيره العربيه كافه، فتحطمت قوتهم، و لم يبق عندهم إلّا ما كانوا يخفونه مقهورين؟

فما هذه المسأله المهمه-يا ترى-التي برزت فى الشهور الأخيره من حياه رسول صلى الله عليه وآله وسلم بحيث تنزل هذه الآيه و فيها كل ذلك التوكيد؟ ليس ثمه شك أن قلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن لخوف على شخصه و حياته،و إنما كان لما يحتمله من مخالفات المنافقين و قيامهم بوضع العراقيل فى طريق المسلمين.

هل هناك مسأله تستطيع أن تحمل كل هذه الصفات غير مسأله استخلاف النبى صلى الله عليه وآله وسلم و تعيين مصير مستقبل الإسلام؟! سوف نرجع إلى مختلف الروايات الوارده فى الكثير من كتب السنه و الشيعه بشأن هذه الآيه،لكى نتبين إن كانت تنفعنا فى إثبات الاحتمال الذى أوردناه آنفا، ثم نتناول بالبحث الاعتراضات و الانتقادات التى أوردتها بعض المفسرين من السنه حول هذا التفسير.

نزول آيه التبليغ:

على الرغم من أن الأحكام المتسرعه،و التعصبات المذهبيه قد حالت-مع الأسف- دون وضع الحقائق الخاصه بهذه الآيه فى متناول أيدي جميع المسلمين بغير تغطيه أو تمويه،إلا- أن هناك مختلف الكتب التى كتبها علماء من أهل السنه فى التفسير و الحديث و التأريخ،أوردوا فيها روايات كثيره تقول جميعها بصراحه.

إن الآيه المذكوره قد نزلت فى على عليه السلام.

هذا الروايات ذكرها الكثيرون من الصحابه،منهم «زيد بن أرقم»و «أبو سعيد الخدرى»و «ابن عباس»و «جابر بن عبد الله الأنصارى»و «أبو هريره» و «البراء بن عازب»و «حذيفه»و «عامر بن ليلى بن ضميره»و «ابن مسعود»و قالوا:

إنها نزلت فى على عليه السلام و بشأن يوم الغدير.

بعض هذه الأحاديث نقل بطريق واحد مثل روايه زيد بن أرقم.

و بعضها نقل بأحد عشر طريقا، مثل روايه أبي سعيد الخدرى و روايه ابن عباس.

و بعضها نقل بثلاثة طرق، مثل روايه البراء بن عازب، أما العلماء الذين أوردوا هذه الروايات فى كتبهم فهم كثيرون، من بينهم:

الحافظ أبو نعيم الأصفهاني فى كتابه «ما نزل من القرآن فى على» (نقلا عن «الخصائص» الصفحه ٢٩).

و أبو الحسن الواحدى النيسابورى فى «أسباب النزول» الصفحه ١٥٠.

و الحافظ أبو سعيد السجستانى فى كتابه «الولاية» (نقلا عن كتاب «الطرائف»).

و ابن عساكر الشافعى (انظر «الدر المنثور» المجلد ٣ من الصفحه ٢٩٨).

و الفخر الرازى فى «تفسير الكبير» المجلد ٣ الصفحه ٦٣٦.

و أبو إسحاق الحموينى فى «فرائد السمطين».

و ابن الصباغ المالكى فى «الفصول المهمه» الصفحه ٢٧.

و جلال الدين السيوطى فى «الدر المنثور» المجلد ٣ الصفحه ٢٩٨.

و القاضى الشوكانى فى «فتح القدير» المجلد ٣ الصفحه ٥٧.

و شهاب الدين الألوسى الشافعى فى «روح المعانى» المجلد ٦ الصفحه ١٧٢.

و الشيخ سليمان القندوزى الحنفى فى «ينابيع الموده» الصفحه ١٢٠.

و بدر الدين الحنفى فى «عمده القارئ فى شرح صحيح البخارى» المجلد ٨، الصفحه ٥٨٤.

و الشيخ محمد عبده المصرى فى تفسير «المنار» المجلد ٦ الصفحه ٤٦٣.

و الحافظ ابن مردويه (المتوفى سنه ٤١٦) (عن السيوطى فى «الدر المنثور»).

و جماعه كثيرون غيرهم أشاروا إلى سبب نزول هذه الآيه.

و نحن لا نعنى-طبعا-أن العلماء و المفسرين الذين مرّ ذكرهم قد قبلوا نزول الآيه فى على عليه السّلام، بل نقصد أنّهم ذكروا- فقط-الرّوايات الخاصّه بذلك فى كتبهم، و لكنّهم بعد أن نقلوا تلك الرّوايات المعروفه، امتنعوا عن قبولها، إمّا خوفا من الظروف التى كانت تحيط بهم، و إمّا لأنّ التسرع فى الحكم وقف حائلا دون إصدار حكم سليم فى أمثال هذه الأمور، بل لقد سعوا-قدر إمكانهم-أن يعتمدوا الرّؤيه الصحيحه لها و يظهرها بشكل هامشى.

فهذا الرازى-مثلا-و هو المعروف بتعصبه المذهبى فى مسائل خاصّه، أدرج سبب نزول هذه الآيه كاحتمال عاشر بعد إيراد تسعه احتمالات أخرى كلها واهيه و ضعيفه و لا قيمه لها.

و ليس هذا بمستغرب من الرازى، فهذا شأنه فى كل المواضيع. لكننا نتعجب من كتاب مثقفين أمثال سيد قطب، فى تفسيره«فى ظلال القرآن» و محمّد رشيد رضا فى تفسيره«المنار»، الذين أهملوا-كليا-الإشاره إلى سبب نزول هذه الآيه المذكور فى أمهات المصادر الإسلاميه، أو ضعّفوا أهميته بحيث أصبح بتصويرهم لا يستلقت نظرا.

هل كانت الظروف المحيطه بهؤلاء لا تسمح لهم بذكر الحقيقه؟ أم أنّ حجب التعصب أكثف من أن تخترقها أشعه التنوير؟! لا ندرى!! و هناك آخرون اعتبروا نزول الآيه فى على عليه السّلام أمرا مسلّما به، و لكنّهم ترددوا فى الإقرار بأنّها تدل على الولايه و الخلافه. و سنردّ-إن شاء الله-على إشكالات هؤلاء.

على كل حال، إنّ الرّوايات المنقوله فى كتب أهل السنّه المعروفه-دع عنك كتب الشيعه-فى هذا الموضوع من الكثره بحيث لا يمكن إنكارها أو تجاوزها بسهولة.

لسنا ندرى لماذا يكتفى فى أسباب نزول سائر الآيات بحديث واحد أو

حديثين إثنين فقط، ولا تكون كل هذه الروايات الواردة بشأن نزول هذه الآية كافيته؟! أفي هذه الآية من الخصوصيه ما ليس في الآيات الأخرى؟ ترى هل هناك دليل منطقي يسوّغ كل هذا التصلب؟ ثمه موضوع آخر لا بدّ من الإشارة إليه، هو أنّ الروايات التي ذكرناها فيما سبق تتعلق كلها بنزول هذه الآية في علي عليه السّلام، أي الروايات الخاصّه بسبب نزول هذه الآية فقط، أم الروايات الواردة عن حادثه غدیر خم و خطبه الرسول الكريم صلّى الله عليه وآله وسلم وإعلانه وصاياه علي عليه السّلام ولايته، فإنّها أكثر بكثير من تلك، حتى أنّ العلامة الأميني رحمه الله ينقل في كتابه «الغدیر» حديث الغدير عن ١١٠ من صحابه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم مع اسنادها، و عن ٨٤ من التابعين، و عن ٣٦٠ من العلماء و الأدباء المسلمين المعروفين بما لا يدع مجالاً للشك في أنّ حديث الغدير واحد من أوثق الأحاديث المتواتره، و لئن شك أحد في تواتر هذه الروايات فإنه لا يمكنه أن يقبل أي حديث متواتر آخر.

ولما كانت دراسه كل هذه الروايات الخاصّه بشأن نزول هذه الآية، و كذلك البحث في الروايات الخاصّه بحادث الغدير، يتطلب تأليف كتاب ضخّم يخرجنا عن طريقتنا في التفسير، فإننا نكتفي بهذا القدر، و نحيل طالب الاستزاده حول هذا الموضوع الى الكتب التاليه: «الدر المثور» للسيوطي، و «الغدیر» للعلامة الأميني، و «إحقاق الحق» للقاضي نور الدين التستري، و «المراجعات» للسيد عبد الحسين شرف الدين، و «دلائل الصدق» للشيخ محمّد حسن المظفر.

حادثه الغدير بايجاز:

على الرغم من أنّ الروايات التي تذكر هذه الحادثه كثيره و هي تصف واقعه

بعينها، فإنّ الروايات التي عبّرت عنها متنوعه، فبعض هذه الروايات مسهب مطوّل، وبعضها الآخر موجز مكثف، وبعضها يتناول جانباً معيناً من الحادثه، ومن مجموع تلك الروايات ومن التأريخ الإسلامى ومن ملاحظه القرائن والظروف المحيطه بوقوعها وبمكانها يتبين ما يلى:

أنّه فى السنه الأخيره من حياه النبى صلّى الله عليه وآله وسلّم أدى المسلمون مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حجّه الوداع فى عظمه وجلال، وكان لهذه الحجّه أثر كبير فى النفوس، وبعد انتهائها أحاطت بالقلوب هاله من السموّ الروحى، وتشربّت فى الأعماق لذّه هذه العباده الكبرى.

و كانت الجموع الغفيره (١) من المسلمين المشاركين فى تلك الحجّه يكادون يطيطون فرحاً لهذه السعاده الكبرى التى شرفهم الله بها.

لم يكن أهل المدينه وحدهم قد رافقوا النبى صلّى الله عليه وآله وسلّم فى هذه الحجّه، بل التحق بركبه مسلمون توافدوا من سائر أنحاء الجزيره العربيه لينالوا شرف الصبحه فى هذه الحجّه.

كانت الشمس ترسل أشعتها اللافحه المحرقه على الوديان والسهول لكن لذّه هذا السفر الروحى يسّرت كل شىء. اقترب وقت الظهره، واقترب الركب الكبير من أرض الجحفه، وظهرت من بعيد أرض «غدير خم» القاحله الجافه المحرقه.

كانت المنطقه، فى الحقيقه تقع على مفترق طرق أربع حيث كان على الحجيج أن يتفرقوا إلى الوجهه التى يقصدونها فطريق يتجه إلى المدينه نحو الشمال، وآخر يوصل إلى العراق شرقاً، وطريق الغرب يتجه إلى مصر، وطريق الجنوب يصل إلى اليمن. هاهنا كان لا بدّ أن يتحقق أهم فصل من فصول هذه الرحله و آخر ذكرياتها. وكان على المسلمين أن يتلقوا آخر تكليف لهم، أو المرطله النهائيه من المهمات الناجحه التى اضطلع بها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، قبل أن

ص: ٨٨

يتفرقوا إلى حال سبيلهم.

كان يوم الخميس من السنه العاشره للهجره، وقد مضت ثمانيه أيام على عيد الأضحى، وإذا برسول الله صَلَّى الله عليه وآله و سلم يصدر أمره للحجيج بالتوقف، فراح المسلمون يتنادون الذين فى مقدمه الركب أن يعودوا، وانتظروا حتى يلتحق بهم من كان فى المؤخره أيضا. كان الشمس قد تخطت نقطه الزوال، و صعد مؤذن النبى صَلَّى الله عليه وآله و سلم ينادى فى الناس لصلاه الظهر، و أخذ الناس يستعدون-مسرعين-لأداء الصلاه.

كانت الرياح لافحه محرقة، حتى اضطر بعضهم إلى أن يضع قسما من عباءته تحت قدميه و قسما منها فوق رأسه كى يتقى حراره الحصى و أشعه الشمس.

ما كان فى تلك الصحراء ما يستظل به، و لا ما تستريح إليه العين من خضره الأعشاب، اللهم إلا بضع شجيرات عجاف عاريه تصارع حراره الجو صراعا مريرا.

كان جمع قد لجأ إلى هذه الشجيرات و نشر رداءه عليها ليستظل به رسول الله صَلَّى الله عليه وآله و سلم، إلا أن الرياح الساخنه كانت تعصف بتلك المظله فتشتر تحتها حراره الشمس الحارقه.

انتهت صلاه الظهر. و هرع الحجيج يريدون نصب خيامهم الصغيره التى كانوا يحملونها معهم يلوذون بها من حر الهاجره. إلا أن رسول الله صَلَّى الله عليه وآله و سلم أخبرهم أن عليهم أن يستعدوا لسماع رساله إلهيه، جديده فى خطبته، و كان الذين يقفون على مسافه من رسول الله صَلَّى الله عليه وآله و سلم لا يستطيعون رؤيته، لذلك

صنعوا له منبرا من أحداج الإبل ارتقاه رسول الله صَلَّى الله عليه وآله و سلم فقال:

«الحمد لله و نستعينه و نؤمن به، و نتول عليه، و نعوذ به من شرور أنفسنا، و من سيئات أعمالنا الذى لا هادى لمن ضلّ، و لا مضلّ لمن هدى، و أشهد أن لا إله إلا الله، و أن محمدا عبده و رسوله.

أما بعد: أيها الناس قد نبأنى اللطيف الخبير أنه لم يعمر نبى إلا مثل نصف عمر

الذى قبله، و إني أوشك أن أدعى فأجيب، و إني مسئول و أنتم مسئولون، فما ذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك ببلغت و نصحت و جهدت فجزاك الله خيرا.

قال: أستم تشهدون أن لا إله إلا الله، و أن محمدا عبده و رسوله، و أن جنته حق، و ناره حق، و أن الموت حق، و أن الساعة آتية لا ريب فيها، و أن الله يبعث من فى القبور؟ قالوا: بلى نشهد بذلك.

قال: اللهم اشهد، ثم قال:

أيها الناس ألا تسمعون؟ قالوا: نعم.

ثم ساد الجوّ صمت عميق، و لم يسمع فيه سوى أزيز الرياح.. قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم «... فانظروا كيف تخلفوني فى الثقلين».

فنادى مناد: و ما الثقلان، يا رسول الله؟ قال: الثقل الأكبر كتاب الله طرف بيد الله عزّ و جلّ، و طرف بأيديكم فتمسكوا به لا تضلّوا، و الآخر الأصغر عترتى، و إن اللطيف الخبير نبيّانى أنهما لن يتفرّقا حتى يردا علىّ الحوض، فسألت ذلك لهما ربّى، فلا تقدّموهما فتهلكوا، و لا تقصروا عنهما فتهلكوا.

ثم أخذ بيد على فرفعها حتى رأى بياض آباطهما، و عرفه القوم أجمعون، فقال:

أيها الناس: من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: الله و رسوله أعلم.

قال: إن الله مولاي، و أنا مولى المؤمنين، و أنا أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فعلىّ مولاه، «يقولها ثلاث مرات»، و فى لفظ الإمام أحمد إمام الحنابلة:

«أربع مرات». ثم قال: «اللهم و ال من والاه، و عاد من عاداه، و أحبّ من أحبّه،

و أبغض من أبغضه، وانصر من نصره، و اخذل من خذله، و أدر الحقّ معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

ثمّ لم يتفرقوا حتى نزل أمين وحي الله بقوله: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي... الآية. فقال رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلّم:

«الله أكبر على إكمال الدين، و إتمام النعمة، و رضى الرّب برسالتى و الولاية لعلّى من بعدى».

ثمّ طفق القوم يهتفون أمير المؤمنين عليه السّلام و ممن هنّأه أبو بكر و عمر كلّ يقول: بخّ لك يا ابن أبى طالب، أصبحت و أمسيت مولاي و مولى كل مؤمن و مؤمنة.

و قال ابن عباس: وجبت و الله فى أعناق القوم.

و انبرى حسان بن ثابت، شاعر رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلّم يستأذنه فى تخليد ذكرى هذه الحادثة فى شعره، فقال:

يناديهم يوم الغدير نبيهم

بخم و أسمع بالرسول مناديا

فقال: فمن مولاكم و نبيكم؟

فقالوا، و لم يبدوا هناك التعاميا

إلهك مولانا و أنت نبينا

و لم تلق منا فى الولاية عاصيا

فقال له: قم يا علىّ فإنّى

رضيتك من بعدى إماما و هاديا

فمن كنت مولاه فهذا وليه

فكونوا له أتباع صدق و واليا

هناك دعا: اللهم وال وليه

و كن للذى عادى عليا معاديا (1)

محاورات و شبهات:

ليس ثمّ شك في أنّ هذه الآيه، لو لم تكن قد نزلت في خلافه على عليه السلام،

ص: ٩١

(١ - ١) - نقل هذه الأبيات جمع من كبار علماء أهل السنه، منهم: الحافظ أبو نعيم الأصفهاني، والحافظ أبو سعيد السجستاني، و الخوارزمي المالكي، والحافظ أبو عبد الله المرزباني، والكنجي الشافعي، و جلال الدين السيوطي، و سبط بن الجوزي، و صدر الدين الحموي، و غيرهم.

لأ-كتفى فيها-كما قلنا-بأقل مما ورد فيها من روايات و من قرائن موجوده فى الآيه نفسها، فكثير من كبار المفسرين المسلمين يكتفون فى تفسير سائر الآيات القرآنيه حتى بعشر الروايات الموجوده بشأن هذه الآيه، أو أقل من ذلك. و لكن مما يؤسف له أن حجاب التعصب قد حال دون قبول كثير من الحقائق.

إن الذين يحملون لواء المخالفه تجاه تفسير هذه الآيه و الروايات الكثيره الوارده بشأن نزولها، و الروايات المتواتره بخصوص أصل حادثه الغدير، ينقسمون إلى قسمين:

قسم حمل منذ البدايه روح العناد و التعنت، و حمل بشده على الشيعة بالإهانه و السب و الشتم.

و آخرون حافظوا-إلى حد ما-على الروح العلميه فى البحث و التحقيق، و تابعوا القضييه عن طريق الاستدلال، و لذلك فهم يعترفون بجانب من الحقائق، و لكنهم بعد إيرادهم بعض الإشكالات-التي ربما كانت نتيجة لظروفهم الفكرية الخاصه يتركون الوقوف عند الآيه و الروايات المرتبطه بها.

و النموذج البارز الذى يمثل القسم الأول هو ابن تيميه فى كتابه «منهاج السنه» حيث يبدو فيه كمن يغمض عينيه فى رابعه النهار و يضع أصابعه فى أذنيه بشده، ثم ينادى: أين الشمس؟ فلا هو مستعد أن يفتح طرفا من عينه ليرى بعض الحقائق، و لا هو يرضى برفع أصابعه عن أذنيه كى يستمع الى ضجيج المحدثين و المفسرين المسلمين، بل يستمر فى سبه و شتمه و إهانته.

إن دافع هؤلاء هو الجهل و عدم الاطلاع و التعصب المقرون بالعناد، مما دفع بهم إلى إنكار البديهيّات و الواضحات التى لا تخفى على أحد.

لذلك فنحن لا-نجش أنفسنا عناء نقل أقوالهم، و لا-نحمل القراء عناء سماع إجاباتهم، فما ذا يمكن أن يقال لمن ينبى بكل وقاحه لتجاهل هذا الحشد الكبير من كبار علماء الإسلام و المفسرين-و معظمهم من أهل السنه-من الذين أعلنوا

أن تلك الآية قد نزلت بشأن علي عليه السّلام فيدعى -متعامياً عن الحقّ- أن أحداً من العلماء لم يقل شيئاً كهذا في كتابه!! وما قيمه قوله هذا ليستحقّ البحث فيه؟! من الجدير بالذكر أنّ ابن تيمية، في محاولته تبرئته نفسه قبال كل هذه الكتب المعتبرة التي تقول بنزول هذه الآية بحق علي عليه السّلام، يلجأ إلى تعبير مضحك، و يكتفى بقوله: «إن العلماء الذين يعرفون ما يقولون لا يرون أن هذه الآية قد نزلت في علي!! فالظاهر» أنّ العلماء الذين يعرفون ما يقولون» هم أولئك الذين يضمون أصواتهم إلى أصوات ابن تيمية و عناده المفرط. أمّا من لا يضمّ صوته إليه فإنّه عالم لا يدرك ما يقول. وهذا منطلق من ألقى العناد و حبّ الذات على عقله ظلالة مشؤومه، فلندع هؤلاء.

أمّا الشبهات التي أوردتها القسم الثّاني من العلماء، فمنها ما يجدر بالبحث، و سوف نتناولها فيما يلي:

أ- هل معنى «المولى» هو «الأولى بالتصرف»؟

إنّ أهم اعتراض يورد على حادثة الغدير هو أنّ من معاني «مولى» الصديق و النصير و المحب، و من الممكن أن تكون الكلمه هنا بهذا المعنى أيضاً.

ليس رد هذا الاعتراض بصعب، لأنّ كل ناظر منصف يدرك أن تذكير الناس بمحبته علي عليه السّلام لا يقتضى كل تلك المقدمات، لا- إلقاء خطبه في تلك الصحراء القاحله و تحت ذلك الحر المحرق، و إيقاف تلك الجموع و انتزاع الاعترافات المتواليه منهم. إنّ حب المسلم لأخيه المسلم من المفاهيم الإسلاميه الواضحه التي تقررت منذ بدايه الدعوه.

ثمّ إنّ هذا الأمر لم يكن من الأمور التي لم يبلغها رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم حتى ذلك الوقت، بل ثبته و أعلنه مرارا.

كما إنه لم يكن من الأمور التي تثير قلق رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم و تخوفه حتى يطمئنه الله تعالى بشأنه.

ولا كان أمرا على هذا القدر من الأهمية بحيث تتخذ الآيه هذا الأسلوب الشديد في مخاطبه رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم و لا كان أمرا على هذا القدر من الأهمية بحيث تتخذ الآيه هذا الأسلوب الشديد في مخاطبه رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم و سلم: وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتَهُ .

كل هذه تدل على أنّ الأمر كان أكثر من مجرد محبته عاديه تلك المحبته التي كانت من أوليات الأخوه الإسلاميه منذ بزوغ فجر الدعوه الإسلاميه.

ثمّ، إذا كان القصد هو تبيان مثل هذه المحبه العاديه، فلما ذا يعمد رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم إلى استخلاص الاعترافات من الحاضرين قبل بيان قصده، فيسألهم:

«أ لست أولى بكم من أنفسكم» (١)؟ أ يتناسب هذا مع بيان محبته عاديه؟ ثمّ إنّ المحبته العاديه لا تستدعى من الناس، و حتى من عمر نفسه، أن يهنئ عليا عليه السلام بقوله:

«أصبحت مولاي و مولى كل مؤمن و مؤمنه» (٢).

حبّ المسلم واجب، و على كسائر المسلمين، و يجب حبه، و ليس في ذلك شيء جديد يستوجب التهنئه في ذلك اليوم و في آخر سنه من حياه رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم.

ثمّ إنّ هناك ارتباطا بين حديث «الثقلين» (٣) و عبارات وداع رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم و مواله على عليه السلام، و إلاّ فإنّ حبّ على عليه السلام حبا عاديا لا يستدعى أن يجعله رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم في مصافّ القرآن! أ فلا يرى المنصف المحايد في التعبير الوارد في حديث الثقلين أنّ المسأله

ص: ٩٤

١- ١) -وردت هذه العبارة في روايات كثيرة.

٢- ٢) -هذا القسم من الحديث يعرف بحديث «التهنئه» و قد أورده كثير من كبار علماء الحديث و التفسير و التأريخ من أهل السنه، عن طريق عدد من الصحابه، مثل: ابن عباس، و أبي هريره، و البراء بن عازب، و زيد بن أرقم. و قد نقل العلامة الأميني رحمه الله هذا الحديث في المجلد الأوّل من كتابه «الغدیر» عن ستين عالما من علماء أهل السنه!

٣- ٣) -«حديث الثقلين» من الأحاديث المتواتره التي وردت في كتب أهل السنه عن جمع من الصحابه، منهم: أبو سعيد الخدری، و زيد بن أرقم، و زيد بن ثابت، و أبو هريره، و حذيفه بن أسيد، و جابر بن عبد الله الأنصاري، و عبد الله بن حنطب، و عبد بن حميد، و جبير بن مطعم و ضميره الأسلمي، و أبو ذر الغفاري، و أبو رافع، و أم سلمه، عن رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم.

تتعلق بالقياده، لأنّ القرآن هو القائد الأوّل للمسلمين بعد رحيل رسول الله صلّى الله عليه وآله و سلم و أهل البيت عليهم السّلام هو القائد الثّاني؟

٢- ترابط الآيات

قد يقال أحيانا إنّ الآيات السابقه و اللاحقه على هذه الآيه تخص أهل الكتاب و مخالفتهم. و هذا ما يقول به صاحب تفسير «المنار» فى المجلد ٦ صفحه ٤٦٦ و يصر على ذلك.

و لكن لا ضير فى ذلك- كما قلنا فى تفسير الآيه نفسها- لأنّ اختلاف لحن الآيه يختلف عن مواضع الآيات التى قبلها و بعدها. و ثانيا سبق أن قلنا مرارا أن القرآن ليس كتابا أكاديميا يلتزم فى مواضعه أسلوب التبويب و التقسيم إلى فصول و فقرات معينه، بل إنّ آياته نزلت بحسب الحاجات و الحوادث و الوقائع المختلفه الطارئه.

لذلك نلاحظ أنّ القرآن فى الوقت الذى يتكلم عن إحدى الغزوات، ينتقل إلى ذكر حكم من الأحكام الفرعيه- مثلا- و فى الوقت الذى يتحدث عن اليهود و النصارى، يخاطب المسلمين و يذكرهم بأحد القوانين الإسلاميه السابقه. (راجع بحثنا فى بدايه تفسير هذه الآيه لزياده التوضيح).

من العجيب أنّ بعض المتعصبين يصرّون على القول بأنّ هذه الآيه قد نزلت فى أوائل البعته، مع أن سوره المائده نزلت فى أواخر عمر رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم. فإذا قالوا: إنّ هذه الآيه وحدها نزلت فى مكّه فى أوائل البعته، ثمّ أدخلت فى هذه الآيه للتناسب نقول: إنّ هذا على عكس ما تبحثون عنه تماما، لأننا نعرف أن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم فى أوائل البعته لم يصطدم باليهود و لا بالنصارى. و عليه فإن ارتباط هذه الآيه ينقطع بما قبلها و ما بعدها من آيات (تأمل بدقّه).

هذه كلها أدله على أن هذه الآيه قد تعرضت إلى هبوب عواصف التعصب،

فأحاطت بها بعض علامات الاستفهام مما لا يعتور آيات مشابهة أخرى أبدا. أما هذه الآية فكل يحاول من جهه أن يتشبهت بما حرفها عن مسيرها.

٣- أنذكر الصحاح كلها هذا الحديث؟

يقول بعضهم: كيف يمكن قبول هذا الحديث مع أنه لم يرد في صحيحى مسلم و البخارى؟ و هذا من عجائب القول أيضا: فهناك:

أولا: كثير من الأحاديث المعتبره التى قبل بها أهل السنّه مع أنها ليست فى صحيحى مسلم و البخارى، فهذا الحديث ليس الأول من نوعه فى هذه الحاله.

ثانيا: هل أن هذين الصحيحين هما الكتابان الوحيدان الموثقان عندهم، مع أن هذا الحديث قد ورد فى سائر الكتب الأخرى المعتبره عندهم، و حتى فى بعض الصحاح الستة (و هى التى يعتمدها أهل السنه)، مثل «سنن ابن ماجه» (١) و «مسند أحمد» (٢). و هناك علماء مثل «الحاكم النيسابورى» و «الذهبي» و «ابن حجر» اعترفوا بصحة الكثير من طرق هذا الحديث، على الرغم مما عرف عنهم من التعصب.

لذلك فلا يستبعد أن يقع البخارى و مسلم تحت ضغط السياسه الذى ساد زمانهما، فلم يستطيعا، أو لم يشاء أن يقولوا ما لا يتلاءم و رغبه سلطات زمانهما فى كتابيهما.

٤- لم لم يستدل على و أهل البيت عليهم السلام بهذا الحديث؟

يقول بعض: لو كان حديث الغدير- على عظمته- صحيحا فلما ذا لم يستدل به

ص: ٩٦

١-١) -المجلد الأول، ص ٥٥ و ٥٨.

٢-٢) -مسند أحمد، المجلد الأول، الصفحات ٨٤ و ٨٨ و ١١٨ و ١١٩ و ١٥٢ و ٣٣١ و ٢٨١ و ٣٧٠.

على عليه السّلام و أهل البيت عليهم السّلام و أصحابهم و محبّوهم عند اقتضاء الضروره؟ ألم يكن من الخير لو أنّهم استندوا إلى مثل هذا السند المهم لإثبات حق على عليه السّلام؟ هذا أيضا قول آخر ينبع من عدم الإحاطه بالمصادر الإسلاميه فى حقل الحديث و التفسير و التاريخ، إذ أنّ كثيرا من كتب علماء السنه قد ذكرت أن عليا عليه السّلام و أئمّه أهل البيت عليهم السّلام و أتباعهم قد استدلوا فعلا بحديث الغدير.

فهذا الخطيب الخوارزمى الحنفى

فى «المناقب» يروى عن عامر بن وائله، قال:

كنت على الباب يوم الشورى مع على عليه السّلام فى البيت و سمعته يقول: «لأحتجّن عليكم بما لا يستطيع عربىكم و لا عجمىكم تغيير ذلك» ثم قال: «أنشدكم الله أيها النفر جميعا أ فيكم أحد وّحد الله قبلى؟» قالوا: لا (ثم استمر فى تعديد مناقبه و فضائله)... إلى أن قال: «فأنشدكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم: من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه، و عاد من عاداه، و انصر من نصره، ليبلغ الشاهد الغائب، غيرى؟».

قالوا: اللهم لا... الحديث (١) .

هذه الروايه يذكرها الحموينى فى «فرائد السمطين» فى الباب ٥٨، و ابن حاتم فى «الدر النظيم» و الدار قطنى، و ابن عقده، و ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغه.

كذلك نقرأ فى «فرائد السمطين» فى الباب ٥٨ أن عليا عليه السّلام استشهد بحديث الغدير أمام جمع من الناس فى المسجد على عهد عثمان، و فى الكوفه أيضا استند إلى هذا الحديث لتفنيد رأى الذين أنكروا خلافته بعد رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم مباشره.

يقول صاحب كتاب «الغدير»: إنّ أربعة من الصحابه و أربعة عشر من التابعين قد رووا هذا الحديث حسب ما نقلته مصادر أهل السنه المعروفه.

ص: ٩٧

و كما يقول الحاكم النيسابورى- فى الصفحه ٣٧١ من المجلد الثالث- من «المستدرک» فَإِنَّ عَلِيَا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ اسْتَشْهَدَ بِهَذَا الْحَدِيثِ يَوْمَ حَرْبِ الْجَمَلِ أَمَامَ طَلْحَةَ.

كذلك فى حرب صفين- كما يقول سليم بن قيس الهلالي- إَنَّ عَلِيَا كَانَ فِى عَسْكَرِهِ وَ أَمَامَ جَمْعٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ وَ الْقَادِمِينَ مِنْ أَطْرَافِ الْبِلَادِ، فَاسْتَشْهَدَ بِهَذَا الْحَدِيثِ فَقَامَ إِثْنَا عَشَرَ مِنَ الَّذِينَ أُدْرِكُوا بِدِرَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ أَكْدُوا أَنَّهُمْ سَمِعُوا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

و بعد على عليه السَّلَامُ استند إلى هذا الحديث سيده الإسلام فاطمه الزَّهراء عليها السَّلَامُ و الإمامان الحسن و الحسين عليهما السَّلَامُ و عبد الله بن جعفر، و عمَّار بن ياسر، و قيس بن سعد، و عمر بن عبد العزيز، و المأمون الخليفة العباسى.

بل أَنَّ عمرو بن العاص فى رساله له إلى معاويه أراد أن يثبت لمعاويه فيها أنه على علم تام بالحقائق الخاصه بمكانه كل من على عليه السَّلَامُ و معاويه بالنسبه للخلافه، فاستشهد صراحه بحديث الغدير، و قد نقله الخطيب الخوارزمى الحنفى فى كتابه «المناقب» صفحه ١٢٤ (على الذين يرغبون فى المزيد من التوضيح بشأن استدلال على عليه السَّلَامُ و أهل البيت و بعض الصحابه و غير الصحابه بحديث الغدير، أن يرجعوا إلى الصفحات ١٥٩-٢١٣، من المجلد الأول من كتاب «الغدير» فقد أورد العلامة الأمينى رحمه الله أسماء ٢٢ من الصحابه، و غير الصحابه ممن استدلوا بهذا الحديث).

٥- مفهوم الجملة الأخيره من الآيه

يقولون: لو كانت الآيه تخص تنصيب على عليه السَّلَامُ فى الخلافه و الولايه و ترتبط بحديث غدير خم، فما علاقه كل هذا بما جاء فى آخر الآيه: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .

لردّ على هذا الاعتراض يكفى أن نعرف أَنَّ لفظه «الكفر» فى اللغه و فى

القرآن تعنى الإنكار و المخالفه و الترك. فمَرّه يقصد بها إنكار الله و نبوه رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سَلَم، و مَرّه يراد بها إنكار بعض الأحكام أو مخالفتها، ففي الآية (٩٧) من سوره آل عمران فيما يرتبط بالحج نقرأ: وَ مَنِ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ و الآية (١٠٢) من سوره البقره تصف السحره و الذين تلوثوا بالسحر بأنهم كَفَّار:

وَ مَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ، و فى الآية (٢٢) من سوره إبراهيم نرى أَنَّ الشيطان يندد يوم القيامة بأولئك الذين أطاعوه و اتبعوه و يقول لهم: إنكم بعد إطاعتكم أوامر الله قد جعلتمونى شريكاً له، و إنى اليوم أكفر بعملكم ذاك: إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ، و عليه، فلا- عجب أن يطلق القرآن صفه الكفر على الذين يخالفون مسأله الولايه و الخلافه.

٦- هل يمكن وجود ولّيين فى وقت واحد؟

من الذرائع الأخرى التى تذرعوها بها للنكوص عن هذه الحديث المتواتر و الآية المذكوره، هى أنه إذا كان رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سَلَم قد نصب علياً عليه السّلام يوم الغدير للخلافه و الولايه، فإن ذلك يعنى وجود ولّيين و قائدين فى وقت واحد.

إلا- أنّ الالتفات إلى الظروف الزمانيه الخاصه بنزول الآية و ورود الحديث، و كذلك القرائن المستوحاه من خطبه رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سَلَم تنفى هذه الذريعه أيضاً، إنّنا نعلم أنّ هذا الحدث قد جرى فى أواخر عمر رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سَلَم و إنّهُ كان يبلغ الناس بآخر الأوامر لأنّه

قال «و إنى أوشك أن أدعى فأجيب».

إنّ من يقول هذا لا شك فى أنّه بصدد تعيين خليفته، و إنّهُ يضع الخطط للمستقبل، لا للحاضر، كذلك من الواضح، إنّهُ لا يقصد إعلان وجود قائدين أو ولّيين فى وقت واحد.

و ممّا يلفت النظر أنّ بعض علماء أهل السنه الذين يطرحون هذا الاعتراض، يتقدم بعضهم برأى يناقض ذلك تماماً، و هو أن رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سَلَم قد عين علياً عليه السّلام فى

الخلافة و الولاية، و لكنّه لم يعين تاريخ التعيين، فما المانع أن يأتي ذلك بعد ثلاثة خلفاء؟ إنّه لأمر محير حقًا! يتشبهون بألوان المتناقضات لكي يتعدوا عن حقيقه القضية! ألا- يسأل هؤلاء أنفسهم: إذا أراد رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أن يعين خليفته الرابع ضمانا لمستقبل المسلمين، فلما ذا لم يعين الخليفه الأوّل و الثاني و الثالث في يوم الغدير، و هم يتقدمون الرابع و تنصبيهم مقدم على الأوّل؟! و مرّه أخرى نكرر مقولتنا السابقه لنختم به بحثنا هذا، و هي أنّه لو لا- وجود نظرات خاصه في الأمر، لما حدثت كل هذه الاعتراضات و الإشكالات بشأن هذه الآيه و هذا الحديث، كما لم يحدث شيء من ذلك في غيرهما.

اشاره

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسِيْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُتِمُّوا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَ كُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَادُوا وَ الصَّابِئُونَ وَ النَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩)

سبب النزول

اشاره

جاء في تفسير «مجمع البيان» و تفسير القرطبي، عن ابن عباس قال: جاء جماعه من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقالوا: أ لست تقرّ بأن التوراه من عند الله؟ قال: «بلى».

قالوا: فإننا نؤمن بها و لا نؤمن بما عداها (و في الحقيقه فإن التوراه تعتبر القدر المشترك بيننا و بينكم، و لكن القرآن كتاب مختص بكم).

فتزلت الآيه الاولى.

لاحظنا في ما سبق من تفسير آيات هذه السوره أنّ قسما كبيرا منها يدور حول العقبات التي كان يضعها أهل الكتاب «اليهود و النصارى» في طريق المسلمين و ما كانوا يوردونه من مجادله و تساؤل، هذه الآيه-أيضا- تشير إلى جانب آخر من ذلك الموضوع، ترد فيها على منطقهم الواهى الداعى إلى اعتبار التوراه كتابا متفقا عليه بين المسلمين و اليهود، و ترك القرآن باعتباره موضع خلاف.

لذلك فالآيه تخاطب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قائله: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ .

و ذلك لأنّ هذه الكتب- كما قلنا- صادرة عن مبدأ واحد و أصولها واحده، و لما كان آخر هذه الكتب السماويه أكملها و أجمعها فإنّه هو الأجدر بالعمل به، كما أنّ الكتب السابقه تحمل بشارات و ارشادات إلى آخر الكتب، و هو القرآن، فإذا كانوا - حسب زعمهم- يقبلون التوراه و الإنجيل، و كانوا صادقين فى زعمهم، فلا مندوحة لهم عن القبول بتلك البشارات أيضا، و إذ وجدوا تلك العلامات فى القرآن، فإن عليهم أن يحنوا رؤوسهم خضوعا لها.

هذه الآيه تقول أنّ الادعاء لا- يكفى، بل لا- بدّ من إتباع ما جاء فى هذه الكتب السماويه عمليا، ثمّ أن الفضيه ليست «كتابنا» و «كتابكم»، بل هى الكتب السماويه و ما أنزل من الله، فكيف تريدون بمنطقكم الواهى هذا أن تتجاهلوا آخر كتاب سماوى؟ و يعود القرآن ليشير إلى حاله أكثرتهم، فيقرّر أنّ أكثرهم لا يأخذون العبره و العظه من هذه الآيات و لا يهتدون بها، بل أنّهم-لما فيهم من روح العناد- يزدادون فى طغيانهم و كفرهم و ليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً و كُفراً .

و هكذا يكون التأثير المعكوس للآيات الصادقة و القول المتزن فى النفوس المملوءه عنادا و الجاجا.

و فى ختام الآيه يخفف الله من حزن رسوله صلى الله عليه و آله و سلم إزاء تصلب هذه الأكثرية من المنحرفين و عنادهم، فيقول له **فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١)**.

هذه الآيه ليست مقصوده على اليهود-طبعاً-فالمسلمون أيضا إذا اكتفوا بادعاء الإسلام و لم يقيموا تعاليم الأنبياء، و خاصه ما جاء فى كتابهم السماوى، فلن تكون لهم منزله و مكانه لا- عند الله، و لا فى حياتهم الفرديه و الاجتماعيه، بل سيظلون دائما أذلاء و مغلوبين على أمرهم.

الآيه التاليه تعود لتقرر مره أخرى هذه الحقيقه، و تؤكد أنّ جميع الأقوام و أتباع كل المذاهب دون استثناء، مسلمين كانوا أم يهودا أم صابئين (٢) أم مسيحيين، لا ينجون و لا يأمنون الخوف من المستقبل و الحزن على ما فاتهم إلا إذا آمنوا بالله و بيوم الحساب و عملوا صالحا: **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ**.

هذه الآيه، فى الحقيقه ردّ قاطع على الذين يظنون النجاه فى ظل قوميه معينه، و يفضلون تعاليم بعض الأنبياء على بعض، و يتقبلون الدعوه الدينيه على أساس من تعصب قومى، فتقول الآيه إن طريق الخلاص ينحصر فى نبذ هذه الأقوال.

و كما أشرنا فى تفسير الآيه (٦٢) من سوره البقره، التى تقترب فى مضمونها من مضمون هذه الآيه سعى بعضهم بجد ليثبت أنّ هذه الآيه تعتبر دليلا على «السلام العام» و على أنّ أتباع جميع الأديان ناجون، و أن يتجاهل فلسفه نزول الكتب السماويه بالتتابع الذى يدل على تقدم الإنسان فى مسيرته التكاملية

ص: ١٠٣

(١-١) - «فلا تأس» من الأسى، بمعنى الغم و الحزن.

(٢-٢) - الصابئون هم أتباع يحيى أو نوح أو إبراهيم، و قد ذكرناهم بتفصيل أكثر فى المجلد الأول.

و لكن - كما قلنا - تضع الآيه حدًا فاصلا بقولها وَ عَمِلَ صَالِحًا لِكُلِّ قَوْلٍ، و تشخص الحقيقه، بخصوص تباين الأديان، فتوجب العمل بآخر شريعته إلهيه، لأنّ العمل بقوانين منسوخه ليس من العمل الصالح، بل العمل الصالح هو العمل بالشرائع الموجوده و بآخرها (المزيد من الشرح و التوضيح بهذا الشأن انظر المجلد الأول ص ٢١٧).

ثمّ إنّ هناك احتمالاً - مقبولاً - في تفسير عبارته مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صَالِحًا و هو إنّها تختص باليهود و النصارى و الصابئين، لأنّ الَّذِينَ آمَنُوا في البدايه لا تحتاج إلى مثل هذا القيد، و عليه، فإن معنى الآيه يصبح هكذا:

إنّ المؤمنين من المسلمين - و كذلك اليهود و النصارى و الصابئين، بشرط أن يؤمنوا و أن يتقبلوا الإسلام و يعملوا صالحاً - سيكونون جميعاً من الناجين و إن ماضيهم الديني لن يكون له أى أثر في هذا الجانب، و إن الطريق مفتوح للجميع (تأمل بدقه).

اشاره

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا إِذْ هُمْ رُسُلٌ بِنَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١)

التفسير

فى آيات سابقه من سوره البقره، و فى أوائل هذه السوره أيضا اشاره إلى عهد و ميثاق أخذه الله تعالى على بنى إسرائيل و فى هذه الآيه تذكير بهذا الميثاق:

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا

يبدو أنّ هذا الميثاق هو الذى جاءت الإشارة إليه فى الآيه (٩٣) من سوره البقره، أى العمل بما أنزل الله! ثم يضاف إلى ذلك القول بأنهم، فضلا عن كونهم لم يعملوا بذاك الميثاق، كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا و فريقا يقتلون .

هذه هى طرائق المنحرفين الأنانيين و سبلهم، فهم بدلا من إتباع قاداتهم، يصرون على أن يكون القاده هم التابعين و لا هوأئهم، و إلا فليس لهؤلاء الهداه

و الأنبياء حتى حق الحياه.

فى هذه الآيه جاء الفعل «كذبوا» بصيغه الماضى بينما جاء الفعل «يقتلون» بصيغه المضارع، و لعل السبب-بالإضافه إلى المحافظه على التناسب اللفظى فى أواخر الآيات السابقه و التالىه و كلها بصيغه المضارع-هو كون الفعل المضارع يدل على الاستمرار، و القصد من ذلك الإشاره إلى استمرار هذه الروح فيهم، و أن تكذيب الأنبياء و قتلهم لم يكن حدثا عارضا فى حياتهم، بل كان طريقا و اتجاها لهم (١).

فى الآيه التالىه إشاره إلى غرورهم أمام كل ما اقترفوه من طغيان و جرائم:

وَ حَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ

أى ظنوا مع ذلك أن البلاء و الجزاء لن ينزل بهم، و اعتقدوا-كما صرحت الآيات الأخرى-أنهم من جنس أرقى، و أنهم أبناء الله! و أخيرا استحال هذا الغرور الخطير و التكبر إلى ما يشبه حجابا غطى أعينهم و آذانهم: فَعَمُوا وَ صَمُّوا عن رؤيه آيات الله و عن سماع كلمات الحق.

و لكنهم عند ما أصابتهم مظاهر من عقاب الله و شاهدوا نتائج أعمالهم المشؤومه، ندموا و تابوا بعد أن أدركوا أن وعد الله حق، و أنهم ليسوا عنصرا متميزا فائقا.

و تقبل الله توبتهم: ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .

إلا أن حاله الندم و التوبه لم تلبث طويلا، فسرعان ما عاد الطغيان و التجبر و سحق الحق و العدالة، و عادت أغشيه الغفله الناتجه عن الانغماس فى الإثم تحجب أعينهم و آذانهم مره أخرى ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا كَثِيرًا مِنْهُمْ فلم يعودوا يرون آيات أو يسمعون كلمه الحق، و عمت حاله الكثير منهم.

و لعل تقديم «عموا» على «و صموا» يعنى أن عليهم أولا أن يبصروا آيات الله

ص: ١٠٦

١ - ١) فى الواقع و كما جاء فى تفسير «مجمع البيان» و فى غيره إن عبارته، «فريقا كذبوا و فريقا يقتلون» فى الأصل «كذبوا و قتلوا» و «يكذبون و يقتلون».

و معجزات رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، ثُمَّ يَسْتَمِعُوا إِلَى تَعَالِيهِ وَ يَسْتَوْعِبُوهَا.

و ورود عباره كَثِيرٌ مِنْهُمْ بعد تکرار عَمُوا وَ صَمُّوا جاء لتوضیح أنَّ حاله الغفله و الجهل و العمى و الصمم تجاه الحقائق لم تكن عامه، بل كان بينهم بعض الأقلية من الصالحين، و فى هذا دليل على أن تنديد القرآن باليهود لا ينطوى على أى جانب عنصرى أو طائفى، بل هو موجه إلى أعمالهم فحسب.

هل أن تکرار عباره عَمُوا وَ صَمُّوا ذو طابع عام تأكيدى، أم للإشارة إلى حادثتين مختلفتين؟ يرى بعض المفسرين أنَّ التکرار يشير إلى واقعيتين مختلفتين حدثتا لبنى إسرائيل، الاولى: الغزو البابلى لهم، و الثانية: غزو الإيرانيين و الروم، و القرآن أشار إليها بشكل عابر فى بدايه سوره بنى إسرائيل.

و لا- يستبعد- أيضا- أنَّ بنى إسرائيل قد تعرضوا مرات عديده لهذه الحالات فحينما يشاهدون نتائج أعمالهم الشريره، كانوا يتوبون، ثم ينقضون توبتهم، و قد حدث هذا عدّه مرّات لا مرّتين فقط.

فى نهايه الآيه جمله قصيره عميقه المعنى تقول: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِلُ أَعْمَالَهم، إذ أنه يرى كل ما يعملون: وَ اللَّهُ بِصَيْرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ .

اشاره

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ وَمِمَّنْ إِلَهٌ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤)

التفسير

تعقيبا على البحوث الماضيه بشأن انحرافات اليهود التي مرّت في الآيات السابقه، تتحدث هذه الآيات و التي تليها عن انحرافات المسيحيين، فتبدأ أولا بأهم تلك الانحرافات، أي «تأليه المسيح» «تثليث المعبود»: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ .

و أيّ كفر أشدّ من أن يجعلوا الله اللامحدود من جميع الجهات متحدا مع مخلوق محدود من جميع الجهات، و أن يصفوا الخالق بصفات المخلوق. مع أنّ

المسيح عليه السّلام نفسه يعلن صراحه لبنى إسرائيل: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَبِهَذَا يَسْتَنَكِرُ كُلُّ لَوْنٍ مِنَ أَلْوَانِ الشَّرِكِ، وَيَفْرُضُ الْغُلُوفَ فِي شَخْصِهِ، وَيَعْتَبِرُ نَفْسَهُ مَخْلُوقًا كَسَائِرِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ.

و لكي يشدد المسيح التوكيد على هذا الأمر، و ليزيل كل إبهام و خطأ، يضيف قائلاً: إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ.

و يمضى فى التوكيد و إثبات أنّ الشرك و الغلو ضرب من الظلم الواضح، فيقول أيضاً: وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ.

سبق أن أشرنا إلى أنّ تاريخ المسيحية يؤكّد بأنّ التثليث لم يكن معروفاً فى القرون الأولى من المسيحية، و لا حتى على عهد المسيح عليه السّلام، بل أن الأناجيل الموجوده-على الرغم من كل ما فيها من تحريفات و إضافات-ليس فيها أدنى إشارة إلى التثليث، و هذا ما يعترف به المحققون المسيحيون أنفسهم، و عليه فإن ما ورد فى الآيه المذكوره عن إصرار المسيح عليه السّلام على مسأله التوحيد إنّما ينسجم مع المصادر المسيحية الموجوده، و يعتبر من دلائل عظمه القرآن (١).

و ينبغى الالتفات إلى أنّ الموضوع الذى تتناوله الآيه هو الغلو و وحده المسيح بالله. أو بعبارة أخرى، هو «التوحيد فى التثليث»، و لكن الآيه التّاليه تشير إلى مسأله «تعدد الآلهه» فى نظر المسيحيين، أى «التثليث فى التوحيد»، و تقول:

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا أَنَّ اللَّهَ ثَالِثُ الْأَقَانِيمِ (٢) الثّلاثه لا ريب أنّهم كافرون: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ.

اعتقد كثير من المفسّرين، و منهم الطبرسى فى «مجمع البيان»، و الشيخ الطوسى فى «التبيان»، و الفخر الرازى و القرطبى فى تفسيريهما، أنّ الآيه السابقه تشير إلى فرقه من المسيحيين باسم «اليعاقبه» يعتقدون أن الله متحد بالمسيح عليه السّلام،

ص: ١٠٩

١-١) - للمزيد من توضيح التثليث و الوحده فى التثليث أنظر المجلد الثالث من هذا التفسير.

٢-٢) - «الأقنوم» بمعنى الأصل و الذات، جمعها «أقانيم».

و هذه الآيه وردت بشأن فرقه أخرى هي «الملكانية» و«السطورية» الذين يقولون بالأقانيم الثلاثة، أو الآلهه الثلاثة.

غير أنّ هذه النظره عن المسيحيه كما سبق أن قلنا-لا-تطابق مع الواقع، لأن الإعتقاد بالتثليث عام بين المسيحيين كافه، كما أن التوحيد بيننا نحن المسلمين عقيدته عامه قطعيه، و لكنهم في الوقت الذي يعتقدون حقا بتثليث الأرباب، يؤمنون أيضا بالوحده الحقيقيه، قائلين أن ثلاثه حقيقيين يؤلفون واحدا حقيقيا! الظاهر أنّ الآيتين المذكورتين تشيران إلى جانبين مختلفين لهاتين القضيتين: في الاولى إشاره إلى وحده الآلهه الثلاثة، و في الثانيه إشاره إلى تعددها، و توالى المسألتين هو في الحقيقه إشاره إلى واحد من الأدله الواضحه على بطلان عقيدتهم، فكيف يمكن لله أن يكون واحدا مع المسيح و روح القدس مرّه، و مرّه أخرى يكون ثلاثه أشياء؟ أمّن المعقول أن يتساوى الثلاثة مع الواحد؟! إنّ ما يؤيد هذه الحقيقه هو أننا لا نجد بين المسيحيين أيه طائفه لا تؤمن بالآلهه الثلاثة! (١).

و يرد القرآن عليهم ردا قاطعا فيقول: وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ و في ذكر «من» قبل «إله» نفى أقوى لأي معبود آخر. ثم يندرهم بلهجه قاطعه: وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

يقول بعضهم أن «من» في «منهم» بيانيه، و لكن الظاهر أنّها تبعيضيّه تشير إلى الذين بقوا على كفرهم حتى بعد أن دعا القرآن إلى التوحيد، لا الذين تابوا و رجعوا.

يذكر صاحب «المنازل» قصه في المجال تكشف عن غموض تثليث النصارى

ص: ١١٠

١-١) -ورد في بعض الروايات، و كذلك بعض التواريخ أنّ بين المسيحيين أقلية لا تؤمن بالتثليث، بل يعتقدون اتحاد عيسى بالله، و لكننا لا نرى لهؤلاء في هذا العصر اسم و لا رسم.

و توحيدهم نقلا عن صاحب (إظهار الحق) قال:

«نقل أنه تنصر ثلاثة أشخاص، و علمهم بعض القسيسين العقائد الضرورية، سيما عقيدة التثليث و كانوا فى خدمته، فجاء أحد المسيحيين إلى هذا القسيس، و سأله عن تنصّر ر. فقال: ثلاثة أشخاص تنصّروا فسأله: هل تعلموا شيئا من العقائد الضرورية؟ فقال: نعم، و استدعى واحدا منهم ليريه ذلك فسأله القسيس عن عقيدة التثليث، فقال: إنك علمتني أن الآلهة ثلاثة، أحدهم فى السماء، و الثانى تولد من بطن مريم العذراء، و الثالث الذى نزل فى صوره الحمامه على الإله الثانى بعد ما صار ابن ثلاثين سنه، فغضب القسيس و طرده و قال: هذا جاهل.

ثم طلب الآخر منهم سأله فقال: إنك علمتني أن الآلهة كانوا ثلاثة و صلب واحد منهم فالباقي إلهان، فغضب عليه القسيس -أيضا- و طرده.

ثم طلب الثالث و كان ذكيا بالنسبه إلى الأولين و حريصا فى حفظ العقائد، فسأله، فقال: يا مولاي، حفظت ما علمتني حفظا جيدا، و فهمت فهما كاملا بفضل السيد المسيح: أن الواحد ثلاثة و الثلاثة واحد، و صلب واحد منهم و مات، فمات الكل لأجل الاتحاد، و لا- إله الآن، و إلا- يلزم نفى الاتحاد! فى الآيه الثالثه يدعوهم القرآن إلى أن يتوبوا عن هذه العقيدة الكافره لكى يغفر لهم الله تعالى، فيقول: أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

ص: ١١١

اشاره

مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَعْبُدُونَ مَنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)

التفسير

تواصل هذه الآيات البحث الذي جاء في الآيات السابقة حول غلو المسيحيين في المسيح عليه السلام و اعتقادهم بألوهيته، فتفند في بضع آيات قصار اعتقادهم هذا، وتبدأ متسائله عمياً وجدوه في المسيح من اختلاف عن باقي الأنبياء حتى راحوا يؤلهونه، فالمسيح ابن مريم قد بعثه الله كما بعث سائر الأنبياء من قبله: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ .

إذا كان بعثه من قبل الله سبباً للتأليه و الشرك، فلما ذا لا تقولون القول نفسه بشأن سائر الأنبياء؟

و لكننا نعلم أنّ المسيحيين المنحرفين لا- يقنعون باعتبار عيسى عليه السّلام مجرّد مبعوث من الله، فاعتقادهم العام في الوقت الحاضر هو اعتباره ابن الله، وأنّه هو الله بمعنى من المعاني و أنّه جاء ليفتدي ذنوب البشر (و لم يأت لهدايتهم و قيادتهم) لذلك أطلقوا عليه اسم «الفادي» أي الذي افتدى بنفسه آثام البشر.

و لمزيد من التوكيد، يقول: وَ أُمُّهُ صَدِيقَةٌ أَي أَنَّ مِنْ تَكُونِ لَهُ أُمٌّ حَمَلْتَهُ فِي رَحْمِهَا، وَ مِنْ يَكُونُ مَحْتَاجًا إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ، كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِلِهَا؟! ثُمَّ إِذَا كَانَتْ أُمُّهُ صَدِيقَةً فَذَلِكَ لِأَنَّهَا هِيَ - أَيْضًا - عَلَى خَطِّ رِسَالَةِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَنْسُجَمَةٌ مَعَهُ، وَ تَدْفَعُ عَنِ رِسَالَتِهِ، لِهَذَا فَقَدْ كَانَ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُقْرَبِينَ، فَيَنْبَغِي أَلَّا يَتَّخِذَ مَعْبُودًا كَمَا هُوَ السَّائِدُ بَيْنَ الْمَسِيحِيِّينَ الَّذِينَ يَخْضَعُونَ أَمَامَ تَمَثَالِهِ إِلَى حَدِّ الْعِبَادَةِ.

و مرّه أخرى يشير القرآن إلى دليل آخر ينفي الربوبية عن المسيح عليه السّلام، فيقول:

كَا نَا يَا كُلَّانِ الطَّعَامِ

فهذا الذي يحتاج إلى الطعام، و لو لم يتناول طعاما لعدّه أيام يضعف عن الحركة، كيف يمكن أن يكون ربّا أو يقرب بالربّ؟! و في ختام الآيه إشارة وضح هذه الدلائل من جهه، و إلى عناد أولئك و جهلهم من جهه أخرى، فيقول: أَنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظُرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ (١).

تكرر كلمه «انظر» في الآيه توجيه للنظر إلى جهتين: إلى الدلائل الواضحه الكافيه لكل شخص، و إلى رد الفعل السلبي المحير المثير للعجب الصادر من هؤلاء.

و لكي يكمل الاستدلال السابق تستنكر الآيه التاليه عبادتهم المسيح مع أنّهم يعلمون أن له احتياجات بشريه، و إنّ لا قدره له على دفع الضرر عن نفسه أو

ص: ١١٣

١ - ١) - الإفك: كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه، و المأفوك: المصروف عن الحقّ، و إن كان عن تقصيره، و من هنا يسمّى إفكا، لأنّه يصد الإنسان عن الحقّ.

نفعها، فكيف يتسنى له دفع الضرر عن الغير أو نفعهم؟ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا؟ فكثيرا ما تعرّض هو و أتباعه للأذى على أيدي أعدائهم، و لو لا أنّ الله شمله بلطفه لما استطاع أن يخطو خطوه واحده.

و فى النهايه يحذرهم من أن يظنوا أنّ الله لا يسمع ما يتقولونه أو لا يعلم ما يكونه: [□] وَ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

مما يلفت النظر أنّ مسأله كون المسيح عليه السّلام بشرا ذا حاجات ماديه جسمانيه- و هى ما يستند إليها القرآن فى هذه الآيه و فى آيات أخرى- كانت من أكبر المعضلات بوجه المسيحيين الذين يدعون ألوهيته، فسعوا إلى تبرير ذلك بشتى الأساليب، حتى أنّهم اضطروا أحيانا إلى القول بنشائه المسيح: اللاهوت و الناسوت، فهو من حيث لاهوته ابن الله، بل هو الله نفسه و من حيث ناسوته فهو جسم و مخلوق من مخلوقات الله، و أمثال ذلك من التبريرات التى هى خير دلالة على ضعف منطقتهم و خطله.

لا بدّ من الالتفات- أيضا- أنّ الآيه استعملت «ما» بمكان «من» و التى تشير عادة إلى غير العاقل، و لعل ذلك يفيد الشمول بالنسبه للمعبودات و الأصنام المصنوعه من الحجر أو الخشب، فيكون المقصود هو أنّه إذا جاز أن يعبد الناس مخلوقا، جازت كذلك عبادتهم الأصنام، لأنّ هذه المعبودات تتساوى من حيث كونها جميعا مخلوقات، و أنّ تأليه المسيح عليه السّلام ضرب من عباده الأصنام، لا عباده الإله.

الآيه التّاليه تأمر رسول الله عليه السّلام، بعد انضاح خطأ أهل الكتاب فى الغلو أن يدعوهم بالأدله الجليه إلى الرجوع عن السير فى هذا الطريق: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ (١).

ص: ١١٤

١-١) - «لا تغلو» من ماده «الغلو» و هى بمعنى تجاوز الحدّ، إلا أنّها تستعمل للإشاره تجاوز الحدّ بالنسبه لمقام شخص من

إنَّ غلو النصرارى معروف، إلاَّ أنَّ غلو اليهود، الذى يشملهم تعبيرًا أَهْلَ الْكِتَابِ قد يكون إشاره إلى ما كانوا يقولونه عن العزيز و قد اعتبروه ابن الله، و لما كان الغلو ينشأ-أكثر ما ينشأ- عن إتباع الضالين أهواءهم، لذلك يقول الله سبحانه وَ لَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَ ضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ .

و فى هذا إشاره-أيضا- إلى ما انعكس فى التاريخ المسيحى، إذ أنَّ موضوع التثليث و الغلو فى أمر المسيح عليه السَّلام لم يكن له وجود خلال القرون الاولى من المسيحيه، و لكن عند ما اعتنق بعض الهنود و أمثالهم من عبده الأصنام المسيحيه أدخلوا فيها شيئا من دينهم السابق، كالتثليث و الشرك.

إنَّ الثالوث الهندى (الإيمان بالآلهه الثلاثه: برهما، و فيشنو، و سيغا)، كان تاريخيا أسبق من التثليث المسيحى الذى لا شك أنَّه انعكاس لذاك، ففى الآيه الثلاثين من سوره التوبه و بعد ذكر غلو اليهود و النصرارى فى مسأله العزيز و المسيح عليه السَّلام يقول سبحانه يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ .

و قد وردت كلمه «ضلوا» فى هذه الآيه مرتين بالنسبه للكفار الذين اقتبس منهم أهل الكتاب الغلو، و لعل هذا التكرار من باب التوكيد، إذ أنَّهم كانوا قبل ذلك من الضالين، ثمَّ لما أضلوا لآخرين بدعواهم وقعوا فى ضلال آخر، و من يسعى لتضليل الآخرين يكون أضلَّ منهم فى الواقع، لأنَّه يكون قد استهلك قواه لدفع نفسه و دفع الآخرين إلى طريق التعاسه و لحمل آثام الآخرين- أيضا- على كاهله، و هل يرتضى المرء السائر على الطريق المستقيم أن يضيف إلى آثامه آثام غيره أيضا؟

(١)

الأشخاص و منزلته، و بالنسبه للأسعار و تستعمل كلمه «الغلاء» و «غلو» السهم على وزنه «دلو» ارتفاعه و تجاوزه مداه، و فى الماء يقال «غليان» و «الغلاء» جموح فى الحيوان، و هى جميعا من أصل واحد، و يرى بعضهم أن الغلو يعنى الإفراط و التفريط معا، و يحصر بعضهم معناه بالتفريط فقط، و يقابله التقصير.

ص: ١١٥

إشارة

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠)

التفسير

تشير هذه الآيات إلى المصير المشؤوم الذي انتهى إليه الكافرون السابقون، لكي يعتبر به أهل الكتاب فلا يتبعونهم اتباعاً أعمى، فيقول: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ .

أما لماذا ورد اسما هذين النبيين دون غيرهما، فللمفسرين في ذلك أقوال، فمن قائل: إنَّ السبب هو أنَّهما كانا أشهر الأنبياء بعد موسى عليه السلام، وقيل: إنَّ السبب هو أنَّ كثيرا من أهل الكتاب كانوا يفخرون بأنهم من نسل داود.

و تذكر الآية أولاً أنَّ داود كان يلعن السائرين على طريق الكفر و الطغيان.

و يقول بعض: إنَّ في الآية إشارة إلى حادثتين تاريخيتين أثارتا غضب هذين

النبيين، فلما جمعنا من بنى إسرائيل، فداود قد لعن سكان مدينه (أيله) الساحليه المعروفين باسم (أصحاب السبت)، و سيأتي تفصيل تأريخهم فى سورة الأعراف، و عيسى عليه السلام لعن جمعاً من أتباعه ممن أصروا على اتباع طريق الإنكار و المعارضه حتى بعد نزول المائده من السماء.

على كل حال، فالآيه تشير إلى أنّ مجرد كون الإنسان من بنى إسرائيل، أو من أتباع المسيح دون أن ينسجم مع خط سيرهما، لا يكون مدعاه لنجاته، بل أنّ هذين النبيين قد لعنا من كان على هذه الشاكلة من الناس.

و فى آخر الآيه تؤكد لهذا الأمر و بيان للسبب: **ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ**.

الآيه التاليه تؤكد أنّ هؤلاء لم يعترفوا أبداً بأنّ عليهم يتحملوا أيه مسئوليه اجتماعيه، و لا هم كانوا يتناهون عن المنكر، بل أنّ بعضاً من صلحائهم كانوا بسكوتهم و ممالاتهم يشجعون العصاه عملياً كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لذلك فقد كانت أعمالهم سيئه و قبيحه: **لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**.

هنالك فى تفسير هذه الآيه روايات منقوله عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و عن أهل البيت عليهم السلام ذات دلالات تعليميه.

ففى حديث عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال: «لتأمرن بالمعروف و لتنهون عن المنكر و لتأخذون على يد السفية و لتأطرنه على الحقّ اطراً، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض و يلعنكم كما لعنهم» (١).

و

فى حديث آخر عن الامام الصادق عليه السلام فى تفسير كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه أنّه قال: «أما أنّهم لم يكونوا يدخلون مداخلهم و لا يجلسون مجالسهم، و لكن كانوا إذا لقوهم ضحكوا فى وجوههم و أنسوا بهم» (٢).

ص: ١١٧

١-١) -تفسير (مجمع البيان) لهذه الآيه، و فى تفسير القرطبي، ج ٤، ص ٢٢٥٠ حديث مشابه منقول عن الترمذى.

٢-٢) -تفسير البرهان ج ١، ص ٤٩٢، و تفسير نور الثقلين ج ١، ص ٦٦١.

الآيه الثالثه تشير إلى معصيه أخرى من معاصيهم: تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا .

من البديهي أنّ صداقتهم لأولئك لم تكن صداقه عاديه، بل كانت ممتزجه بأنواع المعاصي، و كانوا يشجعون الأعمال و الأفكار الخاطئه، لذلك أدانت الآيه فى عباراتها الأخيره الأعمال التى قدموها ليوم المعاد، تلك الأعمال التى استوجبت غضب الله و عذابه الدائم: لَيْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ فِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ .

أما من هم المقصودون بتعبير الَّذِينَ كَفَرُوا فَإِنَّ بعضا يقول: إنهم كانوا مشركى مكه الذين صادقوا اليهود.

و يرى بعض أنهم الجبارون و الظالمون الذين كان اليهود قديما يمدون إليهم يد الصداقه، و هذا الرأى يؤكده

الحديث المنقول عن الإمام الباقر عليه السلام إذ قال:

«يتولون الملوک الجبارين و يزینون لهم أهواءهم لیصیبوا من دنياهم» (١).

و ليس ثمه ما يمنع أن تشمل الآيه كلا المعنيين، بل و تكون أعم منهما أيضا.

ص: ١١٨

اشاره

وَ لَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ النَّبِيِّ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُواهُمْ أَوْلِيَاءَ وَ لَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)

التفسير

هذه الآيه تبين لهم طريق النجاه من نهجهم الخاطيء، و هو أنهم لو كانوا حقا يؤمنون بالله و برسوله و بما أنزل عليه، لما عقدوا أواصر الصداقه مع أعداء الله و لا اعتمدوهم أبدا:

وَ لَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ النَّبِيِّ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُواهُمْ أَوْلِيَاءَ

و لكن الذى يؤسف له هو أن الذين يطيعون أوامر الله قلّه، و معظمهم خارجون عن نطاق إطاعته و سائرون على طريق الفسق و لكن كثيرًا منهم فاسقون .

من الواضح أن كلمه «النبي» هنا تعنى «رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم» و ذلك لأن هذه الكلمه قد استعملت فى القرآن المجيد فى آيات متعدده بهذا المعنى، و هذا الموضوع يتكرر فى عشرات الآيات.

ثمّه احتمال آخر فى تفسير هذه الآيه، هو أن الضمير فى «كانوا» يعود على المشركين و عبده الأصنام، أى لو أن هؤلاء المشركين الذين يعتمدهم اليهود و يثقون بهم، قد آمنوا برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و القرآن، لما اختارهم اليهود أصدقاء لهم،

و هذا دليل بين على ضلال هؤلاء و فسقهم، و ذلك لأنهم-على الرغم من زعمهم أنهم يتبعون الكتب السماوية-يتخذون عبدة الأصنام أصدقاء لهم ما دام هؤلاء مشركين، و لكنهم يبتعدون عنهم إذا توجهوا إلى الله و الكتب السماوية.

بيد أن التفسير الأول أقرب إلى ظاهر الآيات، حيث الضمائر كلها تعود إلى مرجع واحد هو اليهود.

ص: ١٢٠

الجزء السابع من القرآن الكريم

ص: ١٢١

اشاره

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (۸۲) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (۸۳) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (۸۴) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (۸۵) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (۸۶)

سبب النزول

اشاره

المهاجرون الأول في الإسلام:

كثير من المفسرين - ومنهم الطبرسي في «مجمع البيان»، و الفخر الرازي،

و صاحب «المنار» ينقلون في تفاسيرهم عن المفسرين السابقين أنّ هذه الآيات قد نزلت بحق «النجاشي» صاحب الحبشه على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و أتباعه، و في تفسير «البرهان» حديث يشرح هذا الموضوع شرحا وافيا.

يمكن تلخيص الروايات الإسلامية و التواريخ و أقوال المفسرين بهذا الخصوص في ما يلي:

في السنوات الأولى من بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و دعوته العامه كان المسلمون أقلية ضعيفه، و كانت قريش قد تواصلت أن تضيق الخناق على مواليها و أتباعها الذين يؤمنون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، و على هذا فقد أصبح كل مسلم واقعا تحت ضغط عشيرته و قومه يومئذ لم يكن عدد المسلمين يكفي للقيام بجهاد تحرري.

و لكي يحافظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على حياه هذه الجماعه القليله، و يهيئ قاعده للمسلمين خارج الحجاز، اختار لهم الحبشه و أمرهم بالهجره إليها قائلا:

«إنّ بها ملكا صالحا لا يظلم و لا يظلم عنده أحد فاخرجوا إليه حتى يجعل الله عزّ و جلّ للمسلمين فرجا».

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقصد النجاشي (النجاشي اسم عام لجميع سلاطين الحبشه، مثل كسرى لملوك إيران، أما النجاشي المعاصر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو (أصحمه)، أي العطييه و الهبه بلغه الأحباش).

فهاجر أحد عشر رجلا و أربع نساء من المسلمين إلى الحبشه بحرا على ظهر سفينه صغيره استأجروها، كان ذلك في شهر رجب من السنه الخامسه من البعته، و قد أطلق عليها اسم الهجره الأولى.

و لم يمض على ذلك وقت طويل حتى لحقهم جعفر بن أبي طالب و جمع من المسلمين، فكانوا مع السابقين جمعا مؤلفا من ٨٢ رجلا سوى النساء و الصبيان، و شكلت هذه المجموعه النواه الأولى للتجمع الإسلامي المنظم.

كان لفكره هذا الهجره وقع شديد على عبده الأصنام، لأنهم أدركوا جيدا أنه

لن يمضى زمن طويل حتى يكون عليهم أن يواجهوا جمعا قويا من المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام- بالتدريج- دينا لهم فى أرض الحبشه حيث الأمن و الأمان.

فشمروا عن ساعد الجد لإحباط تلك الفكرة، فاختروا اثنين من فتيانهم الأذكياء المعروفين بالدهاء و المكر، و هما(عمرو بن العاص) و(عمار بن الوليد) و حملوهما مختلف الهدايا و التحف إلى النجاشى ليوغرو صدره على المسلمين فيطردهم من بلاده، و على ظهر السفينه التى أقلت هذين إلى الحبشه سكرا و تخاصما إلا أنّهما-لكى ينفذا المهمه التى جاء من أجلها-نزلا إلى البر الحبشى، و حضرا مجلس النجاشى بكثير من الأبئه، و خاصه بعد أن اشترى ضمائر حاشيه النجاشى بالكثير من الهدايا و الرشاوى، فوعدهم هؤلاء بالوقوف إلى جانبهما و تأييدها.

بدأ عمرو بن العاص كلامه للنجاشى قائلا: «أيها الملك، إنّ قوما خالفونا فى ديننا و سبوا آلهتنا، و صاروا إليك فردهم إلينا».

ثمّ قدما ما حملاه من هدايا إلى النجاشى.

فوعدهم النجاشى أن يبت بالأمر بعد استجواب ممثلى اللاجئين و بعد التشاور مع حاشيته.

و فى يوم آخر عقدت جلسه حافله حضرتها حاشيه النجاشى و جمع من العلماء المسيحيين، و ممثل المسلمين جعفر بن أبى طالب، و مبعوثا قريش، و بعد أن استمع النجاشى إلى أقوال مبعوثى قريش، التفت إلى جعفر و طلب منه بيان ما لديه.

قال جعفر: يا أيها الملك سلهم، أ نحن عبيد لهم؟ فقال عمرو: لا، بل أحرار كرام.

جعفر: سلهم أ لهم علينا ديون يطالبوننا بها؟ عمرو: لا، ما لنا عليكم ديون.

جعفر: فلکم فی أعناقنا دماء تطالبونا بدخول بها؟ عمرو: لا.

جعفر: فما تريدون منّا؟ آذيتمونا فخرجنا من دياركم، ثم قال:

«نعم أيها الملك خالفناهم بعث الله فينا نبيا أمرنا بخلع الأنداد و ترك الاستقسام بالأزلام، و أمرنا بالصلاه و الزكاه، و حرّم الظلم و الجور و سفك الدماء بغير حقّها، و الزنا و الربا و الميتة و الدّم و لحم الخنزير، و أمرنا بالعدل و الإحسان و إيتاء ذى القربى، و نهانا عن الفحشاء و المنكر و البغى».

فقال النجاشي: بهذا بعث الله عيسى، ثم قال النجاشي لجعفر:

هل تحفظ ممّا أنزل الله على نبيك شيئا؟ قال جعفر: نعم، فقرأ سورة مريم، فلما بلغ قوله: وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا قال: هذا و الله هو الحقّ.

فقال عمرو: إنّه مخالف لنا فردّه إلينا.

فرفع النجاشي يده و ضرب بها وجه عمرو و قال: اسكت، و الله لئن ذكرتّه بعد بسوء لأفعلنّ بك و قال: ارجعوا إلى هذا هديته، و قال لجعفر و أصحابه: امكثوا فإنكم آمنون.

كان لهذا الحدث أثر بالغ بعيد المدى، ففضلا عمّا كان له من أثر إعلامي عميق فى تعريف الإسلام لجمع من أهل الحبشه، فإنّه شد من عزمه المسلمين فى مكّه و حملهم على الاطمئنان و الثقة بقاعدتهم فى الحبشه لإرسال المسلمين الجدد إليها، إلى أن يشدّ ساعدهم و تقوى شوكتهم.

و مضت سنوات، و هاجر رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم إلى المدينه، و ارتفع شأن الإسلام، و تمّ التوقيع على صلح الحديبيه، و توجه رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم لفتح خيبر، و فى ذلك اليوم الذى كان فيه المسلمون يكادون يطرون فرحا لتحطيمهم أكبر قلعه للأعداء اليهود، فإذا بهم يشهدون من بعيد قدوم جمع من الناس صوبهم، ثمّ ما لبثوا حتى عرفوا أن أولئك لم يكونوا سوى المهاجرين الأوائل إلى الحبشه و قد عادوا فى

ذلك اليوم إلى أوطانهم بعد أن تحطمت قوى الأعداء الشيطانية، و قويت جذور شجيره الإسلام الناميه.

و إذ شاهد رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم مهاجرى الحبشه، قال قوله التاريخيه: «لا أدري أنا بفتح خبير أسر أم بقدم جعفر؟! يروى أنّ جعفر و أصحابه جاؤوا إلى رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم و معهم سبعون رجلا، اثنان و ستون من الحبشه و ثمانيه من أهل الشام فيهم بحيراء الراهب، فقرأ عليهم رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم سورة «يس» إلى آخرها فبكوا حتى سمعوا القرآن و آمنوا و قالوا:

ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى، فأنزل الله فيهم هذه الآيات.

و روى عن سعيد بن جبير فى سبب نزول الآيه أنّ النجاشى أرسل ثلاثين شخصا من أخلص أتباعه إلى المدينة لإظهار حبه لرسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم و للإسلام، أولئك هم الذين استمعوا إلى آيات سورة «يس» فأسلموا، فنزلت الآيات المذكوره تقديرا لأولئك المؤمنين.

(لا يتعارض سبب النزول هذا مع كون سورة المائده قد نزلت فى أواخر عمر رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم)، إذ أنّ هذا القول يرجع إلى معظم آيات السوره، و ليس ثمه ما يمنع أن تكون بعض تلك الآيات قد نزلت فى حوادث سابقه، ثم وضعت- لأسباب- بأمر من رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم فى هذه السوره.

التفسير

اشاره

حقد اليهود و مودّه النصارى:

تقارن هذه الآيات بين اليهود و النصارى الذين عاصروا رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم.

فى الآيه الاولى وضع اليهود و المشركون فى طرف واحد و المسيحيون فى طرف آخر: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا، وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى .

يشهد تاريخ الإسلام، بجلاء على هذه الحقيقه، ففى كثير من الحروب التى

أثيرت ضد المسلمين كان لليهود ضلع فيها، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ولم يتورعوا عن التوسل بأية وسيلة للتآمر، و قليل منهم اعتنق الإسلام، و لكننا قلما نجد المسلمين يواجهون المسيحيين في غزواتهم، كما أن الكثيرين منهم التحقوا بصفوف المسلمين.

ثم يعزوا القرآن هذا الاختلاف في السلوك الفردى و الاجتماعى إلى وجود خصائص في المسيحيين المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لم تكن موجوده فى اليهود:

فأولا كان بينهم نفر من العلماء لم يسعوا- كما فعل علماء اليهود- إلى إخفاء الحقائق ذلك بأن منهم قسيسين (١).

ثم كان منهم جمع من الزهاد الذين تركوا الدنيا، و هى النقطة المناقضة لما- كان يفعله بخلاء اليهود الجشعين.

و على الرغم من كل انحرافاتهم كانوا على مستوى أرفع بكثير من مستوى اليهود: «و رهبانا».

و كثير منهم كانوا يخضعون للحق، و لم يتكبروا، فى حين كان معظم اليهود يرون أنهم عنصر أرفع، فرفضوا قبول الإسلام الذى لم يأت على يد عنصر يهودى:

وَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ

ثم إن نفرا منهم كانوا إذا استمعوا لآيات من القرآن تنحدر دموعهم مثل من صحب جعفر من الأحباش لأنهم يعرفون الحق إذا سمعوه: وَ إِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ .

فكانوا ينادون بكل صراحه و شجاعه، يُقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ .

لقد كان تأثرهم بالآيات القرآنيه من الشده بحيث أنهم كانوا يقولون: وَ مَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ مَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَ نَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ .

سبق أن قلنا إن هذه المقارنه كانت بين اليهود و النصرارى المعاصرين لرسول

ص: ١٢٨

١- (١) - «القسيس» تعريب لكلمه سريانيه تعنى الزعيم و الموجه الدينى عند المسيحيين.

اللّٰهُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فاليهود-وإن كانوا من أصحاب الكتب السماويه-بلغت شدته تعلقهم بالماده وحبهم لها أن انخرطوا في سلك المشركين الذين لم يكن يربطهم بهم أى وجه شبه مشترك، مع أن اليهود فى البدايه كانوا من المبشرين بمجىء الإسلام و لم تكن قد دخلتهم انحرافات كالتثليث و الغلو للذين كانا عند المسيحيين، غير أن حبهم للدين حبا عباده قد أبعدهم عن الحق، بينما معاصروهم المسيحيون لم يكونوا على هذه المشاكلة.

إلا أن التأريخ القديم و المعاصر يقول لنا: أن المسيحيين فى القرون التى أعقبت ذلك قد ارتكبوا بحق الإسلام و المسلمين جرائم لا تقل عما فعله اليهود فى هذا المجال.

إن الحروب الصليبيه الطويله و الدمويه فى القرون الماضيه، و الاستفزازات الكثيره التى يقوم بها الاستعمار ضد الإسلام و المسلمين اليوم غير خافيه على أحد، لذلك ليس لنا أن نأخذ الآيات المذكوره مأخذ قانون عام بالنسبه لجميع المسيحيين، بل إن الآيه: إِذَا سَيِّمَعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ... و ما بعدها دليل على أنها نزلت بحق جمع من المسيحيين الذين كانوا يعاصرون رسول اللّٰهُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

الآيتان الأخيرتان فيهما إشاره إلى مصير هاتين الطائفتين و إلى عقابهما و ثوابهما، أولئك الذين أظهروا الموده للمؤمنين و خضعوا لآيات اللّٰهُ و أظهروا إيمانهم بكل شجاعه و صراحه: فَأَثَابَهُمُ اللّٰهُ بِمَا قَالُوا جَنَاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (١).

و أما أولئك الذين ساروا فى طريق العداة و العناد فتقول الآيه عنهم: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .

ص: ١٢٩

١-١) - «أثابهم» من الثواب، و هى فى الأصل بمعنى العوده و ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)

سبب النزول

اشاره

لا تتجاوزوا الحدود!

ثمَّ روايات متعدده وردت بشأن نزول هذه الآيات منها: في أحد الأيام أخذ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يصف بعض ما يجرى يوم القيامة و حال الناس في تلك المحكمه الإلهيه العظمى، فهزَّ الوصف نفوس الناس و راح بعضهم يبكي، و على أثر ذلك عزم بعض أتباع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على ترك بعض لذائد الحياه و رفاهاها، و أن ينصرف

بدلاً من ذلك إلى العبادة، فأقسم أمير المؤمنين عليه السلام أن ينام من الليل أقله و يصرفه في العبادة، وأقسم بلال أن يصوم أيامه كلها، وأقسم عثمان بن مظعون أن يترك إتيان زوجته و أن ينقطع إلى العبادة.

جاءت زوجته عثمان بن مظعون -و كانت امرأه جميله- يوماً إلى عائشه فعجبت عائشه من حالها فقالت: ما لى أراك متعطله؟ فقالت: لمن أتزين؟ فوالله ما قاربنى زوجى منذ كذا و كذا فإنه قد ترهب و لبس المسوح و زهد فى الدنيا، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، فجاء إليهم و أخبرهم أن ذاك خلاف سنته و قال: «فمن رغب عن سنتى فليس منى» ثم جمع الناس و خطبهم و قال:

«ما بال أقوام حرموا النساء و الطعام و الطيب و النوم و شهوات الدنيا، أما إننى لست آمركم أن تكونوا قسيسين و رهباناً، فإنه ليس فى دينى ترك اللحم و لا النساء و لا اتّخاذ الصوامع، و إنّ سياحه أمتى الصوم و رهبانيتهم الجهاد، اعبدوا الله و لا تشركوا به شيئاً و حجوا و اعتمروا و أقيموا الصّلاه و آتوا الزّكاه و صوموا رمضان، و استقيموا يستقم لكم، فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شدّدوا على أنفسهم فشدد الله عليهم...».

فقام الذين كانوا قد أقسموا على ترك تلك الأمور و قالوا: يا رسول الله، لقد أقسمنا على ذلك، فما ذا نفعل؟ فنزلت الآيات المذكوره جواباً لهم (1).

لا بدّ من القول بأنّ قسم البعض مثل قسم عثمان بن مظعون لم يكن مشروعاً لما فيه من غمط لحقوق زوجته، و لكن فيما يتعلق بقسم الإمام على عليه السلام بإحياء الليل بالعبادة، فإنه كان أمراً مباحاً، و لكن الاستفادة من الآيات هو أنّ الاولى أن لا يكون ذلك بصورة مستمره و دائمه، و لا يتعارض مع عصمه على عليه السلام، لأننا نقرأ بما

ص: ١٣١

(١ - ١) - ما ذكر أعلاه فى سبب النزول، قسم منه مأخوذ من تفسير على بن إبراهيم، و قسم من تفسير مجمع البيان و تفاسير أخرى.

يشبه ذلك بالنسبه لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم في الآيه الاولى من سوره التحريم: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَتَّغِي مَرْضَاتٍ أَزْوَاجِكَ .

التفسير

إشاره

القسم و كفارته:

في هذه الآيه و الآيات التاليه لها مجموعه من الأحكام الإسلاميه المهمه، بعضها يشرع لأول مره، و بعض آخر جاء توكيدا و توضيحا لأحكام سابقه وردت في آيات اخرى من القرآن، لأن هذه السوره- كما سبق أن قلنا- نزلت في أواخر عمر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فكان لا بد من التأكيد فيها على أحكام اسلاميه مختلفه.

في الآيه الاولى إشاره إلى قيام بعض المسلمين بتحريم بعض النعم الإلهيه.

فنهاهم الله عن ذلك قائلا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ (١).

إن ذكر هذا الحكم، مع أخذ سبب النزول بنظر الإعتبار، قد يكون إشاره إلى أنه إذا كان في الآيات السابقه شيء من الثناء على فريق من علماء المسيحيه و رهبانها لتعاطفهم مع الحق و التسليم له، لا- لتركهم الدنيا و تحريم الطيبات، و ليس للمسلمين أن يقتبسوا منهم ذلك، فبذكر هذا الحكم يعلن الإسلام صراحه استنكار الرهنه و هجر الدنيا كما يفعل المسيحيون و المرتاضون (ثمه شرح أوفى لهذا الموضوع في تفسير الآيه (٢٧) من سوره الحديد: ... وَ رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا .

ثم لتوكيد هذا الأمر تنهى الآيه عن تجاوز الحدود، لأن الله لا يحب الذين يفعلون ذلك و لا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .

و في الآيه التي تليها آخر للأمر، إلا أن الآيه السابقه كان فيها نهى عن التحريم، و في هذه الآيه أمر بالانتفاع المشروع من الهبات الإلهيه، فيقول:

ص: ١٣٢

و الشرط الوحيد لذلك هو الاعتدال و التقوى عند التمتع بتلك النعم: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ أَي أَنَّ إيمانكم بالله يوجب عليكم احترام أوامره في التمتع و في الاعتدال و التقوى.

هناك احتمال آخر في تفسير هذه الآية، و هو أَنَّ الأمر بالتقوى يعني إن تحريم المباحات و الطيبات لا يأتلف مع درجات التقوى المتكامله الرفيعه، فالتقوى تستلزم أن لا يتجاوز الإنسان حد الاعتدال من جميع الجهات.

و الآية التي بعدها تتناول القسم الذي يقسم به الإنسان في حاله تحريم الحلال و في غيره من الحالات بشكل عام، و يمكن القول أَنَّ القسم نوعان:

فالأولى: هو القسم اللغو، فيقول: لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ .

في تفسير الآية (٢٢٥) من سوره البقره- التي تتناول موضوع عدم وجود عقاب على اللغو في الأيمان- قلنا: إنَّ المقصود باللغو في الأيمان- كما يقول المفسيرون و الفقهاء- الأيمان التي ليس لها هدف معين و لا تصدر عن وعى و عزم إرادى، و إنما هي قسم يحلف به المرء من غير تمعن في الأمر فيقول: و بالله، أو لا و الله و لا بالله، أو إنَّه في حاله من الغضب و الهياج يقسم دون وعى.

و يقول بعضهم: إنَّ الإنسان إذا كان واثقا من أمر فاقسم به، ثم ظهر أنَّه قد أخطأ، فقسمه- يعتبر أيضا- من نوع اللغو في الأيمان، كأن يتيقن أحدهم من خيانه زوجته على أثر سعايه بعض الناس و وشايتهم، فيقسم على طلاقها، ثم يتضح له أن ما سمعه بحقها كان كذبا و افتراء، فإنَّ قسمه ذاك لا اعتبار له، إننا نعلم أيضا أنَّه بالإضافة إلى توفر القصد و الإراده و العزم في القسم الجاد، يجب أن يكون محتواه غير مكروه و غير محرم، و عليه إذا أقسم أحدهم مختارا أن يرتكب عملا محرما أو مكروها، فإن قسمه لا قيمه له و لا يلزمه الوفاء به، و يحتمل أن يكون مفهوم «اللغو» في هذه الآية مفهوما واسعا يشمل هذا النوع من الأيمان

أيضا.

و القسم الثانی: هو القسم الجاد الإرادی الذی قرره المرء بوعی منه، هذا النوع من القسم هو الذی يعاقب علیه الله إذا لم يف به الإنسان: **وَ لَکِنْ یُؤَاخِذُکُمْ بِمَا عَقَدْتُمْ الْأَیْمَانَ .**

کلمه «العقد» تعنی فی الأصل - كما قلنا فی بدایه سوره المائده - جمع أطراف الشیء جمعا محکما.

و منه تسمیه ربط طرفی الحبل ب «العقده» ثم انتقل هذا المعنی إلى الأمور المعنویه، فأطلق علی کل اتفاق و عهد اسم العقد، فعقد الأیمان - كما فی الآیه - یعنی التعهد بكل جد و عزم و تصميم علی أمر ما بموجب القسم.

بديهی أن الجد وحده فی القسم لا ینفک لصحته، بل لا بدّ أيضا من صحه محتواه - كما قلنا - و أن ینكون أمرا مباحا فی الأقل، كما لا بدّ من القول بأنّ القسم بغير اسم الله لا قیمه له.

و علیه إذا أقسم إمرؤ بالله أن ینعمل عملا - محمودا، أو مباحا علی الأقل، فینجب علیه أن ینعمل بقسمه، فإن لم ینفعل، فعليه كفاره التخلف.

و كفاره القسم هی ما ورد فی ذیل الآیه المذكوره، و هی واحده من ثلاثه:

الْأُولَى: فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ، و لكيلا يؤخذ هذا الحكم علی إطلاقه بحيث یصار إلى أي نوع من الطعام الدنیء و القلیل، فقد جاء بیان نوع الطعام بما لا یقل عن أوسط الطعام الذی یعطى لأفراد العائله عاده: **مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ .**

ظاهر الآیه یدل علی النوعیه المتوسطه، و لكن یحتمل أنه إشاره إلى الكمیه و کیفیه کلیمهما، فقد جاء عن الإمام الصادق علیه السلام أنه الحد الوسط من کیفیه، و عن الإمام الباقر علیه السلام أنه الحد الوسط من الكمیه، الأمر الذی یدل علی أن المطلوب هو

الحد الوسط من كليهما (١).

و لا حاجة للقول بأن «الحدّ الوسط» سواء فى الكمية أو الكيفية، يختلف باختلاف المدن و القرى و الأزمنة.

و قد احتمل بعضهم تفسيراً آخر للأوسط، و هو أنه يعنى الجيد الرفيع، و هما من معانى «الأوسط» كما نقرأ فى الآية (٢٨) من سوره القلم: قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ .

الثانية: أَوْ كَسَوْتُهُمْ .

من الطبيعى أن ذلك يعنى الملابس التى تغطى الجسم حسب العاده، لذلك ورد فى بعض الروايات أن الإمام الصادق عليه السلام بين أن المقصود بالكسوه فى هذه الآية قطعنا اللباس (الثوب و السروال)، أما الروايه المنقوله عن الإمام الباقر عليه السلام بأن ثوبا واحدا يكفى، فربما تكون إشاره إلى الثوب العربى الطويل المعروف و الذى يكسو الجسم كله، أما بشأن النسوه فلا شك أن ثوبا واحدا لا- يكفى، بل لا- بدّ من غطاء للرأس و الرقبه، و هذا هو الحد الأدنى لكسوه المرأه لذلك لا يستبعد أن تكون الكسوه التى تعطى كفاره تختلف أيضا باختلاف الفصول (٢) و الأمكنه و الأزمنه.

أما من حيث الكيفيه، و هل يكفى الحد الأدنى، أم ينبغى مراعاة الحد الأوسط؟ فإن للمفسرين رأيين فى ذلك:

١- إن كل كسوه تكفى إذا أخذت الآية على إطلاقها.

٢- إنه ما دمتنا قد راعينا الحد الأوسط فى الإطعام، فلا بدّ أن نراعى هذا الحد فى الكساء أيضا، غير أن الرأى الأول أكثر انسجاما مع إطلاق الآية.

الثالثه: أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ .

ص: ١٣٥

١- (١) - «نور الثقلين»، ج ١، ص ٦٦٦ و تفسير «البرهان»، ج ١، ص ٤٩٦.

٢- (٢) - ثمّه حديث بهذا الشأن عن الإمام الباقر عليه السلام أو الإمام الصادق عليه السلام أنظر تفسير «البرهان»، ج ١، ص ٤٩٦.

و إن كانت الآيه مطلقه فى الظاهر.

و هذا ما يدل على أنّ الإسلام يتوسل بطرق مختلفه لتحرير العبيد، أمّا فى الوقت الحاضر حيث يبدو أنه لا وجود للرق، فإنّ على المسلمين أن يختاروا واحده من الكفارتين المتقدمتين.

ليس ثمّه شك فى أنّ هذه المواضيع الثلاثه متباينه من حيث قيمتها تباينا كبيرا، و لعل القصد من هذا التباين هو حريه الإنسان فى إختيار الكفاره التى تناسبه و تناسب إمكاناته الماديه.

و لكن قد يوجد من لا قدره له على أى منها، لذلك فإنّه بعد بيان تلك الأحكام يقول سبحانه و تعالى: **فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ**.

إذن، فصيام ثلاثه أيام مقصور على الذين لا قدره لهم على تحقيق أى من الكفارات الثلاث السابقه، ثم يؤكّد القول ثانیه: **ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيَّمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ**.

و مع ذلك، فلكى لا يظن أحد أنه بدفع الكفاره يجوز للمرء أن يرجع عن قسم صحيح أقسمه، يقول تعالى: **وَ احْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ**.

و بعباره أخرى: إنّ الالتزام بالقسم واجب تكليفى، و عدم تنفيذه حرام، و الكفاره تأتى بعد الرجوع عن القسم.

فى ختام الآيات يبيّن القرآن أنّ هذه الآيات توضح لكم الأحكام التى تضمن سعادته الفرد و المجتمع و سلامتها لتشكروه على ذلك: **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**.

إشاره

إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصِيدَكُمُ عَنِ الذِّكْرِ اللّٰهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩٠) وَإِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصِيدَكُمُ عَنِ الذِّكْرِ اللّٰهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللّٰهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلِيَ رَسُولُنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢)

سبب النزول

تذكر التفاسير الشيعيه و السنّيه روايات متعدده عن سبب نزول الآيه الاولى تكاد تكون متشابهه، من ذلك أنه جاء في تفسير «الدر المنثور» عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: إن هذه الآيه قد نزلت بشأنى. كان أنصارى قد أعد طعاما دعانا إليه مع جمع من الناس، فتناولوا الطعام و شربوا الخمر، و كان هذا قبل تحريمها فى الإسلام، و عند ما صعدت النشوه إلى رؤوسهم أخذوا يتفاخرون و ارتفع بينهم الكلام شيئا فشيئا حتى وصل الأمر بأحدهم أن تناول عظم بعير فضربنى به على أنفى فشجه فقامت إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و حكيت له ما جرى، فنزلت الآيه المذكوره.

و في «مسند أحمد» و«سنن أبي داود» و«النسائي» و«الترمذي» أنّ عمر (و كان يكثر من الخمر كما جاء في تفسير «في ظلال القرآن» ج ٣، ص ٣٣) كان يدعو الله أن ينزل حكما واضحا في الخمر، و عند ما نزلت الآية (٢١٩) من سورة البقره يَسْتَلُونَك عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ.. قرأها رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم، و لكنّه ظل يكرر دعاءه و يطلب مزيدا من التوضيح حتى نزلت الآية (٤٣) من سورة النساء:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْتُمْ سُكَارَىٰ فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَيضًا، غير أنّه استمر في دعاءه، حتى نزلت الآية التي نحن بصددھا موضحة الحكم بشكل كامل، و عند ما قرأها رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم على عمر، فقال: انتهينا انتهينا (١)!

التفسير

إشارة

مراحل تحريم الخمر و حكمها النهائي:

سبق أنّ ذكرنا في المجلد الثالث من هذا التفسير في ذيل الآية (٤٣) من سورة النساء، إنّ معاقرة الخمر في الجاهلية و قبيل الإسلام كانت منتشرة انتشارا أشبه بالوباء العام، حتى قيل: أنّ حبّ عرب الجاهلية كان مقصورا على ثلاثة:

الشعر و الخمر و الغزو.

و يستفاد من بعض الروايات، أنّه حتى بعد تحريم الخمر فإن الإقلاع عنها كان شاقّا على بعض المسلمين، حتى قالوا: ما حرم علينا شيء أشد من الخمر (٢)! من الواضح أنّ الإسلام لو أراد أن يحارب هذا البلاء الكبير الشامل بغير أن يأخذ الأوضاع النفسية و الاجتماعية بنظر الاعتبار لتعذر الأمر و شق تطبيق التحريم، لذلك اتخذ أسلوب التحريم التدريجي و إعداد الأفكار و الأذهان لاقتلاع

ص: ١٣٨

١- ١) - تفسير «المنار»، ج ٧، ص ٥٠.

٢- ٢) - نفس المصدر، ج ٧، ص ٥١.

هذه الآفة من جذورها، وهي العادة التي كانت قد تأصلت في نفوسهم، وعروقهم، ففي أوّل الأمر وردت إشارات في الآيات المكية تستقيح شرب الخمر، كما في الآية (٦٧) من سورة النحل: **وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا** .

فهنا «سكر» وتعنى الشراب المسكر الذى كانوا يستخرجونه من التمر و العنب، قد وضع فى قبال الرزق الحسن، فاعتبره شرابا غير طيب بخلاف الرزق الحسن، إلا أنّ تلك العادة الخبيثة- عاده معاقرة الخمره- كانت أعمق من أن تستأصل بهذه الإشارات، ثم أنّ الخمر كانت تؤلف جانبا من دخلهم الاقتصادى لذلك، عند ما هاجر المسلمون إلى المدينة و أسسوا أولى الحكومات الإسلاميه، نزلت آيه ثانيه أشد فى تحريم الخمر من الاولى، لكى تهيب الأذهان أكثر إلى التحريم النهائى، تلك هى الآية (٢١٩) من سورة البقره: **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَ المَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا** .

فها هنا إشاره إلى منافع الخمر الاقتصاديه لبعض المجتمعات، كالمجتمع الجاهلى، مصحوبه بإشاره إلى أخطارها الكبيره و مضارها التى تفوق كثيرا منافعها الاقتصاديه.

ثم فى الآية (٤٣) من سورة النساء: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْتُمْ سِكَّارٍ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ** يأمر الله المسلمين أمرا صريحا بأن لا يقيموا الصلاه و هم سكارى حتى أدركوا ما يقولونه أمام الله.

واضح أنّ هذا لم يكن يعنى أنّ شرب الخمر فى غير الصلاه جازى، بل هى مسأله التدرج فى تحريم الخمر مرحله مرحله، أى أنّ هذه الآيه كأنها تلتزم الصمت و لا تقول شيئا صراحة فى غير مواقع الصلاه.

إنّ تقدم المسلمين فى التعرف على أحكام الإسلام و استعدادهم الفكرى لاستئصال هذه المفسده الاجتماعيه الكبيره التى كانت متعمقه فى نفوسهم، أصبحت

سببا في نزول آية صريحه تماما في تحريم الخمر حتى سدت الطريق أمام الذين كانوا يتصيدون الأعذار و المسوغات، و هذه الآية هي موضوع البحث.

و إنه لما استلقت النظر أنّ تحريم الخمره يعبر عنه في هذه الآية بصورة متنوعه:

- ١- فالآية تبدأ بمخاطبه المؤمنين: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** أى أنّ عدم الصدوع بهذا الأمر لا ينسجم مع روح الإيمان.
- ٢- استعمال «إنما» التي تعنى الحصر و التوكيد.

٣- وضعت الخمر و القمار إلى جانب الأنصاب (١) (و هي قطع أحجار لا صوره لها كانت تتخذ كالأصنام) للدلاله على أنّ الخمر و القمار لا يقلان ضررا عن عباده الأصنام، و لهذا

جاء في حديث شريف أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال: «شارب الخمر كعابد الوثن» (٢).

٤- الخمر و القمار و عباده الأصنام، و الاستقسام و الأزلام (ضرب من الياصب) (٣) كلها قد اعتبرها القرآن رجسا و خبثا: **إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ**.

٥- و هذه الأعمال القبيحه كلها من أعمال الشيطان: **مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**.

٦- و أخيرا يصدر الأمر القاطع الواجب الإتياع: **فَاجْتَنِبُوهُ**.

لا بدّ من التنويه بأنّ لتعبير «فاجتنبوه» مفهوما أبعده، إذ أنّ الاجتناب يعنى الابتعاد و الانفصال و عدم الاقتراب، ممّا يكون أشدّ و أقطع من مجرد النهى عن شرب الخمر.

٧- و في الختام يقول تعالى أن ذلك: **لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ** أى لا فلاح لكم بغير

ص: ١٤٠

(١- ١) - انظر المجلد الثالث، من هذا التفسير بشأن الأنصاب و النصيب.

(٢- ٢) - هامش تفسير الطبرى، ج ٧، ص ٣١، و قد جاء هذا الحديث في تفسير «نور الثقلين»، ج ١، ص ٦٩ عن الإمام الصادق عليه السلام.

(٣- ٣) - انظر شرح كيفية الأزلام في المجلد الثالث من هذا التفسير.

ذلك.

٨- في الآيه التاليه لها يعدد بعضا من أضرار الخمر و القمار، التي يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة و البغضاء في الخمر و الميسر و يصدكم عن ذكر الله و عن الصلاه .

٩- و في ختام هذه الآيه يتقدم باستفهام تقريري: فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ؟ أى بعد كل هذا التوكيد و التوضيح، ثمه مكان لخلق المبررات أو للشك و التردد في تجنب هذين الإثمين الكبيرين؟ لذلك نجد أن عمر الذي كان شديد الولع بالخمر (كما يقول مفسرو أهل السنه) و الذي كان-لهذا السبب- لا يرى في الآيات السابقه ما يكفى لمنعه، قال عند ما سمع هذه الآيه: انتهينا، انتهينا! لأنه رأى فيها الكفايه.

١٠- في الآيه الثالثه التي تؤكد هذا الحكم، يأمر المسلمين: وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ احذروا .

ثم يتوعد المخالفين بالعقاب، و أن مهمه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم هي الإبلاغ: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ عَلَيَّ رَسُولَنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ .

الآثار المهلكه للخمر و الميسر:

على الرغم من أننا أشرنا في تفسير الآيه (٢١٩) من سوره البقره في المجلد الثاني من هذا التفسير إشاره موجزه أضرار هاتين الآيتين الاجتماعيتين، إلا أننا لتوكيد الأمر-اقتداء بالقرآن الكريم- نضيف هنا أمورا أخرى هي مجموعه من الإحصاءات المختلفه كل واحده منها تعتبر شهاده وافية تدل على عظم تلك الأضرار و عمق تأثيرها.

١- في إحصائيه صدرت في بريطانيا بشأن الجنون الكحولى و مقارنته بالجنون العادى، جاء أنه فى مقابل (٢٢٤٩) مجنونا بسبب الإدمان على الخمر

ص: ١٤١

هناك (٥٣) مجنوناً فقط لأسباب مختلفه أخرى (١).

٢- وفي إحصاء آخر من أمريكا أنّ ٨٥٪ من المصابين بأمراض نفسيه هم من المدمنين على الخمر (٢).

٣- يقول عالم إنجليزي اسمه (بنتام): أنّ المشروبات الكحوليه تحول أهالي الشمال إلى أناس حمقى وبله، وأهالي الجنوب إلى مجانين، ثمّ يضيف: إنّ الدين الإسلامي يحرم جميع أنواع المسكرات، وهذا واحد من مميزات الإسلام (٣).

٤- لو أجرى إحصاء عن السكارى الذين انتحروا، أو ارتكبوا الجرائم و حطموا العوائل، لكان لدينا رقم رهيب (٤).

٥- في فرنسا يموت كلّ يوم ٤٤٠ شخصاً ضحيه للخمور (٥).

٦- تقول إحصائيه أخرى من أمريكا: أنّ عدد المرضى النفسانيين خلال سنه واحده بلغ ضعف قتلاها في الحرب العالميه الثانيه، و يرى العلماء الأمريكيان أنّ السببين الرئيسيين لهذا هما المشروبات الكحوليه و التدخين (٦).

٧- جاء في إحصائيه وضعها عالم يدعى (هوغر) نشرها في مجله (العلوم) بمناسبة عيد تأسيسها العشرين، قال فيها: أنّ ٦٠٪ من القتل المتعمد، ٧٥٪ من الضرب و الجرح و ٣٠٪ من الجرائم الأخلاقيه (بما فيها الزنا بالمحارم!) و ٢٠٪ من جرائم السرقة، سببها المشروبات الكحوليه، و عن هذا العالم نفسه أنّ ٤٠٪ من الأطفال المجرمين قد ورثوا آثار الكحول (٧).

٨- إنّ الخسائر التي تصيب الإقتصاد البريطاني من جراء تغيب العمال عن

ص: ١٤٢

١- (١) - كتاب «ندوه الكحول»، ص ٦٥.

٢- (٢) - كتاب «ندوه الكحول»، ص ٦٥.

٣- (٣) - تفسير الطنطاوى، ج ١، ص ١٦٥.

٤- (٤) - دائره المعارف فريد و جدى، ج ٣، ص ٧٩٠.

٥- (٥) - الآفات الاجتماعيه في قرننا، ص ٢٠٥.

٦- (٦) - مجموعه منشورات الجيل الجديد.

٧- (٧) - ندوه الكحول، ص ٦٦.

العمل بسبب إدمانهم على الخمر تبلغ سنويا نحو ٥٠ مليون دولار، وهو مبلغ يكفى لإنشاء الآلاف من رياض الأطفال و المدارس الابتدائية و الثانويه.

٩-الإحصاءات التى نشرت عن خسائر الإدمان على الكحول فى فرنسا تقول: أنّ الخزينه الفرنسيه تتحمل سنويا مبلغ (١٣٧)مليارد فرنك،إضافه إلى الأضرار الأخرى كما يلي:

٦٠ مليار فرنك للصرف المحاكم و السجون.

٤٠ مليار فرنك للصرف على الإعانات العامه و المؤسسات الخيريّه.

١٠-مليارات من الفرنكات للصرف على المستشفيات الخاصه لمعالجه المدمنين على المسكرات.

٧٠ مليار فرنك للصرف على الأمن الاجتماعى.

و هكذا يتّضح أنّ عدد المرضى النفسانيين و مصحات الأمراض العقليه و جرائم القتل و المخاصمات الدمويه و السرقة و الاغتصاب و حوادث المرور، تتناسب تناسباً طردياً مع عدد حانات الخمر.

١٠- أثبتت الدوائر الاحصائيه فى أمريكا أنّ القمار كان السبب المباشر فى ٣٠٪ من الجرائم، و فى إحصائيه أخرى عن جرائم القمار نرى و للأسف الشديد أن ٩٠٪ من جرائم السرقة و ٥٠٪ من الجرائم الجنسيه و ١٠٪ من فساد الأخلاق و ٣٠٪ من الطلاق و ٤٠٪ من الضرب و الجرح و ٥٪ من حوادث الانتحار إنما هى بسبب القمار (١).

ص: ١٤٣

اشاره

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)

سبب النزول

جاء فى تفسير «مجمع البيان» و تفسير «الطبرى» و تفسير «القرطبى» و غيرها من التفاسير أنه بعد نزول آيه تحريم الخمر و الميسر، قال بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: إذا كان هذان العملان على هذا القدر من الإثم، فما حال المسلمين الذين توفاهم الله قبل نزول هذه الآيه و كانوا ما يزالون يمارسونهما؟ فنزلت هذه الآيه جوابا لهم.

التفسير

تجيب هذه الآيه الذين يتساءلون عن الماضين قبل نزول آيه تحريم الخمر و الميسر، أو الذين لم يسمعوا بعد تلك الآيه لبعدها مناطقهم التى يعيشون فيها،

فتقول: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا (١) و لكنها تشترط لتلك التقوى و الإيمان و العمل الصالح: إِذَا مَرَّ بِمَاءٍ آتَقَوْا وَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، ثم تكرر ذلك ثم آتَقَوْا وَ آمَنُوا و للمرّة الثالثة تكرر الآية بقليل من الاختلاف ثُمَّ آتَقَوْا وَ أَحْسَنُوا، و تنتهى بالتوكيد وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

هنالك كلام كثير بين المفسرين القدامى و المحدثين حول هذا التكرار، فبعض يراه للتوكيد و يقول: أنّ أهميه التقوى و الإيمان و العمل الصالح تقتضى الإعادة و التكرار و التوكيد.

إلا أنّ جمعا آخر من المفسرين يعتقدون أنّ كلّ جملة من هذه الجمل المكرره تشير إلى حقيقه منفصله عن الأخرى، و أنّ هناك احتمالات متعدده بشأن اختلاف كل جملة عن الأخرى، و لكن معظم هذه الاحتمالات لا يقوم عليها دليل أو شاهد.

و لعل خير ما قيل بهذه الخصوص هو قولهم: أنّ المقصود بالتقوى فى المرّة الاولى هو ذلك الإحساس الداخلى بالمسؤوليه و الذى يسوق الإنسان نحو البحث و التدقيق فى الدين، و مطالعه معجزه الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم و البحث عن الله، فتكون نتيجة ذلك الإيمان و العمل الصالح، و بعبارة أخرى: إذا لم يكن فى الإنسان شىء من التقوى فإنه لا يتجه إلى البحث عن الحقيقه، و عليه فإن ورد كلمه «التقوى» لأوّل مرّه فى هذه الآية إشاره إلى هذا المقدار من التقوى، و ليس فى هذا تناقض مع بدايه الآية التى تقول: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ... لأنّ الإيمان هنا يمكن أن يكون بمعنى التسليم الظاهرى، بينما الإيمان الذى يحصل بعد التقوى هو الإيمان الحقيقى.

و تكرر التقوى للمرّة الثّانية إشاره إلى التقوى التى تنفذ إلى أعماق الإنسان

ص: ١٤٥

١ - ١) - تطلق كلمه عام «الطعام» على المأكولات غالبا، و لكنها قد تطلق على المشروبات أيضا، كما جاء فى الآية (٢٤٩) من سوره البقره: فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي .

فيزداد تأثيرها، وتكون نتيجهها الإيمان الثابت الوطيد الذي يؤدي إلى العمل الصالح، و لذلك لم يرد «العمل الصالح» بعد «الإيمان» في الجملة الثانية: ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا أَى أَنَّ هَذَا الْإِيمَانَ مِنَ الثَّبُوتِ وَ النِّفَازِ بِحَيْثُ لَا حَاجَةَ مَعَهُ لِذِكْرِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ.

و في المرحلة الثالثة يدور الكلام على التقوى التي بلغت حدّها الأعلى بحيث أنّها فضلا عن دفعها إلى القيام بالواجبات، تدفع إلى الإحسان أيضا، أى إلى الأعمال الصالحة التي ليست من الواجبات.

و عليه فإنّ هذه الضروب الثلاثة من التقوى تشير إلى ثلاث مراحل من الإحساس بالمسؤولية و كأنّها تمثل المرحلة (الابتدائية) و المرحلة (المتوسطة) و المرحلة (النهائية)، و لكل مرحلة قرينه تدل عليها في الآية.

أمّا ما ذهب إليه مفسّرون آخرون بشأن تناول الآية ثلاثة أنواع من التقوى و ثلاثة أنواع من الإيمان فلا قرينه عليه و لا شاهد في الآية.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُتْلَوْنَ كُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيِّدِ تَنَاَلَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَا حُكْمٍ لِيُعَلِّمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيِّدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَيْدِيًّا بِأَلْفِ الْكَعْبِيِّ أَوْ كَفَّارَةً طَعَامٍ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦)

سبب النزول

جاء في كتاب الكافي و في كثير من التفاسير أنه في سنة الحديبيه، عند ما قصد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و من معه من المسلمين العمره و هم محرمون، صادفوا في

طريقهم كثيرا من الحيوانات البريه و كانوا قادرين على صيدها باليد أو بالرمح، لقد كان الصيد من الكثره بحيث قيل أنّ الحيوانات كانت تجوس بين الخيام و تمر بين الناس، الآيه الاولى من هذه الآيات فنزلت في هذا الوقت تحذر المسلمين من صيدها، و تعتبر امتناعهم عن صيدها ضربا من الامتحان لهم.

التفسير

اشاره

أحكام الصيد عند الإحرام:

تبيّن هذه الآيات أحكام صيد البر و البحر أثناء الإحرام للحج أو للعمرة.

في البدايه إشاره إلى ما حدث للمسلمين في عمره الحدييه، فيقول سبحانه و تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِمَاحُكُمْ .**

يستفاد من تعبير الآيه أنّ الله تعالى يريد إنباء الناس عن قضيه سوف تقع في المستقبل، كما يظهر أيضا أنّ وفره الصيد في ذلك المكان لم يكن أمرا مألوفاً، فكان هذا امتحانا للمسلمين، على الأخص إذا أخذنا بنظر الإعتبار حاجتهم الماسه إلى الحصول على طعامهم من لحوم ذلك الصيد الذي كان موفورا و في متناول أيديهم، إنّ تحمل الناس في ذلك العصر الحرمان من ذلك الغذاء القريب يعتبر امتحانا كبيرا لهم.

قال بعضهم: أنّ المقصود من عباره: **تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ** هو أنّهم كانوا قادرين على صيدها بالشباك أو بالفخاخ، و لكن ظاهر الآيه يشير إلى أنّهم كانوا حقاً قادرين على صيدها باليد.

ثمّ يقول من باب التوكيد: **لِيُعَلِّمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ** سبق أن أوضحنا في المجلد الأول من هذا التفسير في ذيل الآيه (١٤٣) من سوره البقره أنّ تعبير «لنعلم» أو «ليعلم» و أمثالها لا يقصد بها، أن الله لم يكن يعلم شيئا، و أنّه يريد أن

يعلمه عن طريق اختبار الناس، بل المقصود هو البأس الحقيقه المعلومه لدى الله لباس العمل و التحقق الخارجى، و ذلك لأنّ الاعتماد على نوايا الأشخاص الداخليه و استعدادهم غير كاف للتكامل و للمعاقبه و الإثابه، بل يجب أن ينكشف كل ذلك خلال أعمال خارجيه لكى يكون لها تلك الآثار (لمزيد من التوضيح انظر ذيل الآيه المذكوره).

و الآيه فى الخاتمه تتوعّد الذين يخالفون هذا الحكم الإلهى بعذاب شديد:

فَمَنْ اعْتَدَىٰ بِغَدٍّ ذَلِكُمْ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ

على الرّغم من أنّ الجملة الأخيره فى الآيه تدل على تحريم الصيد أثناء الإحرام، و لكن الآيه التّاليه لها تصدر حكما قاطعا و صريحا و عاما بشأن تحريم الصيد أثناء الإحرام، إذ تقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرْمٌ .

و هل تحريم الصيد (و هو صيد البر بدلاله الآيه التى تليها) يشمل جميع أنواع الحيوانات البريه، سواء أ كان لحمها حلالا- أم حراما، أم أنّه يختص بحلال اللحم منها؟ لا- تتفق آراء المفسّرين و الفقهاء بهذا الشأن، إلّا- أنّ المشهور بين فقهاء الإماميه و مفسريهم أنّ الحكم عام، و يؤيد ذلك التّوايات المرويّه عن أئمّه أهل البيت عليهم السّلام، أمّا فقهاء أهل السنه فمنهم- مثل أبى حنيفه- من يتفق مع الإماميه فى ذلك، و منهم- كالشافعى- من يرى الحكم مقصورا على الحيوانات المحلله للحوم و لكن الحكم، على كل حال، لا يشمل الحيوانات الأهليه، لأنّ الحيوانات الأهليه لا توصف بالصيد، إنّ ممّا يستلفت النظر فى رواياتنا هو أنّ الصيد ليس وحده المحرم أثناء الإحرام، بل التحريم يشمل حتى الإعانه على الصيد، و الإشاره أو الدلاله عليه أيضا.

قد يظن بعض أنّ الصيد لا يشمل ذوات اللحم الحرام، إلّا أنّ الأمر ليس كذلك، لأنّ الغرض من صيد الحيوان متنوع، فمزمّه يكون الغرض لحمها، و أخرى

جلدها، و ثالثه لدفع أذاها، ثم بيت ينسب إلى الإمام على عليه السلام من الممكن أن يكون شاهدا على هذا التعميم: يقول:

صيد الملوك أرانب و ثعالب

و إذا ركبت فصيدى الأبطال

و للاستزاده من المعرفه بشأن أحكام الصيد الحلال و الحرام يمكن الرجوع إلى الكتب الفقهيه.

ثم بعد ذلك يشار إلى كفاره الصيد في حال الإحرام، فيقول: **وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ .**

فهل المقصود من «مثل» هو التماثل في الشكل و الحجم أى إذا قتل أحد حيوانا وحشيا كبيرا مثل النعامه-مثلا-فهل يجب عليه أن يختار الكفاره من الحيوانات الكبيره، كالبعير مثلا- أو إذا صاد غزالا-فهل كفارته تكون شاه تقاربه في الحجم و الشكل؟ أم أن «مثل» هو التماثل في القيمه؟ إن المشهور و المعروف بين الفقهاء و المفسرين هو الرأى الأول، كما أن ظاهر الآيه أقرب إلى هذا المعنى، و ذلك لأنه بالنظر لعموميه الحكم على الحيوانات ذوات اللحم الحلال و ذوات اللحم الحرام، فإن أكثر هذه الحيوانات ليس لها قيمه ثابتة لكى يمكن إختيار مثيلاتها من الحيوانات الأهليه.

و هذا-على كل حال-قد يكون ممكنا فى حاله وجود المثل من حيث الشكل و الحجم، أما حاله انعدام المثل، فلا مندوحه من تقدير قيمه للصيد بشكل من الأشكال، و ليتمكن إختيار حيوان أهلى حلال اللحم يقاربه فى القيمه.

و لئىا كان من الممكن أن تكون قضيه التماثل موضع شك عند بعضهم فقد أصدر القرآن حكمه بأن ذلك ينبغى أن يكون بتحكيم شخصين مطلعين و عادلين:

يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ

أما عن مكان ذبح الكفاره، فيبين القرآن أنه يكون بصوره «هدى» يبلغ أرض الكعبه: **هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ .**

و المشهور بين فقهاءنا هو أنّ «كفاره الصيد أثناء الإحرام للعمرة» يجب أنّ تذبح في «مكّه» و«كفاره الصيد أثناء الإحرام للحج» يجب أنّ تذبح في «منى»، وهذا لا يتعارض مع الآية المذكورة، لأنها نزلت في إحرام العمرة، كما قلنا.

ثمّ يضيف أنّه ليس ضروريا أنّ تكون الكفاره بصوره أضحيه، بل يمكن الاستعاضه عنها بواحد من اثنين آخرين: أو كَفَّارَةٌ طَعَامٌ مَسَاكِينَ و أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا .

مع أنّ الآية لا تذكر عدد المساكين الذين يجب إطعامهم، ولا عدد الأيام التي يجب أنّ تصام، فإن اقتران الاثنين معا من جهه، و التصريح بلزوم الموازنه في الصيام، يدل على أنّ المقصود ليس إطلاق عدد المساكين الذين يجب إطعامهم بحسب رغبتنا، بل المقصود تحديد ذلك بمقدار قيمه الأضحيه.

أمّا كيف يتمّ التوازن بين الصيام و إطعام المسكين، فيستفاد من بعض الروايات أنّ مقابل كلّ «مدّ» من الطعام (ما يعادل نحو ٧٥٠ غراما من الحنطه و أمثالها) يصوم يوما واحدا، و يستفاد من روايات أخرى أنّه يصوم يوما واحدا في مقابل كلّ «مدّين» من الطعام، و هذا يعود في الواقع إلى أنّ الذي لا- يستطيع صوم رمضان يكفّر عن كل يوم منه بمدّ واحد أو بمدّين اثنين من الطعام للمحتاجين (لمزيد من الاطلاع بهذا الخصوص انظر الكتب الفقيهيه).

أمّا إذا ارتكب محرم صيدا فهل له أن يختار أيّا من هذه الكفارات الثلاث، أو أنّ عليه أن يختار بالترتيب واحده منها، أي الذبيحه أولا، فإن لم يستطع إطعام المسكين، فإنّ لم يستطع فالصيام، فالفقهاء مختلفون في هذا، و لكن ظاهر الآية يدل على حريه الإختيار. إنّ الهدف من هذه الكفارات هو لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ (١).

ص: ١٥١

١- ١) - في «مفردات الراغب» أنّ «وبال» من «الوبل و الوابل» و هو المطر الغزير، ثمّ أطلق على العمل الشاق الجسيم، و لما كان العقاب شديدا و ثقيلًا عاده، فقد وصف بأنه «وبال».

ثم لما لم يكن لأى حكم أثر رجعى يعود إلى الماضى، فيقول: عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ .

أمّا من لم يعتن بهذه التحذيرات المتكرره و لم يلتفت إلى أحكام الكفاره و كرر مخالفاته لحكم الصيد و هو محرم فإنّ الله سوف ينتقم منه فى الوقت المناسب: وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ .

ثمّ نقاش بين المفسّرين عمّا إذا كانت كفاره صيد المحرم تتكرر بتكرره، أو لا، ظاهر الآيه يدل على أنّ التكرار يستوجب انتقام الله، فلو استلزم تكرار الكفاره لوجب أنّ لا- يكتفى بذكر الانتقام الإلهى، و للزم ذكر تكرار الكفاره صراحه، و هذا ما جاء فى الزوايات التى وصلتنا عن أهل البيت عليهم السّلام.

بعد ذلك يتناول الكلام صيد البحر: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ .

لكن ما المقصود من الطعام؟ فإن بعض المفسّرين يرون أنّه ذلك النوع من السمك الذى يموت بدون صيد و يطفو على سطح الماء، مع أنّنا نعلم أنّ هذا الكلام ليس صحيحاً، لأنّ السمك الميت بهذا الشكل حرام مع أنّ بعض الزوايات التى يرويها أهل السنّه تدل على حليته.

إنّ ما يستفاد من التعمق فى ظهور الآيه هو أنّ القصد من الطعام ما يهياً للأكل من سمك الصيد إذ أنّ الآيه تريد أن تحلل أمرين، الأوّل هو الصيد، و الثّانى هو الطعام المتخذ من هذا الصيد.

و بهذه المناسبه، ثمه فتوى معروفه بين فقهاءنا تعتمد مفهوم هذا التعبير، و ذلك فيما يتعلق بصيد البر، فإن هذا الصيد ليس وحده حراماً، بل أنّ طعامه حرام أيضاً.

ثمّ تشير الآيه إلى الحكمه فى هذا الحكم و تقول: مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلنَّاسِ آرَهُ، أى لكيلا- تعانوا المشقّه فى طعامكم و أنتم محرومون، فلکم أن تستفيدوا من نوع واحد من الصيد، ذلك هو صيد البحر.

و لما كان من المألوف أن يكون السمك الذى يحمله المسافر معه هو السمك

المملح، فقد ذهب بعض المفسرين إلى تفسير العبارة المذكورة في الآية بأنه يجوز «للمقيمين» أن يطعموا السمك الطازج و«للمسافرين» السمك المملح.

ولا بد من التنبيه إلى أن حكم أحل لكم صيد البحر و طعمه ليس حكما مطلقا و عاما في حليه صيد البحر كانه كما يظن بعضهم، و ذلك لأن الآية ليست في معرض بيان أصل حكم صيد البحر، بل هدف الآية هو أن تبين للمحرّم أنّ صيد البحر الذي كان حلالا قبل الإحرام له أن يطعمه في حال الإحرام أيضا، و بعبارة أخرى: لتبين الآية أصل تشريع القانون، و إنما تشير إلى خصائص قانون سبق تشريعه فليست الآية في معرض عموميه الحكم، بل هي تبين حكم المحرم فحسب.

و للتوكيد تعود الآية إلى الحكم السابق مره أخرى و تقول: وَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا .

و لتوكيد جميع الأحكام التي ذكرت، تقول الآية في الخاتمة: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

حكمه تحريم الصيد حال الإحرام:

معلوم أن الحج و العمره من العبادات التي تفصل الإنسان عن عالم المادة و تنقله إلى محيط مليء بالمعنويات، فخصوصيات الحياه الماديه، و الجدال الخصام، و الرغبات الجنسيه، و اللذائذ الماديه كلها تنفصل عن الإنسان في مناسك الحج و العمره، و يبدأ الإنسان ضربا من الرياضه الإلهيه المشروعه، و يبدو أن تحريم صيد البرّ في حال الإحرام يرمى إلى الهدف نفسه.

ثم لو أحل الصيد لزاترى بيت الله الحرام، مع الأخذ بنظر الإعتبار كثره الزوار و كثره ترددهم في كلّ سنه على هذه الأرض المقدسه، لقضى على وجود الكثير من الحيوانات القليله أصلا في تلك الأرض القاحله الخاليه من الماء و الزرع،

فجاء هذا التشريع لضمان بقاء حيوانات تلك المنطقه و الحفاظ عليها من الانقراض.

و إذا أخذنا بنظر الإعتبار أنه حتى فى غير حال الإحرام يمنع صيد الحرم، و كذلك قطع أشجاره و حشائشه، تبين لنا أن لهذا التشريع ارتباطا وثيقا بقضيه الحفاظ على البيئه و على النبات و الحيوان فى تلك المنطقه، و صيانتها من الإباده.

إن هذا التشريع من الدقه و الإحكام بحيث أنه يمنع فيه حتى هدايه الصياد إلى مكان الصيد، فقد جاء فى بعض الزوايات من طرق أهل البيت عليهم السلام

أن الإمام الصادق عليه السلام قال لأحد أصحابه: «لا تستحلن شيئا من الصيد و أنت حرام و لا أنت حلال فى الحرم و لا تدلن محلا و لا محرما فيصطاده، و لا تشر إليه فيستحل من أجلك، فإن فيه فداء لمن تعمده» (1).

ص: ١٥٤

اشاره

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فَيَا مَنَّا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَيْدَىٰ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكُمْ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۹۷) اِعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۹۸) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (۹۹)

التفسير

اشاره

بعد الكلام في الآيات السابقة على تحريم الصيد في حال الإحرام، يشير القرآن الكريم في هذه الآية إلى أهميه «مكه» و أثرها في بناء حياه المسلمين الاجتماعيه، فيقول أولاً: جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فَيَا مَنَّا لِلنَّاسِ .

فهذا البيت المقدس رمز وحده الناس و مركز لتجمع القلوب حوله، و مؤتمر عظيم لتوثيق الزوابط المختلفه، فهم في ظل هذا البيت المقدس و في مركزيته و معنويته المستمده من جذور تاريخيه عميقه يستطيعون إصلاح الكثير ممّا يستوجب الإصلاح و الترميم في حياتهم، و إقامه سعادتهم على قواعد المتينه، لذلك فقد وصف هذا البيت في سوره آل عمران (الآيه ۹۶): إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ

لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِيكُم مُّبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ .

فى الحقيقه إنّ المسلمين يستطيعون-انطلاقا من المفهوم الواسع لقوله: **فِيَا مَّا لِلنَّاسِ** -أن يصلحوا كل أمورهم بالركون إلى هذا البيت و فى إطار تعاليم الحج البناءه.

و لما كانت هذه المناسك يجب أن تجرى فى جو آمن و خال من الحروب و المنازعات و المخاصمات، فقد أشارت الآيه إلى أثر الأشهر الحرم (و هى الأشهر التى تمنع فيها الحرب مطلقا) و قالت: **وَ الشَّهْرُ الْحَرَامُ (١)** كما أشارت إلى الأضاحى الفاقده للعلامه (الهدى) و الأضاحى ذات العلامه (القلائد) التى منها يطعم الناس فى موسم الحج، و تؤمن جانبا من احتياجات الحاج للقيام بمناسكه، فقالت: **وَ الْهُدًى وَ الْقُلَائِدُ** .

و لَمَّا كَانَ مَجْمُوعَ هَذِهِ الْأَحْكَامِ وَ الْقَوَانِينِ وَ التَّشْرِيعَاتِ بِشَأْنِ الصَّيْدِ، وَ كَذَلِكَ بِشَأْنِ حَرَمِ مَكَّةَ وَ الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَ غَيْرِ ذَلِكَ، يَحْكِي عَمَقَ تَدْبِيرِ الشَّارِعِ وَسَعَةَ عِلْمِهِ تَقُولُ الْآيَةُ: **ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**. بناء على ما مرّ بناء فى تفسير هذه الآيه يتّضح الارتباط بين بدايتها و نهايتها، إذ أنّ هذه الأحكام التشريعيه لا يستطيع أن ينظمها إلا من كان عليما بأعماق القوانين التكوينيّه، فالذى لا علم له بدقائق شؤون السماء و الأرض و بما استقرّ فى روح الإنسان و جسمه عند خلقه، لا تكون له القدره على تقرير أحكام كهذه، فالقانون الصحيح السليم هو ذاك الذى ينسجم مع قانون الخلق و الفطره.

الآيه التّاليه تؤكّد تلك التشريعات، و تحث الناس على إتباعها و تهدد المخالفين و العاصين فتقول: **إِعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** .

و لعلّ تقديم شديد العقاب على غفور رحيم إشارة إلى أنّ عقاب الله الشديد يمكن إطفأؤه بماء التوبه و الدخول فى رحمه الله و غفرانه.

و مرّه أخرى تؤكّد الآيه على أنّ الناس هم المسؤولون عن أعمالهم، و أنّ

ص: ١٥٦

النَّبِيُّ مَسْئُولٌ عَنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ لَا غَيْرَ لِمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا تَكْتُمُونَ .

أهميه الكعبه:

إنَّ «الكعبه»-التي ذكرت في هذه الآيه و في الآيات السابقه مرّتين-من ماده «كعب» أى بروز خلف القدم، ثم أطلق على كل بروز، و المكعب كذلك لأنّه بارز من جهاته الأربع، و الكاعب (و جمعها كواعب) هي الأنتى التي برز صدرها.

و الظاهر أنّ تسميه بيت الله بالكعبه يرجع أيضا، إلى ارتفاعه الظاهري و بروزه، كما هو رمز لارتفاع مقامه و عظمه مكانته.

إنّ للكعبه تاريخا عريقا حافلا بالحوادث و الوقائع، و كلّ هذه الحوادث تنطلق من عظمتها و مكانتها المهمّه.

أهميه الكعبه تبلغ حدا بحيث أنّ الأحاديث الإسلاميه تعتبر هدمها في مصاف قتل النّبي و الإمام و النظر إليها عباده، و الطواف بها من أفضل الأعمال، و قد

جاء في روايه عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «لا ينبغي لأحد أن يرفع بناءه فوق الكعبه» (١).

طبيعي أنّ أهميه الكعبه و احترامها لم يأتيا من بنائها،

فقد قال أمير المؤمنين على عليه السّلام في الخطبه القاصعه: «ألا ترون أنّ الله، سبحانه، اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه، إلى الآخريين من هذا العالم، بأحجار لا تضر و لا تنفع و لا تبصر و لا تسمع، فجعلها بيته الحرام (الذى جعله للناس قياما) ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجرا، و أقل نفاق الدنيا مدرا...» (٢).

أهميه مكانه الكعبه عند الله تعود إلى أنّها أقدم مراكز العباده و التوحيد، و نقطه تجتذب إليها أنظار الشعوب و الأقوام المختلفه.

ص: ١٥٧

١- (١) - «سفينه البحار»، ج ٢، ص ٤٨٢.

٢- (٢) - «نهج البلاغه»، الخطبه القاصعه، رقم ١٩٢.

اشاره

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۱۰۰)

التفسير

اشاره

الأكثرية ليست دليلا على الطهاره:

دار الحديث في الآيات السابقة حول تحريم الخمر و القمار و الأنصاب و الأزلام و صيد البر في حال الإحرام، و لكن قد نجد أناسا يتذرعون لارتكاب هذه المعاصي بالكثرة الكاثرة من الذين يرتكبونها في بعض الأمصار، فيقولون مثلا: أن أكثر أهل المدينة الفلانية يعاقرون الخمره، أو أنهم يمارسون القمار، أو أن أكثرية الناس في ظروف خاصه لا يقيمون وزنا لتحريم الصيد و لغيره لذلك، فهم أيضا يحذون حذوهم و يهملون العمل بتلك التشريعات، فلكيلا يتذرع الناس بأمثال هذه الأعذار، يضع الله سبحانه قاعده كليه عامه و رئيسيه في عباره قصيره شامله يخاطب بها رسوله الكريم: قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ .

و عليه فإن الخبيث و الطيب في الآيه -يشملان كل ما يرتبط بالإنسان، طعاما كان ذلك أم فكرا.

و فى الختام يخاطب العلماء و أصحاب العقول و الأذكياء فيقول: فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

أما أنّ مدلول الآيه من قبيل توضيح الواضحات، فذلك لأنّ ثمة من يظن أنّ أموراً عارضه، مثل كثره إتباع الخبيث، أو ما يسمى بـ«الأ-كثريه» تجعل ذلك الخبيث فى مصاف الطيب، كما يحدث أحيانا أن نرى بعضهم يقع تحت تأثير الجماعه و اتجاه أهواء الأ-كثريه، ظاناً أنه حيثما مالت الأ-كثريه كان ذلك دليلاً قاطعاً على صحه ما مالت إليه، بينما الأمر ليس كذلك، و القضايا التى أيدتها الأكثرية و ظهر بطلانها كثره جداً.

فى الواقع إنّ ما يميز الخبيث من الطيب هو الأكثرية الكيفيه لا الكميّه، أى أنّ المطلوب هو أفكار أقوى و أرفع و أسمى و أنقى لا كثره المؤيدين.

هذه القضية لا تلاءم أذواق بعض الناس فى العصر الحاضر، بعد أنّ تشبعت أذهانهم على أثر التلقين و وسائل الأعلام بأن الأكثرية هى معيار معرفه الخبيث من الطيب، إلى حدّ الإيمان بأنّ«الحقّ» هو ما أرادته الأكثرية، و«الطيب» هو ما مالت إليه الأكثرية، و ليس كذلك. إن معظم مشاكل العالم ناتجه عن هذا اللون من التفكير.

نعم، إذا تمتعت الأكثرية بقياده صادقّه و تعليمات صحيحه، بحيث تؤلف أكثرية ناضجه بما للكلمه من معنى، فيمكن حينئذ اعتبار هذه الأكثرية و اتجاهاتها مقياس تمييز الخبيث عن الطيب، لا الأكثرية الفجّه غير الناضجه.

على كل حال، يشير القرآن إلى هذا الأمر فى هذه الآيه، و يحذر الناس من الانجراف مع أكثرية الخبيثاء، و فى مواضع أخرى تكاد تبلغ العشره يقول تعالى:

وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ □ □ أما تقديم«الخبيث» على«الطيب» فى الآيه، فذلك لأنّ الكلام موجه إلى الذين يحسبون كثره الخبيث دليلاً على صحه ما يذهبون إليه، فلا بدّ من الردّ على هؤلاء، و تعريفهم بأن معيار الخبيثه و الطيبه لم

يكون فى يوم من الأيَّام هو الأ-كثريه أو الأقلية،بل فى كل زمان و مكان كان «الطيب» خيرا من «الخبيث» و أن أصحاب الحجي و التبصر لا يندعون بالكثرة، فهم يتجنبون الخبيث دائما حتى و إن تلوث به جميع المحيطين بهم، و يندفعون نحو الطيب حتى و إن ابتعد عنه الجميع.

ص :١٦٠

إشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ
حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢)

سبب النزول

الأقوال فى سبب نزول هاتين الآيتين مختلف فى مصادر الحديث و التفسير، و لكن الذى ينسجم أكثر مع سبب نزول هاتين الآيتين، هو ما

جاء فى تفسير «مجمع البيان» عن على بن أبى طالب عليه السلام قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ فَقَامَ عَكَاشَةُ بْنُ مَحْصَنٍ وَقِيلَ سَرَّاقُهُ بْنُ مَالِكٍ فَقَالَ: أُنْفَى كَلِّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ حَتَّى عَادَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «وَيَحْكُ مَا يُؤْمِنُكَ أَنْ أَقُولَ: نَعَمْ، وَاللَّهِ لَوْ قُلْتَ نَعَمْ لَوَجِبْتَ، وَ لَوْ وَجِبْتَ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَ لَوْ تَرَكْتُمْ لَكَفَرْتُمْ، فَاتْرَكُونِي كَمَا تَرَكْتُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكُ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سؤَالِهِمْ وَ اخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُمْ بِشَيْءٍ فَاتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَ إِذَا نَهَيْتُمْ عَنْ

شىء فاجتنبوه» (١).

ينبغى ألا- يظن أحد بأن سبب نزول هاتين الآيتين- كما سنتطرق إلى ذلك فى تفسيرهما- يعنى غلق أبواب السؤال و باب تفهم الأمور بوجوه الناس، لأن القرآن فى آياته يأمر الناس صراحة بالرجوع إلى أصحاب الخبره فى فهم الأمور:

فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

(٢)

بل المقصود هو الأسئلة التافهه و التحجج، و الإلحاح المؤدى غالبا إلى تشويش أفكار الناس و قطع التسلسل الفكرى للخطيب.

التفسير

إشاره

الأسئلة الفضوليه:

لا شك أنّ السؤال مفتاح المعرفة، و لذلك من قلت أسئلته قلت معرفته، و فى القرآن و فى الروايات الكثير من التوكيد على الناس أن يسألوا عما لا يعرفون، و لكن لكل قاعده استثناء، و لهذا المبدأ التربوى الأساس استثناءاته أيضا، منها أن هناك أحيانا بعض المسائل التى يكون إخفاؤها أفضل لحفظ النظام الاجتماعى و لمصلحه أفراد المجتمع، ففى أمثال هذه الحالات لا يكون الإلحاح فى السؤال عنها و السعى لكشف النقاب عن حقيقتها بعيدا عن الفضيله فحسب، بل يكون مذموما أيضا مثلا:

يرى معظم الأطباء ضروره كتمان الأمراض الصعبه الشفاء و المخيفه عن المريض نفسه، و قد يخبرون أهله شريطه أنّ يلتزموا كتمان الأمر عن المريض، و السبب هو أن التجارب قد دلت على أنّ المريض إذا عرف أنّ مرضه لا يشفى بسرعه انتابه الرعب و الهلع و قد يؤخر ذلك شفاءه، إن لم يكن مرضه مهلكا فعلى

ص: ١٦٢

١-١) -تفسير«مجمع البيان» و تفسير«الدر المنثور» و«المنار» فى ذيل الآيه المذكوره مع بعض الاختلاف.

٢-٢) -النحل، ٤٣.

المريض أن لا- يلح في إلقاء الأسئلة على طبيبه العطوف، لأن هذا الإلحاح قد يهزج الطبيب، فيصرح للمريض بما لا ينبغي أن يصارحه به تخلصاً من هذا الإصرار و اللجاج.

كذلك الناس عموماً، فهم في التعامل فيما بينهم يحتاجون إلى أن يحسن بعضهم الظن ببعض، فللحفاظ على هذا الرصيد الهام خير لهم ألا- يعرفوا خفايا الآخرين، إذ أن لكل امرئ نقاط ضعيفه، فالكشاف نقاط ضعف الناس يضرّ بالتعاون فيما بينهم فقد يكون امرؤ ذو شخصيه مؤثره قد ولد في عائله واطئه و منحطه، و إذا انكشف هذا فقد تنزل آثاره الوجوديه في المجتمع، لذلك ينبغي على الناس ألا يلحوا في السؤال و التفتيش في هذا المجال.

كما أن الكثير من الخطط و المناهج الاجتماعيه يلزمها الكتمان حتى يتم تنفيذها، فالإعلان عنها يعتبر ضربه تؤخر سرعه إنجاز العمل.

هذه و أمثالها نماذج لما لا يصح فيه الإلحاح في السؤال، و على القاده أن لا يفسحوا أمثال هذه الأسرار ما لم يقعوا تحت ضغط شديد.

و القرآن في هذه الآيه يشير إلى الموضوع نفسه و يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَسْئَاءِ إِن تَبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ .

و لكن إلحاح بعض الناس بالسؤال من جهه، و عدم الإجابة على أسئلتهم من جهه أخرى، قد يثير الشكوك و الريب عند الآخرين بحيث يؤدي الأمر إلى مفسد أكثر، لذلك تقول الآيه: ﴿وَ إِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ فِشَقْ عَلَيْكُمُ الْأَمْرُ .

أمّا قصر افشائها على وقت نزول القرآن، فذلك لأنّ تلك التساؤلات كانت متعلقه بمسائل ينبغي أن تنزل أجوبتها عن طريق الوحي.

ثم لا تحسبوا الله غافلاً عن ذكر بعض الأمور إن سكت عنها، فقد عفا الله عنها ﴿وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ .

يقول على عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ افترض عليكم فرائض فلا تضيعوها، و حدّ لكم حدودا فلا تعتدوها، و نهى عن أشياء فلا تنتهكوها، و سكت لكم عن أشياء و لم يدعها نسيانا فلا تتكلفوها» (١).

سؤال:

قد يسأل سائل: إذا كان إفشاء هذه الأمور يتعارض مع مصلحة الناس، فلما ذا يماط اللثام عنها على أثر الإلحاح؟

الجواب:

السبب هو ما قلناه من قبل، فالقائد إذا لزم الصمت رغم الإلحاح بالسؤال، فقد تنجم عن ذلك مفسد أخطر، و يثار سوء ظن يشوب أذهان الناس، مثل صمت الطبيب إزاء إلحاح المريض في السؤال عن مرضه، فإن ذلك يثير شكوك المريض، و قد يحمله على الظن بأن الطبيب لم يشخص مرضه بعد، فيهمل استعمال ما يصفه له من علاج، عندئذ لا يسع الطبيب إلا أن يفشى له سرّ مرضه، و لو سبب له ذلك بعض المشاكل.

الآية التي بعدها تؤكد هذه الحقيقة، و تبيّن أنّ أقواما سابقين كانت لهم أسئلة كهذه، و بعد أن سمعوا أجوبتها خالفوها و عصوا: قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ .

و للمفسّرين أقوال مختلفة بشأن تلك الأقوام، منهم من ذهب إلى أن الأمر يخص تلامذه عيسى عليه السلام عند ما طلبوا مائده من السماء، فعند ما تحقق لهم ما أرادوا عصوا، و يقول بعض: إنّها حكاية مطالبه النبي صالح عليه السلام بمعجزه، و لكن الظاهر أن هذه الاحتمالات بعيدة عن الصواب، لأنّ الآية تتحدث عن «سؤال» عن مجهول يراد الكشف عنه، لا عن «طلب» شيء، و لعل استعمال كلمة «سؤال» في كلا الحالين هو سبب هذا الخطأ.

ص: ١٦٤

قد تكون تلك الأقوام من بنى إسرائيل أمروا بذبح بقره للتحقيق في أمر جريمه (انظر شرح ذلك في المجلد الأول من هذا التفسير) فراحوا يمطرون موسى بالأسئلة عن خصائص البقره و مميزاتها ممّا لم يكن قد نزل بشأنها أى شىء، و لكنهم بسؤالاتهم المتكرره التى لم تكن ضروريه أخذوا يشقون على أنفسهم، بحيث أن العثور على تلك البقره الموصوفه أصبح من الصعوبه بمكان و تحملوا الكثير من النفقات فى سبيل ذلك، حتى كادوا أن ينصرفوا عن التنفيذ.

فى تفسير قوله تعالى: **ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ** احتمالان:

الأول: أن المقصود بالكفر هو العصيان، كما سبقت الإشارة إليه.

و الثانى: هو أنّ الكفر قصد بمعناه المعروف، و ذلك لأن سماع الإجابات المزعجه التى تثقل على السامع قد تدفع به إلى إنكار أصل الموضوع و صلاحيه المجيب، كأن يسمع مريض جوابا لا يروقه من طبيبه، فيؤدى ردّ الفعل به إلى إنكار صلاحيه الطبيب و اتهامه بعدم الفهم مثلا أو بالهرم و نسيان المعلومات.

فى ختام هذا البحث نجد لزاما أن نكرر ما قلناه فى بدايته، و هو أنّ هذه الآيات لا تمنع أبدا إلقاء الأسئلة المنطقيه التربويه و البناءه، بل تتحدد بالأسئله التى لا لزوم لها، و بالتعمق فى أمور لا ضروره للتعمق فيها و التى من الأفضل بل من اللازم -أحيانا- بقاؤها فى طى الكتمان.

اشاره

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَا لِكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (۱۰۳) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (۱۰۴)

التفسير

في الآيه الاولى اشاره إلى أربعة «بدع» كانت سائده في الجاهليه، فقد كانوا يضعون على بعض الحيوانات علامات و أسماء لأسباب معينه و يحرمون أكل لحومها و لا يجيزون شرب لبنها أو جز صوفها أو حتى امتطاءها، كانوا أحيانا يطلقون سراح هذه الحيوانات تسرح و تمرح دون أن يعترضها أحد، أى أنهم كانوا يطلقونها سائبه دون أن يستفيدوا منها شيئاً، لذلك يقول الله تعالى: مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ .

١- «البحيره» هي الناقة التي ولدت خمسه أبطن خامسها أنثى- و قيل ذكر- فيشقون أذنها، و تترك طليقه و لا تدبح.

«البحيره» من ماده «بحر» بمعنى الواسع العريض، و لهذا سمي البحر بحرا، و تسميه الناقه بالبحيره جاءت من شق أذنها شقا واسعا عريضا.

٢- «السائبه» هي الناقه التي تكون قد ولدت اثني عشر بطنًا- و قيل عشره أبطن- فيطلقونها سائبه و لا يمتطيها أحد، و لها أن ترعى حيثما تشاء و ترد حيثما تشاء دون أن يعترضها أحد، و قد يحلبونها أحيانا لإطعام الضيف، و «السائبه» من ماده «سيب» أى جريان الماء أو المشى بحرّيه.

٣- «الوصيله» هي الشاه التي ولدت سبعة أبطن- و قيل أنّها التي تلد التوائم، من ماده «وصل» و كانوا يحرمون ذبحها.

٤- «الحام» و اللفظه اسم فاعل من ماده «حمى»، و يطلق على الفحل الذي يتخذ للتلقيح، فإذا استفيد منه فى تلقيح الأنثى عشر مرات و ولدن منه، قالوا: لقد حمى ظهره، فلا يحق لأحد ركوبه، و من معانى «الحمايه» المحافظه و الحيلولة و المنع.

هناك احتمالات أخرى وردت عند المفسرين و فى الأحاديث بشأن تحديد هذه المصطلحات الأربعة، لكن القاسم المشترك بين كل هذه المعانى هو أنّها تدل جميعا على حيوانات قدّمت خدمات كبيره لأصحابها فى «النتاج» فكان هؤلاء يحترمونها و يطلقون سراحتها لقاء ذلك.

صحيح أنّ عملهم هذا ضرب من العرفان بالجميل و مظهر من مظاهر الشكر، حتى نحو الحيوانات، و هو بهذا جدير بالتقدير و الإجلال، و لكنّه كان تكريما لا معنى له لحيوانات لا تدرّك ذلك.

كما كان-فضلا عن ذلك-مضيعة للمال و إتلافا لنعم الله و تعطيلها عن

الاستثمار النافع، ثم أنّ هذه الحيوانات، بسبب هذا الاحترام و التكريم، كانت تعاني من العذاب و الجوع و العطش لأنه قلما يقدم أحد على تغذيتها و العناية بها.

و لما كانت هذه الحيوانات كبيره فى السن عاده، فقد كانت تقضى بقيه أيامها فى كثير من الحرمان و الحاجه حتى تموت ميتة محزنه، و لهذا كله وقف الإسلام بوجه هذه العاده! إضافه إلى ذلك، يستفاد من بعض الروايات و التفاسير أنّهم كانوا يتقربون بذلك كله، أو بقسم منه إلى أصنامهم، فكانوا فى الواقع يندرون تلك الحيوانات لتلك الأصنام، و لذلك كان إلغاء هذه العادات تأكيداً لمحاربه كل مخلفات الشرك.

و العجيب فى الأمر، أنّهم كانوا يأكلون لحوم تلك الحيوانات إذا ما ماتت موتاً طبيعياً (و كأنهم يتبركون بها) و كان هذا عملاً قبيحاً آخر (١).

ثم تقول الآيه: **وَ لَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ قَائِلِينَ أَن هَذِهِ قَوَانِينُ إِلَهِهِ دُونَ أَنْ يَفَكَّرُوا فِي الْأَمْرِ وَ يَعْقِلُوهُ، بَلْ كَانُوا يَقْلُدُونَ الْآخِرِينَ فِي ذَلِكَ تَقْلِيداً أَعْمَى: وَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ .**

الآيه الثانيه تشير إلى منطقتهم و دليلهم على قيامهم بهذه الأعمال: **وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .**

فى الواقع، كان كفرهم و عبادتهم الأصنام ينبع من نوع آخر من الوثنيه، هو التسليم الأعمى للعادات الخرافيه التى كان عليها أسلافهم، معتبرين ممارسات أجدادهم لها دليلاً قاطعاً على صحتها، و يرد القرآن بصراحه على ذلك بقوله: **أَ وَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ لَا يَهْتَدُونَ .**

أى لو كان أجدادكم الذين يستندون إليهم فى العقيدة و العمل من العلماء و المهتمدين لكان اتباعكم لهم إتباع جاهل لعالم، لكنكم تعلمون أنّهم، لا يعلمون أكثر منكم و لعلهم أكثر تخلفاً منكم، و من هنا فإنّ تقليدكم إياهم تقليد جاهل

ص: ١٦٨

لجاهل، و هو فوض و مدموم فى ميزان العقل.

تركيز القرآن فى هذه الآيه على كلمه «أكثر» يدل على أنه كانت فى ذلك المحيط الجاهلى المظلم فئه- وإن قلت-على قدر من الفهم بحيث تنظر بعين الاحتقار و الاشمئزاز إلى تلك الممارسات.

وثن اسمه «الأسلاف»:

من الأمور التى كانت سائده فى الجاهليه و التى تكررت الإشاره إليها فى القرآن التفاخر بالآباء و الأجداد و إجلالهم إلى حدّ التقديس الأعمى و إتباع أفكارهم و عاداتهم و تقاليدهم. و ليس هذا مقصورا على الجاهليه الاولى، فهو موجود بين كثير من الأقبوام المعاصره، و لعلّه أحد أسباب اشاعه الخرافات و انتقالها من جيل إلى جيل، و كان «الموت» يصفى هاله من القدسيه و الاحترام و الإجلال على الأسلاف.

لا- شك أن روح الاعتراف بالجميل و رعايه المبادئ الإنسانيه توجب علينا احترام الماضين من آباءنا و أجدادنا، و لكن لا أن نعتبرهم معصومين عن كل خطأ و مصونين عن كل نقد و تجريح لأفكارهم و سلوكهم فنتبع خرافاتهم و نقلدهم فيها تقليدا أعمى، ليس هذا فى الواقع سوى لون من ألوان الوثنيه و المنطق الجاهلى، إننا من الممكن أن نحترم أفكارهم و تقاليدهم المفيده، و نحطم فى الوقت نفسه عاداتهم غير الصحيحه، خاصّه و أن الأجيال الحديثه أوسع علما و أعمق معرفه من الأجيال السابقه بسبب مضى الزمن و تقدم العلم و التجربه، و ما من عقل رصين يجيز تقليد الماضين تقليدا أعمى.

و من العجيب أن نرى بعض العلماء و أساتذه الجامعه يعيشون هذا اللون من التقديس الأعمى لعادات السلف، فيبلغ بهم التعصب القومى إلى التمسك بعادات و تقاليد ما أنزل الله بها من سلطان متبعين بذلك منطق العرب فى جاهليتهم الاولى.

جاء فى تفسير «الميزان» و«الدر المنثور» عن عدد من الرواه منهم الحكيم الترمذى فى «نوادى الأصول» و عن غيره، عن أبى الأحوص عن أبيه، قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فى خلقان من الثياب، فقال لى: «هل لك من مال؟» قلت: نعم، قال: «من أى المال؟» قلت: من كل المال، من الإبل و الغنم و الخيل و الرقيق، قال:

«فإذا أتاك الله، فليز عليك». أى لا ينبغي أن تعيش كالمساكين مع انك صاحب ثروه.

ثم قال: «تنتج إبلك و فيه آذانها؟» قلت: نعم و هل تنتج الإبل إلا كذلك؟ قال:

«فلعلك تأخذ موسى فتقطع آذان طائفه منها و تقول: هذه بحر، و تشق آذان طائفه منها و تقول: هذه الصرم؟» قلت: نعم، قال: «فلا تفعل، إن كل ما أتاك الله لك حل، ثم قال: ما جعل الله من بحيره و لا سائبه و لا وصيله و لا حام» (1).

نفهم من هذه الروايه أنهم كانوا يجمدون قسما من أموالهم، و لكنهم فى الوقت نفسه كانوا يقتصدون فى ملبسهم، بل و ييخلون فيه، و هذا نوع من التناقض الذى لا مسوغ له.

ص: ١٧٠

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِيمَنْبُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)

التفسير

اشاره

كل امرئ مسئول عن عمله:

دار الحديث في الآيه السابقه حول تقليد الجاهليين آباءهم الضالين، فأندرههم القرآن بأن تقليدا كهذا لا ينسجم مع العقل و المنطق، فمن الطبيعي أن يتبادر إلى أذهانهم السؤال: إننا إذا كان علينا أن ننفصل عن أسلافنا في هذه الأمور، فما ذا سيكون مصيرهم؟ ثم إذا نحن أفلعنا عن هذه التقاليد فما مصائر الكثير من الناس الذين ما يزالون متمسكين بها و واقعين تحت تأثيرها فكان جواب القرآن: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ .

ثم يشير إلى موضوع البعث و الحساب و مراجعه حساب كل فرد: إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِيمَنْبُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

أثار بعضهم شبهه حول هذه الآية، فظن أنّ بين هذه الآية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - وهو من التشريعات الإسلامية الصريحة المسلم بها - ضرب من التضاد أو التناقض، إذ أن هذه الآية تقول عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ .

هناك أحاديث وروايات تدل على أنّ هذا الموضوع أثار شبهه حتى في عصر نزول الآية يقول (جبير بن نفيل): كنت في جمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالسين بحضرته، وكنت أحدثهم سنا، وكان الحديث يدور حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقاطعتهم وقلت: ألم يأت في القرآن يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ (أى بهذه الآية لا يبقى ما يوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وإذا بالحاضرين يجمعون على توبيخى و تقرىعى قائلين: كيف تقتبس آية من القرآن دون أن تعرف معناها وتفسرها؟ فندمت على ما قلت أشد الندم، وعادوا إلى بحثهم السابق.

وعند انفضاض المجلس التفتوا إلى قائلين: إنك شاب حدث السن، قمت بتفصيل آية من القرآن عما حولها بغير أن تعرف معناها.

وقد يطول بك العمر حتى ترى كيف يحيط البخل بالناس و يسيطر عليهم، و تسيطر عليهم أهواؤهم و يعتدّ كل منهم برأيه، فلتحذر يومئذ من أن يضرك من ضل منهم (أى أنّ الآية تشير إلى ذلك الزمان).

و اليوم نجد الراكنين إلى الدعة و طلاب الراحة، عند ما يدور الحديث حول القيام بهاتين الفريضتين الإلهيتين الكبيرتين - الأمر بالمعروف - والنهي عن المنكر - يتذرعون بهذه الآية و يحرفونها عن موضعها، مع أنّنا بقليل من الدقة فى النظر ندرك أنّ تضاد بين هاتين الفريضتين و ما جاء فى هذه الآية:

فأولاً: تبين الآية أنّ كل امرئ يحاسب على انفراد، و أنّ ضلال الآخرين من

الأسلاف و غير الأسلاف لا يؤثر في هدايه الذين اهتدوا، حتى و إن كانوا قريبين قرب الأخ أو الأب أو الابن، لذلك فلا تتبعوهم و انجوا بأنفسكم (لاحظ بدقه).

و ثانيا: تشير هذه الآيه إلى الحاله التي لا- يكون للأمر بالمعروف و النهي عن المنكر أى أثر، أو تكون شروط فاعليتهما غير متوفره، ففي أمثال هذه الحالات يشعر بعض المؤمنين بالألم، و يتساءلون عما ينبغى لهم أن يفعلوه، فتجيبهم الآيه:

لا تثريب عليكم، فقد أدبتم و اجبكم، إذ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم .

نجد هذا المعنى فى الحديث الذى ذكرناه أعلاه، و كذلك

فى بعض الأحاديث الأخرى فقد سئل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عن هذه الآيه فقال: «اتمروا بالمعروف و تناهوا عن المنكر، فإذا رأيت دنيا مؤثره و شحا مطاعا و هوى متبعا و إعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بخويصه نفسك و ذر عوامهم» (1).

و هناك روايات أخرى بالمضمون نفسه و تفيد هذه الحقيقه ذاتها.

فخر الدين الرازى -حسب عادته- يذكر عده أوجه فى الإجابة على السؤال المذكوره، و لكنّها تكاد تعود كلها إلى الأمر الذى ذكرناه، و لعله ذكرها جميعا لبيان كثره عددها.

على كلّ حال، لا شك أنّ مسأله الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر من أركان الإسلام التى لا يمكن التغاضى عنها بأى شكل من الأشكال، و لا تسقط إلاّ عند اليأس من تأثيرها أو من توفر شروطها.

ص: ١٧٣

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذُوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ إرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنْ آذَا لَمَنْ الْمَآثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨)

سبب النزول

جاء في «مجمع البيان» و بعض التفاسير الأخرى في سبب نزول هذه الآيات أن أحد المسلمين، و يدعى (ابن أبي ماريه) و معه اخوان مسيحيان من العرب

يدعيان (تميم)، (عدى) خرجوا من المدينة للتجاره، و فى الطريق مرض (ابن أبى ماريه) المسلم، فكتب وصيه أخفاها فى متاعه، و عهد بمتاعه إلى رفيقيه- النصرانيين- فى السفر، و طلب منهما أن يسلماه، إلى أهله، ثم مات ففتح النصرانيان متاعه و استوليا على الثمين و النفيس فيه، و سلما الباقي إلى الورثه، و عند ما فتح الورثه متاعه لم يجدا فيه بعض ما كان ابن أبى ماريه قد أخذه معه عند سفره و فجأه عثروا على الوصيه، و وجدوا فيها ثبنا بكل الأشياء المسروقه، ففاتحوا المسيحيين بالموضوع، فأنكروا و قالوا: لقد سلمناكم كل ما سلمه لنا، فشكوا الرجلين إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، فنزلت هذه الآيات تبين حكم القضيه.

غير أن سبب التزول المذكور فى «الكافى» يقول: إنهما أنكرا أولا وجود متاع آخر، و وصل الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و لما لم يكن هناك دليل ضد هما طلب منهما رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أن يحلفا اليمين، و برأهما، و لكن بعد أيام قليله ظهر بعض المتاع المسروق عند الرجلين فثبت كذبهما، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فانتظر حتى نزلت الآيات المذكوره، عندئذ أمر أولياء الميت بالقسم، و أخذ الأموال دفعها إليهم.

التفسير

من أهم المسائل التى يؤكدها الإسلام هى مسأله حفظ حقوق الناس و أموالهم و تحقيق العداله الاجتماعيه هذه الآيات تبين جانبا من التشريعات الخاصه بذلك، فلكيلا تغمط حقوق ورثه الميت و أيتامه الصغار، يصدر الأمر للمؤمنين قائلا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ .

المقصود بالعدل هنا العداله، و هى تجنب الذنوب الكبيره و نظائرها، و لكن يحتمل من معنى الآيه أيضا أن يكون المقصود من العداله: الأمانه فى الشؤون

الماليه، إلا إذا ثبت بدلائل أخرى ضروره توفر شروط أخرى فى الشاهد.

و«منكم» تعنى من المسلمين بإزاء غير المسلمين، الذين تأتى الإشارة إليهم فى العبارة التالىه من الآيه.

لا بدّ من القول بأنّ القضيّه هنا لا تتعلق بالشهاده العاديه المألوفه، بل هى شهاده مقرونه بالوصايه، أى أن هذين وصيان و شاهدان فى الوقت نفسه، أمّا الاحتمال القائل باختيار شخص ثالث كوصى بالإضافة إلى الشاهدين هنا، فإنه خلاف ظاهر الآيه و يخالف سبب نزولها، لأننا لاحظنا أنّ ابن أبى ماريه لم يكن يرافقه فى السفر غير اثنين اختارهما وصيين و شاهدين.

ثمّ تأمر الآيه: إذا كنتم فى سفر و وافاكم الأجل و لم تجدوا وصيًا و شاهدًا من المسلمين فاختروا اثنين من غير المسلمين: أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ .

و على الرغم من عدم وجود ما يفهم من الآيه أنّ اختيار الوصى و الشاهد من غير المسلمين مشروط بعدم وجودهما من المسلمين، فهو واضح، لأنّ الاستعاضه تكون عند ما لا تجد من المسلمين من توصيه، كما أنّ ذكر قيد السفر يفيد هذا المعنى أيضا، و على الرغم من أنّ (أو) تفيد «التخيير» عاده، إلا أنّها هنا- و فى كثير من المواضع الأخرى- تفيد «الترتيب»، أى اخترهما أولا من المسلمين، فإن لم تجد، فاخترهما من غير المسلمين.

و غنى عن القول أنّ المقصود من غير المسلمين هم أهل الكتاب من اليهود و النصارى طبعًا، لأنّ الإسلام لم يقم وزنا فى آيه مناسبه للمشركين و عبده الأصنام مطلقًا.

ثمّ تقرر الآيه حمل الشاهدين عند الشهاده على القسم بالله بعد الصلاه، فى حاله الشكّ و التردد: تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ .

و يجب أنّ تكون شهادتهما بما مفاده: إنّنا لسنا على استعداد أن نبيع الحقّ

بمنافع ماديه، فنشهد بغير الحق حتى و إن كانت الشهاده ضد أقربائنا: لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ و إنما لن نخفى أبدا الشهاده الإلهيه، و إلا فسكون من المذنبين: وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ .

و لا بد أن نلاحظ ما يلي:

أولاً: إن هذه التفاصيل فى أداء الشهاده إنما تكون عند الشك و التردد.

و ثانياً: لا فرق بين المسلم و غير المسلم فى هذا كما يبدو من ظاهر الآيه، و إنما هو فى الحقيقه-وسيله لإحكام أمر حفظ الأموال فى إطار الاتهام، و ليس فى هذا ما يناقض القبول بشهاده عدلين بغير تحليف، لأن هذا يكون عند انتفاء الشك فى الشاهدين، لذلك فلا هو ينسخ الآيه و لا هو مختص بغير المسلمين (تأمل بدقه).

ثالثاً: الصلاه بالنسبه لغير المسلمين يقصد بها صلاتهم التى يتوجهون فيها إلى الله و يخشونه، أما بالنسبه للمسلمين فيقول بعض: إنها خاصه بصلاه العصر، و فى بعض الروايات الوارده عن أهل البيت عليهم السلام إشاره إلى ذلك، إلا أن ظاهر الآيه هو الإطلاق و يشمل الصلوات جميعها، و لعل ذكر صلاه العصر فى رواياتنا يعود إلى جانبه الاستجابى، إذ أن الناس يشتركون أكثر فى صلاه العصر، ثم ان وقت العصر كان الوقت المألوف للتحكيم و القضاء بين المسلمين.

رابعاً: اختيار وقت الصلاه للشهاده يعود إلى أن المرء فى هذا الوقت يعيش آثار الصلاه التى تنهى عن الفحشاء و المنكر (1) و أنه فى هذا الظرف الزمانى و المكانى يكون أقرب إلى الحق، بل قال بعضهم: إن من الأفضل أن تكون الشهاده فى «مكه» عند الكعبه و بين «الركن» و «المقام» باعتباره من أقدس الأماكن، و فى المدينه تكون جنب قبر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم.

و فى الآيه التالىه يدور الكلام على ثبوت خيانه الشاهدين إذا شهدا بغير

ص: ١٧٧

الحق، كما جاء في سبب نزول الآيه، فالحكم في مثل هذه الحاله-أى عند الاطلاع على أن الشاهدين قد ارتكبا إثم العدوان على الحق و اضاعته-هو أن تستعضوا عنهما باثنين آخرين ممن ظلمهما الشاهدان الأولان(أى ورثه الميت) فيشهدان لإحقاق حقهما: فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ .

يذهب العلامة الطبرسى في «مجمع البيان» إلى أن هذه الآيه تعتبر من حيث المعنى و الإعراب من أعقد الآيات و أصعبها، و لكن بالالتفات إلى نقطتين نجد أنها ليست بتلك الصعوبه و التعقيد.

فالنقطه الاولى:هى أن معنى «استحق» هنا بقرينه كلمه «إثم» هو إثم العدوان على حق الآخرين.

و النقطه الثانيه:هى أن «الأوليان» تعنى هنا «الأولان» أى الشاهدان اللذان كانا عليهما أن يشهدا أولا و لكنهما انحرفا عن طريق الحق. و عليه يكون المعنى:إذا ثبت أن الشاهدين الأولين ارتكبا مخالفه، فيقوم مقامهما اثنان آخران ممن وقع عليهم ظلم الشاهدين الأولين (1).

ثم تبين ما ينبغى على هذين الشاهدين أن يفعلاه فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتِنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتَيْهِمَا وَ مَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ .

لما كان أولياء الميت على علم بالأموال و الأمتعه التى أخذها معه عند سفره أو التى يملكها عموما، فيمكن أن يشهدوا على أن الشاهدين الأولين قد خانا و ظلما، و تكون هذه الشهاده حسيه مبنيه على القرائن، لا حدسيه.

و الآيه الأخيره، فى الحقيقه، بيان لحكمه الأحكام التى جاءت فى الآيات السابقه بشأن الشهاده و هى أنه إذا أجريت الأمور بحسب التعاليم، أى إذا طلب

ص: ١٧٨

١ - ١) - على هذا يكون إعراب «آخران» مبتدأ، و جملة «يقومان مقامهما» خبر، و «أوليان» فاعل «استحقا» و «من الذين» أى من ورثه الميت الذين وقع عليهم الظلم، و الجار و المجرور صفه «آخران» «تأمل بدقه».

الشاهدان للشهادة بعد الصَّلاه بحضور جمع، ثمَّ ظهرت خيانتهم، وقام اثنان آخران من الورثه مقامهما للكشف عن الحقِّ، فذلك يحمل الشهود على أن يكونوا أدق في شهادتهم، خوفا من الله أو خوفا من الناس: ذَلِكَ أَذْنِي أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَيَّ وَجْهًا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ .

في الواقع سيكون هذا سببا في الخشيه من المسؤوليه أمام الله و أمام الناس، فلا ينحرفان عن محجه الصواب.

و لتوكيد الأحكام المذكوره يأمر الناس قائلا: اتَّقُوا اللَّهَ وَ اسْمَعُوا وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .

ص: ١٧٩

اشاره

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩)

التفسير

هذه الآيه، في الحقيقه، تكمله للآيات السابقه، ففي ذيل تلك الآيات الخاصه بالشهاده الحقه و الشهاده الباطله، كان الأمر بالتقوى و الخشيّه من عصيان أمر الله، و في هذه الآيه تذكير بذلك اليوم الذي يجمع الله الرسل فيه و يسألهم عن رسالتهم و مهمتهم و عمّا قاله الناس ردا على دعواتهم يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ .

لقد نفوا عن أنفسهم العلم، و أوكلوا جميع الحقائق إلى علم الله و قالوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ و عليه فإنكم أمام علام الغيوب و أمام محكمه هذا شأنها، فاحذروا أن تنحرف شهادتكم عن الحقّ و العدل (١).

هنا يبرز سؤالان: الأول: إنَّ ما يستفاد من الآيات القرآنيه أنّ الأنبياء شهداء

ص: ١٨٠

(١-١) - يتضح من هذا أن يَوْمَ... مفعول به لفعل محذوف تفسيره الآيه السابقه و تقدير «اتقوا يوم».

على أممهم، بينما نجدهم في هذه الآيه ينكرون كل علم و يوكلون كل شىء إلى الله.

و لكن ليس في هذا اختلاف و لا- تضاد، بل هو يحكى عن مرحلتين، في المرحلة الاولى و هى التى تشير إليها الآيه التى نحن بصددها، يظهر الأنبياء الأدب بإزاء سؤال الله، فينفون العلم عن أنفسهم، و يوكلون كل شىء إلى علم الله، و لكنهم فى المراحل التالية يبينون ما يعرفونه عن أممهم و يشهدون، و هذا يكاد يشبه المعلم الذى يطلب من تلميذه أن يجيب على سؤال فيظهر التلميذ التأدب أول الأمر و يقول: أن علمه لا شىء بالنسبه لعلم المعلم، ثم بعد ذلك يدلى بما يعرف.

و السؤال الآخر: كيف ينفى الأنبياء العلم عن أنفسهم مع أنهم إضافه إلى العلوم العاديه يعلمون الكثير من الحقائق الخفيه التى علمها الله لهم.

رغم أن للمفسرين كلاما كثيرا فى جواب هذا السؤال، نرى أن الموضوع واضح و هو أن الأنبياء يرون علمهم لا شىء بالنسبه لعلم الله، و الحق كذلك، فوجودنا لا- شىء بالنسبه لوجود الله الأبدى و علمنا لا وزن له بإزاء علم الله، فمهما يكن «الممكن» فإنه لا يكون شيئا بإزاء «الواجب»، و بعباره أخرى: إن علم الأنبياء، و إن كان فى حد ذاته غزيرا، لكنه لا شىء بالقياس إلى علم الله.

فى الحقيقه، العالم الحقيقى هو الذى يكون حاضرا و ناظرا فى كل مكان و زمان، و عارفا بتركيب كل ذره من ذرات العالم، و بكل أجزاء هذا العالم المترابط فى وحده واحده، و هذه صفه تختص بالله سبحانه.

يتضح ممّا قلنا أنّ هذه الآيه ليست دليلا- على نفى كل علم بالغيب عن الأنبياء و الأئمه كما زعم بعضهم، و ذلك لأن «علم الغيب» بالذات يختص بمن يكون حاضرا فى كل مكان و زمان، و أمّا غيره تعالى فإنه لا علم له بالغيب سوى ما يعلمه الله.

و هذا مأخوذ من آيات عديده فى القرآن، منها الآيه (٢٤) من سوره الجن:

لِلْعَالَمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ وَالْآيَةُ (٤٩) مِنْ سُورَةِ هُودٍ: تِلْكَ مِنَ الْأَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ .

يستفاد من هذه الآيات و أمثالها أنّ علم الغيب مختص بذات الله، و لكنّه يعلمه لمن يشاء و بالقدر الذى يشاء.

ص: ١٨٢

اشاره

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَبَدْتِكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمَهْيَدِ وَكَهَلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْمَكْمَةَ وَالْمَأْبُورَةَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَيْنَ إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠)

التفسير

اشاره

نعم الله على المسيح:

هذه الآيه والآيات التالية لها حتى آخر سوره المائده تختص بسيره حياه السيد المسيح عليه السلام و النعم التي أسبغها الله عليه و على أمته، يبينها الله هنا لتوعيه المسلمين و ايقاظهم فتقول الآيه: إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ

و معنى «إذ قال»: و اذكر إذ قال.

و حسب هذا التفسير، تشرع هذه الآيات ببحث مستقل له جانبه التربوى للمسلمين و يرتبط بهذه الدنيا، إلا أن عددا من المفسرين - كالطبرسى و البيضاوى و أبى الفتوح و الرازى - يرون أن هذه الآيه تابعه للآيه السابقه و تتعلق بالحوار الذى يدور بين الله و الأنبياء يوم القيامه، و على هذا يكون الفعل الماضى «قال» بمعنى «يقول» المضارع، غير أن هذا يخالف ظاهر الآيه، خاصه و أن تعداد النعم التى أنزلت على شخص ما يستهدف إحياء روح الاعتراف بالجميل و الشكر فيه، و هذا لإمكان له يوم القيامه.

ثم تشرع الآيه بذكر النعم: إِذْ أَيْدُتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ .

لقد بحثنا معنى «روح القدس» فى المجلد الأول من هذا التفسير بحثا مستفيضا و أحد الاحتمالات المقصوده هو أنه إشاره إلى ملكك الوحى، جبرائيل، و الاحتمال الآخر هو تلك القوه الغيبية التى كانت تعين عيسى على إظهار المعجزات و على تحقيق رسالته المهمه، و هذا المعنى موجود فى غير الأنبياء أيضا بدرجة أضعف.

من نعم الله الأخرى: تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا. أى أن كلامك فى المهد، مثل كلامك و أنت كهل، كلام ناضج و محسوب، لا كلام طفل غر.

ثم أيضا: وَ إِذْ عَلَّمْتِكَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ إِنَّ ذَكَرَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ بَعْدَ ذَكَرِ كَلِمَةِ كِتَابٍ مَعَ أَنْهُمَا مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ، إنما هو من باب التفصيل بعد الإجمال.

و من نعم الأخرى: وَ إِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي .

و مع ذلك فإنك تشفى بإذن الله الأعمى بالولاده و المصاب بالمرض الجلدى البرص: وَ تُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَ الْأَبْرَصَ بِإِذْنِي .

ثُمَّ وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي .

و أخيرا كان من نعمى عليك بأن منعت عنك أذى بنى إسرائيل يوم قام الكافرون منهم بوجهك و وسموا ما تفعل بأنه السحر، فدفعت أذى أولئك المعاندين اللجوجين عنك و حفظتك حتى تسير بدعوتك: وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ .

يستلفت النظر فى هذه الآيه أنها تكرر «بإذنى» أربع مرات لكيلا يبقى مكان للغلو فى المسيح عليه السلام و ادعاء الألوهيه له، أى أن ما كان يحققه المسيح عليه السلام بالرغم من إعجازه و إثارته الدهشه و مشابهته للأفعال الإلهيه، لم يكن ناشئا منه، بل كان من الله و باذنه، فما كان عيسى سوى عبد من عبيد الله، مطيع لأوامره، و ما كان له إلا ما يستمده من قوه الله الخالده.

و قد يسأل سائل: إن كانت هذه النعم كلها قد أسبغت على عيسى عليه السلام فلما ذا تعتبر الآيه هذه النعم قد أسبغت على أمه أيضا؟ لا شك أن كل موهبه تصل الابن تكون قد وصلت الأم أيضا، فكلاهما من اصل واحد، و من شجره واحده.

و كما ذكرنا فى ذيل الآيه (٤٩) من سوره آل عمران، فإن هذه الآيه و الآيات المشابهه دلائل على ولايه أولياء الله التكوينييه، ففى تاريخ حياه المسيح عليه السلام ينسب إليه إحياء الموتى و إبراء الأكمه و الأبرص، و لكن بأمر الله و إذنه.

يتضح من هذا أن من الممكن أن ينعم الله على من يشاء قدره كهذه تمكنه من التصرف بعالم التكوين و القيام بأمثال هذه الأعمال أحيانا، إن تفسير هذه الآيه بأنها تشير إلى دعاء الأنبياء و استجابه الله لدعائهم هو خلاف ظاهر الآيه، و أن ما نقصده بولايه أولياء الله التكوينييه هو هذا الذى قلناه آنفا، إذ ليس ثمة دليل على أكثر من هذا المقدار (انظر تفسير سوره آل عمران الآيه (٤٩) لمزيد من التوضيح).

اشاره

وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (١١١) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوْلَادِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)

التفسير

اشاره

قصه نزول المائده على الحواريين:

تعقيبا على ما جاء في الآيات السابقة من بحث حول ما أنعم الله به على المسيح عليه السلام و أمه يدور الحديث هنا حول النعم التي أنعم الله بها على الحواريين، أي أصحاب المسيح عليه السلام.

ففي البدايه تشير الآيه إلى ما أوحى إلى الحواريين أن يؤمنوا بالله و برسوله

المسيح عليه السلام فاستجابوا و إِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمَنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَ أَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ .

إن للوحي في القرآن معنى واسعاً لا ينحصر في الوحي الذي ينزل على الأنبياء، بل أن الإلهام الذي ينزل على قلوب الناس يعتبر من مصاديقه أيضاً، لذلك جاء هذا المعنى في الآية (٧) من سورة القصص بشأن أم موسى التي أوحى إليها (١) بل إن الكلمة تطلق في القرآن حتى على الغرائز التكوينية عند الحيوان، كالنحل.

و هناك احتمال أن يكون المقصود هو الإيحاء الذي كان يلقيه المسيح عليه السلام بواسطة المعاجز في نفوسهم.

لقد تناولنا الحواريين و أصحاب المسيح عليه السلام بالبحث في تفسير آية (٥٢) آل عمران هذا التفسير.

ثم تذكر الآية نزول المائدة من السماء: إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ .

«المائدة» تعنى في اللغة الخوان و السفرة و الطبق، كما تعنى الطعام الذي يوضع عليها و أصلها من «ميد» بمعنى التحرك و الاهتزاز، و لعل سبب إطلاق لفظه المائدة على السفرة و الطعام هو ما يلازمها من تحريك و انتقال.

شعر المسيح عليه السلام بالقلق من طلب الحواريين هذا الذي يدل على الشك و التردد، على الرغم من كل تلك الأدلة و الآيات، فخاطبهم و قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ .

و لكنهم سرعان ما أكدوا للمسيح عليه السلام أن هدفهم برىء، و أنهم لا يقصدون العناد و اللجاج، بل يريدون الأكل منها (مضافاً إلى الحالة التوراتية في قلوبهم المترتبة على تناول الغذاء السماوي لأنّ للغذاء و نوعيته اثر مسلم في روح الإنسان) قَالُوا نُريدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا، وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَ نَكُونُ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ .

ص: ١٨٧

(١-١) - وَ أُوحِيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ...

فبينوا قصدهم أنهم طلبوا المائدة للطعام، و لتطمئن قلوبهم به لما سيكون لهذا الطعام الإلهي من أثر في الروح و من زياده في الثقه و اليقين.

و لما أدرك عيسى عليه السلام حسن نيتهم في طلبهم ذاك، عرض الأمر على الله: قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَ آخِرِنَا وَ آيَةً مِنْكَ وَ ارزُقْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ .

من الواضح هنا أن الأسلوب الذي عرض به عيسى بن مريم الأمر على الله كان أليق و أنسب، و يحكى عن روح البحث عن الحقيقه و رعايه الشؤون العامه للمجتمع.

فاستجاب الله لهذا الطلب الصادر عن حسن نيه و إخلاص، قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعِيدٌ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ .

فبعد نزول المائدة تزداد مسؤوليات هؤلاء و تقوى الحجه عليهم، و لذلك فإن العقاب سيزداد أيضا في حاله الكفر و الانحراف.

ملاحظات:

إشارة

هنا لا بدّ من التحقيق في عدّه نقاط من هذه الآيات الكريمة:

١- ما القصد من طلب المائدة؟

لا- شك أن الحواريين لم يكونوا مدفوعين بقصد شيء في طلبهم هذا، و لا هم كانوا يريدون المشاكسه و المعانده، بل كانوا يرغبون في بلوغ مرحله الاطمئنان الأقوى و إبعاد ما بقى من رواسب الشك و الوسوسه من أعماقهم، فكثيرا ما يحدث أن إنسانا يتأكد من أمر بالمنطق و حتى بالتجربه، و لكن إذا كان الأمر مهما جدا فإن بقايا من الشك و التردد تظل في ثنايا قلبه، لذلك فهو شديد الرغبة في أن تتكرر تجاربه و اختبارات، أو أن تتبدل استدلالاته المنطقيه و العلميه إلى مشاهدات عينيه تقتلع من أعماق قلبه جذور تلك الشكوك و الوسوس، و لهذا

نرى إبراهيم عليه السّلام، على ما كان عليه من مقام و يقين يسأل الله أن يرى المعاد رأى العين لكي يتبدل إيمانه العلمى إلى «عين اليقين» وإلى «شهود».

و لكن أسلوب طلب الحواريين تميز بشيء من الفضاضة لذلك ظن عيسى عليه السّلام أنّهم بصدد البحث عن الأعذار و الحجج، فاعترضهم و بعد أن شرحوا له حقيقه موقفهم وافق على طلبهم.

٢- ما المقصود بعباره هل يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ؟

لا شك أنّ ظاهر هذا الكلام يوحى بأنّ الحواريين كانوا يشكون فى قدره الله على إنزال مائده، إلا أنّ المفسّرين المسلمين لهم آراء أخرى فى تفسيرها، منها أنّ هذا الطلب وقع فى بدايه أمرهم و قبل أن يتعرفوا على جميع صفات الله.

و رأى آخر يقول: إنّ سؤالهم يعنى: هل يرى الله أن من المصلحه أن ينزل عليهم مائده من السماء؟ كأن يقول شخص: لا أستطيع أن أعهد إلى فلان بكل ثروتى، و لا يعنى أنّه ليس بقادر على ذلك، بل يعنى أنّه لا يرى مصلحه فى الأمر.

و رأى ثالث يقول: أنّ «يستطيع» تعنى «يستجيب» لأنّ ماده (طوع) تعنى الانقياد، فإذا وردت من باب (الاستفعال) فيمكن أن تفيد المعنى نفسه، فيكون المعنى: هل يستجيب الله لطلبنا بشأن إنزال مائده من السماء؟

٣- ما هى تلك المائده السماويه؟

لم يذكر القرآن شيئاً عن محتوياتها، و لكن يستفاد من بعض الأحاديث، و خاصه الحديث المروى عن الإمام الباقر عليه السّلام، أنّ تلك المائده كانت تحوى أرغفه من الخبر و مقداراً من السمك، و لعل سبب طلب هذه المعجزه كان ما سمعوه عن المائده السماويه التى نزلت على بنى إسرائيل باعجاز من موسى عليه السّلام فطلبوا هم أيضاً من عيسى عليه السّلام مثل ذلك.

٤- هل نزلت عليهم مائده؟

رغم أنّ الآيات المذكوره تكاد تصرح بنزول المائده، فالله لا يخلف وعده، و لكن العجيب أنّ بعض المفسّرين يشكون فى نزول المائده، و يقولون: أنّ

الحواريين حين عرفوا عظم المسؤليه التي سوف تقع عليهم بعد نزول المائده، تخلوا عن طلبهم، و لكن الواقع أنّ المائده قد نزلت فعلا.

٥- ما العيد؟

«العيد» فى اللغه من «العود» أى الرجوع، لذلك فذكرى الأيام التى تنداح فيها المشاكل عن قوم أو مجتمع و تعود أيام الفوز و الهناء الأول تكون عيدا. كذلك هى الأعياد الإسلاميه فبعد شهر من طاعه الله فى صوم رمضان، أو بعد أداء فريضة الحج العظيمه، يعود إلى النفس طهرها و صفاؤها الأولين الفطريين، و يزول التلوث عن الفطره، فيكون العيد، و لما كان يوم نزول المائده يوم العوده إلى الفوز و الطهاره و الإيمان بالله، فقد سمّاه المسيح عليه السلام عيدا.

و قد ورد فى الأخبار أنّ نزول المائده كان فى يوم الأحد، و لعل هذا هو سبب الاحترام الذى يكنه المسيحيون لهذا اليوم.

إنّنا

نقرأ لأمير المؤمنين على عليه السلام قوله: «و كل يوم لا يعصى الله فيه فهو يوم عيد» (١).

و فى هذا إشاره إلى الموضوع نفسه، لأنّ يوم ترك المعصيه هو يوم فوز و طهاره و عوده إلى الفطره الاولى.

٦- لماذا العقاب الشديد؟

هنا أمر مهم ينبغى ألا نغفل عنه، و ذلك أنّه عند ما يبلغ الإيمان مرحله الشهود و عين اليقين أى عند ما ترى الحقيقه رأى العين، و لا يبقى مكان لأى شك أو تردد، فإنّ مسؤليه المرء تزداد و تثقل، لأنّ هذا المرء لم يعد ذلك الذى كانت تتنابه الوسوس و الشكوك من قبل، بل هو امرؤ و رد مرحله جديده من الإيمان و تحمل المسؤليه، فأقل تقصير أو غفله من جانبه يستدعى العقاب الشديد، و لهذا فإنّ مسؤليه الأنبياء و أولياء الله أشد و أثقل، بحيث أنّهم كانوا فى خشيه دائمه منها، إنّنا فى الحياه اليوميه نصادف نماذج من هذا القبيل أيضا، فمثلا يعلم كل شخص

ص: ١٩٠

أنّ في بلده أو مدينته جياعا يتحمل مسئوليتهم، و لكنه عند ما يرى بعينه إنسانا بريئا يتضور جوعا و يتألم سغيا، فلا شك أنّ درجه مسئوليته تكون عندئذ أعلى.

٧- «العهد الجديد» و المائدة.

في الأناجيل الأربعة الموجوده حاليا لا نجد كلاما عن المائدة كما في القرآن، عدا ما جاء في إنجيل يوحنا، في الباب (٢١)، حول استضافه المسيح الإعجازيه جمعا من الناس بالخبز و السمك، و لكننا بقليل من التفحص ندرک أنّ ذلك لا علاقته له بالمائدة التي نزلت من السماء للحواريين (١).

ثمّه كلام في كتاب «أعمال الرسل» و هو من كتب العهد الجديد، يدور حول نزول مائده على أحد الحواريين و اسمه بطرس، و لكن هذا أيضا ليس هو الموضوع الذي نحن بصدده، غير أنّنا نعلم أن كثيرا من الحقائق التي نزلت على عيسى عليه السلام لا أثر لها في الأناجيل السائده، كما أن كثيرا ممّا نراه في هذه الأناجيل لم ينزل على المسيح عليه السلام (٢).

ص: ١٩١

١-١) - «الهدى إلى دين المصطفى»، ج ٢، ص ٢٣٩.

٢-٢) - نفس المصدر.

اشاره

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَوْلَايَ فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)

التفسير

اشاره

براءه المسيح من شرك أتباعه:

هذه الآيات تشير إلى حديث يدور بين الله و المسيح يوم القيامة، بدليل أننا بعد بضع آيات نقرأ: هذا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ولا شك أنه يوم القيامة.

ثم أن جملة فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم دليل آخر على أن الحوار

قد جرى بعد عهد نبوه المسيح عليه السّلام، و الفعل «قال» الماضى لا يتعارض مع ما ذهبنا إليه، لأنّ القرآن ملئ بذكر أمور عن يوم القيامة استعمل فيها الزمن الماضى، و هو إشارة إلى أنّ وقوعه حتمى، أى أنّ مجيئه فى المستقبل على درجه من الثبوت و الحتميه بحيث أنّه يبدو و كأنه قد وقع فعلا، فيستعمل له صيغه الماضى.

على كل حال تقول الآيه الاولى: **وَ إِذِ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمَّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ .**

لا ريب أنّ المسيح عليه السّلام لم يقل شيئا كهذا، بل دعا إلى التوحيد و عباده الله، أنّ القصد من هذا الاستفهام هو استنطاقه أمام أمته و بيان إدانتها.

فيجب المسيح عليه السّلام بكل احترام بوضع جمل على هذا السؤال:

١-أولا ينزه الله عن كل شرك و شبهه: **قَالَ سُبْحَانَكَ .**

٢-ثم يقول: **مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ أَيِّ مَا لَا يَحِقُّ لِي قَوْلُهُ وَ لَا يَلِيْقُ بِي أَنْ أَقُولَهُ .**

فهو فى الحقيقه لا ينفى هذا القول عن نفسه فحسب، بل ينفى أن يكون له حق فى قول مثل هذا القول الذى لا ينسجم مع مقامه و مركزه.

٣-ثم يستند إلى علم الله الذى لا تحده حدود تأكيدا لبراءته فيقول: **إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَ لَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١) .**

٤- **مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ ، لَا أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ .**

٥- **وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٢) .**

ص: ١٩٣

١-١) -إطلاق كلمه «نفس» على الله لا يعنى الروح، فمن معانى النفس الذات.

٢-٢) -فى معنى «توفى» و كونها لا تعنى موت المسيح عليه السّلام أنظر ذيل الآيه (٥٥) من سوره آل عمران فى المجلد الثانى.

أى كنت أحول دون سقوطهم فى هاويه الشرك مدّه بقائى بينهم، فكنت الرقيب و الشاهد عليهم، و لكن بعد أن رفعتنى إليك، كنت أنت الرقيب و الشاهد عليهم.

٦- إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، أى على كل حال فالأمر أمرك و الإرادة إرادتك، إن شئت أن تعاقبهم على انحرافهم الكبير فهم عبيدك و ليس بإمكانهم أن يفروا من عذابك، فهذا حقك بإزاء العصاه من عبيدك، و إن شئت أن تغفر لهم ذنوبهم فإنّك أنت القوى الحكيم، فلا- عفوك دليل ضعف، و لا- عقابك خال من الحكمة و الحساب.

هنا يتبادر إلى الذهن سؤالان:

١- هل يوجد فى تاريخ المسيحيه ما يدل على أنّهم اتّخذوا من (مريم) معبوده؟ أم أنّهم إنّما قالوا فقط بالتثليث أو الآلهه الثلاثه: (الإله الأب) و (الإله الابن) و (روح القدس) على اعتبار أن (روح القدس) هو الوسيط بين (الإله الأب) و (الإله الابن) و هو ليس (مريم).

للإجابة على هذا السؤال نقول: صحيح أنّ المسيحيين لم يؤلّوها مريم، و لكنّهم كانوا يؤدون أمام تمثالها طقوس العباده، كالوثنيين الذى لم يكونوا يعتبرون الأصنام آلهه، و لكنّهم كانوا يعتبرونها شريكه لله فى العباده.

و هناك فرق بين «الله» بمعنى الخالق، و ال «إله» بمعنى المعبود، و كانت (مريم) عند المسيحيين (آلهه) لا أنّها بمثابة «الله».

يقول أحد المفسّرين: إنّ المسيحيين على اختلاف فرقهم، و إن لم يطلقوا كلمه (إله) أو معبود على مريم، و اعتبروها أم الإله لا غير، فهم فى الواقع يقدمون لها

طقوس الدعاء و العباده، سواء أطلقوا عليها هذا الاسم أم لم يطلقوه، ثم يضيف قائلاً: قبل مدّه صدر في بيروت العدد التاسع من السنه السابقه من مجله (المشرق) المسيحيه بمناسبة الذكرى الخمسين للبابا (بيوس التاسع) وفيها مواضع مثيره عن السيده مريم، منها تصريح بأنّ كلتا الكنيستين الشرقيه و الغرييه تعبدان (مريم).

و في العدد الزّابع عشر من السنه الخامسه من الجمله نفسها مقال بقلم (الأب انستانس الكرملى) حاول فيه أن يعثر عن أصول عباده مريم حتى في العهد القديم، فراح يفسر حكايه الأفعى (الشيطان) و المرأه (حواء) باعتبارها حكايه مريم (١).

و عليه فإنّ عباده مريم موجوده بينهم.

٢- السؤال الثّاني: كيف يتحدث المسيح عليه السّلام عن مشركى أمته بعبارات يشم منها رائحه الشفاعة لهم فيقول: وَ إِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ؟ أ يكون المشرك أهلاً للشفاعة و الغفران؟ فى الجواب نقول: لو كان قصد عيسى عليه السّلام هو الشفاعة لهم لكان عليه أن يقول:

فإنك أنت الغفور الرحيم لأن غفران الله و رحمته هما اللذان يناسبان مقام الشفاعة، و لكننا نراه يقول فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ من هذا يتّضح أنّه لم يكن فى مقام الشفاعة لهم، بل كان يريد أن ينفى عن نفسه أى اختيار و أن يوكل الأمر كلّه إلى الله، إن شاء عفا، و إن شاء عاقب، و كل مشيئه منه سبحانه تستند إلى حكمه.

ثمّ ربّما كما بينهم جماعه أدركت خطأها و سارت على طريق التوبه، فتكون هذه الجمله قد قيلت بحقها.

ص: ١٩٥

(١ - ١) - تفسير «المنازل»، ج ٧، ص ٢٦٣.

اشاره

قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ مَا فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)

التفسير

اشاره

الفوز العظيم:

بعد الحوار الذى جرى بين الله و المسيح عليه السّلام يوم القيامة- كما شرحناه فى تفسير الآيات السابقه- تقول الآيه قال الله هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ .

طبعى أنّ المقصود من هذا هو أنّ الصدق فى القول و العمل فى هذه الدنيا هو الذى ينفع فى الآخره، لأنّ الصدق فى الآخره- التى لا تكليف فيها- لا ينفع شيئاً ثمّ أنّ الوضع فى تلك الحياه مختلف بحيث لا يستطيع أحد إلا أن يقول الصدق، حتى المذنبون يعترفون بسيئات ما عملوا، و على هذا فلا وجود للكذب يوم القيامة.

و عليه، فإنّ الذين أنجزوا ما كلفوا من مسئوليه و رساله و لم يسيروا إلا فى

و عليه، فإنّ الذين أنجزوا ما كلّفوا من مسئوليه و رساله و لم يسيروا إلاّ في طريق الصدق، مثل المسيح عليه السّلام و أتباعه الصادقين، أو أتباع سائر الأنبياء الآخرين الذين التزموا الصدق سينالون ثوابهم.

يتّضح لنا من هذا بأنّ جميع الأعمال الصالحات يمكن أن تنطوى تحت عنوان الصدق في القول و الفعل، و أنّه الرصيد الذي ينفع يوم القيامة لا غير.

و هؤلاء الصادقون: لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا و خَيْرٌ مِنْ هَذِهِ النِّعَمِ الْمَادِيَةِ أَنَّهُمْ: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ و لا شك أنّ هذه النعمه الكبرى التي تجمع بين النعم الماديه و النعم المعنويه شيء عظيم: ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

يلفت النظر أنّ الآيه، بعد ذكر بساتين الجنّه و نعمها الكثيره، تذكر نعمه رضى الله عن عباده، و رضى عباده عنه و تصف ذلك بأنّه الفوز العظيم، و هذا يدل على مدى أهميه هذا الرضى المتبادل، فقد يكون امرؤ غارقاً في أرفع نعم الله، و لكنّه إذا أحس بأنّ موله و معبوده و محبوبه ليس راضياً عنه، فإنّ جميع تلك النعم و الهبات تصير علقماً في ذائقه روحه.

كما يمكن أن يتوفر لامرئ كل شيء، و لكنه لا يكون راضياً و لا قانعاً بما عنده، فمن الواضح أنّ هذه النعم بأجمعها غير قادره على إسعاد تلك الروح، بل تكون دائماً معرضه لعذاب قلق غامض و اضطراب نفسى مستمر يقضيان على الراحة النفسيه التي هي من أعظم نعم الله.

ثمّ إذا كان الله راضياً عن امرئ فإنّه يعطيه كل ما يريد، فإذا أعطاه كل ما يريد فإنّه يكون راضياً عن ربّه أيضاً، من هنا فإنّ أعظم النعم هي أن يرضى الله عن الإنسان و يرضى الإنسان عن ربّه.

و في آخر الآيه إشارة إلى امتلاك الله كل شيء و سيطرته على السموات و الأرض و ما فيها، و أنّ قدرته عامّه تشمل كل شيء: لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ

وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

هذه الآيه، فى الواقع، تعتبر سبب رضى عباد الله عن الله، و ذلك لأنّ الذى يملك كل شىء فى عالم الوجود له القدره أن يعطى عباده ما يريدون و أن يغفر لهم و أن يفرحهم و يرضيهم، كما تتضمن إشاره إلى عدم صدق أعمال النصارى فى عباده مريم، لأنّ العباده جديره بأن تكون لمن يحكم عالم الخليقه بأكملة، لا مريم التى لا تزيد عن كونها مخلوقه مثلهم.

ص: ١٩٨

سوره الأنعام

اشاره

مكيه و فيها مائه و خمس و ستون آيه

ص: ١٩٩

سوره محاربه أنواع الشرك و الوثنيه

قيل أنّ سوره الأنعام مكيه، و هي السوره التاسعه و الستون في تسلسل نزول السور القرآنيه، إلا أنّ هناك اختلافا بشأن عدد من آياتها، يعتقد بعض أنّ تلك الآيات نزلت في المدينه، لكن الأخبار الواصله إلينا من أئمه أهل البيت عليهم السلام تفيد بأن واحده من مميزات هذه السوره هي أنّ آياتها جميعا نزلت في مكان واحد، و عليه فكل آياتها مكيه.

هدف هذه السوره الرئيسي-مثل أهداف السور المكيه-توكيد الأصول الثلاثه: «التوحيد» و «النبوه» و «المعاد»، و لكنها تؤكد أكثر ما تؤكد قضيه عباده الله الواحد و محاربه الشرك و الوثنيه، بحيث أنّ معظم آيات هذه السوره يخاطب المشركين و عبده الأصنام، و بهذا يتناول البحث في أكثر المواضع أعمال المشركين و بدعهم.

على كل حال، فإن تدبر آيات هذه السوره و التفكير في استدلالاتها الحيه الجليه، يحيى روح التوحيد و عباده الله في الإنسان، و يحطم قواعد الشرك و يقتلع جذوره، و لعل السبب في نزول هذه السوره في مكان واحد هو هذا التماسك المعنوي و إعطاء الأولويه لمسأله التوحيد.

و لعل هذا أيضا هو السبب لما نقرؤه من روايات عن فضل هذه السوره، و إنّها عند نزولها رافقها سبعون ألف ملك، و أنّ من يقرأها و ترتوى روحه من ينبوع

التوحيد يستغفر له كل أولئك الملائكة.

إنّ التمعن في آيات هذه السوره يقضى على روح النفاق و التشتت بين المسلمين، و يجعل الآذان سميعة، و الأعين بصيره، و القلوب عارفة.

و لكن العجيب أن نرى بعضهم يكتفى من هذه السوره بقراءه ألفاظها فقط، و يعقد الجلسات لتلاوه آياتها من أجل حل المشاكل الشخصية، فلو اهتمت هذه الجلسات بمحتوى السوره، فلا- تنحل المشاكل الخاصه وحدها، بل تنحل جميع مشاكل المسلمين العامه أيضا، و من المؤسف جدا أنّ جمعا من الناس يعتبرون القرآن مجموعه من (الأوراد) التي لها خواص غامضه و مجهوله فيقرءونها بغير تمعن في مضامينها، مع أنّ القرآن كلّ مدرسه و دروس و منهج و يقظه، و رساله و وعى.

ص: ٢٠٢

إشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢)

التفسير

إشاره

تبدأ السوره بالحمد لله و الشاء عليه، ثم تشرع بتوعيه الناس على مبدأ التوحيد، عن طريق خلق العالم الكبير (السموات و الأرض) أولاً، ثم عن طريق خلق العالم الصغير (الإنسان) ثانياً: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ اللَّهُ الَّذِي هُوَ مَبْدَأُ الظُّلْمَةِ وَالنُّورِ، و بخلاف ما يعتقد الثنويون، و هو وحده خالق كل شيء: وَ جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ .

غير أن الكافرين و المشركين، بدلا من أن يتعلموا من هذا النظام الواحد درس التوحيد، يصطنعون لله الشريك و الشبيه: ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) .

نلاحظ أن القرآن يذكر عقيدة المشركين بعد حرف العطف «ثم» الذي يدل في اللغة العربية على الترتيب و التراخي، و هذا يدل على أن التوحيد كان في أول الأمر مبدأ فطريا و عقيدة عامه للبشر، بعد ذلك حصل الشرك كانهراف عن الأصل الفطري.

أما لماذا استعملت الآيه كلمه «الخلق» بشأن السموات و الأرض، و كلمه

ص: ٢٠٣

«جعل» بشأن النور و الظلمه، فإنّ للمفسّرين في ذلك كلاما كثيرا، و لكن أقربّه إلى الذهن هو القول بأنّ «الخلق» يكون في أصل وجود الشئ، و «الجعل» يكون بشأن الخصائص و الآثار و الكيفيات التي هي نتيجته لخلق تلك المخلوقات، و لما كان النور و الظلمه حالتين تابعتين فقد عبّر عنهما بلفظه «جعل».

و

روى عن أمير المؤمنين على عليه السّلام في تفسير هذه الآيه قوله: «و كان في هذه الآيه ردّ على ثلاثه أصناف منهم، لما قال: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَكَانَ رَدًّا عَلَى الدَّهْرِيَّةِ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ الْأَشْيَاءَ لَا بَدَأَ لَهَا وَ هِيَ دَائِمَةٌ، ثُمَّ قَالَ: وَ جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ فَكَانَ رَدًّا عَلَى الثَّنَوِيَّةِ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ النُّورَ وَ الظلمه هما المدبران.

ثمّ قال: ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ فَكَانَ رَدًّا عَلَى مشركى العرب الذين قالوا: إِنَّ أوثاننا آلهه» (١).

هل الظلمه من المخلوقات؟

تفيد الآيه إنّه مثلما أن «النور» من مخلوقات الله، فإنّ «الظلمه» كذلك من مخلوقاته، مع أنّ الفلاسفه و المختصين بالعلوم الطبيعیه يعرفون أنّ الظلمه هي انعدام النور، و لهذا فلا يمكن اطلاق صفه «المخلوق» على المعدوم إذن، كيف تعتبر الآيه المذكوره الظلمه من المخلوقات؟ في ردّ هذا الاعتراض نقول.

أولاً: الظلمه ليس تعنى دائما الظلام المطلق، بل كثيرا ما تطلق على النور الضعيف جدا بالمقارنه مع النور القوى، فنحن جميعا نقول، مثلا: ليل مظلم، مع العلم بأنّ ظلام الليل ليس ظلاما مطلقا، بل هو مزيج من نور النجوم الضعيف أو مصادر أخرى للنور، و على هذا يكون مفهوم الآيه هو أنّ الله جعل لكم نور النهار و ظلام الليل، فالأول نور قوى و الآخر نور ضعيف جدا و واضح أنّ الظلمه، بهذا المعنى، تكون من المخلوقات.

و ثانيا: صحيح أنّ الظلمه المطلقه أمر عدمى، و لكن الأمر العدمى في ظروف

ص: ٢٠٤

خاصّه-يكون نابعا من أمر وجودي، أى أنّ يوجد الظلمه المطلقه فى ظروف خاصه لهدف معين، لا بدّ أن يكون قد استعمل لذلك وسائل وجوديه، فإذا أردنا أنّ نجعل الغرفه مظلمه لتحريض صوره-مثلا-فعلينا أن نمنع النور لكى تحصل الظلمه فى تلك اللحظه المعينه، وظلمه هذا شأنها ظلمه مخلوقه(مخلوقه بالتبع).

و إذا لم يكن(العدم المطلق)مخلوقا،فإن(العدم الخاص)له نصيب من الوجود،و هو مخلوق.

النور رمز الوحده،و الظلمه رمز التشتت:

الأمر الآخر الذى ينبغى الالتفات إليه هنا هو أنّ لفظه(نور)ترد فى القرآن بصيغه المفرد،بينما الظلمه تأتى بصيغه الجمع(ظلمات).

و قد يكون هذا إشاره لطيفه إلى حقيقه كون الظلام(المادى و المعنوى) مصدرا دائما للتشتت و الانفصال و التباعد،بينما النور رمز التوحد و التجمع طالما شاهدنا أننا فى الليله الصيفيه الظلماء نوقد سراجا فى فناء الدار،ثم لا تمضى إلا دقائق حتى نرى مختلف أنواع الحشرات تتجمع حول السراج مؤلفه تجمعا حيا حول النور،و لكننا إذا أطفأنا السراج تفرقت الحشرات كل إلى جهه، كذلك الحال فى الشؤون المعنويه و الاجتماعيه.فنور العلم و القرآن و الإيمان أساس الوحده،و ظلام الجهل و الكفر و النفاق أساس التفرق و التشتت.

قلنا:إنّ هذه السوره تسعى إلى لفت نظر الإنسان إلى العالم الكبير لتثبيت قواعد عباده الله و التوحيد فى القلوب،توجه نظره أولا إلى العالم الكبير،و الآيه التاليه تلفت نظره إلى العالم الصغير(الإنسان)فتشير إلى أعجب أمر،و هو خلقه من الطين فتقول هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ .

صحيح أننا ولدنا من أبوين،لا من الطين،و لكن بما أنّ خلق الإنسان الأوّل كان من الطين،فيصح أن نخاطب نحن أيضا على أننا مخلوقين من الطين.

و تستمر السوره فتشير إلى مراحل تكامل عمر الإنسان فتقول:إنّ الله بعد ذلك عين مدّه يقضها الإنسان على هذه الأرض للنمو و التكامل: ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا .

«الأجل»فى الأصل بمعنى«المدّه المعينه»و«قضاء الأجل»يعنى تعيين تلك

المدّة أو إنهاءها، ولكن كثيرا ما يطلق على الفرصه الأخيره اسم «الأجل»، فتقول، مثلا: جاء أجل الدّين، أى أنّ آخر موعد التسديد الدّين قد حل. و من هنا أيضا يكون التعبير عن آخر لحظه من لحظات عمر الإنسان بالأجل لأنها موعد حلول الموت.

ثمّ لاستكمال البحث تقول: وَ أَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ .

بعد ذلك تخاطب الآيه المشركين و تقول لهم: ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ أى تشكون فى قدره الخالق الذى خلق الإنسان من هذه الماده التافهه (الطين) و اجتاز به هذه المراحل المدهشه، و تعبدون من دونه موجودات لا قيمه لها كالأصنام.

ما معنى الأجل المسمى؟

لا- شك أنّ «الأجل المسمى» و «أجلا» فى الآيه مختلفتان فى المعنى، أمّا اعتبار الإ-ثنيين بمعنى واحد فلا- ينسجم مع تكرار كلمه «أجل» خاصّه مع ذكر القيد:

«مسمى» فى الثّانى.

لذلك بحث المفسّرون كثيرا فى الاختلاف بين التعبيرين، و القرائن الموجوده فى القرآن و الرّوايات التى وصلتنا عن أهل البيت عليهم السّلام تفيد أنّ «أجل» و حدها تعنى غير الحتمى من العمر و الوقت و المدّه، و «الأجل المسمى» بمعنى الحتمى منها، و بعبارة أخرى «الأجل المسمى» هو «الموت الطّبيعى» و «الأجل» هو الموت غير الطّبيعى.

و لتوضيح ذلك نقول: إنّ الكثير من الموجودات لها من حيث البناء الطّبيعى و الذاتى الاستعداد القابليه للبقاء مدّه طويله، و لكن قد تحصل خلال ذلك موانع تحول بينها و بين الوصول إلى الحد الطّبيعى الأعلى، افترض سراجا نفطيا يستطيع أنّ يبقى مشتعلا مدّه عشرين ساعه مع الأخذ بنظر الإعتبار سعته النفطيه، غير أنّ هبوب ريح قويه، أو هطول المطر عليه أو عدم العناية به، يكون سببا فى قصر مدّه الإضاءه، فإذا لم يصادف السراج أى مانع، و ظل مشتعلا حتى آخر قطره من نبطه ثمّ انطفأ نقول: إنّّه وصل إلى أجله المحتوم، و إذا أطفأته الموانع قبل ذلك، فيكون عمره «أجل» غير محتوم.

و الحال كذلك بالنسبه للإنسان، فإذا توفرت جميع ظروف بقائه و زالت جميع الموانع من طريق استمرار حياته، فإن بنيته تضمن بقاءه مدّه طويله إلى حد معين، و لكنّه إذا تعرض لسوء التغذية، أو ابتلى بنوع من الإدمان، أو إذا انتحر، أو أعدم لجريمه و مات قبل تلك المدّه، فإنّ موته في الحاله الاولى يكون أجلا محتوما، و في الحاله الثانيه أجلا غير محتوم.

و بعبارة أخرى: الأجل الحتمى يكون عند ما ننظر إلى «مجموع العلل التامه».

و الأجل غير الحتمى يكون عند ما ننظر إلى «المقتضيات» فقط.

استنادا إلى هذين النوعين من الأجل يتّضح لنا كثير من الأمور، من ذلك مثلا ما نقرؤه في الروايات و الأحاديث من أن صله الرحم تطيل العمر، و قطعها يقصر العمر، و واضح أنّ العمر هنا هو الأجل غير الحتمى.

أما قوله تعالى: فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ (١).

فهو الأجل المحتوم، أى أنّ الإنسان قد وصل إلى نهايه عمره، و هو لا يشمل الموت غير المحتوم السابق لأوانه.

و لكن علينا أن نعلم على كل حال- أنّ الأجلين يعينهما الله، الأوّل بصوره مطلقه، و الثاني بصوره معلقه أو مشروطه، و هذا يشبه بالضبط قولنا: إنّ هذا السراج ينطفئ بعد عشرين ساعه بدون قيد و لا- شرط، و نقول إنّّه ينطفئ بعد ساعتين إذا هبت عليه ريح، كذلك الأمر بالنسبه للإنسان و الأقوام و الملل، فنقول: إنّ الله شاء أن يموت الشخص الفلانى أو أن تنقرض الأمه الفلانيه بعد كذا من السنين، و نقول إنّ هذه الأمه إذا سلكت طريق الظلم و النفاق و التفرقه و الكسل و التهاون فإنّها ستهلك في ثلث تلك المدّه، كلا الأجلين من الله، الأوّل مطلق و الآخر مقيد بشروط.

جاء عن الإمام الصادق عليه السلام تعقيبا على هذه الآيه قوله: «هما أجلاّن: أجل محتوم و أجل موقوف» كما جاء عنه في أحاديث أخرى أنّ الأجل الموقوف قابل للتقديم و التأخير، و الأجل الحتمى لا يقبل التغيير (٢).

ص: ٢٠٧

١-١) -الأعراف، ٣٤.

٢-٢) -تفسير «نور الثقلين»، ج ١، ص ٥٠٤.

إشاره

وَ هُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ فِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣)

التفسير

هذه الآيه تكمل البحث السابق في التوحيد و وحدانيه الله، و ترد على الذين يقولون بوجود إله لكل مجموعه من الكائنات، أو لكل ظاهره من الظواهر، فيقولون: إله المطر، و إله الحرب، و إله السلم، و إله السماء، و ما إلى ذلك، تقول الآيه: وَ هُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ فِي الْأَرْضِ (١) أى كما أنه خالق كل شىء فهو مدبر كل شىء أيضا، و بذلك ترد الآيه على مشركى الجاهليه الذين كانوا يعتقدون أن الخالق هو «الله» لكنهم كانوا يؤمنون أن تدبير الأمور بيد الأصنام.

هنالك احتمال آخر في تفسير الآيه، و هو أنها تعنى حضور الله في كل مكان، في السموات و الأرض، و لا يخلو منه مكان، فليس هو بجسم ليشغل حيزا معيناً، بل هو المحيط بكل الأمكنه.

ص: ٢٠٨

١- ١) - ثمه اختلاف بين المفسرين حول إعراب هذه العبارة القرآنيه و الظاهر أن «هو» مبتدأ و «الله» خبر. و في السَّمَاوَاتِ... جار و مجرور متعلقان بفعل تدل عليه كلمه «الله» و التقدير: (هو المتفرد في السموات و الأرض بالألوهيه).

من الطبيعي أن يكون الحاكم على كل شيء و المدير لكل الأمور و الحاضر في كل مكان عارفا بجميع الأسرار و الخفايا و لهذا تقول الآية: إِنَّ رَبًّا كَهَذَا يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .

قد يقال بأنّ (السّر) و (الجهر) يشملان أعمال الإنسان و نواياه، و على ذلك فلا حاجة لذكر وَ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .

و لكن ينبغي الالتفات إلى أنّ «الكسب» هو نتائج العمل و الحالات النفسية الناشئة عن الأعمال الحسنة و الأعمال السيئة، أى أنّ الله يعلم أعمالكم و نواياكم، كما يعلم الآثار التي تخلفها تلك الأعمال و النوايا في نفوسكم، و على كل حال، فإنّ ذكر العبارة هذه يفيد التوكيد بشأن أعمال الإنسان.

إشاره

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَلْبَاءٌ مِمَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥)

التفسير

قلنا: إنَّ معظم الخطاب في سوره الأنعام موجه إلى المشركين، و القرآن يستخدم شتى السبل لإيقاظهم و توعيتهم، فهذه الآيه و الآيات الكثيره التي تليها توصل هذا الموضوع.

تشير هذه الآيه إلى روح العناد و اللامبالاه و التكبر عند المشركين تجاه الحقّ و تجاه آيات الله فتقول: وَ مَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (١).

أى أنّ أبسط شروط الهدايه-و هو البحث و التقصى-غير موجود عندهم، و ليس فيهم أى اندفاع لطلب الحقيقه، و لا يحسون بعطش إليها لبيحوا عنها،

ص: ٢١٠

(١-١) - كلمه «آيه» نكره، و وردت في سياق النفي، فيكون المعنى: إنهم يعرضون عن كل آيه و لا يفكرون فيها.

و حتى لو تدفَّق ينبوع الماء الزلال عند عتبات بيوتهم لأعرضوا عنه و لما نظروا اليه ... و كذلك فهم يعرضون عن آيات «ربهم» النازله لتربيتهم و تكاملهم.

مثل هذه النفسيه لا يقتصر وجودها على عهود الجاهليه و مشركى العرب، فاليوم أيضا نجد من بلغ الستين من عمره و مع ذلك لم يجشم نفسه عناء ساعه واحده من البحث و التحقيق فى الله و الدين، و إن وقع بيده كتاب أو بحث فى هذا الموضوع لم ينظر إليه، و إن تحدث إليه أحد بهذا الشأن لم يصغ إليه، هؤلاء هم الجهلاء المعاندون الغافلون الذين قد يظهرون أحيانا أمام الناس بمظهر العالم المتجبر! ثم تشير الآيه إلى نتيجه أعمالهم، و هى: أنهم عند ما رأوا الحقيقه كذبوها، و لو أنهم دققوا فى آيات الله جيدا لرأوا الحقيقه و أدركوها و آمنوا بها: فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ، و لسوف تصلهم نتيجه هذا التكذيب و السخرية: فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَلْبَاءٌ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ .

فى هاتين الآيتين إشاره إلى ثلاث مراحل من الكفر تتزايد فى الشده على التوالى، المرحله الاولى هى مرحله الإعراض، ثم مرحله التكذيب، و أخيرا مرحله الاستهزاء بآيات الله.

يدل هذا على أنّ الإنسان فى كفره لا يتوقف فى مرحله واحده، بل يزداد باستمرار إنكارا للحق و عدواه له و ابتعادا عن الله.

المقصود من التهديد المذكور فى آخر الآيه أنّ أوزار عدم الإيمان ستحقيق بهم عاجلا- أو آجلا فى الدنيا و الآخرة، و الآيات التالیه تؤكد هذا التفسير.

اشاره

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَا هُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦)

التفسير

اشاره

مصير الطغاه:

ابتداء من هذه الآيه و ما بعدها يشرع القرآن بعرض خطه تربويه مرحليه لإيقاظ عبده الأصنام و المشركين تتناسب مع اختلاف الدوافع عند الفريقين، يبدأ أولاً بمكافحه عامل (الغرور) و هو من عوامل الطغيان و العصيان و الانحراف المهمه، فيذكرهم بالأمم السالفه و مصائرهم المؤلمه، و بذلك يحذر هؤلاء الذين غطت أبصارهم غشاوه الغرور، و يقول: أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا (١) وَ جَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ .

ص: ٢١٢

(١- ١) - «المدرار» في الأصل من «در» اللبن، ثم انتقل إلى ما يشبهه في النزول كالمطر و الكلمه صيغه مبالغه، و جمله «أرسلنا

و لكنهم لما استمروا على طريق الطغيان، لم تستطع هذه الإمكانيات إنقاذهم من العقاب الإلهي: فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ .

أفلا ينبغي أن يكون علمهم بمصائر الماضين عبره لهم، توقظهم من نوم غفلتهم، و من سكرتهم؟ أليس الله الذى أهلك السابقين بقادر على أن يهلك هؤلاء أيضا؟ هاهنا بضع نقاط نلفت إليها الانتباه:

١- على الرغم من أن «قرن» تعنى فتره طويله من الزمن (مائة، أو سبعين أو ثلاثين سنه)، و لكنّها قد تعنى أيضا- كما يقول اللغويون- القوم و الجماعه فى زمان معين (القرن من الاقتران بمعنى التقارب، و بالنظر لأنّ أهل العصر الواحد أو العصور المتقاربه قرييون من بعضهم فقد يطلق عليهم و على زمانهم اسم القرن).

٢- يتكرر فى القرآن القول بأنّ الإمكانيات الماديه الكثيره تبعث على الغرور و الغفله لدى ضعفاء النفس من الناس كقوله تعالى: إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ﴿١﴾ لأنّهم بتوفر تلك الإمكانيات عندهم يرون أنفسهم فى غنى عن الله، غافلين عن العنايه الإلهيه و الإمدادات الربانيه المغدقه عليهم فى كل لحظه و ثانيه، و لولاها لما استمروا على قيد الحياه.

٣- ليس هذا التحذير مختصا بعبده الأصنام، فالقرآن يخاطب- أيضا- اليوم العالم الصناعى الثرى الذى أتملته الإمكانيات الماديه و ملأته بالغرور، و يحذره من نسيان الأقسام السابقه و ممّا حاق بهم نتيجة ما ارتكبه من ذنوب، و كأنى بالقرآن يقول للمغرورين فى عالمنا اليوم: إنكم ستفقدون كل شىء بانطلاق شراره حرب عالميه أخرى، لتعودوا إلى عصر ما قبل التمدن الصناعى اعلموا أنّ سبب

(١)

السماء» للزياده فى المبالغه.

ص: ٢١٣

تعاسه أولئك لم يكن شيئاً سوى إثمهم و ظلمهم و اضطهادهم الناس و عدم إيمانهم و هذه عوامل ظاهره فى مجتمعكم أيضا.
حقا إنّ دراسه تاريخ فراعنه مصر، و ملوك سبأ و سلاطين كلداه و آشور، و قياصره الرّوم، و معيشتهم الباذخه الأسطوريه و ما كانوا يتقبلون فيه من نعم لا- تعد و لا- تحصى، ثمّ رؤيه عواقب أمورهم المؤلمه التى حاقت بهم بسبب ظلمهم الذى قوض أركان حياتهم، فيها أعظم العبر و الدروس.

ص: ٢١٤

اشاره

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧)

التفسير

اشاره

منتهى العناد!

من عوامل انحرافهم الأخرى التكبر و العناد اللذين تشير إليهما، هذه الآيه، أنّ المتكبر المكابر انسان عنيد فى العاده، لأنّ التكبر لا يسمح لهم بالاستسلام للحق و الحقيقه، و الأفراد المتصفون بهذه الصفه يكونون عاده معاندين مكابرين، ينكرون حتى الأمور الواضحه القائمه على الدليل و البرهان، بل ينكرون حتى البديهيات، كما نراه بأّم أعيننا فى المتكبرين من أبناء مجتمعاتنا.

يشير القرآن هنا إلى الطلب الذى تقدم به جمع من عبده الأصنام (يقال أنّ هؤلاء هم نضر بن الحارث و عبد الله بن أبى أميه، و نوفل بن خويلد الذين قالوا لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: لن نؤمن حتى ينزل الله كتابا مع أربعة من الملائكه!) و يقول:

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ

أى أنّ عنادهم قد وصل حدًا ينكرون فيه حتى ما يشاهدونه بأعينهم و يلمسونه بأيديهم فيعتبرونه سحرا لكيلا- يستسلموا للحقيقه،مع أنّهم فى حياتهم اليوميه يكتفون بعشر هذه الدلائل للإيمان بالحقائق و يقتنعون بها،و ما هذا بسبب ما فيهم من أنانيه و تكبر و عناد.

و بهذه المناسبه فإنّ «القرطاس» هو كل ما يكتب عليه،سواء أ كان ورقا أو جلدا أو ألواحاً،أما إطلاقه اليوم على الورق فذلك لانتشار تداول الورق أكثر من غيره للكتابة.

ص: ٢١٦

اشاره

وَقَالُوا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَ لَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (٨) وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَ لَلْبَسِينَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ (٩) وَ لَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠)

التفسير

اشاره

خلق المبررات:

من عوامل الكفر و الإنكار الأخرى، روح التحجج و البحث عن المبررات، و على الرغم من أن لهذه الروح عوامل أخرى، مثل التكبر و الأنانية، و لكنه ينقلب بالتدرج إلى حالة نفسيه سلبيه، تصبح بدورها عاملا من عوامل عدم التسليم للحق.

و من جمله الحجج التي احتج بها المشركون على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و أشار إليها القرآن في كثير من آياته- و منها هذه الآية- هي أنهم كانوا يقولون: لماذا يقوم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم وحده بهذا الأمر العظيم؟ لماذا لا يقوم معه بهذا الأمر أحد من غير

جنس البشر، من جنس الملائكة؟ أ يمكن لإنسان من جنسنا أن يحمل بمفرده هذه الرسالة على عاتقه؟ وَقَالُوا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ .

و لا مجال لهذا التحجج على نبوه رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم مع كل هذه الدلائل الواضحه و الآيات البيّنات، ثم إنّ الملك ليس أقدر من الإنسان و لا يملك قابليه لحمل رساله أكثر من قابليه الإنسان بل أنّ قابليه الإنسان أكثر بكثير.

يرد القرآن عليهم بجملتين في كل منهما برهان:

الاولى: وَ لَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ .

أى لو نزل ملك لمعاونه رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم لهلك الكافرون، و سبب ذلك ما مرّ في آيات سابقه، و هو أنّه إذا اتخذت النبوه جانب الشهود و الحس، أى إذا تحول الغيب بنزول الملك إلى شهود، بحيث يرى كل شىء عيانا، غدت المرحله هى المرحله النهائيه فى إتمام الحججه، إذ لا- يكون ثمه دليل أوضح منها، و على ذلك فإن العصيان فى هذه الحاله يستوجب العقاب القاطع، و لكن الله للطفه و رحمته بعباده، و لكى يمنحهم فرصه التأمل و التفكير، لا- يفعل ذلك إلا فى حالات خاصّه يكون فيها طالب الدليل على أتم استعداد، أو فى حالات يستحق فيها طالب الدليل الهلاك، أى أنّه ارتكب ما يستوجب معه العقاب الإلهى، فى هذه الحاله يحقق له طلبه، ثم إذا لم يستسلم صدر أمر هلاكه.

الثانيه: هى أنّ الرسول الذى يبعثه الله لقياده الناس و تربيتهم و ليكون أسوه لهم، لا بدّ أن يكون من جنس الناس أنفسهم و على شاكلتهم من حيث الصفات و الغرائز البشريه، أمّا الملك فلا- يظهر لعيون البشر كما أنّه ليس بإمكانه أن يكون قدوه عمليه لهم، لأنّه لا يدري شيئا عن حاجاتهم و آلامهم و لا عن غرائزهم و متطلباتها، لذلك فإن قيادته لجنس يختلف عنه كل الاختلاف لا يحقق الهدف.

لذلك فالقرآن فى الجواب الثانى يقول: لو شئنا أن يكون رسولنا ملكا حسبما يريدون، لوجب أن يتصف هذا الملك بصفات الإنسان و أن يظهر فى هيئه إنسان:

يُتَّضَح مِمَّا قُلْنَا أَنَّ جَمْلَهُ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا لَا تَعْنِي: أَنَّنَا سَنَجْعَلُهُ عَلَى هَيْئَةِ إِنْسَانٍ، كَمَا تَصُورُ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ، بَلْ تَعْنِي: أَنَّنَا نَجْعَلُهُ عَلَى هَيْئَةِ الْبَشَرِ فِي الصِّفَاتِ الظَّاهِرِيَّةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ، ثُمَّ يَسْتَتِجُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ أَيْضًا - كَانُوا سَيَعْتَرِضُونَ الِاعْتِرَاضَ نَفْسَهُ، وَهُوَ: لِمَاذَا أَوْكَلَ اللَّهُ مَهْمَةَ الْقِيَادَةِ إِلَى بَشَرٍ وَأَخْفَى عَنَّا وَجْهَ الْحَقِيقَةِ: وَ لَلْبَشْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ .

«اللبس» بمعنى خلط الأمر و جعله مشتبهًا بغيره خافيا، و«اللبس» بمعنى ارتداء اللباس، و من الواضح أنَّ الآيه تقصد المعنى الأوَّل، أى أَنَّنَا لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نُرْسِلَ مَلَكًا لَوَجِبَ أَنْ يَكُونَ فِي صُورَةِ الْإِنْسَانِ وَ سُلُوكِهِ، وَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ سَيَعْتَرِدُونَ أَنَّنَا خَلَطْنَا الْأَمْرَ عَلَى النَّاسِ وَ أَوْعَيْنَاهُمْ فِي الْإِشْتِبَاهِ، وَ لَكَانُوا يَشْكُلُونَ عَلَيْنَا الْإِشْكَالَاتِ السَّابِقَةَ، بِمِثْلِ مَا يَوْقَعُونَ الْجَهْلَةَ مِنَ النَّاسِ فِي الْخَطَا وَ الْإِشْتِبَاهِ وَ يَلْبَسُونَ وَجْهَ الْحَقِيقَةِ عَنْهُمْ، وَ عَلَيْهِ فَإِنَّ نَسْبَهُ «اللبس» وَ الْإِخْفَاءَ إِلَى اللَّهِ إِنَّمَا هِيَ مِنْ وَجْهِهِ نَظَرُهُمُ الْخَاصَّةَ.

وَ فِي الْخَتَامِ يَهْوَنُ الْأَمْرَ عَلَى رَسُولِهِ وَ يَقُولُونَ لَهُ: وَ لَقَدْ اسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .

هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْوَاقِعِ تَسْلِيهِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يَطْلُبُ اللَّهُ فِيهَا مِنْهُ أَنْ لَا تَزْعِزِعَهُ الزَّعَازِعُ، وَ يَهْدِدُ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ الْمَخَالِفِينَ وَ الْمَعَانِدِينَ وَ يَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يَتَفَكَّرُوا فِي عَاقِبَةِ أَمْرِهِمُ الْمُؤَلَّمَةِ (٢) .

١- ١) -الضمير «جعلناه» يمكن أن يعود على الرسول، أو على من يرسل معه لإعانتته على تثبيت النبوه و على الاحتمال الثاني يكون اقتراحهم قد تحقق، و على الأوَّل قد تحقق أكثر ممَّا طلبوه.

٢- ٢) - «حاق» بمعنى أحاط به و حل به، و «ما كانوا به يستهزئون» أى ما كانوا يستهزئون به من تهديد و إنذار يسمعونه من أنبياء الله مثل إنذار نوح و قومه بوقوع الطوفان، فكان قومه من عبده الأصنام يسخرون من ذلك. و عليه فلا- ضروره لتقدير كلمه «جزاء» كما يقول بعضهم، إذ يكون المعنى: العقوبات التي كانوا يستهزئون بها حلت بهم.

اشاره

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (١١)

التفسير

لكي يوقظ القرآن هؤلاء المعاندين المغرورين يسلك في هذه الآيه سبيلا آخر فيأمر رسوله أن يوصيهم بالسياحه في أرجاء الأرض ليروا بأعينهم مصائر أولئك الذين كذبوا بالحقائق، فلعل ذلك يوقظهم من غفلتهم قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ .

لا شك أن لرؤيه آثار السابقين و الأقوام التي هلكت بسبب إنكارها الحقائق تأثيرا أعمق من مجرد قراءه كتب التاريخ، لأن هذه الآثار تجسد الحقيقه ناطقه ملموسه، و لهذا استعمل جمله «أنظروا» و لم يقل «تفكروا».

و لعل استعمال «ثم» لعاطفه التي تفيد عاده التراخي الزمنى يراد منه أن لا- يتعجلوا في سيرهم و في اطلاق أحكامهم، عليهم أن يمعنوا النظر في تلك الآثار التي خلفتها الأقوام السالفه و يفكروا فيها ثم يأخذوا منها العبر و يروا عاقبه أعمال تلك الأمم.

فيما يتعلق بالسير و السياحة فى الأرض و تأثيره فى إيقاظ الأفكار انظر تفسير الآيه (١٣٧) من سوره آل عمران فى هذا التفسير.

ص: ٢٢١

اشاره

قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَشَوْا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣)

التفسير

اشاره

يوصل القرآن مخاطبه المشركين، ففي الآيات السابقه دار الكلام حول التوحيد و عباده الله الأحد و هنا يدور الحديث عن المعاد، و بالإشاره إلى مبدأ التوحيد يواصل القول عن المعاد بطريقه رائعه، هي طريقه السؤال و الجواب، و السائل و المجيب كلاهما واحد، و هو من الأساليب الأدبيه الجميله.

يتكون الاستدلال هنا على المعاد من مقدمتين:

أولاً- يقول: قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. ثم يقول مباشره: أجب أنت بلسان فطرتهم و روحهم: قُلْ لِلَّهِ، فموجب هذه المقدمه يكون كل عالم الوجود ملكا لله و بيده و تدبيره.

ثانياً: إِنَّ اللَّهَ هُوَ وَحْدَهُ مَصْدَرُ كُلِّ رَحْمَةٍ، وَهُوَ الَّذِي أَوْجِبُ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، وَ يَفِيضُ بِنِعْمِهِ عَلَى الْجَمِيعِ: كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسِيهِ الرَّحْمَةَ .

أ يمكن لربِّ هذا شأنه أن يقطع سلسله حياه البشر نهائيا بالموت فيوقف التكامل و استمرار الحياه؟ أ يتفق هذا مع مبدأ كون الله «فياضاً» و «ذا رحمة واسعة»؟ أ يمكن أن يكون قاسياً على عباده بهذا الشكل، و هو مالكهم و مدبر شؤونهم، بحيث أنهم بعد مده يفنون و يتبدلون إلى لا- شىء؟ طبعاً لا، إذ أن رحمة الواسعه توجب عليه أن يسير بالكائنات و خاصه البشر في طريق التكامل، بمثل ما يجعل برحمته من البذر الصغيره الزهيدة شجره ضخمة قويه، أو يحيلها إلى شجيرته ورد جميله، كما أنه بفيض رحمة يبذل النطفه التافهه إلى انسان كامل، هذه الرحمة نفسها توجب أن يرتدى الإنسان- الذى عند امكانيه الخلود- لباس حياه جديده بعد موته فى عالم أوسع، تدفعه يد الرحمة فى سيره التكامل إلى الأبدى، لذلك يقول بعد هاتين المقدمتين: لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ .

إِنَّ الْآيَةَ تَبْدَأُ بِالْإِسْتِفْهَامِ التَّقْرِيرِي الَّذِي يَرَادُ بِهِ انْتِزَاعُ الْإِقْرَارِ مِنَ السَّمَاعِ، وَ لَمَّا كَانَ هَذَا الْأَمْرُ مُسْلِمًا بِهِ بِالْفِطْرَةِ، كَمَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ مَالِكَ عَالَمِ الْوُجُودِ لَيْسَ الْأَصْنَامُ، بَلِ اللَّهُ، فَإِنَّ الْجَوَابَ يَرُدُّ مُبَاشَرَةً، وَ هَذَا أُسْلُوبٌ جَمِيلٌ فِي عَرْضِ مُخْتَلَفِ الْمَسَائِلِ.

فى مواضع أخرى من القرآن يستدل على المعاد بطرق أخرى، بطريق قانون العداله، و قانون التكامل، و الحكمة الإلهيه، و لكن الاستدلال بالرحمة استدلال جديد جاءت به هذه الآيه.

فى نهايه الآيه إشاره إلى مصير المشركين المعاندين و عاقبتهم، فهؤلاء الذين أضاعوا رأس مال وجودهم فى سوق تجاره الحياه، لا يؤمنون بهذه الحقائق:

الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

ما أعجب هذا التعبير! فقد يخسر المرء أحيانا ثروته أو مركزه أو أى نوع آخر من أنواع رأس المال، ففي هذه الحالات يكون قد خسر شيئا، ولكن هذا الشيء الذى خسره لا يكون جزءا من وجوده، أى أنه خارج وجوده، أما أعظم الخسائر التى هى فى الواقع الخساره الحقيقيه، فهى عند ما يخسر الإنسان أصل وجوده.

إنّ أعداء الحقيقه و المعاندين يخسرون تماما رأس مال العمر و رأس مال الفكر و العقل و الفطره و جميع المواهب الروحيه و الجسميه التى كان ينبغي لهم أن يستخدموها فى طريق الحقّ للوصول إلى مرحله التكامل، و عندئذ لا يبقى رأس المال و لا صاحبه.

لقد ورد هذا التعبير فى عدد من آيات القرآن الكريم، و هى تعبيرات مرعبه عن المصير المؤلم الذى ينتظر منكرى الحقيقه و المذنبين الملوئين.

سؤال:

قد يقال: إنّ الحياه الأبدية تكون مصداقا للرحمه بالنسبه للمؤمنين فقط، أما لغيرهم فهى لا تعدو أن تكون شقاء و تعاسه.

الجواب:

لا شك أنّ الله هو الذى يوفر فرص الرحمه، فهو الذى خلق الإنسان، و وهب له العقل، و أرسل له الأنبياء لقيادته و هدايته، و منحه مختلف أنواع النعم، و فتح أمامه طريقا للحياه الخالده، فهذه كلّها ألوان من الرحمه.

و الإنسان فى غضون مسيرته للوصول إلى ثمرات هذه الرحمه إذا انحرف عن طريق و حول هذه الرحمه إلى عذاب و شقاء، فإنّ ذلك لا يخرجها عن كونها رحمه، بل الإنسان هو المعلوم على الانحراف عنها و تبديلها إلى عذاب و ألم.

الآيه التّانيه تكمل فى الواقع الآيه السابقه، فالآيه السابقه تشير إلى أنّ الله مالك كلّ شيء يستوعبه ظرف «المكان»: قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ... ؟

أما هذه الآية فتشير إلى ملكيه الله لما يستوعبه ظرف «الزمان» الواسع، و تقول: وَ لَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .

فى الواقع، عالم المادة هذا يتحدد بالزمان و المكان، فكل الكائنات التى تقع ضمن ظرف المكان و الزمان- أى عالم المادة كله- ملك لله.

و ليس الليل و النهار مختصين- طبعاً- بالمنظومه الشمسيه، فإنّ لجميع كائنات السماوات و الأرض ليلاً و نهاراً، بعضها له نهار دائم بلا ليل، و لبعضها ليل بلا نهار، ففى الشمس- مثلاً- نهار دائم، فهناك ضوء دائم بلا ظلام، و فى بعض الكواكب الخامده، التى لا نور فيها و لا تجاوز النجوم، ليل دائم سرمدى، و هذه كلّها مشموله بالآيه المذكوره.

لا- بدّ هنا أن نلاحظ أنّ «سكن» و السكونه تعنى التوقف و الاستقرار فى مكان ما، سواء أ كان ذلك الموجود الساكن فى حاله حركه أو سكون، نقول مثلاً: فلان «ساكن» فى المدينه الفلانيه، أى أنّه مستقر هناك، مع أنّه يمكن أن يكون متحركاً فى شوارعها.

كما يحتمل أن تقابل «السكون» فى هذه الآيه «الحركه»، و لما كان السكون و الحركه من الحالات النسبيّه، فإنّ ذكر أحدهما يغنيانا عن ذكر الآخر، و عليه يصبح معنى الآيه هكذا: كل ما هو كائن فى الليل و النهار و ظرف الزمان ساكناً كان أم متحركاً، ملك لله.

و بهذا يمكن أن تكون الآيه إشاره إلى أحد أدله التوحيد، لأنّ «الحركه» و «السكون» حالتان عارضتان و حادثتان طبعاً، فلا يمكن أن تكونا قديمتين أزليتين، لأنّ الحركه تعنى وجود الشىء فى مكانين مختلفين خلال زمانين، و السكون يعنى وجود الشىء فى مكان واحد خلال زمانين، و عليه فإنّ الالتفات إلى حاله السابقه كامن فى ذات الحركه و السكون. و نحن نعلم أنّ الشىء إذا كانت له حاله سابقه لا يمكن أن يكون أزلياً.

نستنتج من هذا الكلام أنّ الأجسام لا تخلو من الحركة و السكون، و أنّ ما لا يخلو من الحركة و السكون لا يمكن أن يكون أزلياً، و عليه فكل جسم حادث، و كل حادث لا بدّ من محدث (خالق).

و لكن الله ليس جسماً، فلا حركة له و لا سكون، و لا زمان و لا مكان، و لذلك فهو أبدى أزلي.

و في نهاية الآيه، و بعد ذكر التوحيد، تشير الآيه إلى صفتين بارزتين في الله فتقول: وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، أي أنّ اتساع عالم الوجود، و الكائنات في آفاق الزمان و المكان لا تحول أبداً دون أن يكون الله عليماً بأسرارها، بل إنّه يسمع نجواها، و يعلم حركة النملة الضعيفه على الصخره الصّماء في الليله الظّلماء في أعماق واد سحيق صامت، و إنّه ليدرك حاجاتها و حاجات غيرها، و يعلم ما تفعل.

ص: ٢٢٤

إشاره

قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَلْحَدُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُصِرْفِ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦)

التفسير

إشاره

لا ملجأ غير الله!

من المفسرين من يذكر أنّ سبب نزول الآية هو أنه جاء جمع من أهل مكّه إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم وقالوا: يا محمّد، إنك تركت دين قومك، و لم يكن ذلك إلا بسبب فقرك، فاقبل منّا نصف أموالنا تكن غنيا على أن نترك آلهتنا وشأنها و تعود إلى ديننا، فنزلت هذه الآية ترد عليهم (١).

سبق أن قلنا: إنّ آيات هذه السوره نزلت مرّه واحده في مكّه، كما جاء في

ص: ٢٢٧

(١-١) - تفسير أبي الفتوح الرازي و تفسير «مجمع البيان» في ذيل تفسير الآية.

الأخبار المرويه، لذلك لا يمكن أن يكون لكل منها سبب نزول خاص، غير أن أحاديث كانت قد جرت قبل نزول هذه السوره بين رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم و المشركين و بعض هذه الآيات تشير إلى تلك الأحاديث، لذلك ليس ثمه ما يمنع أن تكون أحاديث من هذا القبيل أيضا قد جرت بين رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم و المشركين، فيشير القرآن في هذه الآيات إلى أحاديثهم و يرد عليهم.

على كل حال، الهدف من نزول هذه الآيات هو إثبات التوحيد و محاربه الشرك و عباده الأصنام فالمشركون، و إن اعتقدوا أن الله هو خالق العالم، كانوا يتخذون من الأصنام ملجأ لأنفسهم، و لربما اتخذوا صنما لكل حاجه معينه، فلهم إله للمطر، و إله للظلام، و إله للحرب و السلم، و إله للرزق، و هذا هو تعدد الأرباب الذى ساد اليونان القديم.

و لكى يزيل القرآن هذا التفكير الخاطى، يأمر رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم أن قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَّخِذُ وِلْيَاءَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لَا يُطْعَمُ .

فإذا كان هو خالق عالم الوجود كله دون الاستناد إلى قدره أخرى، و هو الذى يرزق مخلوقاته، فما الذى يدعو الإنسان إلى أن يتخذ من دونه وليا و ربيا؟ و إن كل الأشياء غيره مخلوقات و هى بحاجه إليه فى كل لحظات وجودها، فكيف يمكن لها أن تقضى حاجه الآخريين؟ هذه الآيه تستعمل كلمه «فاطر» فى حديثها عن خالق السموات و الأرض، و أصل «الفطر» و «الفطور» هو الشق، يروى عن ابن عباس أنه قال: ما عرفت معنى فاطر السموات و الأرض إلاّ- عند ما رأيت اعرابيين يتنازعان على بئر قال أحدهما: «أنا فطرتها» أى أنا أحدثتها و أوجدتها.

و لكننا اليوم أقدر من ابن عباس على معرفه معنى «فاطر» بالاستعانه بالعلوم الحديثه، أنه تعبير ينسجم مع أدق النظريات العلميه الحديثه عن تكون العالم، لقد أظهرت دراسات العلماء أنّ العالم الكبير (الكون) و العالم الصغير (المنظومه الشمسيه) كانت كلها كتله واحده تشققت على أثر الانفجارات المتتاليه، و تكونت المجرات و المنظومات و الكرات، و فى الآيه (٣٠) من سوره الأنبياء بيان أوضح لهذا الأمر: أَوْلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا .

و النقطه الأخرى التى ينبغى ألا نغفل عنها فى هذه الآيه هو أنّها تقتصر على توكيد اتصاف الله باطعام مخلوقاته و رزقهم، و لعل ذلك إشاره إلى أنّ أقوى حاجات الإنسان فى حياته الماديه هى حاجته إلى «لقمه العيش» كما يقال، و هذه اللقمه هى التى تحمل الناس على الخضوع لأصحاب المال و القوّه، و قد يصل خضوعهم لأولئك حدّ العبوديه، ففى هذا يقرر القرآن رزق الناس بيد الله لا بيد هؤلاء و لا بيد الأصنام، فأصحاب المال و القوّه هم أنفسهم محتاجون إلى الطعام، و أنّ الله هو وحده الذى يطعم الناس و لا يحتاج إلى طعام.

و فى آيات أخرى نرى القرآن يؤكّد مالكيه الله و رزاقيته بإنزال الأمطار و إنبات النباتات، و ذلك لكى يزيل من أذهان البشر كلياً فكره اعتمادهم على مخلوقات مثلهم.

ثمّ للردّ على أولئك المشركين الذين كانوا يدعون رسول الله إلى الانضمام إليهم، يؤكّد القرآن على ضروره رفض دعوه هؤلاء انطلاقاً من مبدأ نهى الوحي الإلهى عن ذلك، إضافة إلى نهى العقل: قُلْ إِنِّي أَمُوتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١).

ص: ٢٢٩

١ - ١) - جملة إننى أموت.. من قبيل الخطاب غير المباشر، و جملة «و لا تكونن» خطاب مباشر، و لعل هذا الانتقال يقصد به القول بأنّ الابتعاد عن الشرك و استنكاره أهم بكثير من أن يكون المرء أول المسلمين، و لذا جاء موضوع تجنب الشرك فى خطاب مباشر و مؤكّد بنون التوكيد الثقيله.

لا- شك أنّ أنبياء الله و الصالحين من أقوامهم سبقوا النبي الخاتم في استسلامهم لأمر الله و عليه فإن قوله تعالى: إِنِّي أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ يعني أول مسلم من أمّة رساله الخاتمه.

كما أنّ هذا إشاره إلى أمر تربوى مهم أيضا، و هو أنّ كل قائد ينبغي أن يكون فى تطبيق تعاليم دينه قدوه و طليعه، عليه أن يكون أول المؤمنين برسالته، و أول العاملين بها، و أكثر الناس اجتهادا فيها، و أسرعهم إلى التضحيه فى سبيلها.

الآيه التاليه فيها توكيد أشد لهذا النهى الإلهى عن إتباع المشركين: قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١) أى يأمر الله رسوله أن يقول بأنّه ليس مستثنى من القوانين الإلهيه، و أنّه يخاف- إن ركن إلى المشركين- عذاب يوم القيامه.

و من هذه الآيه نفهم أيضا أنّ شعور الأنبياء بالمسؤوليه يفوق شعور الآخرين بها.

و لكى يتّضح أنّ النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم لا يستطيع شيئا بغير الاستناد إلى لطف الله و رحمته، فكل شىء بيد الله و بأمره، و حتى رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم نفسه يتقرب بعين الرجاء رحمه الله الواسعه، و منه يطلب النجاه و الفوز: مَنْ يُصِرْفَ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ .

هذه الآيات تبين منتهى درجات التوحيد، و ترد على الذين كانوا يرون للأنبياء سلطانا مستقلا عن اراده الله، كما فعل المسيحيون عند ما جعلوا من المسيح عليه السلام المخلّص و المنقذ، فتقول لهم: إنّ الأنبياء أنفسهم يحتاجون إلى رحمه الله مثلكم.

ص: ٢٣٠

١- ١) - يلاحظ أنّ تركيب عبارته الآيه يقتضى أن تأتي جملة «أخاف» بعد جملة «إن عصيت ربي» لأنها جواب الشرط، غير أنّ تقديمها يفيد التأكيد على عظم إحساس رسول الله بالمسؤوليه أمام أوامر الله تعالى.

إشارة

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨)

التفسير

إشارة

قدره الله القاهره:

قلنا إنّ هدف هذه السوره هو استئصال جذور الشرك و عباده الأصنام، و هاتان الآيتان توصلان تحقيق ذلك.

فالقُرآن يتساءل أولاً: لماذا تتوجهون إلى غير الله، و تلجأون إلى معبودات تصطنعونها لحل مشاكلكم و دفع الضر عن أنفسكم و استجلاب الخير لها؟ بينما لو أصابك أدنى ضرر فلا يرفعه عنك غير الله، و إذا أصابك الخير و البركة و الفوز و السعادة فما ذلك إلا بقدره الله، لأنه هو القادر القوي: وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١).

ص: ٢٣١

١-١) -«الضر» هو كل نقيصه يتعرض لها الإنسان إما في الجسم مثل نقص عضو و المرض، و إما في النفس مثل الجهل و السفاهة و الجنون، و إما في أمور أخرى مثل ذهاب المال أو المقام أو الأبناء.

فى الواقع إن سبب الاتجاه إلى غير الله إما لتصورهم أن ما يتجهون إليه مصدر الخيرات، وإما لاعتقادهم بقدرته و أنه يدرأ عنهم المصائب و يحل لهم مشاكلهم، و الخضوع إلى حد العباده لذوى السلطان و المال و القوه ينشأ من أحد هذين الدافعين، هذه الآيه تبين أن إرادته الله حاكمه على كل شىء، فإذا منع عن أحد نعمه، أو منح أحدا نعمه، فما من قدره فى العالم تستطيع أن تغير ذلك، فلما ذا إذن يطأطئون رؤوسهم خضوعاً لغيره؟ إن استعمال «يمسك» فى الخير و الشر، و هى من «مس» تشير إلى أن الخير و الشر - مهما قل - لا يكون إلا بإرادته و قدرته.

ثم إن الآيه المذكوره تدحض فكره «الثنوين» القائلين بمبدأى «الخير» و «الشر» و عبادتهما، و تقول إن الإثنين كليهما من جانب الله، و لكننا سبق أن قلنا أن ليس ثمه شىء اسمه «الشر المطلق».

و عليه فعند ما ينسب الشر إلى الله فإنما يقصد به على الظاهر «سلب النعمه» و هو بحد ذاته «خير»، فهو إما أن يكون للإيقاظ و التريه و التعليم و كبح حالات الغرور و الطغيان و الذاتيه، أو لمصالح أخرى.

و فى الآيه التى تليها إكمال للبحث، فيقول: وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ .

«القاهر» و «الغالب» و إن كانا بمعنى واحد، إلا - أنهما من جذرين مختلفين، «القهر» يطلق على ذلك النصر الذى يتحقق دون أن يتمكن الطرف المقهور من إبداء أيه مقاومه، و فى كلمه «الغلبه» لا - يوجد هذا المعنى، و قد تحصل بعد المقاومه، و بعبارة أخرى: القاهر يقال لمن يكون تسلطه على الطرف الآخر من الشمول بحيث إنه لا يستطيع المقاومه مطلقاً كصب سطل من الماء على جذوه صغيره من النار فيطفئها فوراً.

يرى بعض المفسرين أن «القهر» تستعمل حيث يكون المقهور كائناً عاقلاً،

و لكن «الغلبه» أوسع منها و تشمل النصر على الكائنات غير العاقله أيضا (١).

و عليه إذا كانت الآيه السابقه تشير إلى شمول قدره الله إزاء المعبودات الزائفه الأخرى و أصحاب القوه، فذلك لا يعنى أنه مضطر إلى الدخول مدّه فى صراع مع تلك القوى كى يتغلب عليها، بل يعنى أنّ قدرته قاهره، و قد جاء تعبير فَوْقَ عِبَادِهِ لتأكيد هذا المعنى.

و على هذا، كيف يمكن لإنسان واع أن يعرض عن ربّ العالمين و يتجه إلى كائنات و أشخاص لا يملكون بذواتهم أيه قدره، و ما يملكونه من قوه زهیده إنّما مصدرها الله أيضا.

و لإزالة كل و هم قد يخطر لأحدهم بأنّ الله قد يسىء استعمال قدرته غير المتناهيه كما هو الحال فى ذوى القدره من البشر، يقول القرآن: وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ أى أنه صاحب حكمه و كل أعماله محسوبه، لأنه خبير و عالم و لا يخطئ فى استعمال قدرته أبدا.

و نقرأ فى حالات «فرعون» أنه عند ما هدد بقتل بنى إسرائيل، قال: وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (٢) أى أنه اتّخذ من قدرته القاهره-و إن تكن ضعيفه-وسيله للظلم و غمط حقوق الآخرين، إلا أنّ الله الحكيم الخبير بتلك القدره القاهره منزّه عن أن يظلم حتى أصغر مخلوقاته.

و من نافله القول أنّ تعبير فَوْقَ عِبَادِهِ هو التفوق فى المقام لا فى المكان، إذ ليس لله مكان محدد.

و من العجيب جدا أنّ بعض ذوى العقول المتحجره اتّخذ من هذه الآيه دليلا على تجسيم الله سبحانه، على الرغم من عدم وجود أى شك فى أنّ هذا التعبير معنوى يدل على تفوق الله من حيث القدره على عباده و حتى فرعون-مع كونه

ص: ٢٣٣

١-١) - تفسير «الميزان» ج ٧، ص ٣٤.

٢-٢) - الأعراف، ١٢٧.

بشرا ذا جسم-يستعمل الكلمه نفسها لإظهار تفوقه السلطوى، لا تفوقه المكانى (تأمل بدقه).

ص: ٢٣٤

إشاره

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَ إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠)

التفسير

إشاره

أعظم الشاهدين:

يذكر جمع من المفسرين أنّ عددا من مشركي مكه جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا: كيف تكون نبيا و لا- نرى أحدا يؤيدك؟ و حتى اليهود و النصارى الذين سألناهم، لم يشهدوا بصحة أقوالك بحسب ما عندهم فى التوراه و الإنجيل، فهات من يشهد لك على رسالتك، و الآيتان المذكورتان تشيران إلى هذه الواقعه.

فى مواجهه هؤلاء المخالفين المعاندين الذين يغمضون أعينهم عن رؤيه كل تلك الدلائل على صدق الرساله، و يطلبون مزيدا من الشواهد، يؤمر النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن: قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً .

أهناك شهادة أعظم من شهادة رب العالمين؟ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَ هَلْ هُنَاكَ دَلِيلٌ أَكْبَرُ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ؟: وَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ، هذا القرآن الذي لا يمكن أن يكون وليد فكر بشري، خاصه في تلك الظروف الزمانية و المكانية، هذا القرآن الذي يضمّ مختلف الشواهد على إعجازه، فألفاظه معجزه، و معانيه معجزه، أليس هذا الشاهد الكبير وحده كاف لأن يكون تصديقا إلهيا للدعوه!!

يستفاد من هذه العبارة أيضا أنّ القرآن أعظم معجزه و أكبر شاهد على صدق دعوه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم.

ثمّ يشير إلى هدف نزول القرآن و يقول: لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أَيُّ أَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ نَزَلَ عَلَيَّ لِكَيُّ أَنْذِرَكُمْ، و أنذر جميع الذين يصل إليهم-عبر تاريخ البشر، و على امتداد الزمان و في أرجاء العالم كافه-كلامى، و أحذرهم من عواقب عصيانهم.

يلاحظ هنا أنّ الكلام مقتصر على الإنذار مع أنّ خطابات القرآن تجمع غالبا بين الإنذار و البشرى، و السبب فى ذلك يعود إلى أنّ الكلام موجه هنا إلى أفراد معاندين مصرين على المكابره، و لا- يمكن أن نتصور فى الواقع عبارة أوجز و أشمل لبيان المقصود من هذه العبارة، و ما فيها من دقّه و سعه يزيل كل إيهام فى عدم اختصاص دعوه القرآن بالعرب أو بزمان أو مكان معينين.

بعض العلماء استدلوا بهذا التعبير و أمثاله على ختم النبوه برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، فهذه الجملة تعنى أنّ الرسول قد بعث إلى جميع الذين تصلهم دعوته، و هذا يشمل جميع الذين يردون الحياه حتى نهايه العالم.

و تفيد الأحاديث الوارده عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ مفهوم إبلاغ القرآن لا يعنى مجرّد وصول نصوصه إلى الأقوام الأخرى فحسب، بل أنّ المفهوم يشمل وصول ترجماته بمختلف اللغات إلى تلك الأقوام.

جاء عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه عند ما سئل عن هذه الآيه قال: «بكل

كما أنّ من أصول الفقه المسلم بها هو مبدأ «قبح العقاب بلا بيان» وهذا ما تفيد به الآية المذكورة.

فقد ثبت في أصول الفقه أنّه ما دام الحكم لم يبلغ شخصا، فإنّه لا يتحمل مسئولية تنفيذه (إلا إذا كان مقصرا في استيعاب الحكم)، فهذه الآية تقول بأنّ الذين تصلهم الدعوى يتحملون مسئوليتها، أمّا الذين لم تصلهم الدعوى، بدون تقصير، فلا مسئولية عليهم.

في تفسير (المنار) رواه عن أبي بن كعب قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأسارى فقال لهم: هل دعيتم إلى الإسلام؟ قالوا: لا، فخلى سبيلهم، ثم قرأ وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ، ثم قال: خلوا سبيلهم حتى يأتوا مأمنهم من أجل أنّهم لم يدعوا (٢).

و من هذه الآية نفهم - أيضا أنّ إطلاق كلمه «شئ» على الله جائز، إلا أنّه شئ لا كالأشياء المخلوقه المحدوده، بل هو خالق ولا تحده حدود.

ثم أمر الله رسوله أن يسألهم: أإنّكم لتشهدون أنّ مع الله آلهة أخرى .
و يأمره أن: قل لا أشهد، قل إنّما هو إله واحد وإني بريء مما تشركون .

ذكر العبارات الأخيره في الآية له هدف نفسى هام، وهو أنّ المشركين قد يتصورون حدوث تزلزل في نفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم على وآله و سلم على أثر كلامهم، فيتركون المجلس آملين، و يبشرون أصحابهم بإمكان أن يعيد محمد صلى الله عليه وآله وسلم النظر في دعوته.

فهذه الجمل الصريحه الحاسمه تقضى على أمل المشركين و تحيله إلى يأس، و تبين لهم أنّ الأمر أعظم ممّا يظنون، و أنّه لم يداخله أدنى شك في دعوته، و لقد دلت التجارب على أنّ ذكر أمثال هذه العبارات الجازمه و الحاسمه في ختام كل

ص: ٢٣٧

١-١) - تفسير «البرهان»، و تفسير «نور الثقلين»، ج ١، ص ٧٠٧ ذيل الآية.

٢-٢) - تفسير «المنار»، ج ٧، ص ٣٤١.

بحث له أثر عميق فى تحقيق الهدف النهائى.

أمّا الذين قالوا: إنّ أهل الكتاب لم يشهدوا لنبى الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ الآيه التى بعدها ترد عليهم و تقول: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ أَى أَنَّ معرفتهم به لا- تقتصر على مبدأ ظهوره و دعوته فحسب، بل إنّهم يعرفون حتى التفاصيل و الخصائص و علاماته الدقيقه أيضا، و عليه، إذ قال جمع من أهل مكّه: إنّهم رجعوا إلى أهل الكتاب فلم يجدوا عندهم علما بالنبى، فإنّهم إمّا أن يكونوا قد كذبوا و لم يتحققوا من الأمر، أو أنّ أهل الكتاب قد أخفوا عنهم الحقائق و لم يطلعوهم عليها، و هذا الكتمان تشير إليه آيات أخرى من القرآن (لمزيد من التوضيح انظر المجلد الأوّل من هذا التفسير فى ذيل الآيه (١٤٦) من سوره البقره).

و الآيه تعلن فى آخر مقاطعها النتيجة النهائيه: الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أَى أَنَّ الذين لا يؤمنون بالنبى -مع كل ما تحيطه من دلائل و علامات واضحه- هم فقط أولئك الذين خسروا كل شىء فى تجاره الحياه.

ص: ٢٣٨

إشارة

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا
أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى
أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)

التفسير

إشارة

أشد الظلم:

تواصل هذه الآيات المنهج القرآني في مقارعة الشرك وعبادة الأصنام بشكل شامل، تقول الآية الأولى بصراحة و بصورة استفهام استنكاري: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ؟ الجملة الأولى -في الواقع- إشارة إلى إنكار التوحيد، والثانية إشارة إلى إنكار النبوة...حقًا لا ظلم أكبر من أن يتخذ المرء قطعه جماد لا قيمة لها، أو إنسانا ضعيفا مثله شريكا لرب لا تحدّه، حدود، و له الحكم على كل عالم الوجود، فهذا ظلم من جهات ثلاث: ظلم لذات الله بالقول بوجود شريك له، و ظلم للشخص

نفسه بالحط من قدره إلى حد السجود و الخضوع لقطعه حجر أو خشب، و ظلم بحق المجتمع الذى يسبب له الشرك و التشتت و التفرق و الابتعاد عن روح الوحده و التوحد.

□ فلا شكَّ إذن في أنّ أى ظالم-و على الأخص أولئك الذين لظلمهم جوانب متعدده-لا يمكن أن يرى السعاده و الفلاح: إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ .

إنّ لفظه «الشرك» لم ترد صراحه فى الآيه، و لكن بأخذ الآيات السابقه و اللاحقه لها بنظر الاعتبار التى تدور حول الشرك، يتضح أنّ القصد من كلمه «افتراء» هو القول بوجود شريك لله سبحانه.

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن يصف فى خمس عشر موضعا بعض الناس بأنهم من أظلم الناس فى سياق الاستفهام: «و من أظلم...» أو «فمن أظلم...» و على الرغم من أنّ معظم تلك الآيات تتناول الشرك و عباده الأصنام و إنكار آيات الله، أى أنّها تدور حول التوحيد، فإنّ بعضا آخر منها يدور حول أمور أخرى، مثل وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ (١).

□ و قول سبحانه وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ (٢).

هنا يثار هذا السؤال: كيف يمكن أن تكون كل طائفه من هؤلاء أظلم الناس، فى حين أنّ صفه (الأظلم) لا يمكن أن تنطبق إلا على طائفه واحده منها؟ نقول فى الجواب: كل هذه الحالات تستقى فى الحقيقه-من منبع واحد، و هو الشرك و الكفر و العناد. فمنع الناس من ذكر الله فى المساجد و السعى فى خرابها دليل على الكفر و الشرك، و كتمان الشهاده أى كتمان الحقائق المؤدى إلى حيره الناس و ضلالهم، هو معلم من معالم الشرك و إنكار وحدانيه الله.

الآيه التالیه تشير إلى مصير المشركين يوم القيامة مبيّنه أنّهم باعتمادهم على

ص: ٢٤٠

١-١) -البقره، ١١٤.

٢-٢) -البقره، ١٤٠.

مخلوقات ضعيفه كالأصنام، لا هم حققوا لأنفسهم الراحة في هذا العالم، ولا هم ضمنوا ذلك في الحياه الآخره، فتقول الآيه: وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ، أين هم، لماذا لا يأتون اليوم لإنقاذهم؟ لماذا لا يظهر أى حول ولا- يبدون أيه قوه؟ ألم تكونوا تتوقعون منهم أن يعينوكم على حل مشكلاتكم؟ فلما ذا- إذن- لا- نرى لهم أثرا؟ فيستولى على هؤلاء الرعب و الخوف و يبهتون و لا يحIRON جوابا، سوى أن يقسموا بالله إنهم لم يكونوا مشركين، ظنا منهم أنهم هناك أيضا قادرون على إخفاء الحقائق: ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتِنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ .

حول معنى «فتنه» ثمه كلام بين المفسرين، منهم من قال: إنها بمعنى الاعتذار، و قال آخرون: إنها بمعنى الجواب: و قالوا أيضا: إنها الشرك (١).

هنالك احتمال آخر في تفسير هذه الآيه، و هو القول بأن «الفتنه» من «الافتتان» أى الوله بالشىء، فيكون المعنى أن افتتانهم بالشرك و عباده الأصنام، بشكل يغشى عقولهم و أفكارهم، قد أدى إلى أن يدركوا يوم القيامه- يوم يزاح الستر- خطأهم الكبير، و يستقبحوا أعمالهم و ينكروها تماما.

يقول الراغب فى «المفردات»: أن أصل «الفتن» إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، فقد يكون هذا المعنى مما تفسر به الآيه المذكوره، أى أنهم عند ما تحيط بهم شدّه يوم القيامه يستيقظون و يقفون على خطأهم، فينكرون أعمالهم طلبا للنجاه.

الآيه الثالثه، و من أجل أن يعتبر الناس بمصير هؤلاء الأفراد تقول: أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَيَّ أَنْفُسِهِمْ .

ص: ٢٤١

١- ١) - إذا أخذناها على إنها بمعنى الاعتذار و الجواب، فلا حاجه فيهما للتقدير، أما إذا أخذت بمعنى الشرك، فينبغى أن نقدر كلمه «نتيجه» أى أن نتيجه شركهم كانت أن يقسموا إنهم لم يكونوا مشركين.

و تنهار المساند التي اختاروا الاستناد عليها و جعلوها شريكه لله، و خابوا في مسعاهم وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

لا بدّ هنا من ملاحظه النقاط التاليه:

١- لا شك أنّ المقصود بعبارته «انظر» هو النظر بعين العقل، لا بالعين الباصره إذا لا يمكن أن ترى مشاهد يوم القيامة رأى العين فى هذه الدنيا.

٢- و قوله سبحانه كَذَّبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ إِمَّا أَنْ يَعْنَى أَنَّهُمْ خَدَعُوا أَنفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ خَرَجُوا عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ، وَ إِمَّا أَنْ يَرَادَ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَيْثُ يَقْسِمُونَ عَلَىٰ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُشْرِكِينَ، وَ الْحَقِيقَةُ أَنَّهُمْ بِهَذَا يَكْذِبُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ، فَقَدْ كَانُوا مُشْرِكِينَ فَعَلًا.

٣- يبقى سؤال آخر، و هو أنّ الآيه المذكوره تفيد أنّ المشركين ينكرون شركهم يوم القيامة مع أنّ ظروف يوم القيامة لا يمكن أن تسمح لأحد أن يجانب الصدق و هو يرى تلك الحقائق الحسيه، كما لو كان أحد يريد أن يغطى على الشمس فى رابعه النهار، ليقول كذبا: إنّ الدنيا ظلام، ثمّ إن هناك آيات أخرى تفيد بأنهم يوم القيامة يعترفون صراحه بشركهم و لا يخفون أمرا: وَ لَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (١) .

يمكن أن نذكر لهذا السؤال جوابين:

أولاً- ليوم القيامة مراحل، ففي المراحل الأولى يظن المشركون أنّهم بالكذب يستطيعون التملص من عذاب الله الأليم، لذلك يرجعون إلى عادتهم القديمه فى التوسل بالكذب، و لكن فى المراحل التاليه يدركون أن لا مهرب لهم أبدا،

ص: ٢٤٢

فيُعتَرَفون بأعمالهم.

يبدو أنّ الأستار يوم القيامة ترفع- بالتدريج- عن عين الإنسان، و في البدايه- عند ما لا يكون المشركون قد درسوا ملفات أعمالهم جيدا بعد- يركنون إلى الكذب، و لكن في المراحل التّاليه حيث ترتفع فيها الأستار أكثر و يرون كل شيء حاضرا، لا يجدون مندوحه عن الاعتراف تماما، مثل المجرمين الذين ينكرون كل شيء في بدايه التحقيق، حتى معرفتهم بأصدقائهم... و لكنهم عند ما يرون الأدله الماديه و المستندات الحيه التي تفضح جريمتهم، يدركون أنّ الأمر من الوضوح بحيث لا يحتمل الإنكار، فيعترفون و يدلون بإفاده كامله، و قد ورد هذا الجواب في حديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام (١).

و ثانيا: إنّ الآيه المذكوره تتحدث عمّن لا يرى نفسه مشركا مثل المسيحيين الذين قالوا بالآلهه الثلاثه و اعتقدوا أنّهم موحدون، أو مثل الذين يدعون التوحيد، لكن أعمالهم ملوثه بالشرك، لأنهم كانوا يعرضون عن تعاليم الأنبياء، و يعتمدون على غير الله و ينكرون ولايه أولياء الله... هؤلاء يقسمون يوم القيامة على أنّهم كانوا موحدين، و لكنهم سرعان ما يدركون أنّهم الباطن كانوا مشركين، هذا الجواب أيضا قد ورد في عدد من الروايات نقلا عن الإمام على عليه السلام و الإمام الصادق عليه السلام (٢).

و كلا الجوابين مقبولان.

ص: ٢٤٣

١- ١) - تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٠٨.

٢- ٢) - تفسير «نور الثقلين»، ج ١، ص ٧٠٨.

إشاره

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا مِنْهُ لَعَنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦)

التفسير

إشاره

حجب لا تقبل الاختراق:

في هذه الآية إشارة إلى الوضع النفسى لبعض المشركين، فهم لا- يبدون أیه مرونه تجاه سماع الحقائق، بل أكثر من ذلك- يناصرونها العدا، و يقذفونها بالتهم، فيعدون أنفسهم و غيرهم عنها، عن هؤلاء تقول الآية: وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا (١).

في الواقع كانت عقولهم و أفكارهم منغمسه في التعصب الجاهلى الأعمى، و في المصالح الماديه و الأهواء، بحيث أصبحت و كأنها واقعه تحت الأستار

ص: ٢٤٤

(١- ١) - «أكنه» جمع «كنان» و هو كل ستار أو حاجز، و«الوقر» بمعنى ثقل السمع.

و الحواجز، فلا هم يسمعون حقيقه من الحقائق، ولا هم يدركون الأمور إدراكا صحيحا.

سبق أن قلنا مرارا أنّ نسبه هذه الأمور إلى الله، إنّما هو إشاره إلى قانون «العله و المعلول» و خاصيه «العمل»، أى أنّ أثر الاستمرار فى الانحراف و الإصرار على المعانده و التشاؤم يظهر فى اتصاف نفس الإنسان بهذه المؤثرات، و فى تحولها إلى مثل المرآه المعوجه التى تعكس صور الأشياء معوجه منحرفه، لقد أثبتت التجربه أنّ المنحرفين و المذنبين يحسون أول الأمر بعدم الرضا عن حالهم، و لكنّهم يعتادون ذلك بالتدرّج، و قد يصل بهم الأمر إلى اعتبار أعمالهم القبيحه لازمه و ضروريه، و بتعبير آخر: هذا واحد من أنواع العقاب الذى يناله المصّرون على العصيان و معاده الحقّ.

و هؤلاء وصلوا حدّا تصفه الآيه فتقول: **وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا**، بل الأكثر من ذلك أنّهم عند ما يأتون إليك، لا يفتحون نوافذ قلوبهم أمام ما تقول، و لا يأتون -على الأقل- بهيئه الباحث عن الحقّ الذى يسعى للعثور على الحقيقه و التفكير فيها، بل يأتون بروح و فكر سلبين، و لا هدف لهم سوى الجدل و الاعتراض: **حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ أَنَّهُمْ عِنْدَ سَمَاعِهِمْ كَلَامَكَ** الذى يستقى من يناييع الوحي و يجرى على لسانك الناطق بالحقّ، يبادرون إلى اتهامك بأنّ ما تقوله إنّما هو خرافات اصطنعها أناس غابرون: **يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**.

الآيه التاليه تذكر أنّ هؤلاء لا يكتفون بهذا، فهم مع ضلالهم يسعون جاهدين للحيلولة دون سلوك الباحثين عن الحقيقه هذا الطريق بما يشيعونه و يروجونه من مختلف الأكاذيب، و يمنعونهم أن يقتربوا من رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم: **وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ**، و يبتعدون عنه بأنفسهم: **وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ (١)**، دون أن يدركوا أنّ من يصارع الحقّ

ص: ٢٤٥

(١-١) - «ينأون» من «نأى» بمعنى يتعد.

يكن صريعه، وأخيراً، وبحسب قانون الخلق الثابت، يظهر وجه الحق من وراء السحب، و ينتصر بماله من قوه، و يتلاشى الباطل كما يتلاشى الزبد الطافي على سطح الماء، و عليه فإن مساعيهم سوف تتحطم على صخره الإخفاق و الخيبة و ما يهلكون غير أنفسهم، و لكنهم لا يدركون الحقيقه: وَ إِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ .

الصاق تهمه عظيمه بأبى طالب مؤمن قريش:

يتضح مما قيل فى تفسير هذه الآيه أنها تتابع الكلام على المشركين المعاندين و أعداء رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم الألداء، و الضمير «هم» يعود بموجب قواعد الأدب و اللغه- إلى الذين تتناولهم الآيه بالبحث، أى الكفار المتعصين الذين لم يدخروا وسعا فى إيذاء النبى صلى الله عليه و آله و سلم و وضع العثرات فى طريق الدعوه إلى الإسلام.

و لكن- لشديد الأسف- نرى بعض المفسرين من أهل السنه يخالفون جميع قواعد اللغه العرييه، فيقطعون الآيه الثانيه من الآيه الاولى و يقولون: إنها نزلت فى أبى طالب والد أمير المؤمنين على عليه السلام.

أنهم يفسرون الآيه هكذا: هناك فريق يدافعون عن رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم و لكنهم فى الوقت نفسه يتعدون عنه: وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ وَ هُمْ يَسْتَشْهَدُونَ فى توكيد رأيهم ببعض الآيات الأخرى من القرآن، مما سنتناوله فى موضعه، مثل الآيه (١١٤) من سوره التوبه و الآيه (٥٦) من سوره القصص.

لكن جميع علماء الشيعة و جمع من علماء أهل السنه، و مثل ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغه و القسطلانى فى «إرشاد السارى» و زينى دحلان فى حاشيه السيره الحلبيه، و يعتبرون أباً طالب من مؤمنى الإسلام، و هناك فى المصادر الإسلاميه الأصليه دلائل كثيره على هذا.

و من يطالع هذه الأدله يندفع للتساؤل بدهشه: ما السبب الذى حدا ببعضهم

إلى كره أبى طالب و توجيه مثل هذا الاتهام الكبير إليه؟! كيف يكون هدفا لمثل هذا الاتهام من كان يدافع بكل كيانه و وجوده عن رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم و لطالما وقف هو و ابنه فى مواقع الخطر يدر آن عن حياه رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم كل خطر؟! هنا يرى المحققون المدققون أنّ التيار المناوئ لأبى طالب تيار سياسى ينطلق من عداء «شجره بنى أميه الخبيثه» لمكانه على عليه السلام.

ذلك لأنّ أبا طالب ليس الوحيد الذى تعرض لمثل هذه الهجمات بسبب قرابته من أمير المؤمنين على عليه السلام، بل إنّنا نلاحظ على امتداد تاريخ الإسلام أنّ كل من كان له بأى شكل من الأشكال نوع من القرابه من أمير المؤمنين على عليه السلام لم ينج من هذه الحملات اللثيمه، و فى الحقيقه كان ذنب أبى طالب الوحيد أنّه والد الشخصيه الإسلاميه الكبرى على عليه السلام.

و نذكر هنا بإيجاز مختلف الأدله التى تثبت إيمان أبى طالب، تاركين التفاصيل للكتب المختصه فى الموضوع.

١- كان أبو طالب يعلم، قبل بعثه الرسول الأكرم صَلَّى الله عليه و آله و سلم، أنّ ابن أخيه سوف يصل إلى مقام النبوه، فقد كتب المؤرخون أنّه فى رحلته مع قافله قريش إلى الشام اصطحب معه ابن أخيه محمّدا البالغ يومئذ الثانيه عشره من العمر، و فى غضون الرحله رأى منه مختلف الكرامات، ثمّ عند ما مرّت القافله بالراهب (بحيرا) الذى أمضى سنوات طوالا- فى صومعته على طريق القوافل التجاريه، استلف محمّد صَلَّى الله عليه و آله و سلم نظر الراهب الذى راح يدقق فى وجهه و ملامحه، ثمّ التفت إلى الجمع سائلا: من منكم صاحب هذا الصبى؟ فأشار الجمع إلى أبى طالب الذى قال له: هذا ابن أخى، فقال بحيرا: إنّ لهذا الصبى شأن، إنّّه النّبى الذى أخبرت به و برسائله الكتب السماويه، و قد قرأت فيها تفاصيل ذلك كله (١).

ص: ٢٤٧

١- (١) - ملخص ما ورد فى سيره ابن هشام، ج ١، ص ١٩١، و سيره الحلبي، ج ١، ص ١٣١، و كتب أخرى.

و لقد كان أبو طالب قبل ذلك قد أدرك من الوقائع و القرائن التي رآها من ابن أخيه أنه سيكون نبي هذه الأمة.

و بموجب ما يذكره الشهرستاني صاحب «الملل و النحل» و غيره من علماء السنه أنّ سماء مكّه قد جست بركتها عن أهلها سنه من السنين، فواجه الناس سنه - جفاف شديد، فأمر أبو طالب أنّ يأتوه بابن أخيه محمّد، فأتوه به و هو رضيع في قماطه، فوقف تجاه الكعبه، و في حاله من التضرع و الخشوع أخذ يرمى بالطفل ثلاث مرات إلى أعلى ثم يتلقفه و هو يقول: يا ربّ بحق هذا الغلام اسقنا غيثا مغيثا دائما هطلا، فلم يمض إلاّ بعض الوقت حتى ظهرت غمامه من جانب الأفق و غطت سماء مكّه كلّها و هطل مطر غزير كادت معه مكّه أن تغرق.

ثمّ يقول الشهرستاني: هذه الواقعة، التي تدل على علم أبي طالب بنبوه ابن أخيه و رسالته منذ طفولته تؤكّد إيمانه به، و هذا أبيات أنشدها أبو طالب بعد ذلك بتلك المناسبه:

و أبيض يستسقى الغمام بوجهه

ثمّال اليتامى عصمه للأرامل

يلوذ به الهلاك من آل هاشم

فهم عنده في نعمه و فواضل

و ميزان عدل لا يخيس شعيره

و وزان صدق وزنه غير عائل

إنّ حكاية إقبال قريش على أبي طالب رحمه الله عند الجفاف، و استشفاع أبي طالب إلى الله بالطفل قد ذكرها غير الشهرستاني عدد آخر من كبار المؤرخين، و قد أورد العلامه الاميني قدس سرّه صاحب كتاب «الغدیر» هذه الحكايه و ذكر أنّه نقلها من «شرح البخارى» و «المواهب اللدنيه» و «الخصائص الكبرى» و «شرح بهجه المحافل» و «السيره الحلبيه» و «السيره النبويه» و «طلبه الطالب» (١).

٢- إضافة إلى كتب التاريخ المعروفه، فإنّ بين أيدينا شعرا لأبي طالب جمع في «ديوان أبي طالب»، و منه الأبيات التاليه:

ص: ٢٤٨

(١-١) - «الغدیر»، ج ٧، ص ٣٤٦.

و الله لن يصلوا إليك بجمعهم

حتى أوسد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضه

و ابشر بذاك و قر منك عيوننا

و دعوتنى و علمت أنك ناصحى

و لقد دعوت و كنت ثم أميننا

و لقد علمت بأن دين محمد

من خير أديان البريه دينا

كما قال أيضا:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمدا

رسولا كموسى خط فى أول الكتب

و إن عليه فى العباد محبه

و لا حيف فى من خصه الله بالحب (١)

يذكر ابن أبى الحديد طائفه كبيره من أشعار أبى طالب (التي يقول عنها ابن شهر آشوب فى «متشابهات القرآن» أنها تبلغ ثلاثه آلاف بيت) ثم يقول: إن هذه الأشعار لا تدع مجالا للشك أن أبا طالب كان يؤمن برسالة ابن أخيه.

٣- ثمه أحاديث منقوله عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم تؤكد شهادته بإيمان عمه الوفى أبى طالب، من ذلك ما ينقله لنا صاحب كتاب «أبو طالب مؤمن قريش» فيقول:

عند ما توفى أبو طالب رثاه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و هو على قبره، قائلا:

«وا أبتاه! وا أبا طالباه وا حزناه عليك! كيف أسلو عليك يا من ربيتنى صغيرا، و اجبتنى كبيرا، و كنت عندك بمنزله العين من الحدقه و الروح من الجسد» (٢).

و كثيرا ما

كان رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم يقول: «ما نالت منِّي قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب» (٣).

٤- من المتفق عليه أنّ رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم قد أمر بقطع كل رابطته صحبه له بالمشركين، و كان ذلك قبل وفاه أبي طالب بسنوات، و عليه فإنّ ما أظهره رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم من الحبّ و التعلق بأبي طالب يدل على أنّه كان يرى في أبي طالب

ص: ٢٤٩

-
- ١ - ١) - هاتان القطعتان وردتا في «خزانه الأدب» و «و تاريخ ابن كثير» و «شرح ابن أبي الحديد» و «فتح الباري» و «بلوغ الارب» و «تاريخ أبي الفداء» و «السيره النبويه» و غيرها نقلا عن «الغدير»، ج ٨.
- ٢ - ٢) - «شيخ الأباطح» نقلا عن «أبو طالب مؤمن قريش».
- ٣ - ٣) - الطبري، نقلا عن «أبو طالب مؤمن قريش».

تابعاً لمدرسه التوحيد، وإلا فكيف ينهى الآخرين عن مصاحبه المشركين، ويبقى هو على حبه العميق لأبي طالب؟ ٥- في الأحاديث التي وصلتنا عن أهل البيت عليهم السّلام أدله وافره على إيمان أبي طالب وإخلاصه، ولا يسع المجال هنا لذكرها، وهي أحاديث تستند إلى الاستدلال المنطقي والعقلي، كالحديث

المنقول عن الإمام زين العابدين عليه السّلام الذي قال- بعد أن سئل عن إيمان أبي طالب وأجاب الإيجاب:- «إنّ هنا قوما يزعمون أنّه كافر..وا عجباً كل العجب! أيطعنون على أبي طالب أو على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وقد نهاه الله أن تقرّ مؤمنه مع كافر في غير آيه من القرآن(أى فى أكثر من آيه) ولا يشك أحد أن فاطمه بنت أسد رضى الله تعالى عنها من المؤمنات السابقات، فإنّها لم تزل تحت أبي طالب حتى مات أبو طالب رضى الله عنه» (١).

٦- وإذا تركنا كل هذا جانباً، فإننا قد نشك في كل شيء إلا في حقيقته كون أبي طالب كان على رأس حماة الإسلام ورسول الإسلام، وكانت حمايته تتعدى الحدود المألوفة بين أبناء العشيره والعصبيات القبليه ولا يمكن تفسيرها بها.

ومن الأمثلة الحيّه على ذلك حكاية (شعب أبي طالب) يجمع المؤرخون على أنّه عند ما حاصرت قريش النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم والمسلمين محاصره اقتصاديه واجتماعيه وسياسيه شديده وقطعت علائقها بهم، ظل أبو طالب الحامى والمدافع الوحيد عنهم مدّه ثلاث سنوات ترك فيها كل أعماله، وسار بينى هاشم إلى واد بين جبال مكّه يعرف بشعب أبي طالب فعاشوا فيه، وقد بلغت تضحياته حداً، ففضلاً عن بنائه الأبراج الخاصه للوقوف بوجه أى هجوم قد تشنه قريش عليهم، كان فى كل ليله يوقظ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم من نومه ويأخذه إلى مضجع آخر يعده له ويجعل ابنه الحبيب إليه علياً عليه السّلام فى مكانه، فإذا ما

قال له ابنه على عليه السّلام: يا أبه، إنّ هذا سيوردنى موارد الهلكه، أجابه أبو طالب عليه السّلام: ولدى عليك بالصبر، كل حى إلى ممات، لقد

ص: ٢٥٠

جعلت فداء ابن عبد الله الحبيب،

فيرد على عليه السلام: يا أبة، ما قلت لك ذلك خوفا من الموت في سبيل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، بل كنت أريدك أن تعلم مدى طاعتي لك واستعدادي للوقوف إلى جانب محمد صلى الله عليه وآله وسلم (١).

إننا نرى أن من يترك التعصب، و يقرأ -بغير تحيز- ما كتبه التاريخ بحروف من ذهب عن أبي طالب، سيرفع صوته مع صوت ابن أبي الحديد منشدا:

و لو لا أبو طالب و ابنه

لما مثل الدين شخصا و قاما

فذاك بمكّه آوى و حامى

و هذا بيثرب جس الحماما (٢)

ص: ٢٥١

١-١) -الغدیر، ج ٧، ص ٣٥٧-٣٥٨ بتصرف.

٢-٢) -الغدیر، ص ٨٦.

اشاره

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ وَقَفُوا عَلَىٰ الذَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكَذَّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)

التفسير

اشاره

يقظه عابره عقيمه:

في هاتين الآيتين إشاره إلى بعض مواقف عناد المشركين، وفيهما يتجسد مشهد من مشاهد نتائج أعمالهم لكي يدركوا المصير المشؤوم الذي ينتظرهم فيستيقظون، أو تكون حالهم-على الأقل-عبره لغيرهم، فتقول الآيه: وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ وَقَفُوا عَلَىٰ الذَّارِ... (١) لتبين لك مصيرهم السيئ المؤلم.

إنهم في تلك الحال على درجه من الهلع بحيث أنهم يصرخون: ليتنا نرجع إلى الدنيا لنعوض عن أعمالنا القبيحه، ونعمل للنجاه من هذا المصير المشؤوم.

و نصدق آيات ربنا، و نقف إلى جاب المؤمنين:

ص: ٢٥٢

فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

(١)

الآية التالية تؤكد أن ذلك ليس أكثر من تمن كاذب، وإنما تمنوه لأنهم رأوا في ذلك العالم كل ما كانوا يخفونه-من عقائد و نيات و أعمال سيئه-مكشوفاً أمامهم، فاستيقظوا يقظه مؤقتة عابرة: بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ .

غير أن هذه اليقظه ليست قائمه ثابتة، بل إنها قد حصلت لظروف طارئه، و لذلك فحتى لو افترضنا المستحيل و عادوا إلى هذه الدنيا مره أخرى لفعلوا ما كانوا يفعلونه من قبل و ما نهوا عنه: وَ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ لَذَكَبُ لَهُمْ لَيْسُوا صَادِقِينَ فِي تَمَنِيَاتِهِمْ وَ مَزَاعِمِهِمْ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .

ملاحظات:

١- يتبين من ظاهر بَدَأَ لَهُمْ أَنَّهُمْ لم يكونوا يخفون كثيراً من الحقائق عن الناس فحسب، بل كانوا يخفونها حتى عن أنفسهم، فتبدوا لهم عليه يوم القيامة، و ليس في هذا ما يدعو إلى العجب، فالإنسان كثيراً ما يخفي عنه نفسه الحقائق و يغطي على ضميره و فطرته لكي ينال شيئاً من الراحة الكاذبه.

إن قضيه مخادعه النفس و إخفاء الحقائق عنها من القضايا التي تعالجها البحوث الخاصه بنشاط الضمير، فقد نجد الكثيرين من الذين يتبعون أهواءهم ينتبهون إلى أضرار ذلك عليهم، و لكنهم لكي يواصلوا أعمالهم تلك بغير أن تنغصها عليهم ضمائرهم- يحاولون إخفاء هذا الوعي فيهم بشكل من الأشكال.

غير أن بعض المفسرين-دون الالتفات إلى هذه النكته-فهموا من (لهم) ما

ص: ٢٥٣

١ - ١) - ينبغي الانتباه إلى نقطه مهمته في الآيه: في القراءه المشهوره التي بين أيدينا «نرد» مرفوعه و «و لا- نكذب» و «نكون» منصوبتان، مع أن الظاهر يدل على أنهما معطوفتان على «نرد» و خير تعليل لذلك هو القول بأن «نرد» جزء من التمني، و «و لا نكذب» جواب التمني، و «الواو» هنا بمنزله «الفاء» و معلوم أن جواب التمني إذا وقع بعد الفاء كان منصوباً، إن مفسرين كالفخر الرازي و المرحوم الطبرسي و أبي الفتوح الرازي أوردوا تعليقات أخرى، و لكن الذي قلناه أوضح الوجوه، و عليه فهذه الآيه تكون شبيهه بالآيه (٥٨) من سوره الزمر: لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ .

ينطبق على الأعمال التي أخفاها المشركون عن الناس (تأمل بدقه).

٢- قد يقال أنّ التمنى ليس من الأمور يصح فيها أن تكون صادقه أو كاذبه، فهي مثل «الإنشاء» الذى لا- يحتمل الصدق و الكذب، إلا أنّ هذا القول بعيد عن الصواب، وذلك لأنّ «الإنشاء» كثيرا ما يصاحبه «الإخبار» ممّا يحتمل الصدق و الكذب، فقد يقول قائل أتمنى أن يعطينى الله مالا- وفيرا فأعينك، هذا من باب التمنى بالطبع، و لكن مفهومه هو أنّه إذا أعطانى الله مالا وفيرا فانى سوف أساعدك، و هذا مفهوم خبرى يحتمل أن يكون صادقا أو كاذبا، فإذا كنت تعرف بخل المتمنى و ضيق نظره فأنت تعرف أنّه كاذب حتى إن أعطاه الله ما يشاء من المال (هذا الموضوع مشهور كثيرا فى الجمل الإنشائية).

٣- إنّ سبب ذكر الآيه أنّهم لو عادوا إلى الدنيا لعادوا إلى تكرار أعمالهم السابقه هو أن كثيرا من الناس عند ما يشاهدون نتائج أعمالهم بأعينهم، أى حينما يصلون إلى مرحله الشهود، يستنكرون ما فعلوا و يندمون آنيا و يتمنون لو يتاح لهم أن يجبروا ما كسروا، إلا أنّ هذه تمنيات عارضه تنشأ من مشاهدته نتائج الأعمال عيانا، و تعرض لكل إنسان يشهد بأمر عينه ما ينتظره من عذاب و عقاب، و لكن ما أن تغيب تلك المشاهد عن نظره حتى يزول تأثيرها عنه، و يعود إلى سابق عهده.

شأنهم فى ذلك شأن عبده الأصنام الذين دهمهم طوفان عظيم فى البحر و رأوا أنفسهم على عتبه الهلاك، ففسوا كل شىء سوى الله، و لكن ما أن هدأت العاصفه و وصلوا إلى ساحل الأمان حتى عاد كل شىء إلى ما كان عليه (١).

٤- ينبغى الالتفات إلى أنّ هذه الحالات تخص جمعا من عبده الأصنام الذين مرّت الإشارة إليهم فى الآيات السابقه لا كلهم، لذلك كان لا بدّ لرسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أن يواصل نصح الآخرين لإيقاظهم و هدايتهم.

ص: ٢٥٤

إشارة

وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَى إِذِذُوقُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فُوتْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا - سَاءَ مَا يَزُرُونَ (٣١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهُوَ وَ لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلَآ تَعْقِلُونَ (٣٢)

التفسير

إشارة

في تفسير الآية الأولى احتمالان:

الأول: أنها استئناف لأقوال المشركين المعاندين المتصلبين الذين يتمنون- عند ما يشاهدون أهوال يوم القيامة- أن يعودوا إلى دار الدنيا ليتلافوا ما فاتهم، و لكن القرآن يقول إنهم إذا رجعوا لا- يتجهون إلى جبران ما فاتهم، بل يستمرون على ما كانوا عليه، و أكثر من ذلك فإنهم يعودون إلى إنكار يوم القيامة وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (١).

الاحتمال الثاني: أن الآية تشرع بكلام جديد يخص نفرا من المشركين ممن

ص: ٢٥٥

كفروا بالمعاد كلياً، فقد كان بين مشركى العرب فريق لا يؤمنون بالمعاد، وفريق آخر يؤمنون بنوع من المعاد.

الآيه التاليه تشير إلى مصيرهم يوم القيامة، يوم يقفون بين يدى الله: **وَلَوْ تَرَىٰ إِذِذُ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ**، فيكون جوابهم أنهم يقسمون بأنه الحق: **قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا**.

عندئذ: **قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ** لا شك أن «الوقوف بين يدى الله» لا يعنى إن لله مكاناً، بل يعنى الوقوف فى ميدان الحساب للجزاء، كما يقول بعض المفسرين، أو أنه من باب المجاز، مثل قول الإنسان عند أداء الصلاه أنه يقف بين يدى الله و فى حضرته.

الآيه التى بعدها فيها، إشاره إلى خسران الذين ينكرون المعاد، فتقول: **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ**، إن المقصود بقاء الله هو- كما قلنا من قبل- اللقاء المعنوى و الإيمان الشهودى (الشهود الباطنى)، أو هو لقاء مشاهد يوم القيامة و الحساب و الجزاء.

ثم تبين الآيه أن هذا الإنكار لن يدوم، بل سيستمر حتى قيام يوم القيامة، حين يرون أنفسهم فجأه أمام مشاهده الرهيبه، و يشهدون بأعينهم نتائج أعمالهم، عندئذ ترتفع أصواتهم بالندم على ما قصرُوا فى حق هذا اليوم: **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا**.

و«الساعه» هى يوم القيامة، و«بغته» تعنى فجأه و على حين غره، إذ تقوم القيامة دون أن يعلم بموعدها أحد سوى الله تعالى، و سبب إطلاق «الساعه» على يوم القيامة إما لأن حساب الناس يجرى سريعاً فيها، أو للإشاره إلى فجائيه حدوث ذلك، حيث ينتقل الناس بسرعه خاطفه من عالم البرزخ إلى عالم القيامة.

و«التحسر» هو التأسف على شىء، غير أن العرب عند تأثرهم الشديد يخاطبون «الحسره» فيقولون: «يا حسرتنا»، فكأنهم يجسدونها أمامهم و يخاطبونها.

ثم يقول القرآن الكريم وَ هُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ .

«الأوزار» جمع «وزر» وهو الحمل الثقيل، وتعنى الأوزار هنا الذنوب، و يمكن أن تتخذ هذه الآية دليلا على تجسد الأعمال، لأنها تقول إنهم يحملون ذنوبهم على ظهورهم، و يمكن أيضا أن يكون الاستعمال مجازيا كناية عن ثقل حمل المسؤولية، إذ أنّ المسؤوليات تشبه دائما بالحمل الثقيل.

و فى آخر الآية يقول الله تعالى: أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ .

فى هذه الآية جرى الكلام على خسران الذين ينكرون المعاد، و الدليل على هذا الخسران واضح، فالإيمان بالمعاد، فضلا عن كونه يعد الإنسان لحياء سعيدة خالده، و يحثه على تحصيل الكمالات العلمية و العملية، فان له تأثيرا عميقا على وقاياه الإنسان من التلوث بالذنوب و الآثام، و هذا ما سوف نتناوله -إن شاء الله- عند بحث الإيمان بالمعاد و أثره البناء فى الفرد و المجتمع.

ثم لبيان نسبه الحياه الدنيا إلى الحياه الآخرة، يقول الله تعالى: وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ اِكْتَفَوْا بِهِذِهِ الْحَيَاةِ، وَ لَا يَطْلُبُونَ غَيْرَهَا، هُمْ أَشْبَهَ بِالْأَطْفَالِ الَّذِينَ يُوَدُّونَ أَنْ لَوْ يَقْضُوا الْعَمْرَ كُلَّهُ فِي اللَّعْبِ وَ اللَّهْوِ غَافِلِينَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ.

إن تشبيه الحياه الدنيا باللهو و اللعب يستند إلى كون اللهو و اللعب من الممارسات الفارغه السطحيه التى لا ترتبط بأصل الحياه الحقيقيه، سواء فاز اللاعب أم خسر، إذ كل شىء يعود إلى حالته الطبيعیه بعد اللعب.

و كثيرا ما نلاحظ أنّ الأطفال يتحلقون و يشرعون باللعب، فهذا يكون «أميرا» و ذاك يكون «وزيرا» و آخر «لصا» و رابع يكون «قافله»، ثم لا تمضى ساعه حتى ينتهى اللعب و لا يكون هناك «أمير» و لا «وزير» و لا «لص» و لا

«قافله»! أو كما يحدث في المسرحيات أو التمثيليات، فنشاهد مناظر للحرب أو الحب أو العداة تتجسد على المسرح، ثم بعد ساعه يتبدد كل شىء.

و الدنيا أشبه بالتمثيلية التى يقوم فيها الناس بتمثيل أدوار الممثلين، و قد تجتذب هذه التمثيلية الصبانيه حتى عقلاءنا و مفكرينا، و لكن سرعان ما تسدل الستاره و ينتهى التمثيل.

«لعب» على وزن «لزع» من «اللعب» على وزن «غبار» و هو الماء الذى يتجمع فى الفم و يسيل منه، فإطلاق لفظه «اللعب» على اللهو و التسليه جاء للتشابه بينه و بين اللعب الذى يسيل دون هدف.

ثم تقارن الآيه حياه العالم الآخر بهذه الدنيا، فتقول: **وَ لِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .**

فتلك حياه خالده لا- تفنى فى عالم أوسع و على أرفع، عالم يتعامل مع الحقيقه لا المجاز و مع الواقع، لا الخيال، عالم لا يشوب نعمه الألم و العذاب، عالم كله نعمه خالصه لا ألم فيه و لا عذاب.

و لكن إدراك هذه الحقائق و تمييزها عن مغريات الدنيا الخداعه غير ممكن لغير المفكرين الذين يعقلون، لذلك اتجهت الآيه إليهم بالخطاب فى النهايه.

فى حديث رواه هشام بن الحكم عن الامام موسى بن جعفر عليه السّلام قال: «يا هشام إنّ الله وعظ أهل العقل و رغبتهم فى الآخره فقال: **وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهُوَ وَ لِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١).**

غنى عن القول أنّ هدف هذه الآيات هو محاربه الانشداد بمظاهر عالم ماده و نسيان الغايه النهايه، أمّا الذين جعلوا الدنيا وسيله للسعاده فهم يبحثون- فى الحقيقه- عن الآخره، لا الدنيا.

ص: ٢٥٨

إشارة

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَ لَقَدْ كَذَّبْتَ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَيَّ مَا كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَ لَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ المرسلين (٣٤)

التفسير

إشارة

المصلحون يواجهون الصعاب دائما:

لا- شك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في نقاشاته المنطقية و محاوراته الفكرية مع المشركين المعاندين المتصلبين، كان يواجه منهم المعانده و اللجاجه و التصلب و التعنت، بل كانوا يرشقونه بتهمهم، و لذلك كله كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يشعر بالغم و الحزن، و الله تعالى في مواضع كثيرة من القرآن يواسى النبي صلى الله عليه وآله وسلم و يصبره على ذلك، لكي يواصل مسيرته بقلب أقوى و جأش أربط، كما جاء في هذه الآية: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ، فاعلم أنهم لا- ينكرونك أنت، بل هم ينكرون آيات الله، و لا يكذبونك بل يكذبون الله: فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَ لَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ .

و مثل هذا القول شائع بيننا، فقد يرى «رئيس» أن «مبعوثه» إلى بعض الناس عاد غاضبا، فيقول له: «هون عليك، فان ما قالوه لك إنما كان موجها إلي، و إذا

حصلت مشكله فأنا المقصود بها، لا أنت» و بهذا يسعى إلى مواساه صاحبه و التهوين عليه.

ثمّه مفسّرون يرون للآيه تفسيراً آخر، لكن ظاهر الآيه هو هذا الذى قلناه، و لكن لا بأس من معرفه هذا الاحتمال القائل بأن معنى الآيه هو: إنّ الذين يعارضونك هم فى الحقيقه مؤمنون بصدقك و لا- يشكون فى صحه دعوتك، و لكن الخوف من تعرض مصالحهم للخطر هو الذى يمنعهم من الرضوخ للحق، أو أنّ الذى يحول بينهم و بين التسليم هو التعصب و العناد.

يتبين من كتب السيره أنّ الجاهليين- بما فيهم أشدّ المعارضين للدّعوه- كانوا يعتقدون فى أعماقهم بصدق الدعوه، و من ذلك ما

روى أنّ رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم لقي أبا جهل فصافحه أبو جهل، فقيل له فى ذلك، فقال: و الله إنى لأعلم أنّه صادق، و لكننا متى كنّا تبعاً لعبد مناف! (أى أنّ قبول دعوته سيضطرنا إلى اتباع قبيلته).

و ورد فى كتب السيره أنّ أبا جهل جاء فى ليله متخفياً يستمع قراءة النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم، كما جاء فى الوقت نفسه أبو سفيان و الأحنس بن شريق، و لا يشعر أحد منهم بالآخر فاستمعوا إلى الصباح، فلما فضحهم الصبح تفرقوا، فجمعتهم الطريق، فقال كل منهم للآخر ما جاء به، ثمّ تعاهدوا أن لا يعودوا، لما يخافون من علم شبان قريش بهم لثلاث يفتتنوا بمجيئهم، فلما كانت الليله الثانيه جاء كل منهم ظاناً أنّ صاحبيه لا يجيئان لما سبق من العهود، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق مرّه ثانيه فتلاوموا، ثمّ تعاهدوا أن لا يعودوا، فلما كانت الليله الثالثه جاؤوا أيضاً، فلما أصبحوا تعاهدوا أن لا يعودوا لمثلها، ثمّ تفرقوا فلما أصبح الأحنس بن شريق أخذ عصاه ثمّ خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته، فقال: اخبرنى- يا أبا حنظله- عن رأيك فيما سمعت من محمّد؟ قال: يا أبا ثعلبه، و الله لقد سمعت أشياء أعرفها، و أعرف ما يراد بها، و سمعت أشياء، ما عرفت معناها و لا ما يراد بها.

قال الأحنس: و أنا و الذى حلفت به.

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمّد؟ قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد المناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا (أى أعطوا الناس ما يركبونه) فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثنا على الركب وكنّا كفرسى رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدق، فقام عنه الأحنس وتركه.

و روى أنّه التقى أحنس بن شريق، وأبو جهل بن هشام فقال له: يا أبا الحكم، اخبرني عن محمّد أصادق هو أم كاذب، فإنّه ليس هاهنا أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا، فقال أبو جهل: ويحك والله إنّ محمّداً لصادق وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والحجابه والسقايه والندوه والتبوه فما ذا يكون لسائر قريش؟! (1).

يتبين من هذه الروايات و أمثالها أنّ كثيراً من أعداء رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الألداء كانوا في باطنهم يعترفون بصدق ما يقول، إلا أنّ التنافس القبلي وما إلى ذلك، لم يكن يسمح لهم بإعلان ما يعتقدون، أو لم تكن لديهم الشجاعه على ذلك.

إننا نعلم أنّ مثل هذا الاعتقاد الباطني ما لم يصاحبه التسليم، لن يكون له أى أثر، ولا يدخل الإنسان في زمرة المؤمنين الصادقين.

الآيه الثانيه تستأنف مواساه الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وتبين له حال من سبقه من الأنبياء، وتؤكد له أنّ هذا ليس مقتصراً عليه وحده، فالأنبياء قبله نالهم من قومهم مثل ذلك أيضاً: وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ .

و لكنّهم صبروا و تحملوا حتى انتصروا بعون الله: فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَ هَذِهِ سَنَةٌ لِلَّهِ لَا قُدْرَةَ لِأَحَدٍ عَلَىٰ تَغْيِيرِهَا: وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ .

و عليه، فلا تجزع ولا تبتئس إذا ما كذبتك قومك و آذوك، بل اصبر على

ص: ٢٤١

١- ١) - الروايات المذكوره مستفاده من تفسير «المنار» و «مجمع البيان» في ذيل الآيه المذكوره.

معانده الأعداء و تحمل أذاهم، و اعلم أنّ الإمدادات و الألفاظ الإلهيه ستنزّل بساحتك بموجب هذه السنه، فتنصر في النهايه عليهم جميعا، و إنّ ما وصلك من أخبار الأنبياء السابقين عن مواجهتهم الشدائد و المصاعب و عن ثباتهم و صبرهم و انتصارهم في النهايه، لهو شهاده بينه لك: **وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلِينَ .**

تشير هذه الآيه-في الواقع- إلى مبدأ عام هو أنّ قاده المجتمع الصالحين الذين يسعون لهدايه الشعوب عن طريق الدعوه إلى مبادئ و تعاليم بناءه، و بمحاربه الأفكار المنحطه و الخرافات السائده و القوانين المغلوطة في المجتمع، يواجهون معارضه شديده من جانب فريق الانتهازيين الذين يرون في انتشار تلك التعاليم و المبادئ البناءه خطرا يتهدد مصالحهم، فلا يتركون و سيله إلاّ استخدموها لترويج أهدافهم المشؤومه، و لا- يتورعون حتى عن التوسل بالتكذيب و الاتهام، و الحصار الاجتماعى، و الإيذاء و التعذيب، و السلب و النهب، و القتل، و بكل ما يخطر لهم من سلاح لمحاربه أولئك المصلحين.

إلاّ أنّ الحقيقه، بما فيها من قوه الجاذبيه و العمق، و بموجب السنه الإلهيه، تعمل عملها و تزيل من الطريق كل تلك الأشواك، إلاّ أنّ شرط هذا الإنتصار هو الصبر و المقاومه و الثبات.

تعبّر هذه الآيه عن السنن بعبارته «كلمات الله»، لأنّ الكلم و الكلام في الأصل التأثير المدرك بإحدى الحاستين، السمع أو البصر، فالكلام مدرك بحاسه السمع، و الكلم بحاسه البصر، و كلمته: جرحته جراحه بان تأثيرها، ثمّ كان توسع في إطلاق «الكلمه» على الألفاظ و المعانى و حتى على العقيده و السلوك و السنه و التعاليم.

اشاره

وَإِنْ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦)

التفسير

اشاره

الأموات المتحركون:

هاتان الآياتن استمرار لمواساه النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي بدأت في الآيات السابقة لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يشعر بالحزن العميق لضلال المشركين وعنادهم، وكان يود لو أنه استطاع أن يهديهم جميعا إلى طريق الإيمان بآيه وسيله كانت.

فيقول الله تعالى: وَإِنْ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ (١). أى إذا كان إعراض هؤلاء المشركين يصعب و يثقل عليك، فشق أعماق الأرض أو ضع سلما يوصلك إلى السماء للبحث عن آيه- إن استطعت-و لكن اعلم أنهم مع ذلك لن يؤمنوا بك.

ص: ٢٦٣

(١- ١) -جملة فَإِنْ اسْتَطَعْتَ... جملة شرطية جوابها محذوف، تقديره «إن استطعت.. فافعل و لكنهم لا يؤمنون».

«النفق» فى الأصل «النقب» و هو الطريق النافذ، و السرب فى الأرض النافذ فيها، و منه النفاق، و هو الدخول فى الشرع من باب و الخروج عنه من باب، أى أنّ للمنافق سلوكا ظاهرا و آخر خفيا.

فى هذه الآيه يخبر الله نبيه بأن ليس فى تعليماتك و دعوتك و سعيك أى نقص، بل النقص فىهم لأنهم هم الذين رفضوا قبول الحق، لذلك فإنّ أى مسعى من جانبك لن يكون له أثر فلا تقلق.

و لكن لكيلا يظن أحد أنّ الله غير قادر على حملهم على التسليم يقول: **وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ** أى لو أراد حملهم على الاستسلام و الرضوخ لدعوتك و الإيمان بالله لكان على ذلك قديرا.

غير أنّ الإيمان الإجبارى لا طائل تحته، إنّ خلق البشر للتكامل مبنى على أساس حرية الإختيار و الإرادة، ففى حالة حرية الإختيار وحدها يمكن تمييز «المؤمن» من «الكافر»، و «الصالح» من «غير الصالح» و «المخلص» من «الخائن» و «الصادق» من «الكاذب». أمّا فى الإيمان الإجبارى فلن يكن ثمة اختلاف بين الطيب و الخبيث، و على صعيد الإجبار تفقد كل هذه المفاهيم معانيها تماما.

ثمّ يقول سبحانه لنبيه: **فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ**، أى لقد قلت هذا لثلاث تكون من الجاهلين، أى لا تفقد صبرك و لا تجزع، و لا يأخذك القلق بسبب كفرهم و شركهم.

و ما من شك أنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم كان يعلم هذه الحقائق و لكن الله ذكرها له من باب التطمين و تهدئة الروح، تماما كالذى نقوله نحن لمن فقد ابنه: لا تحزن فالدنيا فانيه، سنموت جميعا، و أنت ما تزال شابا و لسوف ترزق بابن آخر، فلا تجزع كثيرا.

فلا ريب أنّ فناء دار الدنيا، أو كون المصاب شابا ليسا مجهولين عنده،

و لكنها أمور تقال للتذكير.

على الرّغم من أنّ هذه الآيه من الآيات التى تنفى الإجبار و الإكراه، فإنّ بعض المفسّرين كالرّازى، يعتبرها من الأدله على «الجبر» و يستند إلى وَ لَوْ شَاءَ... و يقول: يتّضح من هذه الآيه أنّ الله لا يريد للكفار أن يؤمنوا! و لكنّه غفل عن أنّ الإراده و المشيئه فى هذه الآيه هما الإجباريتان، أى أنّ الله لا يريد الناس أن يؤمنوا بالإجبار و الإكراه، بل يريدهم أن يؤمنوا باختيارهم و إرادتهم، و عليه فإنّ هذه الآيه دليل قاطع يدحض مقوله «الجبريين».

فى الآيه التى تليها استكمال لما سبق و مزيد من المواساه للرسول الكريم صلّى الله عليه و آله و سلّم، فتقول الآيه إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ .

أما الذين هم فى الواقع أشبه بالأموات فإنهم لا يؤمنون حتى يبعثهم الله يوم القيامة: وَ الْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (١).

يومئذ، و بعد أن يروا مشاهد يوم القيامة يؤمنون، إلا أنّ إيمانهم ذاك لا ينفعهم شيئا، لأنّ رؤيه مناظر يوم القيامة العظيمة تحمّل كل مشاهد على الإيمان فيكون نوعا من الإيمان الاضطرارى.

و من نافله القول أنّ «الموتى» فى هذه الآيه لا- تشير إلى الموت الجسمانى فى الأفراد، بل الموت المعنوى، فالحياء و الموت نوعان: حياه و موت عضويان، و حياه و موت معنويان، كذلك أيضا السمع و البصر، عضويان و معنويان فكثير ما نصف المبصرين السامعين الأحياء الذين لا يدركون الحقائق بأنهم عمى أو صم أو حتى أموات، إذ إنّ رد الفعل الذى يصدر عاده من الإنسان الحى البصير السامع إزاء الحقائق لا يصدر من هؤلاء.

أمثال هذه التعبيرات كثيره فى القرآن، و لها عذوبه، و جاذبيه خاصه، بل إنّ

ص: ٢٦٥

١- (١) - من حيث الاعراب «الموتى» مبتدأ، و «يبعثهم الله» خبر، و معنى ذلك هو أنّ هؤلاء لا يطرأ على حالهم أى تغيير حتى يبعثهم الله يوم القيامة فيرون الحقائق.

القرآن لا- يعبر أهميه كبيره للحياه الماديه البايولوجيه التى تتمثل فى «الأكل و النوم و التنفس» و إنّما يعنى أشد العنايه بالحياه الإنسانيه المعنويه التى تتمثل فى تحمل التكليف و المسؤليه و الإحساس و اليقظه و الوعى.

لا- بدّ من القول أيضا: إنّ المعنوى من العمى و الصمم و الموت ينشأ من ذات الأفراد، لأنّهم-لاستمرارهم فى الإثم و إصرارهم عليه و عنادهم- يصلون إلى تلك الحاله.

إنّ من يغمض عينيه طويلا يصل إلى حاله يفقد فيها تدريجيا قوه البصر، و قد يبلغ به الأمر إلى العمى التام، كذلك الذى يغمض عين روحه عن رؤيه الحقائق طويلا يفقد بصيرته المعنويه شيئا فشيئا.

اشاره

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧)

التفسير

اشاره

تشير هذه الآيه إلى واحد من الأعذار التي يتذرع بها المشركون، فقد جاء في بعض الروايات أنه عند ما عجز بعض رؤساء قريش عن معارضة القرآن ومقابلته، قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كل هذا الذي تقوله لا فائده فيه، إذا كنت صادقاً فيما تقول: فأتنا بمعجزات كعصا موسى وناقه صالح، يقول القرآن بهذا الشأن:

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ

من الواضح أنّ أولئك لم يكونوا جادين في بحثهم عن الحقيقة، لأنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان قد جاء لهم من المعاجز بما يكفي، وحتى لو لم يأت بمعجز سوى القرآن الذي تحداهم في عدة آيات منه ودعاهم بصراحه إلى أن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك، لكان فيه الكفايه لإثبات نبوته، غير أنّ هؤلاء المزيفين كانوا يبحثون عن عذر يتيح لهم إهانته القرآن من جهه، و التملص من قبول دعوه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من جهه أخرى، لذلك كانوا لا يفتأون يطالبونه بالمعجزات، ولو أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استجاب لمطالبهم لأنكروا كل ذلك بقولهم هذا سحرٌ مُبينٌ .

كما جاء في آيات أخرى من القرآن، لذلك يأمر الله رسوله أن: قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً إِلَّا أَنْ فِي ذَلِكَ أَمْرًا أَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ، وهو أنه إذا حقق الله مطالبكم التي يدفعكم إليها عنادكم، ثم بقيتم على عنادكم ولم تؤمنوا بعد مشاهدتكم للمعجز، فسوف يقع عقاب الله عليكم جميعا، وتفنون عن آخركم، لأن ذلك سيكون منتهى الاستهتار بمقام الألوهية المقدس و بمبعوثه و آياته و معجزاته، ولهذا تنتهى الآية بالقول: وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

إشكال:

يتبين من تفسير «مجمع البيان» أن بعض مناوئى الإسلام قد اتخذوا من هذه الآية-منذ قرون عديده- دليلا يستندون إليه فى الزعم بأنه لم تكن لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أية معجزه، لأنه كلما طلبوا منه معجزه كان يكتفى بالقول: إن الله قادر على ذلك، و لكن أكثركم لا تعلمون، و هذا ما نهجه بعض الكتاب المتأخرين فأحيوا هذه الفكرة الباليه مره أخرى.

الجواب:

أولا: يبدو أن هؤلاء لم يمعنوا النظر فى الآيات السابقه و التالى لهذه الآية، و إلا لأدركوا أن الكلام يدور مع المعاندين الذين لا يستسلمون للحق مطلقا، و إن موقف هؤلاء هو الذى منع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم من إجابته طلبهم، فهل نجد فى القرآن أن طلاب الحقيقة سألوا الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أن يحقق لهم معجزه فامتنع؟ الآية (١١١) من هذه السوره نفسها تتحدث عن أمثال هؤلاء فتقول: وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَ حَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا .

ثانيا: تفيد الروايات أن هذا الطلب تقدم به بعض رؤساء قريش، و كان هدفهم من ذلك إهانته القرآن و الإعراض عنه، فمن الطبيعى أن لا يستجيب

رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم لطلب يكون دافعه بهذا الشكل.

ثالثاً: إنّ أصحاب هذا الإشكال قد أغفلوا سائر آيات القرآن الأخرى التي تصرّح بأنّ القرآن نفسه معجزه خالده، وكثيراً ما دعت المخالفين إلى معارضته، وأثبتت ضعفهم وعجزهم عن ذلك، كما أنّهم نسوا الآية الأولى من سورة الإسراء التي تقول بكل وضوح: إنّ الله أسرى بنيّه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في ليلة واحده.

رابعاً: ليس من المعقول أن يكون القرآن مليئاً بذكر معجز الأنبياء وحوارق عاداتهم ويدّعى النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم إنّ خاتم الأنبياء وأرفعهم منزله، وأنّ دينه أكمل من أديانهم ثمّ ينكص عن إظهار معجزه استجابته لطلب الباحثين عن الحقّ والحقيقه، أ فلا يكون هذا نقطه غامضه في دعوته في نظر المحايدون وطلاب الحقيقه؟ فلو لم تكن له أيه معجزه، لكان عليه أن يسكت عن ذكر معجز الأنبياء الآخرين لكي يتمكن من تمرير خطّته ويغلق طريق الاعتراض والانتقاد عليه، ولكنّه لا يفتأ يتحدث عن إعجاز الآخرين ويعدد حوارق العادات عند موسى بن عمران وعيسى بن مريم وإبراهيم وصالح ونوح عليهم السّلام، وهذا دليل بين على ثقته التامه بمعجزه، إنّ كتب التّاريخ الإسلامى والزوايات المعتمره ونهج البلاغه تشير بما يشبه التواتر إلى حوارق عادات رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم.

إشارة

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)

التفسير

لاتساع البحث حول هذه الآيه، سنبدأ بشرح ألفاظها، ثم نفسرها بصورة إجمالية، ثم نتناول سائر جوانبها بالبحث.

«الدابة» من «دب» و«الديب المشى الخفيف»، ويستعمل ذلك في الحيوان و الحشرات أكثر، وقد ورد في الحديث «لا يدخل الجنة ديبوب» وهو النمام الذي يمشى بين الناس بالنميمة.

«الطائر» كل ذى جناح يسبح فى الهواء، وقد يوصف بها بعض الأمور المعنوية التى تتقدم بسرعه و اندفاع، و الآيه تقصد الطائر الذى يطير بجناحيه.

«أمم» جمع أمه، و هى كل جماعه يجمعهم أمر ما، كالدين الواحد أو الزمان الواحد أو المكان الواحد.

«يحشرون» من «حشر» بمعنى «الجمع»، و المعنى الوارد فى القرآن يقصد به يوم القيامة، و خاصه لأنه يقول: إِلَىٰ رَبِّهِمْ .

هذه الآيه تستأنف ما جاء فى الآيات السابقه من الكلام مع المشركين و تحذيرهم من مصيرهم يوم القيامة، فتتحدث عن «الحشر» و بعث عام يشمل جميع الكائنات الحيه و الحيوانات، فتقول أولا: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ .

يُتَّضَح من هذا أنَّ فصائل الحيوان و الطيور أمم مثل البشر، غير أنَّ للمفسرين أقوالا مختلفه بشأن وجه الشبه فى هذا التمثيل.

بعض يقول: إنَّ التشابه يختص بأسرار خلقتها العجيبه التى تدل على عظمه الخالق سبحانه.

و بعض آخر يرى التشابه فى حاجاتها الحياتيه المختلفه و فى طرق سد تلك الحاجات و إشباعها.

و منهم من يعتقد أنَّ التشابه كائن فى تشابه الإدراك و الفهم و المشاعر، أى أنَّ للحيوان و الطير أيضا- إدراكه و مشاعره فى عالمه الخاص، و يعرف الله و يسبح له و يقدره بحسب طاقته، و إن تكن قوه إدراكه أدنى ممَّا فى الإنسان، ثمَّ إنَّ ذيل هذه الآيه- كما سيأتى بيانه- يؤيد هذا الرأى الأخير.

ثمَّ تقول الآيه: مَا فَزَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ .

لعل المقصود بالكتاب هو القرآن الذى يضم كل شىء (ممَّا يتعلق بتربيته الإنسان و هدايته و تكامله) بيينه مره بيانا عاما، كالحث على طلب العلم مطلقا، و مره بيانا تفصيليا كالكثير من الأحكام الإسلاميه و القضايا الأخلاقيه.

ثمَّ احتمال آخر يقول: إنَّ المقصود بالكتاب هو «عالم الوجود» إذ أنَّ عالم الخلقه مثل الكتاب الضخم، يضم كل شىء و لا ينسى شيئا.

ليس ثمَّ ما يمنع من أن تشمل الآيه كلا التفسيرين، فالقرآن لم يترك شيئا تربويا إلَّا و ذكره بين دفتيه، كما أنَّ عالم الخلقه يخلو من كل نقص و عوز.

و تختم الآيه بالقول: ثُمَّ إِلَيَّ رَجِعُهُمْ يُحْشَرُونَ .

يظهر أنّ ضمير(هم)يعود إلى الدواب و الطير على اختلاف أنواعها و أصنافها،أى أنّ لها-أيضا بعثا و نشورا،و ثوبا و عقابا،و هذا ما يقول به معظم المفسّرين،إلا أنّ بعض المفسّرين ينكرون هذا،و يفسّرون هذه الآيه و الآيات المشابهه تفسيرا آخر،كقولهم:إنّ معنى «الحشر إلى الله»هو الموت و الرجوع إلى نهايه الحياه (١).

ظاهر الآيه يشير-كما قلنا-إلى البعث و الحشر يوم القيامة.

من هنا تنذر الآيه المشركين و تقول لهم:إنّ الله الذى خلق جميع الحيوانات و وفر لها ما تحتاجه،و رعى كل أفعالها،و جعل لها حشرا و نشورا،قد أوجد لكم دون شك بعثا و قيامه،و ليس الأمر كما تقول تلك الفئه من المشركين من أنّه ليس ثمّه شىء سوى الحياه الدنيا و الممات.

ملاحظات:

إشاره

١-هل هناك بعث للحيوانات؟

ما من شك أنّ الشّروط الأوّل للمحاسبه و الجزاء هو «العقل و الإدراك» و يستتبعهما(التكليف و المسؤوليه).

يقول أصحاب هذا الرأى:إنّ لديهم ما يثبت أنّ للحيوانات إدراكا و فهما بمقدار ما تطيق،و من ذلك أنّ حياه كثير من الحيوانات تجرى وفق نظام دقيق و مثير للعجب،و يدلّ على ارتفاع مستوى إدراكها و فهمها،فمن ذا الذى لم يسمع بالنمل و النحل و تمدّنها العجيب و نظامها المحير فى بناء بيوتها و خلاياها،و لم يستحسن فهمها و إدراكها؟فعلى الرغم من أنّ بعضهم يعزوا ذلك كله إلى نوع من

ص: ٢٧٢

(١-١) -نقل هذا الاحتمال صاحب المنار عن ابن عباس.

الإلهام الغريزي، فليس ثمّة دليل على أنّ هذه الأعمال تجرى بصورة غريزيه لا عقلية.

ما الدليل على أنّ هذه الأعمال-حسبما يدل ظاهرها-ليست ناشئه عن تعقل و إدراك؟ كثيرا ما يحدث أنّ الحيوان يبتكر-استجابته لظرف من الظروف- شيئا لم يسبق له أن مرّ به و جربه، فالشاه التي لم يسبق لها أن رأت ذئبا في حياتها تفرغ منه أوّل ما تراه و تدرك خطره عليها، و تتوسل بكل حيله لدرء خطره عنها.

إنّ العلاقه التي تتكون بين الحيوان و صاحبه تدريجيا دليل آخر على هذا الأمر، فكثير من الكلاب المفترسه الخطره تعامل أصحابها-بل و حتى أطفالهم- كما يعاملهم الخادم العطوف.

و يحكى الكثير عن وفاء الحيوانات و عن تقديمها كثيرا من الخدمات الإنسانيه و لا شك أنّ هذه أمور ليس من السهل اعتبارها ناشئه بدافع الغريزه، إذ إنّ الغريزه تنشأ عنها أعمال رتيبه من طراز واحد باستمرار، أمّا الأعمال التي تقع في ظروف خاصه كردود فعل لحوادث طارئه غير متوقعه، فهذه تكون إلى التعقل و الإدراك أقرب منها إلى الغريزه.

نشاهد اليوم أنّ حيوانات مختلفه يجرى تدربها لأغراض متنوعه، فالكلاب البوليسيه تدرب للقبض على المجرمين، و الحمام الزاجل لنقل الرسائل، و حيوانات أخرى ترسل لابتياح بعض الحوائج من السوق، و حيوانات أخرى للصيد، و هي كلها تؤدي مهماتها بكل دقه و إتقان (حتى أنّهم افتتحوا مؤخرا مدارس خاصه لتعليم مختلف الحيوانات)! فضلا عن ذلك كلّه، فإنّ هناك بعض الآيات التي تدل-بوضوح-على أنّ للحيوانات فهما و إدراكا، من ذلك حكاية هروب النمل من أمام جيش سليمان، و حكاية ذهاب الهدهد إلى منطقته سبأ باليمن و رجوعه بأخبار مثيره لسليمان.

ثمّة أحاديث إسلاميه كثيره حول بعث الحيوانات، من ذلك ما

روى عن

ص: ٢٧٣

أبي ذر قال: بينا أنا عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إذ انتطحت عنزان، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ «أ تدرُونَ فيما انتطحتا؟» فقالوا: لا ندرى، قال: «و لكن الله يدرى و سيقضى بينهما» (١).

و

في روايه بطرق أهل السنه عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في تفسير هذه الآية أنه قال: «إنه يحشر هذه الأمم يوم القيامة و يقتص من بعضها لبعض حتى يقتص للجماء من القرناء» (٢).

و في الآية (٥) من سوره التكوير يقول سبحانه: وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَ هِيَ دليـل آخر على ذلك.

٢- الحشر و التكليف:

تطرح هنا مسأله يتوقف فهم الآية عليها، و هي هل أن مقوله تكليف الحيوانات معقوله، مع أن من شروط التكليف العقل، و لهذا لا يكون الطفل و المجنون مكلفين؟ فهل للحيوانات ذلك العقل الذي يؤهلها للتكليف؟ و هل يمكن أن نعتبر الحيوان أكثر عقلا و إدراكا من الصبي غير البالغ و من الجنون؟ فإذا لم يكن له مثل هذا العقل و الإدراك، فكيف يجوز أن يكلف، و بأي تكليف؟ للجواب على هذه السؤال نقول: إن للتكليف مراحل و درجات، و كل مرحله تناسب درجه معينه من العقل و الإدراك، و إن التكليف الكثيره المفروضه في القوانين الإسلاميه على الإنسان تتطلب مستوى رفيعا من العقل و الإدراك لإنجازها، و لا يمكن أن نفرض مثل تلك التكليف على الحيوانات طبعاً، لأن الشرط المطلوب لإنجازها غير متوفر في الحيوانات، إلا أن مرحله من التكليف

ص: ٢٧٤

١-١) - تفسير مجمع البيان، و نور الثقلين في تفسير الآية المذكوره.

٢-٢) - تفسير المنار، ذيل الآية، و الجماء عكس القرناء: الحيوان الفاقد للقرن.

البسيطة التي يكفى لها ما يناسبها من الفهم و الإدراك يمكن تصورها و قبولها فى الحيوان و لا يمكن إنكارها، بل من الصعب أن نرفض كل تكليف بشأن الأطفال و المجانين القادرين على فهم بعض المسائل، فالصبي الذى لم يبلغ سن الرشد - كأن يكون عمره ١٤-سنة مثلا- لو ارتكب جريمة قتل، و هو عالم بكل أضرار هذا العمل، فلا يمكن اعتباره بريئا، و القوانين الجزائية فى العالم تضع عقوبات على بعض جرائم الأطفال غير البالغين، و إن كانت العقوبات أخف طبعاً.

و عليه، فإنّ البلوغ و اكتمال العقل من شروط التكليف فى المراحل العليا المتكامله، أمّا فى المراحل الأدنى، أى فى الذنوب التى لا يخفى قبحها حتى على من هم أدنى مرتبه، فإن البلوغ و التكامل العقلى ليسا شرطاً لازماً.

فإذا أخذنا اختلاف مراحل التكليف و اختلاف مراتب العقل بنظر الاعتبار، يمكن حل قضيه الحيوانات أيضاً بهذا الشأن.

٣- هل تدل هذه الآيه على التناسخ؟

من العجيب أن بعض مؤيدى فكره «التناسخ» الخرافيه يتخذون من هذه الآيه دليلاً على صحه فكرتهم، و يقولون: يفهم من الآيه أنّ الحيوانات أمم مثلكم، مع أنّنا نعلم أنّها ذاتيا ليست مثلنا، فيمكن إذن القول بأن أرواح البشر التى تفارق أبدانها تحل فى أبدان الحيوانات، و بهذا الشكل تنال الأرواح المذبذبه العقاب.

و لكن على الرغم من أنّ فكره التناسخ تناقض «قانون التكامل» و لا- تتفق مع منطق العقل، و تستوجب إنكار «المعاد» (كما سبق شرحه فى موضعه)، فإنّ هذه الآيه لا تدل على التناسخ مطلقاً، إذ إنّ المجتمعات الحيوانيه - كما قلنا - تشبه المجتمعات البشريه، و هو شبه بالفعل لا بالقوه، لأنّ للحيوانات نصيبها من الفهم

و الإدراك، و نصيبها من المسؤوليه أيضا، و من ثم نصيبها من البعث و الحساب، أنّها تشبه الإنسان في هذه الحالات.

ينبغي أن نعرف أنّ التكاليف و المسؤوليات الملقاه على الحيوانات في مرحله خاصّه لا تعنى أنّ لها إماما و قائدا و شريعته و ديننا كما ذهب إليه بعض أصحاب التصوف، فهي لا يقودها سوى إدراكها الباطني، أي أنّها تدرك بعض الأمور، فتكون مسئوله عنها بقدر إدراكها لها.

ص: ٢٧٤

اشاره

وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُومٌ وَ بُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَ مَنْ يَشَأِ يُجْعَلُهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩)

التفسير

اشاره

الصوم و البكم:

مره أخرى يعود القرآن ليتطرق إلى المنكرين المعاندين، فيقول: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُومٌ وَ بُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ فهم لا يملكون آذاناً صاغية لكي يستمعوا إلى الحقائق، و لا ألسناً ناطقه بالحقّ توصل إلى الآخرين ما يدركه الإنسان من الحقائق، و لما كانت ظلمات الأنانيه و عباده الذات و المعانده و الجهل تحيط بهم من كل جانب، فهم لا يستطيعون رؤيه وجه الحقيقه، و لذلك فهم محرومون من النعم الثلاث التي تربط الإنسان بالعالم الخارجى (أى السمع و البصر و النطق).

يرى بعض المفسرين أنّ المقصود بالصوم هم المقلدون الذين يتبعون قاداتهم الضالين دون اعتراض، و يصمون آذانهم عن سماع دعوات الهداه الإلهيين، و إنّ المقصود بالبكم هم أولئك القاده الضالون الذين يدركون الحقائق جيداً، و لكنهم حفاظاً على مصالحهم و مراكزهم الدنيويه-يكمون أفواههم، و لا ينطقون بالحقّ،

فكلا الفريقين غريقان في ظلمات الجهل و عباده الذات (١).

و بعد ذلك يقول القرآن الكريم: مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَ مَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

سبق أن قلنا إنَّ نسبة الهدايه و الضلاله إلى مشيئه الله و إرادته نسبه تفسرها آيات أخرى في القرآن يقول سبحانه: يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ و يقول: وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ و فى موضع آخر يقول: وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا يَتَّضِحُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ وَ غيرها من الآيات القرآنيه أنَّ الهدايه و الضلاله اللتين تنسبان فى هذه الحالات إلى مشيئه الله إنّما هما فى الحقيقه ثواب الله و عقابه لعباده على أفعالهم الحسنه أو السيئه.

و بعبارة أخرى:قد يرتكب الإنسان أحيانا إثما كبيرا يؤدي به إلى أن يحيط بروحه ظلام مخيف،فتفقد عينه القدره على رؤيه الحق،و تفقد أذنه القدره على سماع صوت الحق، و يفقد لسانه القدره على قول الحق.

و قد يكون الأمر على عكس ذلك،أى قد يعمل الإنسان أعمالا- صالحات كثيرة بحيث أن عالما من النور و الضوء يشع فى روحه،فيتسع بصره و بصيرته، و تزداد أفكاره إشعاعا،و يكون لسانه ابلغ فى إعلان الحق،ذلكم هو مفهوم الهدايه و الضلاله اللتين تنسبان إلى إرادته الله و مشيئته.

ص: ٢٧٨

إشاره

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرِ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١)

التفسير

إشاره

التوحيد الفطري:

يعود الكلام مره أخرى إلى المشركين، و يدور الاستدلال حول وحدانيه الله و عباده الواحد الأحد عن طريق تذكيرهم باللحظات الحرجه و المؤلمه التي تمر بهم في الحياه، و يستشهد بضمايرهم، فهم في مثل تلك المواقف ينسون كل شىء، و لا يجدون غير الله ملجأ لهم.

يأمر الله سبحانه نبيه أن: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرِ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤١).

ص: ٢٧٩

١ - ١) - يقول علماء العربيه: إن «ك» في «أ رأيتك» و «كم» في «أ رأيتكم» ليستا اسما و لا- ضميرا، و لكنهما حرفا خطاب يفيدان التوكيد، و الفعل في مثل هذه الحالات يكون مفردا إنما الافراد و الشنيه و الجمع تظهر على حرف الخطاب هذا، ففي «أ رأيتكم» المخاطبون جماعه و لكن الفعل «رأيت» مفرد، و «كم» هو الذى يدل على أن المخاطبين جماعه، و قيل: أن هذا التعبير من حيث

الحاله النفسيه التي تصوورها هذه الآيه لا تنحصر في المشركين، بل في كل إنسان حين يتعرّض إلى الشده و حوادث الخطر و قد لا- يلجأ الإنسان في الحوادث الصغيره و المألوفه إلى الله، إلا أنه في الحوادث الرهيبه و المخيفه ينسى كل شيء و إن ظل في أعماقه يحس بأمل في النجاه ينبع من الإيمان بوجود قوه غامضه خفيه، و هذا هو التوجه إلى الله و حقيقه التوحيد.

حتى المشركون و عبده الأصنام لا- يخطر لهم التوسل بأصنامهم، بل ينسونها في مثل هذه الظروف تماما، فتقول الآيه: **بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَ تَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ** .

بحوث

هنا يحسن الالتفات إلى النقاط التاليه:

١- إن الاستدلال المطروح في هاتين الآيتين هو الاستدلال على التوحيد الفطري الذي يمكن الاستفادة منه في مبحثين: الأول: في إثبات وجود الله، و الثاني: في إثبات وحدانيته، لذلك استشهدت الروايات الإسلاميه و العلماء المسلمون بهاتين الآيتين للرد على منكري وجود الله، و كذلك للرد على المشركين.

٢- من الملاحظ أن الاستدلال المذكور تطرق إلى (قيام الساعه)، و قد يقال:

إن المخاطبين لا يؤمنون بالقيامه أصلا، فكيف يمكن طرح مثل هذا الاستدلال أمام هؤلاء؟

(١)

المعنى يساوى قولك: (أخبرني) أو (أخبروني)، و لكن الحق أن الجملة تحتفظ بمعناها الاستفهامي، و (أخبروني) ملازم للمعنى، لا المعنى نفسه، و المعنى يساوى «أعلمتم»؟

ص: ٢٨٠

نقول أولاً: إنَّ هؤلاء لم يكونوا جميعاً ينكرون يوم القيامة، فقد كان فريق منهم يؤمنون بنوع من البعث.

و ثانياً: قد يكون المعنى بالساعة هي ساعه الموت، أو الساعه الرهيبه التى تنزل فيها على الإنسان مصيبه تضعه على شفا الهلاك.

و ثالثاً: قد يكون هذا تعبيراً مجازياً عن الحوادث المخيفه، فالقرآن يكرر القول بأنَّ يوم القيامة يقترن بسلسله من الحوادث المروعه، كالزلازل و العواصف و الصواعق و أمثالها.

٣- إننا نعلم أنَّ يوم القيامة و ما يصحبه من وقائع و أمور حتميه الوقوع، و لا- يمكن تغييرها إطلاقاً، فكيف تقول الآيه: بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ۗ فَهَلْ الْقَصْدُ هُوَ إِظْهَارُ قَدْرِهِ اللَّهُ، أَمْ أَنَّ هُنَاكَ قَصْدٌ آخَرَ؟ فى جواب هذا السؤال نقول: لا يعنى هذا أنَّ الله سوف يلغى بالدعاء البعث و قيام الساعه أصلاً، بل الآيه تقصد القول بأنَّ المشركين- و حتى غير المشركين عند مشاهدتهم الحوادث الرهيبه عند قيام الساعه و بالأهوال و العذاب الذى ينتظرهم، يستولى عليهم الفزع و الجزع، فيدعون الله ليخفف عنهم تلك الأهوال، و ينجيهم من تلك الأخطار، فدعاؤهم يكون لنجاتهم من أهوال يوم القيامة الرهيبه، لا للإلغاء ذلك اليوم من الأساس.

إشارة

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذِ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَن كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥)

التفسير

إشارة

مصير الذين لا يعتبرون:

تواصل هذه الآيات توجيه الكلام للضالين و المشركين، و يتخذ القرآن فيها طريقا آخر لا يقاظهم و ذلك بأن ينقلهم إلى القرون السالفة و الأزمان الماضية، يشرح لهم حال الأمم الضالة و الظالمة و المشركه، و يبين لهم كيف أتيح لها جميع عوامل التربيه و التهذيب و الوعي، غير أن جمعا منهم لم يلقوا بالا إلى أى من تلك العوامل، و لم يعتبروا بما حاق بهم من (بأساء) و (ضراء) (١)

ص: ٢٨٢

١ - ١) - «البأساء» الشده و المكروه، و تطلق على الحرب أيضا، و كذلك القحط و الجفاف و الفقر، أما «الضراء» فأكثر ما تعنى العذاب

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ

أما كان من الأجدد بهؤلاء أن يستيقظوا عند ما جاءهم البأس و أحاطت بهم الشدائد؟! فَلَوْ لَا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَشْيَانَا تَضَرَّعُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَيْقِظُوا، و لذلك سببان:

الأول: إنهم لكثرة آثامهم و عنادهم في الشرك زابت الرحمة قلوبهم و الليونة أرواحهم: وَ لَكِنَّ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ .

و الثاني: إنَّ الشيطان قد استغل عبادتهم أهواءهم فزَيَّن في نظرهم أعمالهم، فكل قبيح ارتكبه أظهره لهم جميلاً، و لكل خطأ فعلوه جعله في عيونهم صواباً:

و زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

ثم تذكر الآيه الثانيه أنه لما لم تنفع معهم تلك المصائب و المشاكل و الضغوط عاملهم الله تعالى بالعطف و الرحمة، ففتح عليهم أبواب أنواع النعم، لعلهم يستيقظون و يلتفتون إلى خالقهم الذى وهب لهم كل تلك النعم، و يشخصوا الطريق السوى: فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .

إلا- أن هذه النعم كانت فى الواقع ذات طابع مزدوج، فهى مظهر من مظاهر المحبّه التى تستهدف إيقاظ النائمين، و هى كذلك مقدمه لنزول العذاب الأليم إذا استمرت الغفله، و الذى ينغمس فى النعمه و الرفاهيه، يشتد عليه الأمر حين تؤخذ منه هذه النعم فجأه، بينما لو أخذت منه بالتدرج، فلا يكون وقع ذلك عليه شديداً، و لهذا يقول إننا أعطيناهم الكثير من النعم حتى إذا فرحوا بما أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَعْتَهُ فَاذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (١) .

و هكذا استوصلت جذور أولئك الظلمه و انقطع نسلهم:

(١)

الروحي، كالهم و الغم و الاكتئاب و الجهل، أو الآلام الناشئه عن الأمراض أو فقدان مال أو مقام. و لعل الاختلاف بين معنى اللفظتين ناشئ عن أن «البأساء» تشير إلى المكروه الخارجى و «الضراء» تشير إلى المكروه الداخلى، النفسى أو الروحي، و على هذا تكون «البأساء» من عوامل إيجاد «الضراء» فتأمل بدقه!

ص: ٢٨٣

(١ - ١) - «الإبليس» الحزن المعترض من شدة التألم بسبب كثرة المنغصات المؤلمه، و منها اشتقت كلمه «إبليس»، و هى هنا تدل

على شدة الغم و الهم اللذين يصيبان المذنبين يومئذ.

و«الدابر» بمعنى المتأخر و التابع.

و لما كان الله قد وفَّ لهؤلاء كل وسائل التربيه و لم يبخل عليهم بأى شىء منها، لذلك فإنَّ الحمد يختص بالله الذى يربى أهل الدنيا كافه وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

ملاحظات:

لا بدَّ هنا من التنبه إلى بضع نقاط:

١- قد يبدو لبعضهم أنَّ هذه الآيات تتعارض مع الآيات السابقه، فقد بينت الآيات السابقه أنَّ المشركين إذا هاجمتهم المصاعب و الشدائد يتوجهون إلى الله و ينسون كل ما عداه، و لكن هذه الآيات تقول: إنَّ هؤلاء لا يستيقظون حتى بعد تعرضهم للمنغصات الشديده.

هذا التباين الظاهرى يزول إذا انتبهنا إلى النقطه التاليه، و هى أنَّ اليقظه الخاطفه المؤقته عند ظهور الشدائد لا- تعتبر يقظه حقيقه، لأنهم سرعان ما يعودون إلى الغفله السابقه.

فى الآيات السابقه كان الكلام عن التوحيد الفطرى، فكان التيقظ و التوجه العابر و نسيان كل شىء سوى الله فى تلك اللحظات الحساسه ما يكفى لإثبات ذلك، أمَّا فى هذه الآيات فالكلام يدور عن الاهتداء و الرجوع عن الضلال إلى الطريق المستقيم، لذلك فإنَّ اليقظه العابره المؤقته لا تنفع شيئاً.

قد يتصور أنَّ الاختلاف بين الموضوعين هو أنَّ الآيات السابقه تشير إلى المشركين الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و الآيات التى بعدها تشير إلى الأقوام

السابقين، و لذلك لا تعارض بينهما (١).

و لكن من المستبعد جدًا أن يكون المشركون المعاندون المعاصرون لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ خيرا من الضالين السابقين، و عليه فلا حلّ للإشكال إلا بما قلناه.

٢-نقرأ في هذه الآيات أنه عند ما لم يكن لابنائهم بالشدائد تأثير في توعيتهم، فإنَّ الله يفتح أبواب الخيرات على أمثال هؤلاء الآثمين، فهل هذا ترغيب بعد المعاقبه، أم هو مقدمه لعقاب أليم؟ أى: هل هذه النعم نعم استدراجيه، تغمر المتمرد تدريجيا بالرفاهيه و التنعم و السرور...تغمره بنوع من الغفله، ثم ينتزع منه كل شىء دفعه واحده؟ ثمَّ قرائن فى الآيه تؤيد الاحتمال الثانى، و لكن ليس هناك ما يمنع من قبول الاحتمالين، أى أنه ترغيب و تحريض على الاستيقاظ، فإن لم يؤثر، فمقدمه لسلب النعمه و من ثمَّ إنزال العذاب الأليم.

جاء فى حديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ قوله: «إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج» ثم تلى الآيه فلَمَّا نَسُوا... (٢).

و

فى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السَّلام قال: «يا ابن آدم، إذا رأيت ربك سبحانه يتابع عليك نعمه و أنت تعصيه فاحذره» (٣).

و

فى كتاب (تلخيص الأقوال) عن الإمام الحسن العسكرى عليه السَّلام قال: «إنَّ قبر مولى أمير المؤمنين على عليه السَّلام أدخل على الحجاج، فقال: ما الذى كنت تلى من على بن أبى طالب؟ قال: كنت أوضيه، فقال له: ماذا يقول إذا فرغ من وضوئه؟ فقال: كان يتلو هذه الآيه: فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ، فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ،

ص: ٢٨٥

١-١) -يشير الفخر الرازى فى تفسيره إلى هذه الاختلاف فى ج ١٢، ص ٢٢٤.

٢-٢) -تفسير مجمع البيان و تفسير نور الثقلين، ذيل الآيه.

٣-٣) -نهج البلاغه، الكلمه ٢٥.

فقال الحجاج: أظنّه كان يتأولها علينا؟! قال: نعم» (١).

٣- يتّضح من هذه الآيات أنّ هدف الكثير من الحوادث المؤلمة هو الإيقاظ و التوعيه، و هذا جانب من فلسفه «المصائب و الآفات» التي تحدثنا بشأنها في بحث التوحيد، و لكن الملفت للنظر هو أنّه يبدأ الموضوع بكلمه «لعل»، و ذلك لأنّ نزول البلاء وحده لا يكفي للإيقاظ، بل هو تمهيد للقلوب المستعده (سبق أن قلنا أنّ «لعل» في كلام الله تستعمل حيثما تكون هناك شروط أخرى).

هنالك أيضا كلمه «تضرع» التي تعنى أصلا نزول اللبن في الثدي و استسلامه للرضيع، ثمّ انتقل المعنى إلى الاستسلام مع الخضوع و التواضع، أي أنّ تلك الحوادث الشديده تهدف إلى إنزالهم عن مطيه الغرور و التمرد و الأنانيه، و الاستسلام لله.

٤- ممّا يلفت النظر اختتام الآيه بقول: **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** و هذا دليل على أنّ استئصال جذور الظلم و الفساد و القضاء على شأفه الذين يمكن أن يواصلوا هذا الأمر من الأهميه بحيث يستوجب الحمد لله.

في حديث ينقله فضيل بن عياض عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «من أحبّ بقاء الظالمين فقد أحبّ أن يعصى الله، إنّ الله تبارك و تعالى حمد بنفسه بهلاك الظلمه فقال: **فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** .

ص: ٢٨٤

١- (١) - نور الثقلين، ج ١، ص ٧١٨.

إشاره

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَيِّمِعُكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ (٤٧) وَ نَزَّلْنَا الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَ أَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩)

التفسير

إشاره

أعرفوا واهب النعم!

الخطاب ما يزال موجهًا إلى المشركين.

في هذه الآيات حثٌ استدلالى على إيقاظهم ببيان آخر يعتمد غريزه دفع الضرر، فيبدأ بالقول: إنه إذا سلب منكم الله النعم الثمينه التي وهبها لكم، مثل السمع و البصر، و أغلق على قلوبكم أبواب التمييز بين الحسن و السىء، و الحق الباطل، فمن يا ترى يستطيع أن يعيد إليكم تلك النعم؟ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ

سَمِعَكُمْ وَ أَبْصَارَكُمْ وَ خَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ .

فى الواقع، كان المشركون أنفسهم يعتقدون أنّ الخالق و الرازق هو الله، و كانوا يعبدون الأصنام للاستشفاع بها عند الله.

و القرآن يحثهم على الاتجاه المباشر نحو الله مصدر كل الخيرات و البركات بدل الاتجاه إلى أصنام لا قيمه لها.

و إضافه إلى ما كان يحمله عبده الأصنام من اعتقاد بالله، فإنّ القرآن استجوب عقولهم هنا لإبداء رأيها و حكمها فى أمر أصنام لا تملك هى نفسها عينا و لا أذنا و لا عقلا و لا شعورا، فهل يمكنها أن تهب أمثال هذه النعم للآخرين؟! ثم تقول الآيه: انظر إلى هؤلاء الذين نشرح لهم الآيات و الدلائل بمختلف الوسائل، و لكنهم مع ذلك يعرضون عنها: أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَيِّرُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصُدُّونَ .

و فيما يتعلق بمعنى «ختم» و سبب ورود «سمع» بصيغه المفرد، و «أبصار» بصيغه الجمع فى القرآن راجع المجلد الاوّل من هذا التفسير، (٩٢).

«نصرف» من «التصريف» بمعنى «التغيير»، و الكلمه هنا تشير إلى مختلف الاستدلالات فى صور متنوعه.

و «يصدفون» من «صدف» بمعنى «الجانب» و «الناحية» أى أنّ المعرض عن شىء يدير وجهه إلى جانب أو ناحيه أخرى.

و هذه الكلمه تستعمل بمعنى الإعراض أيضا، و لكنه «الإعراض الشديد» كما يقول الراغب الأصفهانى.

تشير الآيه الثانيه، بعد ذكر هذه النعم الثلاث «العين و الأذن و الإدراك» التى هى منبع جميع نعم الدنيا و الآخره- إلى إمكان سلب هذه النعم كلها دفعه واحده، فتقول: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَعْتَهُ أَوْ جَهْرَهُ هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ

«بغته» بمعنى «فجأه» و«جهره» بمعنى «الظاهر» و العلانيه، و المؤلف استعمال «سراً» في مقابل «جهره» لا «بغته»، و لكن لما كانت مقدمات العمل المباغت خافيه غالباً، إذ لو لا خفاؤه لما كان مباغتا، فإن في «بغته» يكمن معنى الخفاء و السريه أيضا.

و القصد هو أنّ القادر على إنزال مختلف العقوبات، و سلب مختلف النعم هو الله وحده، و إنّ الأصنام لا دور لها في هذا أبداً، لذلك ليس ثمه ما يدعو إلى اللجوء إليها، لكن الله لحكمته و رحمته لا يعاقب إلا الظالمين.

و من هذا يستفاد أنّ للظلم معنى واسعاً يشمل أنواع الشرك و الذنوب، بل إنّ القرآن يعتبر الشرك ظلماً عظيماً، كما قال لقمان لابنه: لا تُشرك بالله إنّ الشرك لظلمٌ عظيمٌ (٢).

الآيه الثالثه تشير إلى مركز الأنبياء، فتقول: ليست الأصنام العديمه الروح هي وحدها العاجزه عن القيام بأى أمر، فإن الأنبياء العظام و القاده الإلهيين أيضا لا عمل لهم سوى إبلاغ الرساله و الإنذار و التبشير، فكل ما هنالك من نعم إنّما هي من الله و بأمره، و أنّهم إن أرادوا شيئاً طلبوه من الله: و ما نرسل المرسلين إلا مبشرين و منذرين .

و الاحتمال الآخر في ربط هذه الآيه بالآيات السابقه هو أنّ تلك الآيات كانت تتكلم عن البشاره و الإنذار، و هنا يدور القول على أنّ هذا هو هدف بعثه الأنبياء، فهم مبشرون و منذرون.

ثمّ تقول: إنّ طريق النجاه ينحصر في أمرين، فالذين يؤمنون و يصلحون

ص: ٢٨٩

١ - ١) - شرحنا معنى «أرأيتكم» عند تفسير الآيه ٤٠ من هذه السوره و قلنا: ليس هناك ما يدعو إلى اعتبار المعنى «أخبروني» بل

المعنى هو «أعلمتم»؟

٢ - ٢) - لقمان، ١٣.

أنفسهم و يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ فلا خوف عليهم من العقاب الإلهي، ولا حزن على أعمالهم السابقة. فَمَنْ آمَنَ وَ أَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

أما أولئك الذين لا يصدقون بآياتنا، بل يكذبون بها فإنَّ عقابهم على فسقهم و عصيانهم عذاب من الله: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .

من الجدير بالانتباه أنَّ الآية ذكرت عقاب الذين يكذبون بآيات الله بعبارة يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ، فكأنَّ هذا العقاب يطاردهم في كل مكان حتى يشملهم بأشد ما يكون من العذاب.

كذلك ينبغي القول أنَّ لكلمه «فسق» معنى واسعاً أيضاً، يشمل كل أنواع العصيان و الخروج عن طاعة الله و عبوديته و حتى الكفر في بعض الأحيان، و هذا المعنى هو المقصود في هذه الآية، لذلك لا محل للبحوث التي عقدها الفخر الرازي و مفسِّرون آخرون بشأن معنى «الفسق» و شمولها الذنوب، و من ثمَّ الدفاع عن ذلك.

اشاره

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن آتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ لَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)

التفسير

اشاره

معرفة الغيب:

هذه الآيه استمرار للردّ على اعتراضات الكفار و المشركين المختلفه،و الرد يشمل ثلاثه أقسام من تلك الاعتراضات فى جمل قصيره:

الأول: هو أنّهم كانوا يريدون من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم القيام بمعجزات عجيبه و غريبه،و كان كل واحد يتقدم باقتراح حسب رغبته،بل إنّهم لم يكونوا يقنعون بمشاهده معجزات طلبها آخرون،فمرّه كانوا يطلبون بيوتا من ذهب،و مرّه يريدون هبوط الملائكه،و مرّه يريدون أن تتحول أرض مكّه القاحله المحرقه إلى بستان مليء بالمياه و الفواكه و غير ذلك ممّا كانوا يطلبونه من النّبي صلى الله عليه و آله و سلم،ممّا سيأتى شرحه فى تفسير الآيه (٩٠) من سوره الإسراء.

و لعلمهم بطلباتهم الغريبه تلك كانوا يتوقعون أن يروا للنّبي مقام الألوهيه و امتلاك الأرض و السماء،فللردّ على هؤلاء يأتى الأمر من الله: قُلْ لَا أَقُولُ

«الـخزائن» جمع الخزينه، بمعنى المكان الذى تخزن فيه الأشياء التى يراد حفظها و إخفاؤها عن الآخرين، و استنادا إلى الآية: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (١) يتضح أن «خزائن الله» تشمل مصدر و منبع جميع الأشياء، و هى فى الحقيقه تستقى من ذات الله اللامتناهيه منبع جميع الكمالات و القدرات.

ثم تردّ الآيه على الذين كانوا يريدون من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أن يكشف لهم عن جميع أسرار المستقبل، بل و يطلعهم على ما ينتظرهم من حوادث لكى يدفعوا الضرر و يستجلبوا النفع، فتقول: وَ لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ .

سبق أن قلنا إنّه لا يكون أحد مطلعاً على كل شىء إلا إذا كان حاضرا و شاهدا فى كل مكان و زمان، و هو الله وحده، أمّا الذى يكون وجوده محددًا بمكان و زمان معينين فلا يمكن بالطبع أن يطلع على كل شىء، و لكن ما من شىء يحول دون أن يمنح الله جزءا من عمله هذا إلى الأنبياء و القاده الإلهيين لإكمال مسيره القياده، حسبما يراه من مصلحه، و هذا بالطبع لا يكون علما بالغيب بالذات، بل هو «علم بالغيب بالعرض» أى أنه تعلم من عالم الغيب.

هنالك آيات عديده فى القرآن تدل على أن الله لا يظهر علمه هذا للأنبياء و القاده الإلهيين وحدهم، بل قد يظهره لغيرهم أيضا، ففى الآيتين (٢٦ و ٢٧) من سورة الجن نقرأ: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ .

لا شك أن مقام القياده، و خاصه القياده العالميه العامه، يتطلب الاطلاع على كثير من المسائل الخافيه على عامه الناس، فإذا لم يطلع الله مبعوثيه و أوليائه على علمه، فإن مراكزهم القياديه لن تكون كامله (تأمل بدقه).

و إذا تجاوزنا ذلك، فإننا نلاحظ أنّ بعض الكائنات الحيّة لا بدّ لها أن تعلم الغيب للمحافظة على حياتها، فيهاها الله ما تحتاجه من علم، فنحن -مثلا- قد سمعنا عن بعض الحشرات التي تتبأ في الصيف بما سيكون عليه الجو في الشتاء، أي أنّ الله قد وهبها هذا العلم بالغيب، لأنّ حياتها ستتعرض لخطر الفناء دون هذه المعرفة، و سوف نفصل هذه الموضوع أكثر إن شاء الله عند تفسير الآيه (١٨٨) من سوره الأعراف.

في الجملة الثالثه ردّ على الذين كانوا يتصورون النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم ملكا، أو أن يصاحبه ملك، و ان لا يتصف بما يتصف به البشر من تناول الطعام و السير في الطرقات، و غير ذلك، فقال: **وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ .**

يتّضح من هذه الآيه بجلاء أن كل ما عند رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم من علم، و كل ما فعله كان بوحي من السماء، و إنّه لم يكن يفعل شيئا باجتهاده و لا بالعمل بالقياس و لا بأى شيء آخر كما يرى بعض -و إنّما كان يتبع الوحي في كل أمر من أمور الدين .

و في الختام يؤمر رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أن يقول لهم: هل يمكن للذين يغمضون أعينهم و يغلقون عقولهم فلا يفكرون أن ينظر إليهم على قدم المساواه مع الذين يرون الحقائق جيدا و يتفهمونها؟ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَ الْبَصِيرُ أَمْ لَا تَتَفَكَّرُونَ .**

إنّ ذكر هذه الجملة في أعقاب الجملات الثلاث السابقه قد يكون لأنّ رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم سبق أن قال: **لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ بَلْ إِن أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ،** و لكن هذا كلّه لا يعنى إنّى مثلكم، أيها المشركون، بل أنا إنسان بصير بالواقع بينما المشرك أشبه بالأعمى، فهل يستويان؟ ثمه احتمال آخر لربط هذه الجمل، و هو أن الأدله و البراهين على التوحيد

و على صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واضحة جليه، و لكنّها تتطلب عينا بصيره لكى تراها، فإذا كنتم لا تقبلونها فليس لأنها أدله غامضه معقده، بل لكونكم تفتقرون إلى العين البصيره، فهل يستوى الأعمى و البصير؟

ص: ٢٩٤

إشاره

وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١)

التفسير

فى ختام الآيه السابقه ذكر سبحانه عدم استواء الأعمى بالبصير، وفى هذه الآيه يأمر نبيه أن يندر الذين يخشون يوم القيامه و أنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم أى أن هؤلاء لهم هذا القدر من البصيره بحيث يحتملون وجود حساب و جزاء، وفى ضوء هذا الاحتمال و الخوف من المسؤليه تتولد فيهم القابليه على التلقى و القبول.

سبق أن قلنا: إن وجود القائد المؤهل و البرنامج التربوى الشامل لا يكفيان وحدهما لهدايه الناس، بل ينبغى أن يكون لدى هؤلاء الناس الاستعداد لتقبل الدعوه، تماما مثل أشعه الشمس التى لا تكفى وحدها لتشخيص معالم الطريق، بل لا بد من وجود العين الباصره أيضا، و مثل البدره السليمه التى لا يمكن أن تنمو بغير وجود الأرض الصالحه للزراعه.

يتضح من هذا أن الضمير فى «به» يعود على القرآن، و هذا يتبين من القرائن، على الرغم من أن القرآن لم يذكر فى الآيات السابقه صراحه.

كما أنّ المقصود من «يخافون» أى يحتملون وجود الضرر، إذ يخطر ببال كل عاقل يستمع إلى دعوته الأنبياء الإلهيين، بأنّ من المحتمل أن تكون دعوته هؤلاء صادقته، وأنّ الإعراض عنها يوجب الخسران و الضرر، ويستنتج من ذلك أنّ من الخير له أن يدرس الدعوه و يطلع على الأدله.

و هذا واحد من شروط الهدايه، و هو ما يطلق عليه علماء العقائد اسم «لزوم دفع الضرر المحتمل» و يعتبرونه دليل وجوب دراسه دعوى من يدعى النبوه، و لزوم المطالعه لمعرفة الله.

ثمّ يقول: إنّ أمثال هؤلاء من ذوى القلوب الواعيه يخافون ذلك اليوم الذى ليس فيه غير الله ملجأ و لا شفيع: لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ .

نعم، أنذر أمثال هؤلاء الناس و ادعهم إلى الله، إذ أنّ الأمل فى هدايتهم موجود: لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

بديهى أنّ نفى «الشفاعه» و «الولاية» فى هذه الآيه عن غير الله لا يتناقض مع شفاعه أولياء الله و ولايتهم، إذ إنّنا سبق أن أشرنا إلى أنّ المقصود هو نفى الشفاعه و الولاية بالذات، أى أنّ هذين الأمرين مختصان ذاتا بالله، فإذا كان لأحد غيره مقام الشفاعه و الولاية فبإذن منه و بأمره، كما يصرح القرآن بذلك: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ (١).

للمزيد من التوضيح بشأن الشفاعه عموما، انظر المجلد الأول: ص ١٩٨.

و المجلد الثانى من هذا التفسير.

ص: ٢٩٦

اشاره

وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِثْلَ الَّذِينَ عَلَّمَهُم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)

سبب النزول

اشاره

ذكرت روايات عديدة فى سبب نزول هاتين الآيتين، و لكنّها متشابهة، من ذلك ما جاء فى تفسير «الدار المنثور»: مرّت جماعه من قريش بمجلس رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم حيث كان «صهيب» و «عمار» و «بلال» و «خباب» و أمثالهم من الفقراء و العمال حاضرين فيه، فتعجبوا من ذلك (لأنّهم كانوا يحسبون أن شخصيه المرء مرهونه بالثروه و الجاه و المقام، و لم يستطيعوا إدراك المنزله المعنويه لهؤلاء الأشخاص، و لا- ما سيكون لهم من دور بناء فى إيجاد المجتمع الإسلامى و الإنسانى الكبير) فقالوا: يا محمّد! أرضيت بهؤلاء من قومك، أ فنحن نكون تبعاً لهم؟، أ هؤلاء الذين منّ الله عليهم؟! اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم اتبعناك،

فأنزل الله الآيه.

بعض مفسري أهل السنه، مثل صاحب تفسير (المنار) يورد حديثا أشبه بذاك، ثم يقول: إنَّ عمر بن الخطاب كان حاضرا و اقترح على رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلَّم أن يقبل عرض هؤلاء الملائ من قريش، ليتبين مدى صدق قولهم؟ فنزلت الآيتان في رفض اقتراحه.

ينبغي ألا يغرب عن البال أن ذكر سبب نزول بعض آيات هذه السوره لا يتنافى مع نزول السوره كلها في مكان واحد، فقد سبق أن قلنا إنَّ من الممكن أن تقع حوادث مختلفه في أوقات مختلفه قبل نزول السوره، ثم تنزل السوره بشأن تلك الحوادث.

يلزم هنا أن نذكر أنه جاء في روايه أن الملائ من قريش -حينما رفض رسول الله عرضهم- اقترحوا عليه شيئا آخر، وقالوا له: لو نحيت هؤلاء حتى نخلو بك... فإذا انصرفنا، فإذا شئت أعدتهم إلى مجلسك، فأجابهم النبي إلى ذلك، فقالوا له: اكتب لنا بهذا على نفسك كتابا، فدعا بصحيفه و أحضر عليا ليكتب، فنزل جبرائيل بالآيه تنهى عن ذلك.

غير أن هذه الروايه، على الرغم من كونها لا تنسجم مع روح تعاليم الإسلام التي رفضت دوما المساومه في مثل هذه الحالات، و أكدت باستمرار على وحده المجتمع الإسلامي، فإنها لا تنسجم مع الآيه السابقه: **إِنْ أَتَّبِعِ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ فَكَيْفَ يُمْكِنُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ قَبُولَ الْاِقْتِرَاحِ دُونَ اِنْتِظَارِ لِلْوَحَىٰ.**

ثم إنَّ عبارته **وَ لَا تَطْرُدِ فِي بَدَايِهِ الْآيَةَ** تدل على أنهم قد طلبوا طرد أولئك، لا التناوب معهم، و البون شاسع بين طلب الطرد و طلب التناوب، و هذا يدل على أن سبب نزول الآيه هو ما أوردناه أولا.

ص: ٢٩٨

في هذه الآيه إشاره إلى واحد من احتجاجات المشركين، وهو أنهم كانوا يريدون من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يقرّ ببعض الامتيازات لطبقه الأغنياء ويفضلهم على طبقه الفقراء، إذ كانوا يرون في جلوسهم مع الفقراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منقصه لهم أى منقصه! مع أنّ الإسلام كان قد جاء للقضاء على مثل هذه الامتيازات الزائفه الجوفاء، كانوا يصرون على هذا الطلب في طرد أولئك عنه، غير أنّ القرآن ردّ هذا الطلب مستندا إلى أدله حيه، فيقول: **وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ (١)**.

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن لم يشر إلى هؤلاء الأشخاص إشاره خاصه، بل اكتفى بصفتهم البارزه و هي أنهم يذكرون الله صباح مساء، أى دائما، و أنّ ذكرهم الله هذا ليس فيه رياء، بل هو لذات الله وحده، فهم يريدونه وحده و يبحثون عنه، و ليس ثمة امتياز اسمى من هذا.

يتبين من آيات قرآنيه مختلفه أنّ هذا لم يكن أول طلب من نوعه يتقدم به هؤلاء المشركون الأغنياء المتكبرون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل لقد تكرر اعتراضهم على النبي بشأن اجتماع الفقراء حوله، و مطالبتهم إياه بطردهم.

في الحقيقه كان هؤلاء يستندون في طلبهم ذاك إلى سنه قديمه خاطئه تقيم المرء على أساس ثروته، و كانوا يعتقدون أنّ المعايير الطبقيه القائمه على أساس الثروه يجب أن تبقى محفوظه، و يرفضون كل دعوه تستهدف إلغاء هذه القيم و المعايير.

في سيره النبي نوح عليه السلام نرى أنّ أشرف زمانه كانوا يقولون له:

ص: ٢٩٩

١ - ١) - معنى «الوجه» في اللغه معروف، و لكن الكلمه قد تعنى «الذات» كما في هذه الآيه، و هناك شرح أوفى لذلك في المجلد الثاني من هذا التفسير.

و اعتبروا ذلك دليلا على بطلان رسالته.

إنَّ واحدا من دلائل عظمه الإسلام و القرآن، و عظمه مدرسه الأنبياء عموما، هو أنَّها وقفت ثابتة لا تتزحزح في وجه أمثال هذه الطلبات، و راحت تحطم هذه الامتيازات الموهومه في كل المجتمعات التي تعتبر التمايز الطبقي مسأله ثابتة، لتعلن أنَّ الفقر ليس نقصا في أشخاص مثل سلمان و أبي ذر و الخباب و بلال، كما أنَّ الثروه ليست امتيازاجتماعيا، أو معنويا لهؤلاء الأثرياء الفارغين المتحجرين المتكبرين.

ثم تقول الآية: إنه ليس ثمه ما يدعو إلى إبعاد هؤلاء المؤمنين عنك، لأنَّ حسابهم ليس عليك، و لا حسابك عليهم: مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، وَ مَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ، و لكنك مع ذلك إذا فعلت تظالما: فَتَطْرُدُهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ .

يختلف المفسرون في توضيح المقصود من «الحساب» هنا.

منهم من يقول: إنَّ المقصود هو حساب رزقهم، أي أنَّهم و إن كانوا فقراء فإنَّهم لا يثقلون عليك بشيء، لأنَّ حساب رزقهم على الله، كما أنَّك أنت أيضا لا تحملهم ثقل معيشتك، إذ ليس من حساب رزقك عليهم من شيء.

غير أنَّ هذا الاحتمال يبدو بعيدا، لأنَّ الظاهر أن القصد من الحساب هو حساب الأعمال، كما يقول كثير من المفسرين، أمَّا لماذا يقول الله أن حساب أعمالهم ليس عليك، مع أنَّهم لم يبدر منهم أي عمل سيء يستوجب هذا القول؟ فالجواب: إنَّ المشركين كانوا يتهمون أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم الفقراء بالابتعاد عن الله بسبب فقرهم، زاعمين أنَّهم لو كانت أعمالهم مقبولة عند الله لزمه الترفيه و التوسعه عليهم في معيشتهم، بل كانوا يتهمونهم بأنهم لم يؤمنوا إلا لضمأن

ص: ٣٠٠

معشتهم و الوصول إلى لقمه العيش.

فیرد القرآن علی ذلك مبینا أننا حتی لو فرضنا أنهم كذلك، فان حسابهم علی الله، ما دام هؤلاء قد آمنوا و أصبحوا فی صفوف المسلمين، فلا یجوز طردهم بأی ثمن، و بهذا یقف فی وجه إحتجاج أشراف قریش.

و شاهد هذا التفسیر ما جاء فی حکایه النبی نوح علیه السلام التي تشبه حکایه أشراف قریش، فأولئك كانوا یقولون لنوح: أَ تُوْمِنُ لَعْنِكَ وَ اتَّبَعَكَ الْمَأْرُذُونَ فیرد علیهم نوح قائلاً: وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَيَّ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١).

من هنا یجب علی الأنبياء أن یقبلوا كل امرئ یظهر الإیمان بدون أى تمييز و من أیه طبقه كان فكیف بالمؤمنین الأطهار الذین لا یریدون إلا وجه الله، و كل ذنبهم هو أنهم فقراء صفر الیدین من الثروه، و لم یتلوثوا بالحیاه الدنیئہ لطبقه الأشراف!

امتیاز کبیر للإسلام:

إننا نعلم أنّ دائره صلاحیات رجال الدین المسیحیین المعاصرین قد اتسعت اتساعاً مضحکاً بحيث إنهم أعطوا أنفسهم حق غفران الذنوب، فبإمكانهم طرد الأشخاص و تکفیرهم أو قبولهم لأتفه الأمور.

إلا أنّ القرآن، فی هذه الآیه و فی آیات أخرى ینفی صراحه أن یراد لأحد الحقّ، بل و لا لرسول الله صلّى الله علیه و آله و سلّم نفسه فی أن یطرد أحداً أظهر إیمانه و لم یفعل ما یوجب إخراجہ من الإسلام، و أن غفران الذنوب و الحساب بیّد الله وحده، و لا یحق لأحد التداخل فی هذا أبداً.

و الکلام هنا علی «الطرد الدینی» لا «الطرد الحقوقی» فلو كانت إحدى

ص: ٣٠١

المدارس وقفا على طبقه خاصه من الطلاب، و قبل أحدهم فيها لتوفر شروط القبول فيه، ثم فقد بعض تلك الشروط، فان طرده و إخراجها من تلك المدرسه لا مانع فيه، كذلك لو أنّ مدير مدرسه أعطيت له صلاحيات معينه لغرض إداره شؤونها، فله كل الحق في الاستفادة من تلك الصلاحيات لحفظ النظام و رعايه مصالح المدرسه (فما ورد في حديث صاحب تفسير المنار عند تفسيره الآيه ممّا يخالف هذا المعنى ناشى من الاشتباه بين الطرد الدينى و الطرد الحقيقى).

الآيه الثانيه يحذر فيها القرآن أصحاب المال و الثروه من أن هذه الأمور اختبار لهم، فإذا لم يجتازوا الامتحان فعليهم أن يتحملوا العواقب المؤلمه، فالله يمتحن بعضهم ببعض: وَ كَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ .

«الفتنه» تعنى هنا الامتحان (١) و أى إمتحان أصعب ممّا يمر به الأغنياء الذين كانوا قد اعتادوا لسنوات طويله على الترفع على الطبقات الدنيا، فلا يشاركونهم أفراحهم و أتراحهم، بل حتى أنهم يعدون قبور موتاهم عن قبورهم، أمّا الآن فيطلب منهم أن يتخلوا عن كل ذلك و أن يحطموا كل تلك العادات و السنن، و يكسروا القيود و السلاسل ليلتحقوا بدين طلائعه من الفقراء و من يسمون بالطبقه الدنيا.

ثم تضيف الآيه أنّ الأمر يصل بهؤلاء إلى أنهم ينظرون إلى المؤمنين الصادقين نظره احتقار ليقولوا أ هؤلاء من الله عليهم من بيننا (٢)؟! ثم تجيب الآيه على المعترضين مؤكده أنّ هؤلاء الأشخاص أناس شكروا نعمه التشخيص الصحيح بالعمل، كما أنهم شكروا نعمه دعوه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بقبولها، فأى نعمه أكبر، و أى شكر أرفع، و لذلك رسخ الله الإيمان فى قلوبهم:

أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ

ص: ٣٠٢

١-١) -لمزيد من الشرح انظر المجلد الثاني فى تفسير الآيتين ١٩١ و ١٩٣ من سورة البقره.

٢-٢) -أشرنا فى تفسير الآيه ١٦٤ من سورة آل عمران إلى أنّ «المنه» تعنى فى الأصل النعمه يهبها الله.

إشاره

وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غُفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لَّا يُعْقِلُونَ (٥٥)

التفسير

يرى بعض المفسرين أن الآيه نزلت بشأن الذين نهت الآيات السابقه عن طردهم و إبعادهم، و يرى بعض آخر أنها نزلت فى فريق من المذنبين قدموا على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و قالوا: إنهم قد أذنبوا كثيرا، فسكت النبي صلى الله عليه و آله و سلم حتى نزلت الآيه.

و مهما يكن سبب نزول الآيه، فالذى لا شك فيه أن معناها واسع و شامل، لأنها تبدأ أولاً بالطلب من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أن لا يطرد المذنبين مهما عظمت ذنوبهم، بل عليه أن يستقبلهم و يتقبلهم: وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ .

يحتمل أن يكون هذا السلام من الله بوساطه رسوله صلى الله عليه و آله و سلم، أو أنه من الرسول صلى الله عليه و آله و سلم مباشرة، و هو-على كلا الاحتمالين دليل على القبول و الترحيب

و التفاهم و المحبته.

ثم تقول الآيه كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ .

«كتب» تأتي فى كثير من الأحيان كناية عن الإلزام و التعهد، إذ إن من نتائج الكتابه توكيد الأمر و ثبوته.

و فى الجزء الأخير من الآيه-و هو توضيح و تفسير لرحمه الله-يتحدث بلهجه عاطفيه: أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

و قد سبق القول (1) أن «الجهالة» فى مثل هذه المواضع تعنى طغيان الشهوه و سيطرتها،و الإنسان بسبب هذه الأهواء المستفحله،لا بسبب عدائه لله و للحق- يفقد المقدره العقيله و السيطرة على الشهوات،مثل هذا الشخص-و إن كان عالما بالذنب و الحرمة- يسمى جاهلا،لأن علمه مستتر وراء حجب الأهواء و الشهوات،و هذا الشخص مسئول عن ذنوبه،و لكنّه يسعى لإصلاح نفسه و جبران أخطائه لأن أفعاله لم تكن عن روح عدا و خصام.

تأمر الآيه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أن لا يطرد أى شخص مؤمن مهما تكن طبقته و ظروفه و عنصره،بل عليه أن ينظر إلى الجميع بعين المساواه،و أن يحتضنهم و يعمل على إصلاحهم حتى و إن كانوا ملوثين بالذنوب.

الآيه التالیه و من أجل توكيد هذا الموضوع تشير إلى أن الله سبحانه يوضح آياته و أوامره توضيحا بينا لکی يتبين طريق الباحثين عنه و المطيعين له،كما يتبين طريق الآثمين المعاندين من أعداء الله: وَ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَ لَتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (2) .

ص: ٣٠٤

١-١) -المجلد الثالث من هذا التفسير.

٢-٢) -جمله «و لتستبين» معطوفه فى الواقع على جمله محذوفه تدرك بالقرينه،فيكون المعنى لتستبين سبيل المؤمنين المطيعين و لتستبين سبيل المجرمين.

من الواضح فى هذه الآيه أن «المجرم» ليس كل مذنب، لأن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم مكلف فى هذه الآيه أن يتقبل المذنبين الذين يقبلون عليه، مهما يكن جرمهم الذى ارتكبه عن جهل، و عليه فان المجرمين هنا هم أولئك المذنبون المعاندون الذين لا يستسلمون للحق.

أى بعد هذه الدعوه العامه إلى الله، التى تشمل حتى المجرمين النادمين يتّضح بشكل كامل طريق المعاندين الذين لا يرجعون عن عنادهم.

ص: ٣٠٥

إشاره

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلِيٌّ بَيْنَهُ
مَنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ۖ مَا عِنْدِي ۖ تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۖ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا
تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨)

التفسير

إشاره

الإصرار العقيم:

ما يزال الخطاب في هذه الآيات موجهًا إلى المشركين وعبدة الأصنام المعاندين - كدأب معظم آيات هذه السوره - يبدو من سياق هذه الآيات أنهم دعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى اعتناق دينهم، الأمر الذي يستدعي نزول الآية: قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ (١).

ص: ٣٠٦

١ - ١) - استعمال «الذين» التي هي للجمع المذكور العاقل، لا - للإشارة إلى الأصنام، يدل على أن الكلام يجري وفق وجهه نظر المشركين.

جملة «نهيت» التي وردت بصيغته الماضى و مبنية للمجهول تشير إلى أنّ النهى عن عبادة الأصنام ليس أمرا جديدا، بل كان دائما قائما و سيقى كذلك.

ثمّ بجملة قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَ كُمْ يجب بوضوح على إصرارهم العقيم، بالنظر لأنّ عبادة الأصنام لا تتفق مع المنطق و لا مع الأدلة العقلية، لأنّ العقل يدرك بسهولة أن الإنسان أشرف من الجماد، فكيف يمكن للإنسان أن يخضع لأى مخلوق آخر فضلا عن المخلوق الأدنى؟ هذا مع أنّ هذه الأصنام هى من صنع الإنسان نفسه فكيف يتخذ الإنسان ما خلقه بنفسه معبودا يعبد و يلجأ إليه فى كل مشاكله؟ و بناء على ذلك، فإنّ منشأ عبادة الأصنام ليس سوى التقليد الأعمى و الإلتباع المقيت للأهواء و الشهوات.

و فى ختام الآيه يؤكّد القرآن مرّه أخرى على أنّه إذا فعل ذلك قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ .

الآيه التاليه تتضمن جوابا آخر، و هو: قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ .

«البينه» أصلا ما يفصل بين شيئين بحيث لا يكون بينهما تمازج أو اتصال، ثمّ أطلقت على الدليل و الحججه الواضحه، لأنها تفصل بين الحق و الباطل.

و فى المصطلح الفقهى تطلق «البينه» على الشاهدين العدلين، غير أنّ معنى الكلمه اللغوى واسع جدا، و شهاده العدل واحد من تلك المعانى، و كذلك كانت المعجزه بينه لأنها تفصل بين الحق و الباطل، و إذا قيل للآيات و الأحكام الإلهيه بينات فلكونها من مصاديق الكلمه الواسعه.

و عليه، فرسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم يؤمر فى هذه الآيه أن يقول: إنّ دليلى فى قضيه عباده الله و محاربه الأصنام واضح و بين، و ان تكذيبكم و إنكاركم لا يقللان من صدق الدليل.

ثمّ يشير إلى حجّه واهيه أخرى من حججهم، و هى أنّهم كانوا يقولون: إنّ

كنت على حق فعلا فعجل بالعقاب الذى تتوعدنا به، فيقول لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ

□ □
لأن الأعمال والأوامر كلها بيد الله: إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ .

□ □
و بعد ذلك يقول مؤكدا: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي: يَقْضُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ .

بديهى أن القادر على أن يفصل بين الحق والباطل على خير وجه هو الذى يكون أعلم الجميع، ومن السهل عليه التمييز بين الحق والباطل، ثم تكون له قدره الكافية على استخدام علمه، وهاتان الصفتان (العلم والقدره) هما من صفات الذات الإلهية اللامحدوده، وعليه فإنه عز وجل خير من يقص الحق، أى يفصل الحق من الباطل.

الآية التالية تأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهؤلاء الجماعة الملحاحه العنيده الجاهله: لو أن ما تطلبونه منى على عجل كان فى سعتى وقدرتى، وأجبتكم إليه لانتهى الأمر، ولم يعد بينى وبينكم شىء: قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ .

□ □
و لكيلا يظنوا أن عقابهم قد طواه النسيان، يقول فى النهايه وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ و سوف يعاقبهم فى الوقت المناسب.

بحوث

هنا لا بد من ذكر بعض النقاط:

١- استفاد من آيات القرآن أن كثيرا من الأمم الماضيه طلبوا مثل هذا الطلب من أنبيائهم، و هو: إذا كنت صادقا فيما تقول فلما ذا لا ترسل علينا العقاب الذى تتوعدنا به؟

ص: ٣٠٨

قوم نوح عليه السلام طلبوا منه ذلك قائلوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١) و نظير ذلك جاء على لسان قوم صالح (٢) و كذلك فعل قوم عاد مع نبيهم هود (٣) .

و يستفاد من سورة الإسراء أنّ هذا الطلب قد تكرر لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، حتى أنّهم قالوا له: إنا لا نؤمن لك أو تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا (٤) .

كان الدافع إلى هذه الطلبات غير المعقوله السخرية و الاستهزاء، أو الرغبة في رؤيه المعجزه، و في كلتا الحالتين كان الطلب أحمقاً، إذ في الحاله الثانيه يكون تحقق الطلب سبباً في إبادتهم، و لا يكون ثمه مجال للاستفاده من ظهور المعجزه، و في الحاله الأولى كان لدى الأنبياء أدله بينه توفّر-على الأقل- احتمال التصديق عند كل ناظر بصير، فكيف يمكن مع هذا الاحتمال أن يطلب أحد القضاء على نفسه، أو أن لا يأخذ المسأله مأخذ الجد، غير أنّ التعصب و العناد بلاء عظيم يقفان بوجه كل فكر و منطق.

□ □
٢- إنَّ معنى إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ واضح، أى أنّ كل أمر فى عالم الخلق و التكوين و فى عالم الأحكام و التشريع بيد الله، و بناء على ذلك إذا كان لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يقوم بمهمّه فذلك أيضاً بأمر من الله.

فإذا أحيا المسيح عليه السلام ميتاً-مثلاً-فهو بإذن الله، و كذلك كل منصب-بما فى ذلك القيادة الإلهيه و التحكيم و القضاء-إذا أوكل إلى أحد، فإنّما هو بأمر الله تعالى.

و لكنّ الذى يؤسف له أنّ هذه الآيه الواضحه استغلت على مدى التاريخ، فمرّه تمسك بها الخوارج فى قضيه «الحكمين» التى أرادوها هم و أمثالهم فى

ص: ٣٠٩

١- ١) -هود، ٣٢.

٢- ٢) -الأعراف، ٧٧.

٣- ٣) -الأعراف، ٧٠.

٤- ٤) -الإسراء، ٩١.

«كلمه حق أريد بها باطل» كما قال الإمام على عليه السلام، حتى أصبح شعارهم (لا حكم إلا لله).

□ □
لقد كانوا من الجهل و البلاهه إنهم حسبوا أن من حكم بأمر الله و الإسلام فى أمر من الأمور يكون قد خالف إن الحكم إلا لله
بينما كانوا يقرءون القرآن كثيرا، و لكن لا يفهمونه إلا قليلا، فالقرآن نفسه فى موضوع الاحتكام العائلى يصرح باختيار حكم من
جانب الزوجه و حكم من جانب الزوج: فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا (١).

و اعتبر بعض آخر هذه الآيه- كما يقول الفخر الرازى فى تفسيره- دليلا على الجبريه، قائلين إننا إذا قبلنا بأن الأوامر فى عالم الخلق
بيد الله، فلا يبقى لأحد مجال للاختيار.

و لكننا نعلم أن حريه إرادته عباد الله و حريه اختيارهم هى أيضا، بأمر من الله الذى شاء أن يكونوا أحرارا فى إختيار ما
يعملون، لكى يحملهم مسئوليه أعمالهم و التكاليف الملقاه على عواتقهم.

٣- «يقص» فى اللغه ترد بمعنى القطع، و فى القاموس: «قص الشعر و الظفر أى قطع منهما بالمقص أى المقراض»، و على هذا يكون
معنى و «يقص الحق» إن الله يقطع الحق عن الباطل و يفصل بينهما، و لذلك يتلوها بقوله: هُوَ خَيْرُ الْفَاصِحِ - يَلِينِ
للتوكيد، فالفعل «يقص» هنا لا يعنى سرد حكاية، كما ظن بعض المفسرين.

ص: ٣١٠

إشارة

وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَ هُمْ لَا يُفْرَطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ لَا لَهُ الْحُكْمُ وَ هُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢)

التفسير

إشارة

أسرار الغيب:

في هذه الآيات يدور الكلام حول علم الله وقدرته وسعه حكمه و أمره، وهي تشرح ما أجملته الآيات السابقة.

تشرع الآيه فى الكلام على علم الله فتقول: وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ .

«مفاتيح» جمع «مفتاح» (بكسر الميم و فتح التاء) و هو المفتاح، أما إذا كانت بفتح الميم فهى بمعنى الخزانة التى تخترن فيها الأشياء.

و على الأوّل يكون المعنى: إنّ جميع مفاتيح الغيب بيد الله.

و على الثانى يكون المعنى: إنّ جميع خزائن الغيب بيد الله.

و يحتمل أن يكون المعنيين قد اجتمعا فى عبارته واحده، و كما هو ثابت فى علم الأصول، فإن استعمال لفظه واحده لعدده معان لا مانع منه، و على كل حال فهاتان الكلمتان متلازمتان، لأنه حيثما كانت الخزانة كان المفتاح.

و أغلب الظن أنّ «مفاتيح» بمعنى «مفاتيح» لا- بمعنى «خزائن» لأنّ الهدف هو بيان علم الله، فتكون المفاتيح وسائل لمعرفة مختلف الذخائر و هو أنسب بالآيه، و فى موضعين آخرين فى القرآن ترد كلمه «مفاتيح» بمعنى المفاتيح (١).

ثمّ لتوكيد ذلك أكثر يقول: وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَ الْبَحْرِ .

«البرّ» كل مكان واسع فسيح، و تطلق على اليابسه، «و البحر» كذلك تعنى المحل الواسع الذى يتجمع فيه الماء، و تطلق على البحار و المحيطات و على الأنهر العظيمة أحيانا.

فالقول بأنّ الله يعلم ما فى البر و البحر، كناية عن إحاطته بكل شىء، و هذه الإحاطه بما فى البرّ و البحر إنّما تمثل فى الحقيقه جانباً من علمه الأوسع.

فهو عالم بحركه آلاف الملايين من الكائنات الحيه، الكبيره و الصغيره، فى أعماق البحار.

و هو عالم بارتعاش أوراق الأشجار فى كل غابه و جبل.

و هو عالم بمسيره كل برعمه و تفتح أوراقها.

ص: ٣١٢

١- ١) - مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ (القصص، ٧٦) و أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ (التور، ٦١).

و هو عالم بجريان النسيم فى البوادی و منعطفات الودیان.

و هو عالم بعدد خلایا جسم الإنسان و كریات دمه.

و هو عالم بكل الحركات الغامضة فى الیلكترونات فى قلب الذره.

و هو عالم بكل الحركات الغامضة فى الیلكترونات فى قلب الذره.

و هو عالم بكل الأفكار التى تمرّ بتلافیف أدمغتنا حتى أعماق أرواحنا...

نعم أنه عالم بكل ذلك على حدّ سواء.

لذلك فإنه يؤكد ذلك مرّه أخرى فىقول: **وَ مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقِهِ إِلَّا يَعْلَمُهَا**.

أى أنه يعلم عدد الأوراق و لحظه انفصال كل ورقه عن غصنها و طيرانها فى الهواء، حتى لحظه استقرارها على الأرض، كل هذا جلى أمام علم الله.

كذلك لا تختفى حبه بين طيات التراب إلا و يعلمها الله و يعلم كل تفاصيلها:

وَ لَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ

التركيز هنا- فى الحقيقة- على نقطتين حساستين لا يمكن أن يتوصل إليهما الإنسان حتى لو أمضى ملايين السنين من عمره يرتقى سلم الكمال فى صنع أجهزته و أدواته المدهشه.

ترى من ذا الذى يستطيع أن يعرف كم تحمل الرياح معها فى هبوبها على مختلف أصقاع الأرض فى الليل و النهار، من أنواع البذور المنفصله عن نباتاتها؟ و إلى أين تحملها و تنشرها، أو تدسها فى التراب حيث تبقى سنوات مختفيه، حتى يتهيأ لها الماء فتنبت و تنمو؟ من ذا الذى يعلم كم من هذه البذور فى كل أنحاء الدنيا تحمل عن طريق الإنسان أو الحشرات فى كل ساعه من نقطه إلى نقطه أخرى؟ أى دماغ الیلكترونى هذا الذى يستطيع أن يحصى عدد أوراق الشجر التى تسقط كل يوم من أشجار الغابات؟ انظر إلى غابه من الغابات فى الخريف، و خاصّه بعد مطر شديد أو ريح عاصفه، و تطلع إلى مشهد سقوط الأوراق المتواصل البديع، عندئذ تتكشف لك هذه الحقيقة، و هى أنّ علوما من هذا القبيل

لن تكون يوماً في تناول يد الإنسان.

إنَّ سقوط الورقة-في الحقيقة-هو لحظه موتها،بينما سقوط البذره في مكنها من الأرض هو لحظه بدء حياتها،و ما من أحد غير الله يعلم بنظام هذا الموت و هذه الحياه،و حتى أنّ كل خطوه تخطوها البذره نحو حياتها و انبعاثها و تكاملها خلال اللحظات و الساعات،جليه في علم الله.

إنَّ لهذا الموضوع أثراً «فلسفياً» و آخر «تربوياً»:

أمّا أثره الفلسفى،فينفى رأى الذين يحصرون علم الله بالكليات،و يعتقدون أنه لا يعلم عن الجزئيات شيئاً،و فى الآيه هنا تأكيد على أنّ الله يعلم الكليات و الجزئيات كلها.

أمّا أثره التربوى فواضح،لأنّ الإيمان بهذا العلم الواسع لله يقول للإنسان:إنّ جميع أسرار وجودك،و أعمالك،و أقوالك و نياتك،و أفكارك كلّها بيته أمام الله، فإذا آمن الإنسان حقّاً بهذا،فكيف يمكن له أن لا يكون رقيباً على نفسه و يسيطر على أعماله و أقواله و نياته! و فى ختام الآيه يقول تعالى: **وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** .

تبيّن هذه العبارة القصيره سعه علم الله اللامحدود و إحاطته بكل الكائنات بدون أى استثناء،إذ أنّ «الرطب» و «اليابس» لا يقصد بهما المعنى اللغوى،بل هما كناية عن الشمول و العموميه.

و للمفسّرين آراء متعدده فى معنى: «كتاب مبين»،و لكنّ الأقوى أنّه كناية عن علم الله الواسع،أى أنّ كل الموجودات مسجله فى علم الله اللامحدود،كما أنّه تفسر بكونه «اللوح المحفوظ»نفسه،إذ لا يستبعد أن يكون اللوح المحفوظ هو صفحه علم الله.

و ثمّه احتمال آخر عن معنى «كتاب مبين»و هو أنّه عالم الخلق و سلسله العلل و المعلولات التى كتب فيها كل شىء.

جاء فيما روى عن أهل البيت عليهم السَّلَام أن «الورقه» الساقطه بمعنى الجنين الساقط، و«الحَيَّه» بمعنى الابن، و«ظلمات الأرض» بمعنى رحم الأم، و«رطب» ما بقى حيا من النطفه، و«يابس» ما تلاشى من النطفه (١).

لا شك أن هذا التفسير لا ينسجم مع الجمود على المعانى اللغويه للآيه، إذ إن معنى «الورقه» و«الحَيَّه» و«ظلمات الأرض» و«الرطب» و«اليابس» معروف، و لكنَّ أئمَّه أهل البيت عليهم السَّلَام بهذا التفسير أرادوا أن يوسعوا من آفاق نظره المسلمين إلى القرآن، و أن لا ينحصروا فى إطار الألفاظ، بل يتوسعوا فى نظرتهم حين توجد قرائن على هذا التوسع.

الزوايه أعلاه تشير إلى أن معنى «الحبه» لا ينحصر فى بذور النباتات، بل يشمل أيضا بذور النطفه الإنسانيه.

فى الآيه الثانيه ينتقل الكلام إلى إحاطه علم الله بأعمال الإنسان و هو الهدف الأصلى و إلى بيان قدره الله القاهره، لكى يستنتج الناس من هذا البحث الدروس التربويه اللازمه فتبدأ بالقول بأنَّ الله هو الذى يقبض أرواحكم فى الليل، و يعلم ما تعملون فى النهار: وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ .

«توفى» تعنى استرجع، فالقول بأنَّ النوم هو استرجاع للروح يعود إلى أنَّ النوم أخو الموت، كما هو معروف، فالموت تعطيل كامل لجهاز الدماغ، و انقطاع تام فى ارتباط الروح بالجسد، بينما النوم تعطيل قسم من جهاز الدماغ و ضعف فى هذا الارتباط، و عليه فالنوم مرحله صغيره من مراحل الموت (٢).

«جرحتم» من «جرح» و هى هنا بمعنى الاكتساب، أى أنكم تعيشون تحت ظل قدره الله و علمه ليلا و نهارا، و إنَّ الذى يعلم بانفلاق الحبه و نموها فى باطن الأرض، و يعلم بسقوط أوراق الأشجار و موتها فى أى مكان و زمان، يعلم

ص: ٣١٥

١-١) - تفسير البرهان، ج ١، ص ٥٢٨.

٢-٢) - هناك شرح أو فى لهذا فى المجلد الثانى.

بأعمالكم أيضا.

ثم يقول: إن نظام النوم واليقظة هذا يتكرر، فأنتم تنامون في الليل ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى (١) أى ثم يوقظكم فى النهار.. وتستمر هذه العمليه حتى نهايه حياتكم.

و يبين القرآن النتيجة النهائيه لهذا المبحث بالشكل التالى: ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

و فى الآيه الثالثه توضيح أكثر لإحاطه علم الله بأعمال عباده و حفظها بكل دقه ليوم الحساب، بعد أن يسجلها مراقبون مرسلون لإحصاء أعمالهم: وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً .

سبق أن قلنا إن «القاهر» هو المتسلط الغالب المهيمن الذى لا تقف أمامه أليه قوه، و يرى بعضهم هذه الكلمه تستعمل حيث يكون المقهور عاقلا.

أما كلمه «الغالب» فليست فيها هذه الخصوصيه، فهى عامه واسعه المعنى.

«حفظه» جمع «حافظ» و هم هنا الملائكه الموكلون بحفظ أعمال الناس، كما جاء فى سوره الإنفطار، الآيات ١٠-١٣: إِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ .

و يرى بعض المفسرين أنهم لا يحفظون أعمال الإنسان، بل هم مأمورون بحفظ الإنسان نفسه من الحوادث و البلايا حتى يحين أجله المعين، و يعتبرون حتى إذا جَاءَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ بعد «حفظه» قرينه تدل على ذلك، كما يمكن اعتبار الآيه (١١) من سوره الرعد دليلا عليه كذلك (٢) .

و لكنّ بالتدقيق فى مجموع الآيه التى نحن بصددنا نتبين أن القصد من الحفظ هنا هو حفظ الأعمال، أما بشأن الملائكه الموكلين بحفظ الناس فسوف

ص: ٣١٦

١-١) -الضمير فى «فيه» يعود على «النهار» و«يبعثكم» بمعنى يوقظكم و ينهضكم، و«أجل مسمى» هو العمر المحدد لكل فرد.

٢-٢) -تفسير الميزان، ج ٧، ص ١٣٤.

نشرحه بإذن الله عند تفسير سورة الرعد.

ثُمَّ يَبَيِّنُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنَّ حِفْظَ الْأَعْمَالِ يَسْتَمِرُّ حَتَّى نِهَائِهِ الْأَعْمَارُ وَحُلُولِ الْمَوْتِ: حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا.

و تَبَيَّنَ الْآيَةُ فِي النِّهَايَةِ أَنَّ هَوْلَاءَ الْمَلَائِكَةِ لَا يَقْصُرُونَ وَ لَا يَفْرَطُونَ فِي مَهْمَتِهِمْ، فَلَا يَتَقَدَّمُونَ لِحِظِهِ وَ لَا يَتَأَخَّرُونَ فِي مَوْعِدِ قَبْضِ الرُّوحِ.

وَ يَحْتَمِلُ أَيْضًا أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ تَرْتَبِطُ بِالْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ حِسَابَ أَعْمَالِ الْبَشَرِ، فَهَمُّ فِي حِفْظِهِمْ لِلْحِسَابِ لَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ أَدْنَى تَقْصِيرٍ أَوْ قِصُورٍ، وَ الْآيَةُ تَرْكُزُ عَلَى هَذَا الْقِسْمِ بِالذَّاتِ.

فِي الْآيَةِ الْآخِرَةِ يَشِيرُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَى آخِرِ مَرَاكِلِ عَمَلِ الْإِنْسَانِ، فَيَقُولُ:

ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ

أَيَّ عَادُوا إِلَى اللَّهِ بَعْدَ أَنْ طَوَّأُوا مَرِحْلَةَ حَيَاتِهِمْ، وَ اخْتَمَمَ مَلْفَهُمُ الْحَاوِيَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

وَ فِي تِلْكَ الْمَحْكَمَةِ يَكُونُ النَّظَرُ فِي الْقَضَايَا وَ إِصْدَارِ الْأَحْكَامِ بِيَدِ اللَّهِ: أَلَا لَهُ الْحُكْمُ.

وَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ تِلْكَ الْأَعْمَالِ وَ الْمَلَفَّاتِ الْمُتْرَاكِمَةِ عَنْ أَفْرَادِ الْبَشَرِ طَوَالَ تَارِيخِهِمُ الصَّاحِبِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعٌ فِي النَّظَرِ فِيهَا: وَ هُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ.

لَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: «إِنَّهُ سَبْحَانَهُ يَحْسَبُ جَمِيعَ عِبَادِهِ فِي مِقْدَارِ حَلْبِ شَاهٍ» أَيْ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَتَجَاوَزُ فَتْرَةَ حَلْبِ شَاهٍ (١).

وَ كَمَا قَلْنَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (٢٠٢) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، إِنَّ إِجْرَاءَ الْحِسَابِ مِنَ السَّرْعَةِ بِحَيْثُ إِنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَتِمَّ فِي لِحْظِهِ وَاحِدَهُ بِالنِّسْبَةِ لِلْجَمِيعِ، بَلْ إِنْ ذَكَرَ فَتْرَةَ حَلْبِ شَاهٍ فِي الرِّوَايَةِ الْمَذْكُورَةِ يَقْصِدُ مِنْهُ بَيَانَ قِصْرِ الزَّمَنِ اللَّازِمِ لِذَلِكَ، وَ عَلَى هَذَا نَقَرْنَا فِي رِوَايَةِ أُخْرَى: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْسَبُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ فِي مِقْدَارِ لَمْحٍ

ص: ٣١٧

و الدليل على ذلك هو ما ذكرناه فى تفسير هذه الآيه، و هو أنّ أعمال الإنسان تؤثر فى وجوده و فى وجود الكائنات المحيطه به، تماما مثل الماكنه التى تسجل مقدار حركتها فى عداد متصل بها.

و بتعبير أوضح، لو كانت هناك أجهزه دقيقه جدا لاستطاعت أن تسجل فى عين الإنسان عدد النظرات الآثمه، و على الألسنه عدد الأكاذيب و الافتراءات و التهم و الطعون التى اقترفتها، أى أن كل عضو من أعضاء الجسم فيه-بالإضافه إلى روحه-جهاز حاسب يكشف الحساب فى لحظه واحده.

و إذا جاء فى بعض الروايات أنّ محاسبه المسؤولين و الأغنياء تطول يوم القيامة فإن هذا لا يعنى فى الواقع طول زمن الحساب، بل هو طول زمن المحاسبه عليهم، إذ لا بدّ لهم من الإجابه على الأسئلة الكثيره التى تلقى عليهم بشأن الأعمال التى ارتكبوها، أى أن ثقل مسؤولياتهم و لزوم إجابتهم على الأسئلة لإتمام الحجّه عليهم هى التى تطيل زمن محاكمتهم.

يؤلف مجموع هذه الآيات درسا تربويا كاملا لعباد الله فى إحاطه علمه تعالى بأصغر ذرات هذا العالم و بأكبرها و قدرته و قهره لعباده و معرفته بجميع أعمال البشر، و قيام كتبه أمناء بحفظ أعمال الناس و قبض أرواحهم فى لحظات معينه بالنسبه لكل منهم، و بعثهم يوم القيامة، و من ثمّ محاسبتهم محاسبه دقيقه و سريعه.

كيف يمكن أن يؤمن الشخص بمجموع هذه المسائل ثمّ لا- يراقب أعماله، يظلم دون وازع، و يكذب و يفتري و يعتدى على الآخرين؟ هل يجتمع كل هذا مع الإيمان و الاعتقاد على صعيد واحد؟

اشاره

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كُزُبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤)

التفسير

اشاره

النور الذى يضىء فى الظلام:

مره أخرى يأخذ القرآن بيد المشركين و يتوغّل بهم إلى أعماق فطرتهم، و هناك فى تلك الأغوار المحفوفه بالأسرار الغامضه يريهم نور التوحيد و عباده الواحد الأحد، فيقول للنبي صلى الله عليه و آله و سلم قل لهم: قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ؟ إنَّ الظلام يكون حسيا أحيانا و معنويا أحيانا أخرى، الظلام الحسى هو الذى يكون عند انقطاع النور انقطاعا تاما، أو يضعف بحيث لا يرى شىء، أو يرى بالجهد الجهيد، و الظلام المعنوى هو المشاكل و الصعوبات ذات النهايات المظلمه الغامضه، الجهل... الاضطرابات الاجتماعيه و الاقتصاديه و الفكرية، و الانحرافات و الفساد الأخلاقى التى لا يمكن التكهن بعواقبها السيئه، أو التى تجر إلى التعاسه و الشقاء... كلّها ظلام.

إنّ الظلام بذاته مخيف مثير للأوهام و التخييلات،فهجوم الكثير من الحيوانات الخطره و سطوه اللصوص و المجرمين يقع تحت جنح الظلام،أنّ لكل امرئ ذكرياته عن هذه الحالات،فعند هبوط الظلام تنشط الأوهام و تخرج منها الأشباح المرعبه،فيستولى الخوف و الهلع على العامه من الناس.

الظلام من العدم،و الإنسان يهرب بطبيعته من العدم و يخافه،و لهذا نراه يخاف الظلام.

و إذا حدثت في هذا الظلام حوادث واقعيه مرعبه،كأن يكون الإنسان مسافرا في البحر،و تحاصره في ليله ظلماء الأمواج الهائله و الدوامات المائيه، فإنّ خوفه من ذلك يكون أضعاف ما لو حدث ذلك بالنهار،لأنّ الإنسان في مثل هذه الظروف يجد أبواب النجاه مسدوده في وجهه،و هكذا لو كان في ليله حالكه الظلام يسير في الصحراء فيفضل الطريق و يسمع زمجره الوحوش المفترسه من هنا و هناك و هي تبحث عن فريسه،في مثل هذه اللحظات ينسى الإنسان كل شىء و لا يعود يتذكر شيئا سوى نفسه،و النور الذى يسطع فى أعماقه و يجذبه نحو المبدأ قادر على إزاله ما يعتوره من بلاء و ضيق،هذه الحالات تفتح نوافذ على عالم التوحيد و معرفه الله،لذلك يقول فى أمثال هذه الحالات: تَدْعُوهُ تَضْرَعًا وَ حُفْيَةً .

و تعقدون-و أنتم فى تلك الحاله-عهدا و ميثاقا على أنفسكم،و تقولون:

لئن أنجانا من هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ

ثم تأمر الآيه النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن يخبرهم أنّ الله سوف ينجيهم من هذه و من غيرها من الأخطار،و قد فعل ذلك من قبل مرارا،و لكنهم بعد زوال الخطر عنهم يعودون إلى طريق الشرك و الكفر: قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ .

هنا لا بدّ من الالتفات إلى عدّه نقاط:

١- لعل ذكر «التضرع» وهو الدعاء علانيه، و«الخفيه» هي الدعاء في السرّ، إشاره إلى أنّ المصائب تختلف، فالتى لم تصل مرحله شديده قد تستدعى الدعاء خفيه، وعند ما تكون شديده تحمل المرء على أن يرفع يديه بالدعاء جهرا، وقد يصاحب ذلك البكاء والصراخ، أى أنّ الله يحل مشاكلكم خفيفها و شديدها.

٢- يرى بعضهم أنّ الآيه تشير إلى أربع حالات نفسيه فى الإنسان، كل واحده منها رده فعل معينه لظهور المشاكل: حاله «الدعاء» و حاله «التضرع» و حاله «الإخلاص» و حاله «تقديم الشكر عند النجاه من الأخطار».

و لكنّ الذى يؤسف له أن هذه الحالات تمر ببعض الناس مرورا خاطفا و كأنه حالات اضطراريه فى مواجهه الأخطار و المشاكل، و بما أنّها ليست مصحوبه بالوعى و الإدراك، فإنّها تخفت و تنطفى بمجرد انتهاء الأزمه.

و بناء على ذلك، فإن هذه الحالات، و ان تكن خاطفه، تستطيع أن تكون دليلا على معرفه الله لمن عسر عليه ادراك الدلائل الأخرى.

٣- «الكرب» فى الأصل بمعنى حفر الأرض و قلبها، و كذلك تعنى العقده المحكمه الشد فى حبل الدلو، ثم أطلقت بعد ذلك على الغم و الهم و الحزن التى تقلب قلب الإنسان و تثقل عليه كالعقده.

لذلك فإنّ ذكر «الكرب» بما له من المعنى الواسع الذى يشمل أنواع المشاكل و الأزمت بعد ذكر «ظلمات البرّ و البحر» و التى تشمل جانبا من المشاكل فقط، يعتبر من قبيل ذكر مفهوم عام بعد بيان مفهوم خاص (تأمل بدقه).

و هذا يجدر بنا أنّ نذكر حديثا تورده بعض التفاسير فى هذه الآيه:

روى عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: «خير الدعاء الخفى و خير الرزق ما يكفى» (لا الثروات الضخمه التى هى حصيله حرمان الآخرين، و تكون عبئا على كاهل

روى أيضا أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِقَوْمٍ رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالِدَعَاءِ فَقَالَ: «إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا، وَإِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا» (١).

يستفاد من هذا الحديث أنَّ خير الدعاء ما كان خفيا مقترنا بتوجه و إخلاص.

ص: ٣٢٢

١-١) - تفسير مجمع البيان و نور الثقلين في تفسير الآيه.

اشاره

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥)

التفسير

اشاره

ألوان العذاب:

فى الآيات السابقه التى تتضمن بيان التوحيد الفطرى تتجلى محبه الله لعباده، وحنوه عليهم عند الشدائد و الصعاب، و استجابته لدعواتهم.

و فى هذه الآيه تركيز على التهديد بعذاب الله و عقابه، من أجل إكمال طرق الترييه و التهذيب، أى أنّ الله و هو أرحم الراحمين و ملجأ اللاجئين، قهار منتقم مقابل الطغاه العصاه، فى هذه الآيه يؤمر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بتهديد المجرمين بثلاثه أنواع من العقاب: عذاب من فوق، و عذاب من تحت، و عقاب يتمثل فى اختلاف الكلمه و الحرب و إراقه الدماء: قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ .

و فى الختام تقول الآيه: أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ، أى انظر كيف نوضح لهم المعالم و الدلائل على أمل أن يفهموا الحقائق و يعودوا إلى الله.

هنا أيضا لا بد من الإشارة إلى بعض النقاط:

١- هنالك اختلاف بين المفسرين بشأن المقصود من العذاب من فوق و من تحت، و يظهر أن لهاتين الكلمتين معانى واسعه، فهما تشملان الجهتين الماديتين من السماء و من الأرض كالصواعق و الأمطار الغزيره و العواصف المدمره التى يأتى من فوق، و الزلازل و الانشقاقات الأرضيه المدمره و فيضانات الأنهر و البحار من تحت.

كذلك تشمل الآلام و المصائب التى ينزلها بعض الحكام و الطبقات المتسلطه فى المجتمع على رؤوس الشعوب، و كذلك الآلام و العذاب الذى يسببه بعض الموظفين الذين لا يعرفون واجبههم للناس ممّا قد لا يقل عما يسببه الحكام و الطبقات العليا من المجتمع.

و كذلك يحتمل أن تشمل أسلحه الحرب المخيفه فى عصرنا التى تبيد حياه البشر بشكل وحشى من الأرض و الجو، و تحيل المدن خلال مدّه قصيره إلى ركام و انقاض عن طريق القصف الجوى و الهجوم الأرضى و زرع الألغام و الغواصات المدمره داخل البحار.

٢- «يلبسكم» من «اللبس» بفتح اللام بمعنى الاختلاط و الامتزاج، لا- من «اللبس» بضم اللام بمعنى ارتداء الملابس، و على ذلك يكون معنى الآية: إنه قادر على أن يجعل منكم جماعات مختلفه تختلط بعض ببعض.

يستنتج من هذا التعبير أن مسأله اختلاف الكلمه و التفرق فى المجتمع لا- تقل خطورتها عن العذاب السماوى و الصواعق و الزلازل، و هو فى الحقيقه كذلك، بل قد يكون الخراب الناشئ من اختلاف الكلمه و التفرق أحيانا أشد وطأه و دمارا من الزلازل و الصواعق، كثيرا ما نلاحظ أن دولا عامره يصيبها الفناء بسبب النفاق و التفرقه، و هذه الكلمه تحذير لجميع مسلمى العالم!

هنالك أيضا احتمال آخر في تفسير هذه الآيه، وهو-أنّ الله قد أشار-إلى جانب العذاب السماوى والأرضى-إلى لونين آخرين من العذاب: أحدهما:

اختلاف العقيدة و الفكر(و هو فى الواقع مثل العذاب النازل من فوق)،و الآخر:هو الاختلاف فى العمل و السلوك الاجتماعى الذى يؤدى إلى الحروب و إراقة الدماء (و هو أشبه بالعذاب الآتى من تحت).

و عليه،فالأيه تشير إلى أربعة ألوان من العذاب الطبيعى،و لونين من العذاب الاجتماعى.

٣-لا بدّ من الانتباه إلى أن قوله تعالى: **أَوْ يَلْبَسَ كُمْ شِيْعًا (١)**، لا يعنى أنّ الله يبتلى الناس-بدون مبرر-بالنفاق و الاختلاف،بل إنّ ذلك نتيجة سوء أعمالهم و غرورهم و أنانياتهم،و الانغماس فى منافعهم الشخصيه،مما يثير روح النفاق و التفرقه بينهم،و ما نسبته ذلك إلى الله إلاّ لأنّه جعل تلك الآثار من نتائج تلك الأعمال.

٤-على الرّغم من أنّ الخطاب فى هذه الآيه موجه إلى المشركين و عبده الأصنام،فإنّنا نستنتج أنّ المجتمع المشرك و المنحرف عن طريق التوحيد و عباده الله،يصاب بظلم الطبقات العليا،و ظلم الطبقات الدنيا المتهاونه فى واجباتها،كما تقع البشريه بين براثن الاختلاف العقائديه و المخاصمات الدمويه فى المجتمع، كما هو حال المجتمعات المعاصره التى تعبد أوثان الصناعه و الثروه،فهى رهين مصائب لا فكاك لها من مخالبتها.

بعض الشعوب المسلمه تتحدث عن التوحيد و عباده الله بأقوالها،و لكنّها بأفعالها مشركه تعبد الأصنام.إن مصائر شعوب كهذا لا يختلف عن مصائر المشركين.و

قد يكون حديث الإمام الباقر عليه السّلام: «كل هذا فى أهل القبله» إشاره إلى هذا الاختلاف بين المسلمين،فعند ما ينحرف المسلمون عن طريق التوحيد،

ص: ٣٢٥

تأخذ الأنانيه وحبّ الذات مكان الأخوه الإسلاميه، و تتغلب المصالح الشخصيه على المصلحه العامه، و لا يفكر الفرد إلا بنفسه و ينسى الناس أوامر الله و نواهيه، فيحقيق بهم ما أحاق بأولئك.

ص: ٣٢٤

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦) لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧)

التفسير

تكمل هاتان الآيتان البحث الذي جرى في الآيات السابقة عن الدعوه إلى الله و المعاد و حقائق الإسلام و الخشيته من عقاب الله.

الآيه الأولى: تخبر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أنّ قومه-أى قريش و أهل مكه-لم يصدقوا ما يقول مع أنّه صدق و حق و تؤكد الأدله العقلية المختلفه و الفطريه:

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ

(١)

ثمّ يصدر الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ أى إنّما أنا رسول و لست أضمن قبولكم.

في الآيات الكثيره المشابهه لهذه الآيه (كالآيات ١٠٧-الأنعام، ١٠٨-يونس، ٤١-الزمر، ٦-الشورى) يتبين أنّ المقصود من «وكيل» في هذه المواضع هو المسؤول عن الهدايه العمليه للأفراد و الضامن لهم-لذلك فإنّ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يقول لهم في هذه الآيه: إنّ الأمر يعود إليكم، فأنتم الذين يجب أن تتخذوا القرار

ص: ٣٢٧

١ - ١) -الضمير في «به» يرجعه بعضهم إلى القرآن، و يرجعه آخرون إلى العذاب الذي ورد في الآيات السابقه، و لكنّ الظاهر إنّهُ يرجع إلى كل هذه و إلى تعاليم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم التي كذبوا بها، و تؤكد ذلك الآيه التاليه.

النهائي في قبول الحقيقه أو ردها،فما أنا إلا رسول أبلغ رساله الله.

و في الآيه التاليه القصيره ذات المعنى العميق تحذير لهم،و دعوه إلى إختيار الطريق الصحيح،و لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (١) أى أنّ كل خبر أخبركم به الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم في هذه الدنيا أو في الآخره موضع و مقر،و سوف يتحقق في موعده المقرر،و عندئذ ستعرفون ذلك.

ص: ٣٢٨

١ - ١) - قد يكون «المستقر»المصدر الميمى بمعنى «الاستقرار»أو اسما لمكان و زمان بمعنى مكان الاستقرار،بالمعنى الأول يكون إخبارا عن تحقيق وعد الله،و بالمعنى الثانى الإخبار عن مكان تحققه و زمانه.

إشارة

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِينَكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ
مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩)

سبب النزول

جاء في تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام أنه عند ما نزلت الآية الأولى و نهى المسلمون عن مجالسه الكفار و الذين كانوا يسخرون من آيات الله، قال فريق من المسلمين إذا كان علينا أن نلتزم بهذا النهى فى كل مكان فإنه يمتنع علينا الذهاب إلى المسجد الحرام و الطواف به (و ذلك لأن أولئك كانوا منتشرين فى أطراف المسجد و لا يفتأون يتناولون الآيات القرآنية بالكلام الباطل، فحيثما نتوقف فى أرجاء المسجد ثمه احتمال أن يصل كلامهم الى مسامعنا). عندئذ نزلت الآية الثانية تأمر المسلمين فى مثل هذه الحالات أن ينصحوهم و يهدوهم و يرشدوهم قدر إمكانهم.

إن ورود سبب نزول لهذه الآية لا يتعارض - كما قلنا من قبل - مع نزول

السورة كلها مره واحده، إذ من المحتمل أن تكون هناك حوادث مختلفه في حياه المسلمين، فتزل سوره واحده تختص كل مجموعه من آياتها ببعض تلك الحوادث.

التفسير

اشاره

اجتناب مجالس أهل الباطل:

بما أن المواضيع التي تتطرق إليها هذه السوره تتناول حال المشركين و عبده الأصنام، فهاتان الآيتان تبحثن موضوع آخر من المواضيع التي تتعلق بهم، ففي البدايه تقول للرسول صلى الله عليه و آله و سلم: **وَ إِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ (١)**.

على الرغم من أن الكلام هنا موجه إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، إلا أنه لا يقتصر عليه وحده، بل هو موجه إلى المسلمين كافة، إن فلسفه هذا الحكم واضحه، إذ لو اشترك المسلمون في مجالسهم، لاستمر المشركون في خوضهم في آيات الله بالباطل نكايه بالمسلمين و استهزاء بكلام الله و لكن المسلمين إذا مروا دون أن يبألوا بهم، فسيفكفون عن ذلك و يغيرون الحديث إلى أمور أخرى، لأنهم كانوا يتقصدون إيذاء رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و المسلمين.

ثم تخاطب الآيه رسول الله مؤكده أهميه الموضوع: **وَ إِمَّا يُنَسِّبَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ (٢)** بعد الذكرى مع القوم الظالمين أي إذا أنساك الشيطان هذا الأمر و جلست مع هؤلاء القوم سهوا، فعليك -حالما تنتبه- أن تنهض فوراً و تترك مجالسه الظالمين.

ص: ٣٣٠

-
- ١ - ١) - «الخوض» كما يقول الراجب الأصفهاني في «مفرداته» هو الدخول في الماء و المرور فيه، ثم استعير للورود في أمور أخرى، و أكثر ما ترد في القرآن بشأن الدخول في موضوع باطل ما أساس له.
- ٢ - ٢) - غنى عن القول بأن (لا تقعد) لا تعنى النهى عن مجرد الجلوس مع هؤلاء، بل تعنى النهى عن معاشرتهم في جميع حالات الجلوس و الوقوف أو المسير.

هنا يبرز سؤالان:

الأول: هل يمكن للشيطان أن يتسلط على النبي صلى الله عليه وآله وسلم و يسبب له النسيان؟ و بعبارة أخرى، كيف يمكن للنبي مع عصمته و كونه مصوناً عن الخطأ حتى في الموضوعات أن يخطئ و أن ينسى؟ في الإجابة على هذا السؤال يمكن القول بأن الخطاب في الآيه و إن يكن موجهاً إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهو يتحدث في الواقع مع أتباعه الذين يمكن أن ينسوا فيساهموا في اجتماعات المشركين الأئمة، فهؤلاء عليهم حال انتباههم إلى ذلك أن يتركوا المكان، أن مثل هذا الأسلوب كثير الحدوث في حياتنا اليومية و موجود في مختلف آداب العالم، فأنت قد توجه الخطاب إلى أحدهم و لكن هدفك هو أن يسمع الآخرون ذلك كما يقول المثل: إياك أعنى و اسمعى يا جاره.

هناك مفسرون آخرون مثل الطبرسي في مجمع البيان و أبي الفتوح في تفسيره المعروف يوردون جواباً آخر عن هذا السؤال خلاصته: إن السهو و النسيان في قضايا الأحكام و مقام حمل الرسالة من جانب الله غير جائزين بالنسبة للأنبياء، أما في الحالات التي لا تؤدي إلى ضلال الناس فجائزان، إلا- أن هذا الجواب لا يتفق مع ما هو مشهور عند متكلميها من أن الأنبياء و الأئمة معصومون عن الخطأ و مصونون عن النسيان، لا في قضايا الأحكام وحدها، بل حتى في القضايا العادية أيضاً.

السؤال الثاني: يعتبر بعض علماء أهل السنة هذه الآيه دليلاً على عدم جواز التقيه الدينيه للقاده الدينيين، و ذلك لأن الآيه تصرح بالنهي عن اللجوء إلى التقيه أمام الأعداء و تأمر بترك مجلسهم.

و الجواب على هذا الاعتراض واضح، فالشيعة لا يقولون بوجوب التقيه دائماً، بل إن التقيه في بعض الأحيان حرام، إنما ينحصر وجوبها في الظروف التي

تكون فيها للتقيه و كتمان الحق منافع أكبر من منافع إظهاره، أو تكون سببا في دفع خطر أو ضرر كبير.

الآيه التّاليه فيها استثناء واحد، فإذا اشترك بعض المتقين في جلسات هؤلاء المشركين لكي ينهوهم عن المنكر على أمل أن يؤدي ذلك إلى انصراف أولئك عن الإثم، فلا مانع من ذلك، و أنّ آثام أولئك لا تسجل على هؤلاء، لأنّ قصدهم هو الخدمه و القيام بالواجب: **وَ مَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ لَكِنْ ذِكْرٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .**

و هنالك تفسير آخر لهذه الآيه، و الذي قلناه أكثر انسجاما مع ظاهر الآيه و مع سبب النزول.

و ينبغي أن نعلم-في الوقت نفسه- إنّ الذين لهم أن يستفيدوا من هذا الاستثناء هم الذين تنطبق عليهم شروط الآيه، فيكونون متميزين بالتقوى، و بعدم التأثير بهم، و بالقدرة على التأثير فيهم.

سبق في تفسير الآيه (١٤٠) من سوره النساء أن تطرقنا إلى هذا الموضوع و ذكرنا مسائل أخرى أيضا.

إشاره

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَ لَهْوًا وَ عَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ ذَكَرَ بِهِ أَنْ تُبَسَّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَ لَا شَفِيعٌ وَ إِنْ تَعِيدُوا كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

التفسير

إشاره

الذين اتخذوا الدين لعبا:

هذه الآية تواصل ما بحثته الآية السابقة، و تأمر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أن يدع أولئك الذين يستهينون بأمر دينهم، و يتخذون مديا يلهون و يلعبون به مذهباً لهم و يغترون بالدنيا و بمتاعها المادى: وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَ لَهْوًا وَ عَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا .

بديهي أن الأمر بترك هؤلاء لا يتعارض مع قضيه الجهاد، فللجهاد شروط، و لإهمال الكفار شروط أخرى، و كل واحد من هذين الحالين يجب أن يتحقق فى ظروفه الخاصه، قد يستلزم الأمر-أحيانا-دفع المناوئين عن طريق عدم

الاعتناء بهم، و في أحيان أخرى قد يقتضى الأمر الجهاد و التوسل بالسلاح، أما القول بأن آيات الجهاد قد نسخت هذه الآية فغير صحيح.

و تشير هذه الآية إلى أنّ سلوكهم الحياتى من حيث المحتوى أجوف و واه، فهم يطلقون اسم الدين على بعض الأعمال التى هى أشبه بلعب الأطفال و مجنون الكبار، فهؤلاء غير جديرين بالمناقشه و المباحثه، و عليه يؤمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم بأن يعرض عنهم و لا يعتنى بدينهم الفارغ.

يتضح ممّا قلنا أنّ «دينهم» يعنى «دين الشرك و عباده الأصنام» الذى كانوا يدينون به، أما القول بأن المقصود هو «الدين الحق» و إنّ إضافه الدين إليهم يستند إلى كون الدين فطريا، فيبدو بعيد الاحتمال.

و الاحتمال الآخر فى تفسير الآية هو أن القرآن يشير إلى جمع من الكفار الذين كانوا يتعاملون مع دينهم كأعبوه و ملهاه، و لم ينظروا أبدا إلى الدين كأمر جاد يستوجب إمعان الفكر و التأمل، أى أنّهم كانوا لا يؤمنون حقيقه حتى فى معتقدات شركهم، و لم يقيموا وزنا حتى لدينهم الذى لا أساس له.

على كل حال فالآيه لا تخص الكفار وحدهم، بل هى تشمل جميع الذين يتخذون من الأحكام الإلهيه و من المقدسات وسائل للتلهى و ملء الفراغ و بلوغ الأهداف الماديه الشخصيه، أولئك الذين يجعلون الدين آله الدنيا، و الأحكام الإلهيه العوبه أغراضهم الخاصه.

ثمّ يؤمر الرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أن يتبهم إلى أعمالهم هذه و إلى أنّ هناك يوما لا بدّ لهم أن يستسلموا فيه لنتائج أعمالهم و لن يجدوا من ذلك مفرا: وَ ذَكَّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ (١).

ص: ٣٣٤

١ - ١) - «البسل» هو حفظ الشىء و منعه بالقوه و القهر، و الإبسال حمل المرء على التسليم، كما تطلق الكلمه على الحرمان من الثواب، أو أخذ الرهائن، و الجيش الباسل بمعنى القاهر الذى يحمل العدو على التسليم، و المعنى فى الآية هو تسليم المرء و خضوعه لأعماله السيئه.

يوم لا شفيع ينفع ولا ولي سوى الله: لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ .

إنهم يؤمئذ في حال صعبه مؤلمه يرزحون في قيود أعمالهم بحيث إنهم يرتضون أن يدفعوا أية غرامه (إن كان عندهم ما يدفعونه) ولكنها لن تقبل منهم:

وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا

(١)

ذلك لأنهم يكونون بين مخالف أعمالهم، ولا فديه تنجيهم، ولا توبه تنفعهم بعد أن فات الأوان: أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا

ثم يشار إلى جانب مما سيصيبهم من العذاب الأليم بسبب إعراضهم عن الحق والحقيقه: لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ .

إنهم يتعدَّبون بالماء الحريق من الداخل، و يكتونون بنار الجحيم.

يجدر الانتباه هنا إلى أن جملة أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا هي بمثابة السبب الذي يمنع من قبول الغرامه و من قبول أى شفيع و ولي، أى أن عقابهم ليس لعله خارجيه بحيث يمكن دفعها بشكل من الأشكال، بل ينبع من داخل الذات و سلوكها و أعمالها، إنهم أسرى أعمالهم القبيحه، لذلك لا مفر لهم، لأن فرار المرء من أعماله و آثارها إنما هو فرار من ذاته، و هو غير ممكن.

غير أننا لا بد أن نعلم أنّ هذه الحاله من الشده و الصعوبه و انعدام طريق العوده و رفض الشفاعة إنما تكون بحق الذين أصروا على كفرهم و استمروا عليه، كما يتبين من عبارته: بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (الفعل المضارع يفيد الاستمراريه).

ص: ٣٣٥

(١ - ١) - «العدل» بمعنى «المعادل» و هو ما يدفع جزاء و غرامه لقاء التحرر، و هو أشبه في الواقع بما يفتدى به.

اشاره

قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرُدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ
أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ إِنَّهُمْ لَأَبْغَىٰ وَأَبْغَىٰ هُوَ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ
الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢)

التفسير

اشاره

كان المشركون يصرون على دعوه المسلمين إلى العوده إلى الكفر و عباده الأصنام، فنزلت هذه الآية تأمر النبي صلى الله عليه و آله و سلم بالرد عليهم رداً يدحض رأيهم و يفند دعوتهم في جواب بصيغه الاستفهام الاستنكارى: أ تريدون منا أن نشرك مع الله ما لا يملك لنا نفعاً فنعبده لذلك، و لا يملك لنا ضرراً فنخافه؟! قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا .

هذه الآية تشير إلى أنّ أفعال الإنسان تنشأ عاده عن دافعين، فهى إما أن تهدف إلى استجلاب منفعه (ماديه كانت أم معنويه)، و أمّا إلى دفع ضرر (ماديا كان أم معنويا). فكيف يقدم الإنسان على أمر ليس فيه أى من هذين العاملين؟

ثم يأتي باستدلال آخر على المشركين، فيقول: إذا عدنا إلى عبادة الأصنام، بعد الهداية الإلهية نكون قد رجعنا القهقري، وهذا يناقض قانون التكامل الذي هو قانون حياتي عام: وَ نُرُدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ (١).

ثم يضرب مثلاً لتوضيح الأمر، فيقول: إن الرجوع عن التوحيد إلى الشرك أشبه بالذى أغوته الشياطين (أو غيلان البوادي التي كان عرب الجاهلية يعتقدون أنه تمكن في منعطفات الطرق و تغوى السابله و تضلهم عن الطريق) فتاه عن مقصده و ظل حيراناً في البادية: كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا بينما له رفاق يرشدونه إلى الصراط السوى المستقيم و ينادونه: هلم إلينا، و لكنّه من الحيره و التيه بحيث لا يسمع النداء، أو إنه غير قادر على اتخاذ القرار: لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ اثْنًا (٢).

و في الختام يؤمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أن يقول: إن الهداية من الله و ليس لنا إلا أن نسلم لأمر الله رب العالمين: قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَ أُمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ .

و هذا دليل آخر على رفض دين المشركين، إذ التسليم لا يكون إلا لخالق الكون و مالكه و رب عالم الوجود، لا الأصنام التي لا دور لها في إيجاد هذا العالم و إدارته.

سؤال:

يبرز هنا هذا السؤال: لم يكن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ قبل البعثة من أتباع دين المشركين فكيف تقول الآية: نُرُدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا وَ نحن نعلم أنه لم يسجد قط

ص: ٣٣٧

١- ١) - «أعقاب» جمع «عقب» و هو مؤخر الرجل، و رجع على عقبه بمعنى انثنى راجعاً، و هو هنا كناية عن الانحراف عن الهدف، و هو ما يطلق عليه اليوم اسم «الرجعية».

٢- ٢) - «استهوته» من «الهوى» و هو ميل النفس إلى الشهوة، و استهوته بمعنى حملته على إتباع الهوى، و «الحيره» هي التردد في الأمر، و في الأصل: الجيئه و الذهاب، فالآية تشير إلى الذين يذهبون من الإيمان إلى الشرك مستلهمين تحركاتهم من الشيطان.

لصنم، إذ لم يرد هذا في جميع التواريخ التي كتبت عنه، بل أن مقام العصمه لا يمكن أن يسمح بحدوثه؟

الجواب:

في الحقيقة تعتبر هذه الآية مما جاء على لسان جميع المسلمين، لا على لسان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وحده، ولذلك جاءت الضمائر فيها بصيغته الجمع.

الآية التالية، تواصل شرح الدعوه الإلهيه قائله: إِنَّا فَضَّلَا عَنْ التَّوْحِيدِ، فقد أمرنا بإقامه الصَّلاه وبتقوى الله: وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُواهُ .

و في الختام يشار إلى المعاد و إلى أَنَّ النَّاسَ إِلَى اللَّهِ يَرْجِعُونَ: وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

هذه الآيات القصار تكشف عن البرنامج الذي يدعو اليه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و المتألف من أربعة مبادئ، تبدأ بالتوحيد و تنتهى بالمعاد، و بينهما مرحلتان متوسطتان هما: تقويه الارتباط بالله، و الالتقاء من كل ذنب.

اشاره

وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَ لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالَمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)

التفسير

هذه الآيه دليل على ما جاء فى الآيه السابقه، و على ضروره التسليم لله و إتباع رسوله، لذلك تقول: هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ .

إنّ مبدأ عالم الوجود هو وحده الجدير بالعباده، و هو وحده الذى يجب الخضوع و التسليم له، لأنّه خلق الأشياء لمقاصد حقّه.

المقصود من «الحق» فى الآيه هو الأهداف و النتائج و المنافع و الحكم، أى أنّ كل مخلوق قد خلق لهدف و غايه و مصلحه، و هذه الآيه تشبه الموضوع الذى تناوله الآيه (٧٧) من سوره ص التى جاء فيها: وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا .

ثمّ يقول: إنّه فضلا عن كونه مبدع عالم الوجود، فان يوم القيامه أيضا يقوم بأمره، و إذا ما أصدر أمره بقيام ذلك اليوم فإنّه يتحقق فورا: وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ

يحتمل بعضهم أنّ هذه العبارة تشير إلى مبدأ الخلق و إيجاد عالم الوجود، حيث خلق كل شيء بأمر الله، ولكن بالنظر لأنّ الفعل «يقول» مضارع، و هناك قبل هذه الآية إشارة إلى أصل الخلق، و كذلك بالرجوع إلى الآيات التالية، يمكن القول بأنّ هذه العبارة تخص البعث و يوم القيامة.

سبق في تفسير الآية (١١٧) من سورة البقره في المجلد الأول أن قلنا إنّ كُنْ فَيَكُونُ لا- تعنى إصدار أمر لفظي لشيء أن يكون فيكون، بل تعنى إنّ إذا شاء خلق شيء، فإنّ إرادته تتحقق دون حاجة الى وجود أى عامل آخر، فإذا شاء أن يتحقق الشيء فهو يتحقق فوراً. و إذا شاء أن يتحقق تدريجياً فإنّ خطّه تحقّقه التدريجى تبدأ.

ثمّ يضيف: أنّ ما يقوله الله هو الحق، أى أنّه مثلما كان مبدأ الخلق ذا أهداف و نتائج و مصالح، كذلك سيكون يوم القيامة: قَوْلُهُ الْحَقُّ .

و فى ذلك اليوم الذى ينفخ فيه فى صور و يبعث الناس يوم القيامة، يكون الحكم و الملك لله: وَ لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ

حكومه الله على عالم الوجود و مالكيته له قائمتان منذ بدايه الخلق حتى نهايته و فى يوم القيامة، و لا يختص ذلك بيوم القيامة وحده، لكن هناك عوامل و أسباباً تؤثر فى مسار هذه الدنيا و تقدمها نحو أهدافها، لذلك قد يغفل الإنسان أحياناً عن وجود الله وراء هذه الأسباب و العوامل، أمّا فى ذلك اليوم الذى تتعطل فيه جميع الأسباب و العوامل، فإنّ حكومه الله و مالكيته تكونان أجلى و أوضح من أى وقت سابق، كما جاء فى آيه أخرى:

ص: ٣٤٠

١ - ١) - يختلف المفسرون فى متعلق الظرف «يوم»، فبعض يعلقه بجملة «خلق» و بعض يعلقه بجملة «اذكروا» المحذوفه، و لكن لا يستبعد أن يكون متعلقاً بجملة «يكون»، فيصبح المعنى: يكون يوم القيامة يوم يقول له كن.

فيما يتعلق بماهية «الصور» وكيف ينفخ فيه إسرافيل فتموت الأحياء، ثم يعيد النفخ في الصور فيعود الجميع إلى الحياة و يبدأ يوم القيامة-سوف نشرح ذلك إن شاء الله-في تفسير الآية (٦٨) من سورة الزمر.

و في ختام الآية إشاره إلى ثلاث من صفات الله تعالى، فهو: **عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**.

ترد هذه الصفات غالبا في الآيات التي تخص يوم القيامة، أي أنه بمقتضى صفة العلم المطلق عالم بأعمال عباده، و بمقتضى قدرته و حكمته يجازى كلا بما يستحقه.

ص: ٣٤١

اشاره

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤)

التفسير

اشاره

لما كانت هذه السوره تحارب الشرك و عباده الأصنام و يدور فيها الكلام أكثر ما يدور على المشركين و عبده الأصنام، و تستخدم مختلف الأساليب لإيقاظهم، فهى تستخدم هنا حكاية إبراهيم بطل التوحيد، و تشير إلى منطقته القوى فى تحطيم الأصنام ضمن بضع آيات.

من الجدير بالانتباه أنّ القرآن فى كثير من بحوثه عن التوحيد و محاربه عباده الأصنام يستند إلى هذه الحقيقه، لأنّ إبراهيم عليه السلام كان يحظى باحترام الأوام كافه، و على الأخص مشركى العرب.

يقول: إنّ إبراهيم و بنخ أباه (عمّه) قائلان: أ تختار هذه الأصنام الحقيقه التى لا - حياه فيها آلهه للعباده. وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ و أى ضلال أشد و أضح من أن يجعل الإنسان ما يخلقه بيده إلهها يعبده، و يتخذ من كائن جامد لا روح فيه و لا إحساس ملجأ يفرع إليه و يبحث عن حل مشكله عنده.

هل كان آزر أبا إبراهيم؟

تطلق كلمه «الأب» فى العربيه على الوالد غالبا، و لكنّها قد تطلق أيضا على الجد من جهه الأمّ و على العم، و كذلك على المربى و المعلم و الذين يساهمون بشكل ما فى تربيته الإنسان، و لكنّها إذا جاءت مطلقه فأنّها تعنى الوالد ما لم تكن هناك قرينه تدلّ على غير ذلك.

فهل الرجل الذى تشير إليه الآيه (آزر) هو والد إبراهيم؟ أم يجوز أن يكون عابد الأصنام و صانعها والد نبى من أولى العزم؟ ألا يكون للوراثه من هذا الوالد تأثير شىء فى أبنائه؟ بعض مفسّرى أهل السنّه يجيب بالإيجاب على السؤال الأوّل، و يعتبر آزر والد إبراهيم الحقيقى، أمّا المفسّرون الشيعه فيجمعون على أن آزر ليس والد إبراهيم، بل قال بعضهم: إنّه كان جدّه لأمه، و قال أكثرهم: إنّه كان عمه، و هم فى ذلك يستندون إلى القرائن التاليه:

١- لم يرد فى كتب التّاريخ أنّ أبا إبراهيم هو آزر، بل يقول التّاريخ إنّ اسم أبيه هو «تارخ» و هذا ما ورد أيضا فى العهدين القديم و الجديد، و الذين يعتبرون آزر والد إبراهيم يستندون إلى تعليلات لا يمكن قبولها من ذلك أنّهم يقولون: إنّ اسم والد إبراهيم هو تارخ و لقبه آزر، و هذا القول لا تسنده الوثائق التّاريخيه.

أو يقولون: إنّ «آزر» اسم صنم كان أبو إبراهيم يعبده، و هذا القول لا يأتلف مع هذه الآيه التى تقول أن أباه كان آزر، إلا إذا قدرنا جملة أو كلمه، و هذا أيضا خلاف الظاهر.

٢- يقول القرآن: ﴿كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ... ثُمَّ لَكَيْلًا يَتَّخِذُ أَحَدٌ مِنْ اسْتَغْفَارِ إِبْرَاهِيمَ لِآزَرَ حُجَّةً يَقُولُ:

﴿وَمَا كَانَ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ

و ذلك لأن إبراهيم كان قد وعد آزر أن يستغفر له: سَأَسْتَعْفِرُ لَكَ رَبِّي (٢) بأمل رجوعه عن عباده الأصنام، ولكنه عند ما رآه مصمما على عباده الأصنام و معاندا، ترك الاستغفار له.

يتضح من هذه الآية بجلاء أن إبراهيم بعد أن يئس من آزر، لم يعد يطلب له المغفرة و لم يكن يليق به أن يفعل.

كل القرائن تدل على أن هذه الحوادث وقعت عند ما كان إبراهيم شابا، يعيش في بابل و يحارب عبده الأصنام.

ولكن آيات أخرى في القرآن تشير إلى أن إبراهيم في أواخر عمره، و بعد الانتهاء من بناء الكعبة، طلب المغفرة لأبيه (في هذه الآيات) - كما سيأتي - لم تستعمل كلمة «أب» بل استعملت كلمة «والد» الصريحة في المعنى (حيث يقول:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ...

رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ

إذا جمعنا هذه الآية مع آية سورة التوبة التي تنهى المسلمين عن الاستغفار للمشركين و تنفى ذلك عن إبراهيم، إلا لفتره محدوده و لهدف مقدس، تبين لنا بجلاء أن المقصود من «أب» في الآية المذكوره ليس «الوالد»، بل هو العم أو الجد من جانب الأم أو ما إلى ذلك، و بعبارة أخرى: إن «والد» تعطى معنى الأبوه المباشرة، بينما «أب» لا تفيد ذلك.

و قد وردت في القرآن كلمة «أب» بمعنى العم، كما في الآية (١٣٣) من سورة البقره: قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَ الضمير في «قالوا» يعود على أبناء يعقوب، و كان إسماعيل عم يعقوب،

١- (١) - التوبة، ١١٣ و ١١٤.

٢- (٢) - مريم، ٤٧.

٣- (٣) - إبراهيم، الآيتان ٣٩ و ٤١.

٣- وهناك روايات إسلاميه مختلفه تؤكّد هذا الأمر،

فقد جاء فى حديث معروف عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: «لم يزل ينقلنى الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهرات حتى أخرجنى فى عالمكم هذا لم يدنسنى بدنس الجاهليه» (١).

ولا شك أن أقبح أدناس الجاهليه هو الشرك و عباده الأوثان، أما القائلون أنّ أقبحها هو الزنا فلا يقوم على قولهم دليل. خاصّه و أنّ القرآن يقول: إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ (٢).

الطبرى، و هو من علماء أهل السنه، ينقل فى تفسيره «جامع البيان» عن المفسّر المعروف «مجاهد» أنّه قال: لم يكن آزر والد إبراهيم (٣).

الآلوسى فى «روح المعانى» يؤكّد عند تفسير هذه الآيه أنّ الشيعة ليسوا وحدهم الذين يعتقدون أن آزر لم يكن والد إبراهيم، بل إن كثيرا من علماء المذاهب الأخرى يرون أن آزر اسم عم إبراهيم (٤).

و السيوطى العالم السنى المعروف، نقل فى كتابه «مسالك الحنفاء» عن أسرار التنزيل للفخر الرازى أن والدى رسول الله صلّى الله عليه وآله و سلّم و أجداده لم يكونوا مشركين أبدا. مستدلا على ذلك بالحديث الذى نقلنا آنفا، ثم يستند السيوطى نفسه إلى مجموعتين من الروايات.

الأولى: تقول إنّ آباء رسول الله صلّى الله عليه وآله و سلّم و أجداده حتى آدم كان كل واحد منهم أفضل أهل زمانه (و ينقل أمثال هذه الروايات عن «صحيح البخارى» و «دلائل النبوه» للبيهقى و غيرهما من المصادر).

ص: ٣٤٥

١ - ١) - يورد هذا الحديث كثيرون من مفسّرى الشيعة و السنه، كالمرحوم الطبرسى فى «مجمع البيان» و النيسابورى فى تفسير «غرائب القرآن» و الفخر الرازى فى «التفسير الكبير» و الآلوسى فى تفسير «روح المعانى».

٢ - ٢) - التوبه، ٢٨.

٣ - ٣) - «جامع البيان»، ج ٧، ص ١٥٨.

٤ - ٤) - تفسير «روح المعانى»، ج ٧، ص ١٦٩.

و الثانيه:هى التى تقول:إنه فى كل عصر و زمان كان هناك أناس من الموحدين الذين يعبدون الله، ثم يجمع بين هاتين المجموعتين من الروايات و يستنتج أن أجداد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، بما فيهم والد إبراهيم، كانوا حتما من الموحدين (١).

يتبين من هذا أن التفسير المذكور لهذه الآية مبنى على وجود قرائن واضحة من القرآن نفسه و من مختلف الروايات الإسلاميه، و ليس تفسيرا مبنيا على رأى الشخصى فقط، كما يقول بعض مفسرى أهل السنه، مثل صاحب «المنار».

ص: ٣٤٦

١-١) - «مسالك الحنفاء»، ص ١٧ كما جاء فى هامش «بحار الأنوار»، ١٨، ١٥ أو بعدها، الطبعة الجديده.

إشاره

وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلُكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ لِيُكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئنُ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)

التفسير

إشاره

أدله التوحيد في السموات:

على أثر الكره الذي كان يحمله إبراهيم للأوثان و طلبه من آزر أن يترك عباده الأصنام، تشير هذه الآيات إلى نضال إبراهيم المنطقي مع مختلف عبده الأصنام، و تبين كيفية توصله إلى أصل التوحيد عن طريق الاستدلال العقلي الواضح.

تَبَيَّنَ أَوْلَا أَنَّ اللَّهَ كَمَا عَرَّفَ إِبْرَاهِيمَ عَلَى أَضْرَارِ عِبَادِهِ الْأَصْنَامِ عَرَّفَهُ عَلَى مَالِكِيهِ اللَّهُ وَ سُلْطَتِهِ الْمَطْلُوقَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: وَ كَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (١).

«الملكوت» من «ملك» بمعنى المالكيه و الحكم و «الواو» و «التاء» أضيفتا للتوكيد و المبالغه، فالمقصود من الكلمه هنا حكمه الله المطلقه على عالم الوجود برمته.

و لعل هذه الآيه إجمالاً للتفصيل الوارد في الآيات التالیه بشأن الكواكب و القمر و الشمس و إدراك أنها من المخلوقات لدى مشاهدته أفولها.

أى أن القرآن بدأ بذكر مجمل تلك الحالات، ثم أخذ يفصلها، و بهذا يتضح المقصود من إراءه ملكوت السموات و الأرض لإبراهيم عليه السلام.

كما أنه في الختام يقول إنَّ الهدف من ذلك هو أن يصبح إبراهيم من أهل اليقين: وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُؤَقِنِينَ .

لا شك أن إبراهيم كان موقناً يقيناً استدلالياً و فطرياً بواحدانية الله، و لكنّه بدراسه أسرار الخلق بلغ يقينه حد الكمال، كما أنه كان مؤمناً بالمعاد و يوم القيامة، و لكنّه بمشاهده الطيور المذبوحه التي عادت إليها الحياه بلغ إيمانه مرحله «عين اليقين».

الآيات التالیه تشرح هذا المعنى، و تبين استدلال إبراهيم من أفول الكواكب و الشمس على عدم الوهيته، فعند ما غطى ستار الليل المظلم العالم كله، ظهر أمام بصره كوكب لامع، فنادى إبراهيم: هذا ربّي! و لكنّه إذ رآه يغرب، قال: لا أحبّ الذين يغربون: فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَتْ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ .

ص: ٣٤٨

١ - ١) - و على هذا، هناك محذوف مقدار في الآيه يدل عليه ما في الآيات السابقه، فيكون مضمون الآيه: كما أرينا إبراهيم قبح ما كان عليه قومه من عباده الأصنام كذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات و الأرض (تأمل بدقه).

و مرّه أخرى رفع عينيه إلى السماء فلاح له قرص القمر الفضى ذو الإشعاع و اللمعان الجذاب على أديم السماء، فصاح ثانيه: هذا ربّي: و لكنّ مصير القمر لم يكن بأفضل من مصير الكواكب قبله، فقد أخفى وجهه خلف طيات الأفق.

هنا قال إبراهيم: إذا لم يرشدني ربّي إلى الطريق الموصل إليه فسأكون في عداد التائهين فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربّي فلما أفل قال لئن لم يهديني ربّي لأكوننّ من القوم الضالّين .

عند ذاك كان الليل قد انقضى، و راح يجمع أطراف أستاره المظلمه هاربا من كبد السماء، بينما راحت الشمس تطل من المشرق و تلقى بأشعتها الجميله كنسيج ذهبي تنشره على الجبل و الوادي و الصحراء، و ما أن وقعت عين إبراهيم الباحث عن الحقيقه على قرص الشمس الساطع صاح: هذا ربّي فإنه أكبر و أقوى ضوءاً، و لكنّه إذ رآها كذلك تغرب و تختفي في جوف الليل البهيم أعلن إبراهيم قراره النهائي قائلاً: يا قوم! لقد سئمت كل هذه المعبودات المصطنعه التي تجعلونها شريكه لله: فلما رأى الشمس بازغاً قال هذا ربّي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنني بريء مما تُشركون .

الآن بعد أن عرفت أنّ وراء هذه المخلوقات المتغيره المحدوده الخاضعه لقوانين الطبيعه إلهها قادرا و حاكماً على نظام الكائنات، فإنني أتجه إلى الذي خلق السموات و الأرض، و في إيماني هذا لن أشرك به أحداً، فاني موحد و لست مشركاً: إنني و جهتُ و جهي للذي فطر السماوات و الأرض خيفاً و ما أنا من المشركين .

للمفسرين كلام كثير في تفسير هذه الآيه و الآيات التالیه بشأن ما دفع

بإبراهيم الموحّد العابد لله الواحد، أن يشير إلى كوكب في السماء و يقول: هذا ربّي؟ و من بين آراء المفسّرين الكثيره نقف عند تفسيرين قد اختار كلا منهما عدد من كبار المفسّرين، كما أنّهما مدعومان بشواهد من المصادر الحديثيه:

الأول: يقول إنّ إبراهيم كان يريد شخصيا أن يفكر في معرفه الله و أن يعثر على المعبود الذي كان يجده بفطرته النقيه في أعماق ذاته، إنّ كان يعرف الله بنور فطرته و دليل العقل الإجمالي إذ إنّ كل تعبيراته تدل على أنّه لم يكن يشك أبدا في وجوده، و لكنّه كان يبحث عن مصداقه الحقيقي، بل لقد كان يعلم بمصداقه الحقيقي أيضا، و لكنّه كان يريد أن يصل عن طريق الاستدلال العقلي الأوضح إلى مرحله «حق اليقين».

و قد وقعت له هذه الحوادث قبل نبوته، و يحتمل أن تكون في أوّل بلوغه أو قبيل ذلك.

نقرأ في بعض التواريخ و الروايات أنّ هذه كانت المرّه الأولى التي يرنو فيها إبراهيم بنظره إلى السماء و إلى كواكبها الساطعه، لأن أمّه كانت منذ طفولته قد أخفته في عار خوفا عليه من بطش نمرود الجبار و جلاوزته.

غير أنّ هذا الاحتمال يبدو بعيدا، إذ يصعب أن نتصور إنسانا يعيش سنوات طويله في بطن غار و لا يخلو خارجه، و لو مرّه، في ليله ظلماء، فلعل الذي قوى هذا الاحتمال في نظر بعض المفسّرين هو تعبير رأى كوكبا الذي يوحى بأنه لم يكن قد رأى كوكبا حتى ذلك الحين، و لكن هذا التعبير لا يحمل في الواقع مثل هذا المفهوم، بل المقصود هو أنّه، و إن كان قد رأى الكواكب و الشمس و القمر مرات حتى ذلك الوقت، فقد ألقى الأوّل مرّه نظره فاحصه مستطلعه إلى هذه الظواهر. و كان يفكر في مغزى بزوغها و أفولها و نفى الألوهيه عنها، في الحقيقه كان إبراهيم قد رآها مرارا، و لكن لا بتلك النظره.

لذلك فإنه عند ما يقول: هذا ربّي لا يقولها قاطعا جازما، بل يقولها من باب

الفرض و الاحتمال حتى يفكر في الأمر، وهذا يشبه تماما حالنا و نحن نحاول أن نعثر على سبب حادثه ما، فنقلب مختلف الاحتمالات و الافتراضات على وجوهها واحده واحده، و نستقصى لوازم كل فرضيه حتى نعثر على العله الحقيقيه، و هذا لا يكون كفرا، بل و لا حتى دليلا على عدم الإيمان، بل هو طريق لتحقيق أكثر و لمعرفه أفضل، للوصول إلى مراحل أعلى من الإيمان، كما فعل إبراهيم في مسأله «المعاد» إذ قام بمزيد من الدراسه يوصل إلى مرحله الشهود و الاطمئنان.

جاء في تفسير العياشى عن محمد بن مسلم عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السلام أنه قال: «إنما كان إبراهيم طالبا لربه، و لم يبلغ كفرا، و أنه من فكر من الناس في مثل ذلك فإنه بمنزلته» (1).

و هنالك روايتان أخريان يذكرهما تفسير نور الثقلين بهذا الشأن.

أمّا التفسير الثانی فيقول: إن إبراهيم كان يقول هذا الكلام أثناء مخاطبته عبده النجوم و الشمس، و يحتمل أن يكون ذلك بعد مخاصماته الشديده في بابل مع عبده الأوثان و خروجه منها إلى الشام، حيث التقى بهؤلاء الأقوام، و إبراهيم الذي كان قد خبر عناد الأقوام الجاهله في بابل و خطأ تفكيرهم، أراد أن يحلب إليه انتباه عبده الكواكب و الشمس و القمر، فأظهر في البدايه أنه معهم و قال لهم:

إنكم تقولون: إن كوكب الزاهره هذا هو ربّي، حسنا، فلنر ما يحصل لهذا الاعتقاد في النهايه، و لم يمض وقت طويل حتى اختفى وجه الكواكب النير خلف ستار الأفق المظلم، عندئذ اتخذ إبراهيم من هذا الأفول سلاحا يواجههم به فقال: أنا لا يمكنني أن أتقبل معبودا كهذا.

و عليه، فإنّ عبارته هذا ربّي تعني: هذا ما تعتقدون أنه ربّي، أو أنه قالها بلهجه الاستفهام: «هذا ربّي؟».

ص: ٣٥١

و يؤيد هذا التفسير أيضا روايه في «نور الثقلين» و تفاسير أخرى عن كتاب «عيون أخبار الرضا عليه السلام».

كيفيه استدلال إبراهيم على التوحيد:

هنا يبرز هذا السؤال: كيف استطاع إبراهيم أن يستدل من غروب الشمس و القمر و الكواكب على عدم ربوبيتها؟ يمكن أن يكون هذا الاستدلال من طرق ثلاثه:

١- إنَّ الله المربي، كما يستفاد من كلمه «رب» لا بدَّ أن يكون دائما قريبا من مخلوقاته و أن لا ينفصل عنهم لحظه واحده، و عليه لا يجوز لكائن يغرب و يختفى ساعات طويله، بنوره و بركته و تنقطع صلته كليا عن الكائنات الأخرى، أن يكون ربًا و إلها.

٢- إنَّ كائنا يغرب و يبرز و يخضع للقوانين الطبيعیه، لا يمكن أن يحكم على هذه القوانين و يملكها؟ إنَّه هو نفسه مخلوق ضعيف يخضع لأوامرها و غير قادر على أدنى انحراف عنها...

٣- إنَّ الكائن المتحرك لا يمكن إلاَّ يكون كائنا حادثا، فقد أثبتت الفلسفه أنَّ الحركه دليل على الحدوث، لأنَّ الحركه ذاتها نوع من الوجود الحادث، و أن ما يكون في معرض الحوادث، أى يكون ذا حركه، لا يمكن أن يكون كائنا أزليا و أبديا (تأمل بدقه).

ملاحظات

هنا لا بدَّ من الانتباه إلى النقاط التاليه:

ص: ٣٥٢

١- فى الآيه الأولى من الآيات التى نحن بصدددها، كلمه «كذلك...» تلفت النظر، و هى تعنى: إننا مثلما أوضحنا عقلا أضرار عباده الأصنام لإبراهيم، كذلك نريه مالكيه الله للسموات و الأرض و حكمه عليها، يقول بعض المفسرين:

ذلك يعنى: إننا كما أريناك قدره الله و حكمه على السموات، أريناها لإبراهيم أيضا لكى يزداد معرفه بالله.

٢- أصل «الجن» ستر الشىء عن الحاسه، فمعنى الآيه هو: عند ما ستر الليل ملامح الكائنات عن إبراهيم... و إطلاق كلمه «مجنون» على المخبول لإسدال ستار على عقله، و إطلاق «الجن» على الكائنات غير المرثيه جاء من هذا الباب، و كذلك الجنين لاختفائه عن الأنظار فى رحم أمه، و «الجنه» هى البستان التى اختفت أرضها تحت أغصان الأشجار، و قيل للقلب «الجنان» لاستتاره فى الصدر، أو لأنه يخفى أسرار الإنسان.

٣- و بشأن تعيين الكوكب الذى رآه إبراهيم، ذهب المفسرون مذاهب شتى، غير أن معظمهم يراه «الزهره» أو «المشترى» و يذكر التاريخ أن القدامى كانوا يعبدون هذين الكوكبين من بين آلهتهم، أما الحديث المنقول عن الإمام الرضا عليه السلام فى «عيون الأخبار» فيقول: إن ذلك الكوكب كان «الزهره»، و هذا ما جاء أيضا فى تفسير على بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام (١).

يقول بعض المفسرين أن أهالى كلده و بابل شرعوا فى محاربه عبده الأصنام، و راحوا يختارون السيارات باعتبار كل واحده منها تمثل إلهها لنوع من أنواع الأشياء من ذلك أنهم اعتبروا «المريخ» إله الحرب، و «المشترى» إله العدل و العلم، و «عطارد» إله الوزراء و «الشمس» ملك الآلهه جميعا (٢).

٤- «بازغ» من «بزغ» و بزغه: شقه و أسال دمه، و لذلك تطلق على عمل

ص: ٣٥٣

١- ١) - تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٣٥ و ٧٣٧.

٢- ٢) - تفسير أبى الفتوح، ج ٤، ص ٤٦٧-الهامش.

البيطار فى الجراحه، و إطلاق هذه الكلمه على طلوع الشمس أو القمر تعبير بلىغ يحمل أجمل صور التشبيه، فالشمس و القمر عند الطلوع يشقان الظلام، و يسكبان عند الأفق إحمرار الشفق الذى ليس ببعيد الشبه عن الدم المسفوح.

٥- «فطر» من «الفطور» بمعنى الشق، و لعل إطلاق هذه الكلمه على خلق السماء و الأرض ناشئ- كما قلنا فى تفسير الآيه (١٤) من هذا السوره- من كون العالم كان فى اليوم الأوّل حسبما يقول العلم اليوم- كتله واحده، ثمّ تشققت و ظهرت الكرات و الإ-جرام السماويه الواحده بعد الأخرى (انظر تفسير الآيه المذكوره لمزيد من الإيضاح).

٦- «الحنيف» هو الخالص، كما جاء فى تفسير الآيه (٦٧) من سوره آل عمران.

إشارة

وَ حَاجَّةُ قَوْمِهِ قَالَ أَ تَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَ قَدْ هَدَانِ وَ لَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَ فَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَ كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَ لَا تَخَافُونَ أَنْكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَ تِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)

التفسير

إشارة

تعقيبا على ما جرى بحثه في الآيات السابقة بشأن استدلالات إبراهيم عليه السلام التوحيدي، تشير هذه الآيات إلى ما دار بين إبراهيم و الأقوام المشركه من عبده الأصنام، الذين بدأوه بالمحاجه و حَاجَّةُ قَوْمِهِ .

فردّ عليهم إبراهيم عليه السلام قائلا: لماذا تجادلونني في الله الواحد الأحد و تخالفونني فيه، و هو الذي وهبني من الدلائل المنطقيه الساطعه ما هداني به إلى

طريق التوحيد قَالَ أُتْحَاجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ .

يَتَّضِحُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِجَلَاءِ أَنَّ قَوْمَ إِبْرَاهِيمَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ كَانُوا يَحَاوِلُونَ جَهْدَهُمْ وَبِأَيِّ ثَمَنٍ أَنْ يَبْعُدُوا إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَقِيدَتِهِ وَيَرْجِعُوهُ إِلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَلَكِنَّهُ بِكُلِّ شَجَاعَةٍ وَجِرَاحَةٍ رَدَّ عَلَيْهِمُ بِالْأَدْلَاءِ الْمُنْطَقِيَّةِ الْوَاضِحَةِ.

لا- تشير هذه الآيات إلى المنطق الذي توسل به قوم إبراهيم لحمله على ترك عقيدته، ولكن يبدو من جواب إبراهيم أنهم قد حذروه وهددوه بغضب آلهتهم وعقابها في محاولته لإرغابه وإخافته، لأننا على أثر ذلك نسمع إبراهيم يستهين بتهديدهم ويؤكد لهم أنه لا يخشى أصنامهم التي لا حول لها ولا قوة في إيصال أي أذى إليه وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ.. فما من أحد ولا من شيء بقادر على أن يلحق بي ضرراً إلا إذا شاء الله: إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا (١).

يُظْهِرُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَعَى لِاتِّخَاذِ إِجْرَاءٍ وَقَائِيٍّ تَجَاهَ حَوَادِثٍ مُحْتَمَلَةٍ، فَيُؤَكِّدُ أَنَّهُ إِذَا أَصَابَهُ فِي هَذَا الصَّرَاحِ شَيْءٌ -فَرْضًا- فَلَنْ يَكُونَ لِذَلِكَ أَيُّ عِلَاقَةٍ بِالْأَصْنَامِ، بَلْ يَعُودُ إِلَى إِرَادَةِ اللَّهِ، لِأَنَّ الصَّنَمَ الَّذِي لَا رُوحَ فِيهِ وَلَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى أَنْ يَنْفَعِ نَفْسَهُ أَوْ يَضُرَّهَا، لَا يَتَأْتِي لَهُ أَنْ يَنْفَعِ أَوْ يَضُرَّ غَيْرَهُ.

وَيُضِيفُ إِلَى ذَلِكَ مَبْنِئًا أَنَّ رَبَّهُ عَلَى دَرَجَةٍ مِنْ سَعَةِ الْعِلْمِ بِحَيْثُ يَسَعُ بِعِلْمِهِ كُلَّ شَيْءٍ: وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا .

هَذِهِ الْعِبَارَةُ فِي الْوَاقِعِ -دَلِيلٌ عَلَى الْعِبَارَةِ السَّابِقَةِ الَّتِي تَقُولُ: إِنَّ الْأَصْنَامَ لَا قُدْرَةَ لَهَا عَلَى النِّفْعِ وَالضَّرْرِ، لِأَنَّهَا لَا تَمْلِكُ الْعِلْمَ وَلَا الْمَعْرِفَةَ اللَّازِمِينَ لِمَنْ يَرِيدُ أَنْ يَنْفَعِ أَوْ يَضُرَّ، إِنَّ اللَّهَ الَّذِي أَحَاطَ بِعِلْمِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ هُوَ وَحْدَهُ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَكُونَ مَنْشَأَ النِّفْعِ وَالضَّرْرِ، فَلَمْ إِذْنِ أَحْشَى غَضَبَ غَيْرِ اللَّهِ؟! ثُمَّ يَحْرُكُ فِيهِمْ رُوحَ الْبَحْثِ وَالتَّفْكِيرِ فَيَخَاطِبُهُمْ قَائِلًا: أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ .

ص: ٣٥٦

١-١) -هذا أشبه بالاستثناء المنقطع، فقد نفى عن الأصنام كل قدره على النفع والضرر، وأثبتها لله، وللمفسرين آراء أخرى في تفسير هذه الآية، غير أن ما قلناه أقرب.

فى الآيه التآليه ينهج إبراهيم منطقآ استدلاليا آخرفىقول لعبده الأصنام:

كيف يمكنى أن أخشى الأصنام و يستولى علىّ الخوف من تهديدكم، مع إئى لا- أرى فى أصنامكم أثرا للعقل و الإدراك و الشعور و القوه و العلم، أمآ أنتم فعلى الرغم من إيمانكم بوجود الله و إقراركم له بالعلم و القدر، و معرفتكم بآئه لم يأمركم بعباده هذه الأصنام، فأنكم لا تخافون غضبه: وَ كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَ لَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا (١)

إننا نعلم أن عبده الأصنام لم يكونوا ينكرون وجود الله خالق السموات و الأرض، و لكنهم كانوا يشركون الأصنام فى عبادته و يعتبرونها شفيعه لهم عنده، كونوا منصفين إذن و قولوا: فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

يستند منطق إبراهيم عليه السلام هنا إلى منطق العقل القائم على الواقع، إنكم تهددوننى بغضب الأصنام، مع أن تأثيرها و هم من الأوهام، و لكنكم بعدم خشيتكم من الله العظيم الذى تؤمن به جميعا، و نعتقد بوجوب اتباع أمره تكونون قد تركتم أمرا ثابتا، و تمسكتم بأمر و همى فهو لم يصدر إلينا أمرا بعباده الأصنام.

فى الآيه التآليه جواب يدلى به إبراهيم على سؤال كان هو قد ألقاه فى الآيه السابقه (و هذا أسلوب من أساليب الاستدلال العلمى، فقد يسأل المتكلم سؤالا- عن لسان المخاطب ثم يبادر إلى الإجابة عليه مباشرة كدليل على أن الجواب من الوضوح بحيث ينبغى أن يعرفه كل شخص)، يقول: إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَمْ يَمِزْجُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ، هُمُ الْآمِنُونَ وَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ وَ لَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أَوْلَيْتَكَ لَهُمُ الْآمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ .

ثمّ رواه عن أمير المؤمنين على عليه السلام تؤيد كون هذه الآيه استكمالا لحوار

ص: ٣٥٧

١- ١) -«السلطان» بمعنى التفوق و الإنتصار، و لما كان الدليل و البرهان من أسباب الفوز و الإنتصار، فقد يوصفان بالسلطان أيضا، كما هو الحال هنا، أى لا وجود لأى دليل على السماح بعبادتها و هذا ما لم يستطع إنكاره عباد صنم، لأنّ أمرا كهذا ينبغى أن يصدر عن طريق العقل و المنطق، أو عن طريق الوحى و النبوه، و عباده الأصنام مفتقره إلى كليهما.

إبراهيم مع عبده الأصنام (١).

بعض المفسرين يرى أن من المحتمل أن تكون هذه الآية بيانا إلهيا، وليست مقوله قالها إبراهيم، إلا أن ما ذكرناه فضلا عن تأييد الرواية المذكورة له - أكثر انسجاما مع ترتيب الآيات و وضعها، أما القول بأن هذه الآية لسان حال عبده الأصنام، وإنهم قالوها بعد تيقظهم على أثر سماع أدله إبراهيم، فأمر بعيد الاحتمال جدا.

ما معنى «الظلم» هنا؟

يرى معظم المفسرين أن معنى «الظلم» هنا هو «الشرك». و أن الآية (١٢) من سورة لقمان: إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ دليل على ذلك.

و

في روايه منقوله عن ابن عباس أنه عند نزول هذه الآية شقَّ على الناس فقالوا: يا رسول الله و أيننا لم يظلم نفسه؟ (أى أن الآية تشملهم جميعا)، فقال:

رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم: «إنه ليس الذى تعنون، ألم تسمعوا إلى ما قال العبد الصالح:

... يَا بَنِيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ

(٢)

غير أن آيات القرآن معاني متعدده في كثير من الحالات بحيث يمكن أن يكون أحدها أوسع و أشمل، و هذا الاحتمال جائز في هذه الآية أيضا، فيحتمل أن يكون «الأمن» عاما يشمل الأمن من عقاب الله، و الأمن من حوادث المجتمع المؤلمه، و الأمن من الحروب و المفاسد، و الجرائم و حتى الأمن النفسى لا- يتحقق إلا- عند ما يسود المجتمع مبدءان معا: الإيمان و العدالة الاجتماعيه، فإذا ما تزلزلت قاعده الإيمان بالله، و زال الشعور بالمسئوليه أمام الله، و حل الظلم محل العدالة الاجتماعيه، فلن يكون في مثل هذا المجتمع أمان. لذلك فعلى الرغم من

ص: ٣٥٨

١- (١) - تفسير مجمع البيان في تفسير الآية.

٢- (٢) - المصدر السابق.

المساعي و الجهود التي يبذلها فريق من العلماء فى العالم للحيلولة دون انعدام الأمان، فإنّ الهوه بين العالم و حاله الأمان و الاستقرار تتسع يوما بعد يوم إنّ السبب هو ما جاء فى الآيه المذكوره: تنزل أركان الإيمان، و قيام الظلم مقام العداله.

إنّ تأثير الإيمان فى الاطمئنان النفسى و الهدوء الروحى لا يمكن إنكاره، كما لا يخفى على أحد حالات تبكيت الضمير و القلق النفسى بسبب ارتكاب المظالم.

روى عن الإمام الصادق عليه السلام فى قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ قَالَ: «بما جاء به محمد صلى الله عليه و آله و سلم من الولايه، و لم يخلطوها بولايه فلان و فلان» (١).

هذا التفسير يستهدف- فى الحقيقه- بيان روح الموضوع فى الآيه الشريفه، إذ أنّ الكلام يدور حول ولايه الله و عدم خلطها بولايه غيره، و لما كانت ولايه أمير المؤمنين على عليه السلام بموجب إنّما و ليكنم الله و رسوله.. قيسا من ولايه الله و رسوله صلى الله عليه و آله و سلم و الولايات غير المعينه من قبل الله ليست كذلك، فإنّ هذه الآيه من خلال نظره واسعه تشمل الجميع، و عليه ليس المقصود من هذا الحديث أن ينحصر معنى الآيه فى هذا فقط، بل إنّ هذا التفسير قيس من مفهوم الآيه الأصلى.

لذلك نجد فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه جعل هذه الآيه تشمل الخوارج الذين خرجوا من ولايه الله و دخلوا فى ولايه الشيطان (٢).

الآيه التّاليه فيها إشاره إجماليه لما مضى من بحث بشأن التوحيد و مجابهه الشرك كما جاء فى لسان إبراهيم: فتقول: وَ تِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ .

صحيح أنّ تلك الاستدلالات كانت منطقيه توصل إليها إبراهيم بقوّه العقل

ص: ٣٥٩

١- ١) - تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٤٠.

٢- ٢) - تفسير البرهان، ج ١، ص ٥٣٨.

و الإلهام الفطرى غير أن قوه العقل و الإلهام الفطرى من الله، لذلك فإن الله ينسبها إلى نفسه و يوقعها فى القلوب المستعده كقلب إبراهيم عليه السلام.

و من الجدير بالملاحظه أن «تلك» اسم إشارة للبعيد، غير أنها تستعمل أحيانا للقريب للدلاله على أهميه المشار إليه و علو مقامه، مثل ذلك ما جاء فى أول سوره البقره: ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ .

ثم تقول الآيه: نَزَفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ (١) و لكيلا يخامر بعضهم الشك فى أن الله يحابى فى إعطاء الدرجات لمن يشاء، تقول: إن الله متصف بالحكمه و بالعلم، فلا يمكن أن يرفع درجه من لا يستحق ذلك: إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

ص : ٣٦٠

١- ١) - أنظر المجلد الثالث، تفسير الآيه (١٤٥) من سوره النساء لمعرفة الفرق بين «الدرجه» و «الدرك».

إشاره

وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧)

التفسير

فى هذه الآيات إشاره إلى النعم التى أسبغها الله على إبراهيم، وهى تتمثل فى أبناء صالحين و ذريه لائقه، وهى من النعم الإلهيه العظيمه.

يقول سبحانه: وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ و لم تذكر الآيه ابن إبراهيم الآخر إسماعيل، بل ورد اسمه خلال حديث آيه تاليه، و لعل السبب يعود إلى أنّ ولاده إسحاق من (ساره) العقيم العجوز تعتبر نعمه عجيبه و غير متوقعه.

ثمّ يبين أنّ مكانه هذين لم تكن لمجرد كونهما ولدى نبى، بل لإشعاع نور الهدايه فى قلوبهما نتيجة التفكير السليم و العمل الصالح: كُلًّا هَدَيْنَا .

ثم لكيلا يتصور أحد أنه لم يكن هناك من يحمل لواء التوحيد قبل إبراهيم، و أن التوحيد بدأ بإبراهيم، يقول: وَ نُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ .

إننا نعلم أن نوحا هو أول أولى العزم من الأنبياء الذين جاؤوا بدين و بشريعه.

فالإشارة إلى مكانه نوح، و هو من أجداد إبراهيم، و الإشارة إلى فريق من الأنبياء من أبنائه و قبيلته، إنما هي توكيد لمكانه إبراهيم المتميزه من حيث «الوراثه و الأصل» و «الدريه».

و على أثر ذلك ترد أسماء عدد من الأنبياء من أسره إبراهيم: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُُلَيْمَانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَى وَ هَارُونَ ، ثم يبين أن منزله هؤلاء ناشئه من أعمالهم الصالحه و هم لذلك ينالون جزاءهم: وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ .

هناك كلام كثير بين المفسرين بشأن الضمير في وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ هل يعود إلى إبراهيم، أم إلى نوح؟ غير أن أغلبهم يرجعه إلى إبراهيم، و الظاهر أنه لا مجال للشك في عوده الضمير إلى إبراهيم، لأن الكلام يدور على ما وهبه الله لإبراهيم، لا لنوح عليهما السلام، كما أن الروايات التي سوف نذكرها تؤيد هذا الرأي.

النقطه الوحيدة التي حدت ببعض المفسرين إلى إرجاع الضمير إلى نوح هي ورود ذكر «يونس» و «لوط» في الآيات التالية، إذ المشهور في التأريخ أن «يونس» لم يكن من أبناء إبراهيم، كما أن «لوطا» كان ابن أخى إبراهيم أو ابن أخته.

غير أن المؤرخين ليسوا مجمعين على نسب «يونس» فبعضهم يراه من أسره إبراهيم (1) و آخرون يرونه من أنبياء بنى إسرائيل (2)

ثم إن الجارى عند المؤرخين أن يحفظوا النسب من جهه الأب، و لكن ما

ص: ٣٦٢

١-١) - تفسير الآلوسى، ج ٧، ص ١٨٤.

٢-٢) - دائره المعارف فريد وجدى، ج ١٠، ص ١٠٥٥- فى ماده «يونس».

الذى يمنع من أن ينتسب «يونس» من جهة أمّه إلى إبراهيم، كما هي الحال بالنسبة إلى عيسى الذين نقرأ اسمه في الآيات؟ أمّا «لوط» فهو، وإن لم يكن من أبناء إبراهيم، فقد كان من أسرته، فالعرب تطلق لفظه «الأب» على «العم»، وكذلك تعتبر ابن الأخ أو ابن الأخت من «ذريته» المرء. وعلى هذا ليس لنا أن نتغاضى من ظاهر هذه الآيات فنعيد الضمير إلى نوح، وهو ليس موضوع القول هنا.

في الآية الثانية يرد ذكر زكريا ويحيى وعيسى والياس على أنهم جميعا كانوا من الصالحين، أى أنّ مكانتهم المرموقة ليست من باب المجاملة الإجبارية، بل هي بسبب أعمالهم الصالحة في سبيل الله: وَ زَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ .

الآية الثالثة تذكر أربعة آخرين من الأنبياء والقادة الإلهيين، وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط الذين رفعهم ربهم درجات على أهل زمانهم: وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَ لُوطًا وَ كَلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ .

لم يتفق المفسرون بشأن اسم «اليسع» فقد قال بعض: إنّه اسم عبرى أصله «يوشع» ثم أضيفت إليه الألف و اللام و أبدلت الشين سينا، و بعض يرى أنه اسم عربى من الفعل المضارع «يسع» و على كل حال هو اسم أحد الأنبياء من نسل إبراهيم.

و في الآية الأخيرة إشاره عامه إلى آباء الأنبياء المذكورين و أبنائهم و إخوانهم ممن لم ترد أسماءهم بالتفصيل و هم جميعا من الصالحين الذين هداهم الله: وَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ ذُرِّيَّتِهِمْ وَ إِخْوَانِهِمْ وَ اجْتَبَيْنَاهُمْ وَ هَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

هنا لا بدّ من الإشارة إلى بعض النقاط:

١- أبناء النبي:

في هذه الآيات اعتبر عيسى من أبناء إبراهيم (و باحتمال من أبناء نوح) مع أنّنا نعلم أنّ اتصاله بهما إنّما هو من جهة الأم، وهذا دليل على أنّ سلسله النسب تتقدم من جهة الأب و الأم تقدما متساويا، و لذلك فإنّ الأحفاد من الابن أو البنت هم ذريه المرء و أولاده.

و على هذا فإنّ أئمه أهل البيت عليهم السّلام، و هو جميعا من أحفاد رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم من ابنته يعتبرون أبناء رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم.

إنّ جاهليه ما قبل الإسلام لم تكن تعترف للمرأة بأيه مكانه أو قيمه، و كان النسب عندهم ما اتصل من جهة الأب فقط، غير أنّ الإسلام أبطل هذه العاده الجاهليه، و من المؤسف أنّ بعض أصحاب الأقسام الذين في نفوسهم شيء تجاه أئمه أهل البيت عليهم السّلام، سعوا إلى إنكار هذا الموضوع، و حاولوا العوده إلى الجاهليه بالامتناع عن نسبه أبناء فاطمه إلى رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و رفضوا اطلاق عبارته «ابن رسول الله» عليهم إحياء للتقاليد الجاهليه.

هذا الموضوع نفسه كان قد عرض للمناقشه على عهود الأئمه، فكانوا يجيبونهم بهذه الآيه باعتبارها الدليل الدامغ و الردّ الحاسم على ما يفترون.

من ذلك ما

جاء في «الكافي» و في تفسير العياشى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «و الله لقد نسب الله عيسى بن مريم في القرآن إلى إبراهيم عليه السّلام من قبل النساء ثمّ تلا: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُليْمَانَ... إلى آخر الآيتين، و ذكر عيسى.

و في تفسير العياشى عن أبى الأسود قال: أرسل الحجاج إلى يحيى بن معمر قال: بلغنى أنّك تزعم أنّ الحسن و الحسين من ذريه النبي تجدوناه في كتاب الله، و قد قرأت كتاب الله من أوله إلى آخره فلم أجده، قال: أليس تقرأ سورة الأنعام:

حتى بلغ يحيى و عيسى أليس عيسى من ذرية إبراهيم و ليس له أب؟ قال: صدقت.

و في (عيون أخبار الرضا) في باب جمل من أخبار موسى بن جعفر عليه السلام مع هارون الرشيد و مع موسى بن المهدي حديث طويل بينه و بين هارون و فيه... ثم قال: كيف قلت: إننا ذرية النبي، و النبي صلى الله عليه و آله و سلم لم يعقب، و إنما العقب للذكر، لا- للأُنثى و أنتم ولد لابنته، و لا- يكون لها عقب، فقلت: «أسألك بحق القرابه و القبر و من فيه إلا- ما اعفيتني من هذه المسأله» فقال: لا، أو تخبرني بحجتكم فيه يا ولد على، و أنت يا موسى يعسوبهم و إمام زمانهم، كذا أنهى إلى، و ليست أعفيك في كل ما أسألك عنه حتى تأتيني فيه بحججه من كتاب الله، و أنتم تدعون معشر ولد على أنه لا يسقط عنكم منه شيء لا ألف و لا واو، إلا- تأويله عندكم، و احتججتكم بقوله عز و جل: ﴿مَّا فَطَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِثْرًا شَيْءٍ و استغنيتم عن رأى العلماء و قياسهم، فقلت: «تأذن لى فى الجواب؟» قال: هات، فقلت: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَى وَ عِيسَى مِنْ أَبُو عِيسَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قال: ليس لعيسى أب، فقلت: «إنما الحق بذرارى الأنبياء من طريق مريم عليها السلام، و كذلك ألحقنا بذرارى النبي من قبل أمنا فاطمه عليها السلام» (١).

يلفت النظر أن بعض المتعصبين من أهل السنه تطرقوا إلى هذا الموضوع عند تفسيرهم لهذه الآيه، منهم الفخر الرازى فى تفسيره حيث استدل بها أن الحسن و الحسين من ذرية النبي، لأن الله ذكر عيسى من ذرية إبراهيم مع أنه يرتبط به عن طريق الأم فقط (٢).

و صاحب المنار الذى لا يقل تعصبا عن الفخر الرازى يقول: بعد أن ينقل

ص: ٣٦٥

١-١) -تفسير(نور الثقلين)، ج ١، ص ٧٤٣.

٢-٢) -تفسير الفخر الرازى، ج ١٣، ص ٦٦.

حديثا كره البخاري في صحيحه عن أبي بكر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال مشيرا إلى الحسن بن علي عليه السلام: «إن ابني هذا سيد» بينما كانت لفظه (ابن) عند عرب الجاهلية لا تطلق على ابن البنت.. ثم يضيف، لهذا السبب، اعتبر الناس أولاد فاطمه أولاد رسول الله و عترته و أهل بيته.

لا شك أن أبناء البنت و أبناء الابن هم أبناء المرء و لا فرق بينهما، و لا هي قضيه اختص بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحده، و ما سبب الاعتراض على هذا إلا التعصب و إلا التمسك بالأفكار الجاهلية، و لهذا نجد جميع التشريعات الإسلامية، كالزواج و الإرث، لا تفرق بينهما، إن الاستثناء الوحيد في هذا الباب هو في موضوع الخمس الذي ورد في كتب الفقه، حيث جعل لمن تحصل فيه عنوان السيادة.

٢- لماذا وردت أسماء الأنبياء في ثلاث مجموعات في ثلاث آيات؟

يحتمل بعض المفسرين أن المجموعه الأولى: داود و سليمان و أيوب و يوسف و موسى و هارون هؤلاء الستة، كانوا بالإضافة إلى نبوتهم يمسكون بيدهم القيادة و زمان الحكم، و لعل ورود كذلك تجزي المحسنين إشارة إلى الأعمال الصالحة التي قاموا بها أثناء حكمهم.

أما المجموعه الثانية: زكريا و يحيى و عيسى و الياس، فهم بالإضافة إلى نبوتهم كانوا معروفين بالزهد و اعتزال الدنيا، فجاء تعبير: كُلُّ مِنَ الصَّالِحِينَ بعد ذكر أسمائهم.

و المجموعه الثالثة: إسماعيل و اليسع و يونس و لوط، فهم يشتركون في كونهم قاموا برحلات طويلة و هاجروا في سبيل نشر دعوه الله، و عبارته كلاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (إذ اعتبرنا الإشارة إلى هؤلاء الأربعة، لا لجميع من ورد ذكرهم في هذه الآيات الثلاث) تعتبر إشارة إلى هجره هؤلاء في أرجاء الأرض و بين الأقاليم المختلفة.

٣- أهمية الأبناء الصالحين في تعريف شخصيه الإنسان:

و هذا موضوع آخر يستنتج من هذه الآيات، فلا إضفاء الأهمية على شخصيه إبراهيم عليه السّلام بطل تحطيم الأصنام، يشير الله إلى شخصيات إنسانيه عظيمه كانوا من ذريته في العصور المختلفه، و يصفهم بصفات جليله، بحيث نجد من بين مجموع خمسه و عشرين نبيا ورد ذكرهم في القرآن، سته عشر منهم من ذريه إبراهيم، و واحدا من أجداده، و هذا في الواقع درس كبير للمسلمين كافه لكي يدركوا أنّ أبناءهم جزء من كيانهم و شخصيتهم، و أنّ لقضاياهم التربويه و الإنسان أهميه كبيره جدا.

٤- جواب على اعتراض:

لعل الذين يقرءون: وَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوَانِهِمْ وَ اجْتَبَيْنَاهُمْ وَ هَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ يستنتجون أنّ آباء الأنبياء لم يكونوا جميعا من المؤمنين و أنّ منهم من لم يكن موحدا، كما يقول بعض المفسرين من أهل السنه عند تفسير هذه الآيه، و لكننا يجب أن نلاحظ أنّ تعبير اجْتَبَيْنَاهُمْ وَ هَدَيْنَاهُمْ بالقربينه الموجوده في هذه الآيات تعنى مقام النبوه و حمل الرساله، و بهذا يتهاوى الاعتراض، أى أنّ معنى هذه الآيه سيكون هكذا: إنّنا قد اخترنا بعضا منهم لمقام النبوه، و هذا لا يعنى أنّ الآخرين لم يكونوا موحدين و فى الآيه (٩٠) من هذه السوره وردت لفظه «الهدايه» بمعنى النبوه (١).

ص: ٣٦٧

١- ١) - «من آبائهم» جار و مجرور متعلقان أما بجمله «فضلنا» الوارده فى الآيه السابقه أو بمحذوف تفسره الجمله التاليه فيكون الأصل «اجتبينا من آبائهم» ينبغى الالتفات إلى أنّ «من» فى الآيه تبعيضيّه حسب الظاهر.

إشارة

ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالتَّبْوَةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٩٠)

التفسير

إشارة

ثلاثة امتيازات مهمّة:

بعد ذكر مجموعات الأنبياء فى الآيات السابقة، تتناول هذه الآيات الخطوط العامّة لحياتهم، وتبدأ القول: ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ .

أى أنّ هؤلاء على الرغم من صلاحهم و استرشادهم بقوة العقل و الفكر فى سيرهم الحثيث على طريق الهدايه، شملتهم عنايه الهدايه الإلهيه، و أخذت بأيديهم و إلّا فاحتمال انحرافهم و انحراف كل انسان موجود دائما.

و لكيلا يحسب البعض أنّ هؤلاء قد أجبروا على السير فى هذا الطريق، أو

يظن أنّ الله ينظر إلى هؤلاء نظره خاصّه و استثنائه دونما سبب، يقول القرآن عنهم: **وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** .

فهم إذن مشمولون بهذا القانون الإلهي الذي يسرى على غيرهم بغير محاباه.

الآية التالية تشير إلى ثلاثه امتيازات مهمّه هي أساس جميع امتيازات الأنبياء، و هي قوله: **أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ** .

و لا يعنى هذا أنّهم جميعا كانوا من أصحاب الكتب السماويه، و لكن الكلام يدور على المجموع، فنسب الكتاب إلى المجموع أيضا، و هذا كقولنا: الكتاب الفلاني ذكر العلماء و كتبهم، أى كتب من له تأليف منهم.

أما المقصود من «الحكم» فثمّه احتمالات ثلاثه:

١- الحكم بمعنى «العقل و الإدراك»، أى: إنّنا فضلا عن إنزال كتاب سماوى عليهم فقد وهبناهم القدره على التعقل و الفهم، إذ أن وجود الكتاب بغير وجود القدره على فهمه فهما كاملا عميقا لا جدوى فيه.

٢- بمعنى «القضاء» أى أنّهم باستنباط القوانين الإلهيه من تلك الكتب السماويه كانوا قادرين على أن يقضوا بين الناس بامتلاكهم لجميع شروط القاضى العادل.

٣- بمعنى «الحكومه» و الإمساك بزمان الإدارة، بالإضافة إلى مقام النبوه، إنّ الدليل على المعانى المذكوره-بالإضافه إلى المعنى اللغوى الذى ينطبق عليها- هو أنّ كلمه «الحكم» قد وردت بهذه المعانى نفسها أيضا فى آيات أخرى من القرآن (١) .

و ليس ثمة ما يمنع من أنّ يشمل استعمال الكلمه فى هذه الآيه المعانى الثلاثه مجتمعهم، فالحكم أصلا- كما يقول «الراغب» فى «مفرداته» هو المنع،

ص: ٣٦٩

١- ١) - جاءت فى الآيه (١٢) من سوره لقمان بمعنى العلم و الفهم، و فى الآيه (٢٢) من سوره ص بمعنى القضاء، و فى الآيه (٢٦) من سوره الكهف بمعنى الحكومه.

و من ذلك العقل الذى يمنع من وقوع الأخطاء و المخالفات، و كذلك القضاء الصحيح يمنع من وقوع الظلم، و الحكومه العادله تقف بوجه الحكومات غير العادله، فهى قد استعملت فى المعانى الثلاثه.

قلنا من قبل إنّ جميع الأنبياء لم يكونوا يحظون بهذه الامتيازات كلها، و إسناد حكم إلى الجمع لا يعنى شموله جميع أفراد ذلك الجمع، بل قد يكون لبعض أفرادها، و من ذلك مسأله إيتاء الكتاب لهؤلاء الأنبياء.

ثمّ يقول: لئن رفضت هذه الجماعه (أى المشركون و أهل مكّه) تلك الحقائق، فإنّ دعوتك لن تبقى بغير استجابته، إذ إنّنا قد أمرنا جمعا آخر لا بقبولها فحسب، بل و بالحفاظ عليها فهم لا يسلكون طريق الكفر أبدا، بل يتبعون الحقّ:

فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ

جاء فى تفسير «المنار» و تفسير «روح المعانى» عن بعض المفسرين أنّ المقصود بالقوم هم الفرس، و قد أسرعوا فى قبول الإسلام و جاهدوا فى سبيل نشره، و ظهر فيهم العلماء فى شتى العلوم و الفنون الإسلاميه و ألفوا الكثير من الكتب (١).

الآيه الأخيره تجعل من مهاج هؤلاء الأنبياء العظام قدوه رفيعه للهدايه تعرض على رسول لاسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ فتقول له: أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيمُهَاتِهِمْ أَقْتَدَهُ (٢).

تؤكد هذه الآيه مرّه أخرى على أن أصول الدعوه التى قام بها الأنبياء

ص: ٣٧٠

١ - ١) - يحتمل أيضا أن يكون المراد من «هؤلاء» هم الأنبياء أنفسهم، أى إذا افترضنا المستحيل، و قلنا أنّ هؤلاء الأنبياء العظام تخلوا عن أداء الرساله الإلهيه، فإنّ الرساله كانت تواصل سيرها على أيدي قوم آخرين، هنالك تعبيرات مماثله فى القرآن، كما جاء فى الآيه (٦٥) من سوره الزمر لئن أشركت ليحبطن عملك .

٢ - ٢) - الهاء فى «أقتده» ليست ضميرا، بل هى هاء السكت التى تلحق الكلمه المتحركه عند الوقف، مثل همزه الوصل التى يؤتى بها إذا كان حرف الابتداء فى الكلمه ساكنا، و هى تسقط عند الوصل، مثل هاء السكت غير أنّ هذه الهاء بقيت فى الكتابه القرآنيه من باب الاحتياط و ارتوى الوقف هنا لكى تظهر هاء السكت.

واحد، بالرغم من وجود بعض الاختلافات الخاصه و الخصائص اللازمه التي تقتضيها الحاجه فى كل زمان و مكان، و كل دين تال يكون أكمل من الدين السابق. بحيث تستمر مسيره الدروس العلميه و التربويه حتى تصل إلى المرحله النهايه، أى الإسلام.

و لكن ما المقصود من أمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن يهتدى أولئك الأنبياء؟ يقول بعض المفسرين: إن المقصود قد يكون هو الصبر و قوه التحمل و الثبات فى مواجهه المشاكل، و يقول بعض آخر إنه «التوحيد و إبلاغ الرساله» و لكن يبدو أن للهدايه معنى واسعاً يشمل التوحيد و سائر الأصول العقائديه، كما يشمل الصبر و الثبات و سائر الأصول الأخلاقيه و التربويه.

يتضح مما سبق أن هذه الآيه لا تتعارض مع القول بأن الإسلام ناسخ الأديان و الشرائع السابقه، إذ أن النسخ إنما يشمل جانباً من أحكام تلك الشرائع لا الأصول العامه للدعوه.

ثم يؤمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن يقول للناس إنه مثل سائر الأنبياء لا يتقاضى أجراً لقاء عمله تبليغ الرساله: قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا .

ليس الاقتداء بالأنبياء و بسنتهم الخالده هو وحده الذى يوجب على عدم طلب الأجر، بل أن هذه الدين الطاهر الذى جئتكم به وديعه إلهيه أضعها بين أيديكم، و طلب الأجر على ذلك لا معنى له.

ثم إن هذا القرآن و هذه الرساله و الهدايه إن هى إلا إيقاظ و توعيه للناس جميعاً: إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ .

إن النعم العامه الشامله مثل نور الشمس و الهواء و الأمطار هى أمور عامه و عالميه، لا تباع و لا تشتري، و لا أجر يعطى لقاءها، هذه الهدايه أو الرساله ليست خاصه و مقصوره على بعض دون بعض حتى يمكن طلب الأجر عليها، (مما قيل فى تفسير هذه العبارة يتضح الترابط بينها و بين عبارات الآيه الأخرى، و بين ما

سبقها من آيات).

كما يتضح من هذه الآية الأخيرة أنّ الدين الإسلامي ليس قومياً ولا إقليمياً، وإنما هو دين عالمي عام.

ص: ٣٧٢

اشاره

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِّنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ
تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا مِّمَّا تُكْفِرُونَ بِهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)

سبب النزول

اشاره

الغافلون عن الله:

روى عن ابن عباس أنّ جمعا من اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا محمد أحمقا أنزل الله عليك كتابا؟ فقال: نعم، فقالوا: قسما بالله إنه لم ينزل عليك كتابا من السماء (١).

هنالك أقوال أخرى فى سبب نزول هذه الآيه، و لكننا سنعرف فيما بعد أنّ ما قلناه أقرب و أنسب.

ص: ٣٧٣

يختلف المفسرون حول كون هذه الآية وارده بشأن اليهود أو المشركين، ولما لم تكن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مباحثات مع اليهود في مكة، بل بدأت في المدينة، وهذا السورة مكيه، لذلك يرى بعضهم أن هذه الآية قد نزلت في المدينة، إلا أنها وضعت في هذه السورة المكيه بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا في القرآن ما يشابهه.

لاتضح الحقيقه يجب أن نتعرف أولاً على تفسير الآية الإجمالى، ثم نبحت عنم تتحدث عنه الآية، و عما تستهدفه.

في البدايه تقول الآية: إنهم لم يعرفوا الله معرفه صحيحه و أنكروا نزول كتاب سماوى على أحد: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِنْ شَيْءٍ .

فيأمر الله رسوله أن قلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ .

ذلك الكتاب الذى جعلتموه صحائف متناثره، تظهرون منه ما ينفعكم و تخفون ما تظنونه يضرّكم: تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا طَرِيسًا تُبَدُّونَهَا وَ تُخْفُونَ كَثِيرًا .

إنكم تتعلمون من هذا الكتاب السماوى أموراً كثيره لم تكونوا أنتم و لا آباؤكم تعلمون عنها شيئاً: وَ عَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لَا آبَاؤُكُمْ .

و فى ختام الآية يؤمر النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن يذكر الله و أن يترك أولئك فى أباطيلهم و عنادهم و لعبهم: قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ .

إذا كانت هذه الآية قد نزلت فى المدينة و كان اليهود هم المعنيين بها، يكون المعنى أن جمعا من اليهود كانوا ينكرون نزول كتاب سماوى على الأنبياء.

و لكن هل يمكن أن ينكر اليهود-اتباع التوراه-نزول كتاب سماوى؟ نعم، و سيزول عجبك إذا علمت المسأله التاليه: لو أمعنا النظر فى العهد الجديد

(الإنجيل) و العهد القديم (التوراه و الكتب الملحقه بها) نجد أنّ كل هذه الكتب تفتقر إلى المسحه السماويه، أى أنّها ليست خطابا موجها من الله إلى البشر، بل إنّها مقولات وردت على ألسنه تلامذه موسى و المسيح عليهما السلام و أتباعهما على شكل سرد لحوادث تاريخيه و سير، و الظاهر أنّ اليهود و المسيحيين اليوم لا ينكرون ذلك، إذ أنّ حكايه موت موسى و عيسى و حوادث كثيره أخرى وقعت بعدهما وردت فى هذه الكتب، لا باعتبارها تنبؤات عن المستقبل، بل سردا لحوادث ماضيه، فهل يمكن لكتب مثل هذه أن تكون قد نزلت على موسى و عيسى؟! كل ما فى الأمر أنّ المسيحيين و اليهود يعتقدون أنّ هذه الكتب قد كتبت بأيدى أناس عندهم أخبار عن الوحي، فاعتبروها كتبا مقدسه خاليه من الخطأ و يمكن الاعتماد عليها.

بناء على هذا يتضح لنا لماذا كان هؤلاء يتتابهم العجب لدى سماعهم أسلوب القرآن بشكل خطاب من الله إلى النبي و إلى عباد الله؟ و كما قرأنا فى سبب نزول هذه الآيه فإنّهم قد انتابهم العجب فسألوا الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم إن كان الله قد أنزل عليه -حقا- كتاب، ثمّ أنكروا هذا الأمر كليا و نفوا أن يكون أى كتاب قد نزل على أحد، حتى على موسى.

غير أنّ الله يردّ عليهم قائلا: إنّكم -أنفسكم- تعتقدون أن ألواح و مواضع قد نزلت على موسى، أى إنّ الكتاب الذى بين أيديكم و ان لم يكن كتابا سماويا إلّا أنّكم تؤمنون -على الأقل- بأنّ شيئا مثل هذا قد نزل من قبل الله، و أنتم تظهرون قسما منه و تخفون كثيرا منه: و على ذلك فلا يبقى مجال للشك فى إمكان إنكار اليهود نزول كتاب سماوى.

أمّا إذا كانت الآيه كسائر آيات هذه السوره تخصّ المشركين، فيكون المعنى أنّهم أنكروا نزول أى كتاب سماوى لانكار و نفى دعوه النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم، و لكن الله يبيّن

لهم منطقياً أنهم لا يستطيعون إنكار ذلك كلياً بالنظر لنزول التوراه على موسى، و أنّ المشركين -و إن لم يدينوا بدين اليهود- كانوا يعتبرون الأنبياء السابقين و إبراهيم، و موسى أيضاً على أقوى احتمال- أنبياء في عصورهم و أقاليمهم، لذلك فهم عند ظهور نبي الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ لجأوا إلى أهل الكتاب يبحثون عندهم في كتبهم عن أمارات و دلائل تتنبأ بظهور هذا النبي، فلو لم يكونوا يؤمنون بأنّ تلك الكتب نازله من السماء، لما لجأوا إليها يطلبون ما طلبوا، لذلك فهم بعد أن سألوا اليهود، أظهروا ما كانت فيه مصلحتهم، و أخفوا ما عداه (كعلامات ظهور النبي الجديد المذكوره في تلك الكتب)، و على هذا يمكن تطبيق هذه الآيه على أقوال مشركي مكّه أيضاً.

لكن التفسير الأوّل أقرب إلى سياق الآيه و سبب النزول و ما فيها من ضمائر.

ملاحظات:

هنا لا بدّ من الإشارة إلى بضع نقاط:

١- «قراطيس» جمع «قرطاس» من أصل يوناني حسب قول بعضهم، و هو «ما يكتب فيه» كما يقول «الراغب» في «مفرداته» و بناء على ذلك فإن الورق العادي و جلود الحيوانات و الأشجار و أمثالها التي كانت تستخدم في الكتابه قديماً، تنضوي تحت هذه الكلمه.

٢- قد يسأل سائل: لماذا تدم الآيه اليهود كتابتهم الوحي الإلهي على القراطيس، و هل في تلك ما يوجب الذم؟ و جواباً على ذلك نقول: إنّ الذم لم يكن لهذا السبب، إنّما السبب هو أنّهم كتبوه على قراطيس متفرقه بحيث يمكنهم أن يظهروا منه ما تقتضيه منافعهم، و أن يخفوا ما يؤدي إلى ضررهم.

٣- إنّ عبارته وَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ في الواقع إشارة إلى أنّ من يعرف

اللّٰه معرفه صحيحه لا يمكن أن ينكر إرساله الهداه و المرشدين و معهم الكتب السماويه إلى البشر، لأنّ حكمه اللّٰه توجب:

أولاً: أن يعين الإنسان في مسيرته المليئه بالمنعطفات لبلوغ هدفه التكاملى الذى خلق من أجله و إلاّ انتقض الهدف من الخلقه، و هذا الهدف لا يمكن تحقيقه بغير الوحي و الكتب السماويه و التعاليم السليمه من كل خطأ و سهو.

ثانياً: كيف يمكن لربوبيه اللّٰه ذات الرحمه العامه و الخاصه أن تترك الإنسان و حيدا في طريق سعاده الملىء بمختلف الموانع و العقبات و المتاهات، فلا يرسل إليه قائدا و مرشدا يحمل التعاليم الشامله للأخذ بيده و توجيهه، و عليه فإن حكمته و رحمته توجبان إرسال الرسل و إنزال الكتب السماويه.

لا شك أن معرفه حقيقه الذات الالهيه المقدسه و كنه صفاته غير ممكنه، و هذه الآيه لا تقصد هذا الحدّ من معرفه اللّٰه، و إنّما تريد أن تقول: لو حصل الإنسان على المقدار الميسور من معرفه اللّٰه فلا يبقى شك بأن مثل هذا الربّ لا يمكن أن يترك عباده بدون هاد و دليل و كتاب سماوى.

ص: ٣٧٧

اشاره

وَ هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَ مَن حَوْلَهَا وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢)

التفسير

تعقيبا على البحث الذى دار فى الآيات السابقه حول كتاب اليهود السماوى، تشير هذه الآيه إلى القرآن باعتباره كتابا سماويا آخر، و الواقع أن ذكر التوراه مقدمه لذكر القرآن لإزاله كل عجب و تخوف من نزول كتاب سماوى على فرد من البشر، فتبدأ بالقول: وَ هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ وَ هُوَ كِتَابٌ «مبارك» لأنه مصدر كل خير و بركه و صلاح و تقدم، ثم إنه يؤكد الكتب التى نزلت قبله: مُصَدِّقٌ لِّلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، و المقصود من أن القرآن يصدق الكتب التى بين يديه هو أن جميع الإشارات و الإمارات التى وردت فيها تنطبق عليه.

و هكذا نجد علامتين على أحقيته القرآن وردتا فى عبارتين الأولى: وجود علامات فى الكتب السابقه تخبر عنه، و الثانية: محتوى القرآن نفسه الذى يضم كل خير و بركه و سعادته، و بناء على ذلك فصدق القرآن يتجلى فى محتواه من جهه، و فى المستندات التأريخيه من جهه أخرى.

ثم يبين القرآن هدف نزوله و هو توجيه الإنذار و التحذير لأُم القري (مكة) و الساكنين حولها و تسيبهم إلى مسئولياتهم و واجباتهم: وَ لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا (١).

«الإنذار» اخبار فيه تخويف من ترك الواجبات و المسئوليات و هذا من أهم أهداف القرآن، خاصه بالنسبه للطغاه المعاندين.

و فى الختام تقرر الآيه أن الذين يعتقدون بيوم القيامة، يوم الحساب و الجزاء، سيصدقون بهذا الكتاب، و يؤدون فريضه الصلاه و لا يفرطون فيها: وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ .

بحوث

اشاره

نلفت الانتباه هنا إلى النقاط التاليه:

١-الإسلام دين عالمي

تبين آيات القرآن المختلفه بما لا يدع مجالاً للشك أن الإسلام دين عالمي، من ذلك: لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ (٢) و إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٣). و قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً (٤) و غيرها كثير فى القرآن، و لكلها تؤكد هذه الحقيقه، و إنه لما يثير الانتباه أن معظم هذه الآيات قد نزلت فى مكة يوم لم يكن الإسلام قد تخطى حدود تلك المدينه.

و لكن فيما يخص الآيه التى نحن بصددھا، يظهر لنا السؤال التالي: إن الآيه

ص: ٣٧٩

١ - ١) - يختلف المفسرون فى الجملة التى يمكن أن نعطف عليها جملة «و لتنذر» و لعلها معطوفه على جملة محذوفه بمعنى «لتبشر» أو مثلها.

٢ - ٢) - الأنعام، ١٩.

٣ - ٣) - الأنعام، ٩٠.

٤ - ٤) - الأعراف، ١٥٨.

توجه الإنذار و الهدايه إلى ام القرى و من حولها، فكيف ينسجم هذا مع القول بأن الإسلام عالمى؟ فى الحقيقه أن هذا الاعتراض جاء أيضا على لسان اليهود و غيرهم من أتباع الأديان الأخرى ظانين أنهم قد أصابوا من عالميه الإسلام مقتلا، باعتبار أن الآيه تحدد مكانه بمنطقه خاصه هى مكه و أطرافها (١).

الجواب:

يتضح الجواب من هذا الاعتراض بالانتباه إلى نقطتين، بحيث ندرك أن هذه الآيه، فضلا عن كونها لا- تتعارض مع عالميه الإسلام، هى واحد من أدله عالميته أيضا:

القرية بلغه القرآن اسم لكل موضع يجتمع فيه الناس، سواء كان مدينه كبيره أم قرية صغيره، ففى سوره يوسف- مثلا- جاء على لسان اخوه يوسف يخاطبون أباهم: وَ سَأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا (٢) و نحن نعلم أنهم كانوا قد رجعوا لتوهم من عاصمه مصر حيث حجز عزيز مصر أخاهم (بنيامين) كذلك نقرا: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ (٣). بديهي أن المقصود هنا ليس القرى فى الأرياف، بل هو كل منطقه مسكونه فى العالم.

و من جهه أخرى هناك روايات عديده تقول: إن اليابسه قد انتشرت من تحت الكعبه، و هو ما أطلق عليه اسم «دحو الأرض».

كما أننا نعلم أنه فى البدايه هطلت أمطار غزيره فغطى الماء الكره الأرضيه برمتها، ثم غاض الماء شيئا فشيئا و استقر فى المنخفضات، و ظهرت اليابسه من

ص: ٣٨٠

١-١) -ورد اعتراض بعض المستشرقين بهذا الشأن ذكره صاحب المنار، ج ٧، ص ٦٢١، و فى تفسير فى ظلال القرآن، ج ٣، ص ٣٠٥.

٢-٢) -يوسف، ٨٢.

٣-٣) -الأعراف، ٩٦.

تحت الماء، و كانت مَكَّة أوَّل نقطه يابسه ظهرت من تحت الماء، حسب الأحاديث الإسلاميه.

و كون مَكَّة ليست أعلى مكان على الكره الأرضيه فى الوقت الحاضر، لا- يتعارض أبدا مع هذا القول، لأن مئات الملايين من السنين تفصلنا اليوم عن ذاك الزمان، و قد حدثت خلال ذلك تغيرات جغرافيه بدلت وجه الأرض كليا، فبعض الجبال هبطت إلى أعماق البحار، و بعض أعماق البحار ارتفع فصار جبلا، و هذا ثابت فى علم التضاريس الأرضيه و الجغرافيه الطبيعيه.

أمَّا كلمه «أم» فتعنى - كما سبق أن قلنا- الأصل و الأساس و المبدأ لكل شىء.

من كل هذا يتبين أنه إذا أطلق مَكَّة اسم «أم القرى» فذلك يستند إلى أنها كانت مبدأ ظهور اليابسه على الأرض، «و من حولها» أى جميع الناس الذين يسكنون الأرض برمتها.

و هذا ما تؤيده الآيات الأخرى التى تؤكد عالميه الإسلام، و كذلك الرسائل الكثيره التى بعث بها رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إلى رؤساء العالم، مثل كسرى و قيصر، و قد جاء شرح ذلك فى المجلد الثانى من هذا التفسير.

٢-العلاقه بين الإيمان بالقرآن و الإيمان بالآخره

تبين هذه الآيه: إن الذين يؤمنون بالآخره يؤمنون أيضا بالقرآن، أى أنهم يعلمون أن هذه الدنيا ما هى إلا مقدمه لعالم الآخره، و إنها أشبه بالمزرعه أو المدرسه أو المتجر، و الوصول إلى ذلك الهدف الرفيع و الاستعداد لذلك اليوم لا يكون إلا عن طريق مجموعه من القوانين و المناهج و الدساتير و إرسال الأنبياء.

بعباره أخرى، إن الله قد أرسل الإنسان إلى هذه الحياه ليطوى مسيرته التكامليه و ليصل إلى مستقره الأصلى فى العالم الآخره، و هذا الغرض ينتقض إذا

لم يرسل إليه الأنبياء و الكتب السماويه، من هنا يمكن أن نستنتج من الإيمان بالله و المعاد، الإيمان بنبوه الأنبياء و الكتب السماويه (تأمل بدقه).

٣- أهميه الصلاه

نلاحظ في هذه الآيه أنها تشير إلى الصلاه من بين جميع الفرائض الدينيه، و نعلم أنّ الصلاه هي مظهر الارتباط بالله، و لذلك كانت أرفع من جميع العبادات منزله، و يرى بعضهم أنه عند نزول هذه الآيه كانت العباده الوحيدة المفروضه حتى ذلك الوقت هي الصلاه (١).

ص: ٣٨٢

(١-١) - تفسير المنار، ج ٧، ص ٦٢٢.

اشاره

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)

سبب النزول

ثمّيه روايات متعدده في سبب نزول هذه الآيه وردت في كتب الحديث و التفسير، من ذلك أنّ الآيه نزلت بشأن شخص يسمى «عبد الله بن سعد» من كتاب الوحي، ثمّ خان فطرده رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، فراح يزعم أنّه قادر على قول مثل آيات القرآن، يقول جمع آخر من المفسرين أنّ الآيه، أو قسما منها، نزلت بحق «مسيلمه الكذاب» الذي ادعى النبوه، و لكن بالنظر لأدب مسيلمه الكذاب ظهر في أواخر حياه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و هذه السوره مكّيه، فإنّ مؤيدى هذا التفسير يقولون: إنّ هذه الآيه نزلت في المدينه، ثمّ أدخلت ضمن هذه السوره بأمر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم.

على كل حال هذه الآيه، مثل سائر آيات القرآن، نزلت فى ظروف خاصه، و هى ذات محتوى عام يشمل كل من ادعى النبوه و أمثالهم.

التفسير

فى الآيات السابقه مرّت الإشاره إلى مزاعم اليهود الذين أنكروا نزول أى كتاب سماوى على أحد، و فى هذه الآيه يدور الكلام على اشخاص آخرين يقفون على الطرف المعاكس تماما لأولئك، فيزعمون كذبا أن الوحي ينزل عليهم.

و تتناول الآيه ثلاث جماعات من هؤلاء بالبحث، ففى البدايه تقول: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا .

و الجماعه الثانيه هم الذين يدعون النبوه و نزول الوحي عليهم، فلا هم أنبياء، و لا نزل عليهم وحي: أَوْ قَالَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ .

و الجماعه الثالثه هم الذين أنكروا نبوه نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم، أو زعموا ساخريين أنهم يستطيعون أن يأتوا بمثل آيات القرآن، و هم فى ذلك كاذبون و لا قدره لهم على ذلك: وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ .

نعم، هؤلاء كلهم ظالمون، بل أظلم الظالمين، لأنهم يغلقون طريق الحق بوجه عباد الله و يضلونهم فى متاهات الضلال حائرين، و يحاربون قادة الحق، فهم ضالون مضلون، فمن أظلم ممن يدعى لنفسه القياده الإلهيه و ليست لديه صلاحيه مثل هذا المقام.

على الرغم من أن الآيه تخصّ ادعاء النبوه و الوحي، إلا أن روحها تشمل كل من يدعى كذبا لنفسه مكانه ليس أهلا لها.

ثم تبين العقاب الأليم الذى ينتظر أمثال هؤلاء فتقول: وَ لَوْ تَرَىٰ إِذِ

الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ

(١)

أى لو أنك-أيها النبي- رأيت هؤلاء الظالمين وهم يمرون بشدائد الموت والنزع الأخير، وملائكته قبض الأرواح ما دين أيديهم نحوهم ويقولون لهم: هيا أخرجوا أرواحكم، لأدركت العذاب الذى ينزل بهم.

عندئذ تخبرهم ملائكته العذاب بأنهم سينالون اليوم عذابا مذلا لأمرين:

الأول: إنهم كذبوا على الله، والآخـر، إنهم لم ينصاعوا لآياته: الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَ كُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ .

ملاحظات:

ينبغى هنا ملاحظه النقاط التاليه:

١- تعتبر الآيه أذعياء النبوه والقاده المزيفين من أشد الظالمين، بل لا ظلم أشد من ظلمهم، لأنهم يسرقون أفكار الناس و يهدمون عقائدهم و يغلقون بوجههم أبواب السعاده و يحيلونهم إلى مستعمرين فكريا لهم.

٢- جمله بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ قد تعنى أن ملائكته قبض الأرواح تبسط أيديها إليهم استعدادا لقبض أرواحهم، وقد تعنى بسط أيديهم للبدء بتعذيبهم.

٣- أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ تعنى فى الواقع ضربا من التحقير تبديه الملائكته نحو هؤلاء الظالمين، وإلا فإن إخراج الروح ليس من عمل هؤلاء، بل هو من واجب الملائكته، مثل ما يقال للمجرم عند إعدامه: مت! ولعل هذا التحقير يقابل تحقيرهم لآيات الله و أنبيائه و عباده.

ص: ٣٨٥

١- ١) -«الغمرات» جمع غمره (على وزن ضربه)، وأصل الغمر إزالة أثر الشئ، ثم استعملت للماء الكثير الذى ليستروجه الشئ تماما، كما تطلق على الشدائد والصعاب التى تغمر المرء.

و فى الوقت نفسه تعتبر هذه الآيه دليلا آخر على استقلال الروح و انفصالها عن الجسد، كما يستفاد من الآيه أنّ تعذيب هؤلاء يبدأ منذ لحظه قبض أرواحهم.

ص: ٣٨٤

اشاره

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)

سبب النزول

جاء في تفسير مجمع البيان و تفسير الطبرى و تفسير الآلوسى إن مشركا اسمه النضر بن الحارث قال: إن اللآت و العزى (و هما من أصنام العرب المشهوره) سوف يشفعان لى يوم القيامه، فنزلت هذه الآيه جوابا له و لأمثاله.

التفسير

اشاره

الضالون:

أشارت الآيه السابقه إلى أحوال الظالمين و هم على شفا الموت، هنا فى هذه الآيه تعتبر عن خطاب الله لهم عند الموت أو عند الورود إلى ساحه يوم القيامه.

فيبدأ بالقول بأنهم يأتون يوم القيامه منفردين كنا خلقوا منفردين: وَ لَقَدْ

و الأموال التي وهبناها لكم و كنتم تستندون إليها في حياتكم، قد خلفتموها وراءكم، و جئتم صفر الأيدي: وَ تَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ (١).

و لا نرى معكم تلك الأصنام التي قلمتم إنها سوف تشفع لكم و ظننتم أنها شريكه في تعيين مصائركم وَ مَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُفَّ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ .

و لكن الواقع أن جمعكم قد تبدد، و تقطعت جميع الروابط بينكم: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ .

و كل ما ظننتموه و ما كنتم تستندون إليه قد تلاشى و ضاع: وَ ضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ .

كان المشركون العرب يستندون في حياتهم إلى أشياء ثلاثة: القبيلة أو العشيره التي كانوا ينتمون إليها، و الأموال التي جمعوها لأنفسهم، و الأصنام التي اعتبروها شريكه لله في تقرير مصير الإنسان و شفيعه لهم عند الله، و الآيه في كل جملة من جملتها الثلاث تشير إلى واحده من هذه الأمور، و إلى أنها عند الموت تودعه و تتركه وحيدا فريدا.

هنا ينبغي الالتفات إلى نقطتين:

١- نظرا لمجىء هذه الآيه في أعقاب الآيه السابقه التي تحدثت عن قيام الملائكه بقبض الأرواح عند الموت، و كذلك بالنظر إلى عبارته: وَ تَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، نفهم أن هذا الكلام يقال لهم عند الموت أيضا، و لكن من جانب الله، غير أن بعض الروايات تقول: إن هذا الخطاب يوجه إليهم يوم القيامة، على أى حال فإن الهدف لا يختلف في الحالين.

ص: ٣٨٨

٢-على الرغم من نزول هذه الآية بشأن مشركى العرب،فهى ليست بالطبع مقصوره عليهم.

ففى ذلك اليوم تنفصم العرى و تنفصل عن البشر كل الانشادات الماديه و المعبودات الخياليه المصطنعه و جميع ما اصطنعوه لأنفسهم فى الحياه الدنيا ليكون سندا لهم يستعينون به فى يوم يؤسهم لا- يبقى سوى الشخص و عمله، و يزول كل ما عدا ذلك،أو يضل عنهم بحسب تعبير القرآن و هو تعبير جميل يوحى بأن الشركاء سيكونون إلى درجه من الصغر و الحقاره و الضياع أنهم لا يروا بالعين.

ص: ٣٨٩

اشاره

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦)

التفسير

اشاره

فالق الإصباح:

مرّه أخرى يوجه القرآن الخطاب إلى المشركين، و يشرح لهم دلائل التوحيد في عبارات جذابه و في نماذج حيه من أسرار الكون و نظام الخلق و عجائبه.

في الآيه الأولى يشير إلى ثلاثة أنواع من عجائب الأرض، و في الآيه الثانيه يشير إلى ثلاثة من الظواهر السماويه.

يقول القرآن الكريم أولاً: إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى .

«الفلق» شقّ الشيء و إبانه بعضه عن بعض (١).

و«الحب» و«الحبه» تقال لأنواع الحبوب الغذائيه كالحنطه و الشعير

ص: ٣٩٠

و نحوهما من المطعومات التي تحصد، كما يقال ذلك لبروز الرياحين أيضا (1).

و«النوى» من التّواء، قيل إنّه يخص نوى التمر، و لعل هذا يرجع إلى كثرة التمر في بيئه العرب حتى كان العربي ينصرف ذهنه إلى نوى التمر إذا سمع هذه الكلمه.

و لننظر الآن إلى ما يمكن في هذا التعبير:

ينبغي أن نعلم أنّ أهم لحظه في حياه الحبه و النوى هي لحظه الفلق، و هي أشبه بلحظه ولاده الطفل و انتقاله من عالم إلى عالم آخر، إذ في هذه اللحظه يحصل أهم تحول في حياته.

و ممّا يلفت الانتباه أنّ الحبه و التّواء غالبا ما تكونان صلبتين، فنظره إلى نوى التمر و الخوخ و أمثالهما، و إلى بعض الحبوب الصلبه، تكشف لنا أنّ تلك النطفه الحياتيه التي هي في الواقع صغيره، محصنه بقلعه مستحكمه تحيط بها من كل جانب، و أنّ يد الخالق قد أعطت لهذه القلعه العصيه على الاختراق خاصيه التسليم و الليونه أمام اختراق نطفه النبات، كما منحت النطفه قوه اندفاع تمكنها من فلق جدران قلعته فتطلع النبتة بقامتها المديده، هذه حقًا حادثه عجيبيه في عالم النبات لذلك يشير إليها القرآن على أنّها من دلائل التوحيد.

ثمّ يقول: يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ .

يتكرر هذا التعبير كثيرا في القرآن مشيرا إلى نظام الموت و الحياه و تبديل هذا بذاك، فمرّه ترى الحياه تنبعث من مواد جامده لا روح فيها في أعماق المحيطات و مجاهل الغابات و الصحارى، فيخلق من تركيب مواد كل واحده منها سم قاتل مواد حيويه، و أحيانا ترى العكس، فياجراء تغيير بسيط على كائنات حيه قويه مفعمه بالحياه تراها قد تحولت إلى كائن لا حياه فيه.

إنّ موضوع الحياه و الموت بالنسبه للكائنات الحيه من أعقد المسائل التي

ص: ٣٩١

لم تستطع العلوم البشريه الوصول إلى كنه حقيقتها و رفع الستار عن أسرارها لتخطو إلى أعماق مجهولاتها، ولتعرف كيف يمكن لعناصر الطبيعه و موادها الجامده أن تطفر طرفه عظيمه فتتحول إلى كائنات حيه.

قد يأتي ذلك اليوم الذى يستطيع فيه الإنسان أن يصنع كائنا حيا باستخدام التركيبات الطبيعه المختلفه و تحت ظروف معقده خاصه، و بطريقه تركيب أجزاء مصنعه، كما يفعلون بالمكائن و الأجهزة، غير أن قدره البشر «المحتمله» فى المستقبل لا تستطيع أن تقلل من أهميه مسأله الحياه و تعقيداتها التى تبدأ من المبدع القادر.

لذلك نجد القرآن -و فى معرض إثبات وجود الله- كثيرا ما يكرر هذا الموضوع، كما يستدل أنبياء عظام كإبراهيم و موسى -على وجود مبدأ قادر حكيم بمسأله الحياه و الموت لإقناع جبابره طغاه مثل نمرود و فرعون.

يقول إبراهيم لنمرود: رَبِّى الَّذِى يُحْيِى وَ يُمِيتُ (١)، و يقول موسى لفرعون:

وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ لَبَاتٍ شَتَّى

(٢)

ينبغى ألا ننسى أن ظهور الحى من الميت لا يختص فى بدايه ظهور الحياه على الأرض فقط، بل يحدث هذا فى كل وقت بانجذاب الماء و المواد الأخرى إلى خلايا الكائنات الحيه، فتكتسى كائنات غير حيه بلباس الحياه، و عليه فإن القانون الطبيعى السائد اليوم و القائل بأنه لا يمكن فى الظروف الحاليه التى تسود الأرض لأى كائن غير حى أن يتحول إلى كائن حى، و حيثما وجد كائن حى فثممه بذره حيه وجد منها هو قانون لا يتعارض مع ما قلناه، (فتأمل بدقه!) و يستفاد من روايات أئمه أهل البيت عليهم السلام فى تفسير هذه الآيه و الآيات المشابهه لها، أن ذلك يشمل الحياه و الموت الماديين كما يشمل الحياه و الموت

ص: ٣٩٢

(١) - البقره، ٢٥٨.

(٢) - طه، ٥٣.

المعنويين أيضا (١) فتمّه مؤمنون ولدوا لآباء غير مؤمنين، و آخرون مفسدون و أشرار ولدوا لآباء من المتقين الأخيار، ناقضين قانون الوراثة بإرادتهم و اختيارهم.

و هذا بذاته دليل آخر على عظمه الخلاق الذى أعطى الإنسان هذه القدره و الإراده.

النقطه الأخرى التى ينبغى الالتفات إليها هى أنّ «يخرج» الفعل المضارع و «مخرج» اسم الفاعل، يدلان على الاستمرار، أى أنّ نظام ظهور الحى من الميت و ظهور الميت من الحى نظام دائم و عام فى عالم الخلق.

و فى ختام الآيه توكيد للموضوع: **ذَلِكُمْ اللَّهُ فَاتَى تُؤْفَكُونَ** أى هذا هو ربكم و هذه هى قدرته و علمه اللامتناهى، فكيف بعد هذا تنحرفون عن الحق و تميلون إلى الباطل؟ **ذَلِكُمْ اللَّهُ فَاتَى تُؤْفَكُونَ** و فى الآيه الثانيه يشير القرآن إلى ثلاث نعم سماويه: فيقول أولا: **فَالِقُ الْإِصْبَاحِ** و ذكرنا، أنّ «الفلق» هو شقّ الشىء و إبانة بعضه عن بعض، و «الإصباح» و «الصبح» بمعنى واحد.

إنّه تعبير رائع، فظلام الليل قد شبه بالستاره السميكة التى يشقها نور الصباح شقا، و هذه الحاله تنطبق على الصبح الصادق و الصبح الكاذب كليهما، لأنّ الصبح الكاذب هو الضوء الخفيف الذى يظهر فى آخر الليل عند المشرق على هيئه عمود، و كأنه شق يبدأ من الشرق نحو الغرب فى قبه السماء المظلمه، و الصبح الصادق هو الذى يلي ذلك على هيئه شريط أبيض لامع جميل يظهر عند امتداد الأفق الشرقى، و كأنه يشق عباب الليل الأسود من الأسفل ممتدا من الجنوب إلى الشمال، متقدما فى كل الأطراف حتى يغطى السماء كلها شيئا فشيئا.

كثيرا ما يشير القرآن إلى نعمتى النور و الظلام و الليل و النهار، و لكنّه هنا

ص: ٣٩٣

يتناول «طلوع الصبح» كنعمة من نعم الله الكبرى، فنحن نعرف أنّ هذه الظاهرة تحدث لوجود جو الأرض، ذلك الغلاف الضخم من الهواء الذى يحيط بالأرض، فلو كانت الأرض -مثل القمر- عديمه الجو، لما كان هناك «طلوعان» و «لا فلق» و «إصباح»، و «لا غسق» و «لا شفق» بل كانت الشمس تبرز فجأة، بدون أية مقدمات و لسطع نورها فى العيون التى اعتادت على ظلام الليل و لم تكد تفارقه، و عند الغروب تختفى فجأة، و تعم الظلمه الموحشه فى لحظه واحده كل الأرجاء، غير أنّ الجو الموجود حول الأرض و المؤدى إلى حصول فتره فاصله بين ظلام الليل و ضياء النهار عند طلوع الشمس و غروبها يهين الإنسان تدريجيا لتقبل هذين الاختلافين المتضادين و الانتقال من الظلمه إلى النور، و من النور إلى الظلمه، شيئا فشيئا، بحيث إنه يستطيع أن يتحمل كل منهما، فنحن نشعر بالانزعاج إذا كنا فى غرفه مضاءه و انطفأت الأنوار فجأة و عم الظلام، ثم إذا استمر الظلام ساعه، و عاد النور مرّه أخرى فجأة، عادت معها حاله الانزعاج بسبب سطوع الضوء المفاجئ الذى يؤلم العين و يجعلها غير قادره على رؤيه الأشياء، و إذا ما تكرر هذا الأمر فإنه لا شك سيؤذى العين، غير أنّ فائق الإصباح قد جنب الإنسان هذا الأذى بطريقه رائعه (1).

و لكيلا يظن أحد أنّ فلق الصبح دليل على أنّ ظلال الليل أمر غير مطلوب و أنّه عقاب أو سلب نعمه، يبادر القرآن إلى القول: وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا .

من الأمور المسلم بها أنّ الإنسان يميل خلال انتشار النور و الضياء إلى العمل و بذل الجهد، و يتجه الدم نحو سطح الجسم و تتهياً العضلات للفعاليه و النشاط، و لذلك لا يكون النوم فى الضوء مريحاً، بل يكون أعمق و أكثر راحه كلما كان الظلام أشد، حيث يتجه الدم فيه نحو الداخل، و تدخل الخلايا عموماً

ص: ٣٩٤

١-١) -يقول علماء الفلك: يبدأ طلوع الصبح عند ما تصل الشمس إلى ١٨-درجه قبل الأفق الشرقى، و يعم الظلام كل شىء و يختفى الشفق عند ما تصل إلى ١٨-درجه تحت الأفق الغربى.

فى نوع من السكون و الراحة، لذلك نجد فى الطبيعه أنّ النوم فى الليل لا- يقتصر على الحيوانات فقط، بل إنّ النباتات تنام فى الليل أيضا، و عند بزوغ خيوط الصباح الأولى تشرع بفعاليتها و نشاطها، بعكس الإنسان فى هذا العصر الآلى، فهو يبقى مستيقظا إلى ما بعد منتصف الليل، ثمّ يظل نائما حتى بعد ساعات من طلوع الشمس، فيفقد بذلك نشاطه و سلامته.

فى الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام نجد التأكيد على ما ينسجم مع هذا التنظيم، من ذلك ما

جاء فى نهج البلاغه عن الإمام على عليه السّلام أنّه قال يوصى أحد قواده «...و لا تسر أوّل الليل فإنّ الله جعله سكنا و قدره مقاما لا ضعنا، فارج فيه بدنك و روح ظهرك» (١).

و

فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «تزوج بالليل فإنّه جعل الليل سكنا» (٢).

و

فى كتاب الكافى عن الإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السّلام أنّه كان يأمر بعدم ذبح الذبائح فى الليل و قبل طلوع الفجر، و كان يقول: «إنّ الله جعل الليل سكنا لكل شىء» (٣).

ثمّ يشير الله تعالى إلى الثالثه من نعمه و دلائل عظمته بجعل الشمس و القمر وسيله للحساب: وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ حُسْبَانًا .

«الحسبان» بمعنى الحساب، و لعل القصد منه أنّ الدوران المنظم لهاتين الكرتين السماويتين و سيرهما الدائبة (المقصود طبعاً حركتها فى أنظارنا و هى الناشئة عن حركة الأرض) عون لنا على وضع مناهجنا الحياتيه المختلفه وفق مواعيد محسوبه، كما ذكرنا فى التفسير.

ص: ٣٩٥

١- ١) - تفسير الصافى فى تفسير الآيه.

٢- ٢) - المصدر السابق.

٣- ٣) - المصدر السابق.

يرى بعض المفسرين أن الآيه تريد أن تقول إن هاتين الكرتين السماويتين تتحركان فى السماء وفق حساب و برنامج و نظام.

و عليه فهى فى الحاله الأولى إشاره إلى إحدى نعم الله على الإنسان، و فى الحاله الثّانيه إشاره إلى واحد من أدله التوحيد و إثبات وجود الخالق، و لعلها إشاره إلى كليهما.

على كل حال، إنّه لموضوع مهم جدّا أن تكون الأرض منذ ملايين السنين تدور حول الشمس و القمر يدور حول الأرض، و بذلك تنتقل الشمس فى أنظارنا من برج إلى برج بين الأبراج الفلكيه الاثنتى عشره، و القمر يدور فى حركته المنتظمه من الهلال حتى المحاق، أن حساب هذا الدوران من الدقه و الضبط بحيث إنّه لا يتقدم و لا يتأخر لحظه واحده، و لو لاحظنا أنّ الأرض تدور حول الشمس فى مدار بيضوى معدل شعاعه ١٥٠- مليون كيلومتر ضمن جاذبيه الشمس العظيمه، و القمر الذى يدور كل شهر حول الأرض فى مدار شبه دائره شعاعه نحو ٣٧٤ ألف كيلومتر و لا يخرج من جاذبيه الأرض العظيمه، فهو دائم الانجذاب نحوها، عندئذ يمكن أن ندرك مدى التعادل الدقيق بين قوه الجذب بين هذه الأجرام السماويه من جهه، و القوه الطارده عن مراكزها (القوه المركزيه) من جهه أخرى، بحيث لا يمكن أن تتوقف لحظه واحده أو تختلف قيد شعره.

و هذا ما لا يمكن أن يكون إلا فى ظل علم و قدره لا نهائيتين يضعان تخطيطه و ينفذانه بدقّه، لذلك تنتهى الآيه بقولها: **ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .**

إشارة

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧)

التفسير

بعد شرح نظام دوران الشمس و القمر فى الآيه السابقه، تشير هذه الآيه إلى نعمه أخرى من نعم الله على البشر، فجعل النجوم ليتهدى بها الإنسان فى ليالى البر و البحر: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ .

و تختتم الآيه بالقول بأنّ الله قد بين آياته لأهل الفكر و الفهم و الإدراك: وَقَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

منذ آلاف السنين و الإنسان يعرف النجوم فى السماء و نظامها، و على الرغم من تقدم البشر فى هذا المضمار تقدما كبيرا، فإنه ما يزال يتابع وضع النجوم قليلا أو كثيرا، بحيث كانت له هذه النجوم خير وسيلة لمعرفة الاتجاه فى الأسفار البريه و البحريه، و على الأخص فى المحيطات الواسعه التى كانت تخلو من كل إماره تشير إلى الاتجاه قبل اختراع الأسطراب.

إنّ النجوم هى التى هدت ملايين البشر و أنقذتهم من الغرق و أوصلتهم إلى بر السلامه.

لو تطلعنا إلى السماء عدّه ليال متواليه لانكشف لنا أنّ مواضع النجوم فى السماء متناسقه فى كل مكان، و كأنّها حبات لؤلؤ خيبت على قماش أسود، و إنّ هذا القماش يسحب باستمرار من الشرق إلى الغرب، و كلها تتحرك معه و تدور حول محور الأرض دون أن تتغير الفواصل بينها، إنّ الاستثناء الوحيد فى هذا النظام هو عدد من الكواكب التى تسمى بالكواكب السياره لها حركات مستقله و خاصّه، و عددها ثمانية:خمسه منها ترى بالعين المجرّده، و هى (عطارد و الزهره، و زحل، و المريخ و المشترى) و ثلاثه لا ترى إلا بالتلسكوب و هى (أورانوس و نبتون و بلوتو)بالإضافه إلى كوكب الأرض التى تجعل المجموع تسعه.

و لعل إنسان ما قبل التّاريخ كان يعرف شيئا عن «الثوابت» و«السيارات» لأنّه لم يكن هناك ما يمكن أن يجلب انتباهه أكثر من السماء المرصعه بالنجوم فى ليله ظلماء، فلا يستبعد أن يكون هو أيضا قد استخدم النجوم فى الاستهداء و معرفه الاتجاه.

يستفاد من بعض روايات أهل البيت عليهم السّلام أنّ لهذه الآيه تفسيراً آخر، و هو أنّ المقصود بالنجوم القاده الإلهيين و الهداه إلى طريق السعاده، أى الأئمه الذين يهتدى بهم الناس فى ظلام الحياه فينجون من الضياع، و سبق أن قلنا أنّ هذه التفاسير المعنويه لا تتنافى مع التفاسير الظاهريه، و من الممكن أن تقصد الآيه كلا التفسيرين (١).

ص: ٣٩٨

إشاره

وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسِيْتَةً وَ مُسِيْتَةٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتٍ كُتْلًا شَدِيدًا فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرَجُ مِنْهُ حَبًّا كَثِيرًا وَ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَ جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَ الزَّيْتُونِ وَ الرُّمَّانِ مُشْتَبِهًا وَ غَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَيْهِ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَ يَنْعِهِ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)

التفسير

هاتان الآيتان تتابعان دلائل التوحيد و معرفه الله، و الوصول إلى هذا الهدف يأخذ القرآن بيد الإنسان و يسيح به في آفاق العالم البعيده و قد يسير به في داخل ذاته و يبين له آثار الله في جسمه و روحه، فيتيح له أن يرى الله في كل مكان.

فيبدأ بالقول: وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ .

أى أنكم، على اختلاف ملامحكم و أذواقكم و أفكاركم و التباين الكبير في مختلف جوانب حياتكم، قد خلقتم من فرد واحد، و هذا دليل على منتهى عظمه الخالق و قدرته التي أوجدت من المثال الأول كل هذه الوجوه المتباينه.

و جدير بالملاحة هذه الآيه تعبر عن خلق الإنسان بالإنشاء، والكلمه لغويا تعنى الإيجاد و الإبداع مع الترييه، أى أن الله قد خلقكم و تعهد بتربيتكم، و من الواضح أن الخالق الذى يخلق شيئا ثم يهمله لا يكون قد أبدى قدره فائقه، و لكنّه إذا استمر فى العنايه بمخلوقاته و حمايتها، و لم يغفل عن تربيتها لحظه واحده، عندئذ يكون قد أظهر حقًا عظمته وسعه رحمته.

بهذه المناسبه ينبغى ألا نتوهم من قراءه هذه الآيه، أن أمنا الأولى حواء قد خلقت من آدم (كما جاء فى الفصل الثانى من سفر التكوين من التوراه)، و لكن آدم و حواء خلقا من تراب واحد، و كلاهما من جنس واحد و نوع واحد، لذلك قال: إنهما خلقا من نفس واحده، و قد بحثنا هذا الموضوع فى بدايه تفسير سوره النساء.

ثم يقول: إن فريقا من البشر «مستقر» و فريقا آخر «مستودع» فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ .

«المستقر» أصله من «القر» (بضم القاف) بمعنى البرد، و يقتضى السكون و التوقف عن الحركه، فمعنى «مستقر» هو الثابت المكين.

و «مستودع» من «ودع» بمعنى ترك، كما تستعمل بمعنى غير المستقر و الوديعه هى التى يجب أن تترك عند من أودعت عنده لتعود إلى صاحبها.

يتضح من هذا الكلام أن الآيه تعنى أن الناس بعض «مستقر» أى ثابت، و بعض «مستودع» أى غير ثابت، أما المقصود من هذين التعبيرين، فالكلام كثير بين المفسرين، و بعض التفاسير تبدو أقرب إلى الآيه كما أنها لا تتعارض فيما بينها.

من هذه التفاسير القول بأن «مستقر» صفه الذين كمل خلقهم و دخلوا «مستقر الرحم» أم مستقر وجه الأرض، و «المستودع» صفه الذين لم يكتمل خلقهم بعد و إنما هو ما يزالون نطفا فى أصلاب آبائهم.

تفسير آخر يقول: إن «مستقر» إشارة إلى روح الإنسان الثابتة و المستقره، و «مستودع» إشارة إلى جسم الإنسان الفانى غير الثابت.

و قد جاء فى بعض الروايات تفسير معنوى بهذين التعبيرين، و هو أنّ «مستقر» تعنى الذين لهم إيمان ثابت «و مستودع» تعنى من لم يستقر إيمانه (١).

و ثمّه احتمال أن يكون هذان التعبيران إشارة إلى الجزئين الأولين فى تركيب نطفه الإنسان، إنّ النطفه - كما نعلم - تتركب من جزئين: الأوّل هو «البويضة» من الأنثى، و الثانى هو «الحيمن» أو «المنى» من الذكر، أنّ البويضة فى رحم الأنثى تكان تكون مستقره، و لكن حيمن الذكر حيوان حى يتحرك بسرعه نحوها، و ما أن يصل أوّل حيمن إلى البويضة حتى يمتزج بها و «يخصبها» و يصد (الحيامن) الأخرى، و من هذين الجزئين تتكون بذره الإنسان الأولى.

و فى ختام الآيه يعود فيقول: قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ .

عند الرجوع إلى كتب اللغة يتبين لنا أنّ «الفقه» ليس كل معرفه أو فهم، بل هو التوصل إلى علم غائب بعلم حاضر (٢)، و بناء على ذلك فالهدف من التمعن فى خلق الإنسان و اختلاف أشكاله و ألوانه، هو أن يتوصل المرء المدقق من معرفه الخلق إلى معرفه الخالق.

الآيه الثانيه هى آخر آيه فى هذه المجموعه التى تكشف لنا عن عجائب عالم الخلق و تهدينا إلى معرفه الله بمعرفه مخلوقاته.

فى البدايه تشير الآيه إلى واحده من أهم نعم الله التى يمكن أن تعتبر النعمه الأم و أصل النعم الأخرى، و هى ظهور النباتات و نموها بفضل النعمه التى نزلت من السماء: وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .

و إنّما قال (من السماء) لأنّ سماء كل شىء أعلاه، فكل ما فى الأرض من

ص: ٤٠١

١-١) - تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٥٠.

٢-٢) - مفردات الراغب، ص ٣٨٥.

مياه العيون و الآبار و الأنهار و القنوات و غيرها منشؤها الأمطار من السماء، و قلّه الأمطار تؤثر في كميّه المياه في تلك المصادر كلها، و إذا استمر الجفاف جفّت تلك المنابع، أيضا.

ثمّ تشير إلى أثر نزول الأمطار البارز: فَأَخْرَجْنَا بِهِ بُيُوتَ كُلِّ شَيْءٍ .

يرى المفسرون احتمالين في المقصود من بُيُوتَ كُلِّ شَيْءٍ .

الأوّل: إنّ المقصود من ذلك كل أنواع النباتات و أصنافها التي تسقى من ماء واحد، و تنبت في أرض واحده و تتعدى من ترابه واحده، و هذه واحده من عجائب الخلق، كيف تخرج كل هذه الأصناف من النباتات بأشكالها و ألوانها و أثمارها المختلفه و المتباينه أحيانا من أرض واحده و ماء واحد! و الاحتمال الثاني: هو أنّ النباتات يحتاج إليها كل مخلوق آخر من حشرات و طيور و حيوانات في البحر و البر، و أنّه لمن العجيب أنّ الله تعالى يخرج من أرض واحده و ماء واحد الغذاء الذي يحتاجه كل هؤلاء، و هذا من روائع الأعمال المعجزه كأنّ يستطيع أحد أن يصنع من ماده معينه في المطبخ آلاف الأنواع من الأطعمه لآلاف الأذواق و الأمزجه.

و الأعجب من كل هذا أنّ نباتات الصحراء و اليابسه ليست وحدها التي تنمو ببركه ماء المطر، بل إنّ النباتات المائيه الصغيره التي تطفو على سطح البحر و تكون غذاء للأسماك تنمو بأشعه الشمس و قطرات المطر.

و لا- أنسى ما قاله أحد سكّان المدن الساحليه و هو يشكو قلّه الصيد في البحر، و يذكر سبب ذلك بأنّه الجفاف و قلّه نزول المطر، فكان يعتقد أنّ قطرات المطر في البحار أشد تأثيرا منها في اليابسه.

ثمّ تشرح الآيه ذلك و تضرب مثلا ببعض النباتات التي تنمو بفضل الماء، فتذكر أنّ الله يخرج بالماء سيقان النباتات الخضر من الأرض، و من تلك الحبه الصلبه يخلق الساق الأخضر الطرى اللطيف الجميل بشكل يعجب الناظرين:

و من ذلك الساق الأخضر أخرجنا الحبّ مترصفا منظما: نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا (٢).

و كذلك بالماء نخرج من النخل طلعا مغلقا، ثم يتشقق فتخرج الاعداق بخيوطها الرفيعة الجميله تحمل حبات التمر، فتتدلى من ثقلها: وَ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ .

«الطلع» هو عذق التمر قبل أن يفتح غلافه الأخضر، و إذ يفتح الطلع تخرج منه أغصان العذق الرفيعة، و هي القنوان و مفردها قنوا.

و«دانيه» أى قريبه، و قد يكون ذلك إشاره إلى قرب أغصان العذق من بعضها، أو إلى أنها تميل نحو الأرض لثقلها.

و كذلك بساتين فيها أنواع الأثمار و الفواكه: وَ جَنَاتٍ مِنْ أَغْنَابٍ وَ الزَّيْتُونِ وَ الرُّمَّانِ .

ثم تشير الآية إلى واحده أخرى من روائع الخلق فى هذه الأشجار و الأثمار، فنقول: مُشْتَبِهًا وَ غَيْرَ مُتَشَابِهٍ .

انظر تفسير الآية (١٤١) من هذه السوره فى شرح المتشابه و غير المتشابه للزيتون و الرمان (٣).

إن شجرتى الرمان و الزيتون متشابهتان من حيث الشكل الخارجى و تكوين الأغصان و هيئه الأوراق تشابها كبيرا، مع أنّهما من حيث الثمر و طعمه و فوائده مختلفتان، ففى الزيتون ماده زيتيه قويه الأثر، و فى الرمان ماده حامضيه أو سكريه، فهما متباينان تماما، و مع ذلك فقد تزرع الشجرتان فى أرض واحده،

ص: ٤٠٣

١-١) - كلمه «أخضر» تشمل كل أخضر فى النبات، حتى براعم الأشجار، و لكن بما إنّها متبوعه مباشرة بالحب المتراكب فالمقصود فى الآية هو زراعته الحبوب.

٢-٢) - «المتراكب» من الركوب و ما ركب بعضه بعضا، و أكثر الحبوب بهذا الشكل.

٣-٣) - يقول الراغب فى مفرداته: إنّ «مشتبها» و «متشابها» بمعنى يكاد يكون واحدا.

و تشریان من ماء واحد، فهما متشابهان و غیر متشابهین فی آن واحد.

و من المحتمل أنّ تكون الإشارة إلى أنواع مختلفه من أشجار الفاكهه التي يتشابه بعضها في الشجر و في الثمر، و يختلف بعضها عن الآخر في ذلك، (أى أنّ كل واحد من هاتين الصفتين تختص بمجموعه من الأشجار و الأثمار، أما حسب التفسير الأول، فإنّ الصفتين لشيء واحد).

ثمّ تركز الآيه من بين مجموع اجزاء شجره على ثمره الشجره و على تركيب الثمره إذا أثمرت، و كذلك على نضج الثمره إذا نضجت، ففيها دلائل واضحه على قدره الله و حكمته للمؤمنين من الناس: **أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَ يَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .**

ما نقرؤه اليوم في علم النبات عن كيفية طلوع الثمره و نضجها يكشف لنا عن الأهميه الخاصه التي يوليها القرآن للأثمار، إذ إنّ ظهور الثمره في عالم النبات أشبه بولاده الأبناء في عالم الحيوان، فنطفه الذكر في النبات تخرج من أكياس خاصه بطرق مختلفه (كالرياح أو الحيوانات) و تحط على القسم الأنثوى في النبات، و بعد التلقيح و التركيب تتشكل البيضه الملقحه الأولى، و تحيط بها مواد غذائيه مشابهه لتركيبها، أنّ هذه المواد الغذائيه تختلف من حيث التركيب و كذلك من حيث الطعم و الخواص الغذائيه و الطبيه. فقد تكون ثمره (مثل العنب و الرمان) فيها مئات من الحبّ، كل حبه منها تعتبر جنينا و بذره لشجره أخرى، و لها تركيب معقد عجيب.

إنّ شرح بنيه الأثمار و المواد الغذائيه و الطبيه خارج عن نطاق هذا البحث، و لكن من الحسن أنّ نضرب مثلا بثمره الرمان التي أشار إليها القرآن على وجه الخصوص في هذه الآيه.

إذا شققنا رمانه و أخذنا إحدى حباتها نظرنا خلالها باتجاه الشمس أو مصدر ضوء آخر نجدها تتألف من أقسام أصغر، و كأنها قوارير صغيره مملوءه بماء

الرّمان قد رصفت الواحده إلى جنب الأخرى. ففي حبّه الرمان الواحده قد تكون المئات من هذه القوارير الصغيره جدا، يجمع أطرافها غشاء رقيق هو غشاء حبّه الرمان الشفاف، ثمّ لكى يكون هذا التغليف أكمل و أمتن و أبعد عن الخطر ركّب عدد من الحبات على قاعده فى نظام معين، و لفت فى غلاف أبيض سميك بعض الشىء، و بعد ذلك يأتى القشر الخارجى للرمانه، يلف الجميع ليحول دون نفوذ الهواء و الجراثيم، و لمقاومه الضربات و لتقليل تبخر ماء الرمان فى الحبات إلى أقل حدّ ممكن.

إنّ هذا الترتيب فى التغليف لا يقتصر على الرمان، فهناك فواكه أخرى-مثل البرتقال و الليمون-لها تغليف مماثل، أمّا فى الأعناب و الرمان فالتغليف أدق و أطف.

و لعل الإنسان حذا حذو هذا التغليف عند ما أراد نقل السوائل من مكان إلى مكان، فهو يصف القناني الصغيره فى علبه و يضع بينها ماده لينه، ثمّ يضع العلب الصغيره فى علب أكبر و يحمل مجموعها إلى حيث يريد.

و أعجب من ذلك استقرار حبات الرمان على قواعدها الداخليه و أخذ كل منها حصتها من الماء و الغذاء و هذا كله ممّا نراه بالعين، و لو وضعنا ذرات هذه الثمره تحت المجهر لرأينا عالما صاخبا و تراكيب عجيبه مدهشه محسوبه بأدق حساب.

فكيف يمكن لعين باحثه عن الحقيقه أن تنظر إلى هذه الثمره ثمّ تقول: إنّ صانعها لا يملك علما و لا معرفه!! إنّ القرآن إذ يقول أنظروا إنّما يريد هذه النظره الدقيقه إلى هذا القسم من الثمره للوصول إلى هذه الحقائق.

هذا من جهه، و من جهه أخرى فإن المراحل المتعدده التى تمر بها الثمره منذ تولّدها حتى نضجها تشير الانتباه، لأنّ «المختبرات» الداخليه فى الثمره لا تنفك

عن العمل فى تغيير تركيبها الكىمىاوى إلى أن تصل إلى المرحلة النهائىة و يثبت تركيبها الكىمىاوى النهائى، أن كل مرحله من هذه المراحل دليل على عظمه الخالق و قدرته.

و لكن لا بدّ من القول-بحسب تعبير القرآن-إنّ المؤمنىن الذىن يمعنون النظر فى هذه الأمور هم الذىن يرون هذه الحقائق، و إلاّ فعىن العناد و المكابره و الإهمال و التساهل لا يمكن أن ترى أدنى حقيقه.

ص: ٤٠٤

إشاره

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
أَنِّي يَكُونُ لَهُ لَمَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ
شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)

التفسير

إشاره

خالق كل شيء:

هذه الآيات تشير إلى جانب من العقائد السقيمة و الخرافات التي يؤمن بها المشركون و أصحاب المذاهب الباطلة، و ترد عليهم بالمنطق.

فأولاً: قالوا: إنَّ لله شركاء من الجن و جعلوا لله شركاء الجن .

فيما يتعلق بالجن، هل المقصود بهم هو المعنى اللغوي الذي يفيد كل كائن غير مرئي و مخفي عن حس الإنسان، أم هم طائفة الجن التي يرد ذكرها مرارا في القرآن و التي سنشير إليها قريبا؟ للمفسرين في هذا احتمالان.

على الاحتمال الأول قد تكون الآيه إشاره إلى الذين كانوا يعبدون الملائكه أو مخلوقات غير مرثيه.

و على الاحتمال الثاني قد تكون الإشاره إلى الذين كانوا يعتبرون الجن شركاء لله أو زوجات له.

يقول الكلبي فى كتاب «الأصنام»: إنَّ إحدى الطوائف العربيه، و تدعى «بنو مليح» و هى إحدى أفخاذ قبيله «خزاعه» كانت تعبد الجن (١)، كما يقال إنَّ عباده الجن و الاعتقاد بالوهيتها كانت منتشره بين مذاهب اليونان الخرافيه و فى الهند (٢).

و يستدل من الآيه (١٥٨) من سوره الصافات: وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّهٖ نَسَبًا عَلَى أَنَّهُ كَانَ بَيْنَ الْعَرَبِ مِنْ بَيْنِ اللَّهِ وَ الْجِنِّ نَسَبًا وَ قرابه، و يذكر بعض المفسرين أنَّ قريشا كانت تعتقد أنَّ الله قد تزوج الجن، فكان الملائكه ثمره ذلك الزواج (٣).

فينكر الإسلام عليهم ذلك، إذ كيف يمكن ذلك و هو الذى خلق الجن:

وَ خَلَقَهُمْ

أى كيف يمكن أن يكون المخلوق شريكا للخالق، لأنَّ الشركه دليل التماثل و التساوى، مع أنَّ المخلوق لا يمكن أن يكون فى مصاف خالقه أبدا! الخرافه الأخرى هى قولهم جهلا- إنَّ لله بنين و بنات: وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ .

أفضل دليل على أنَّ هذه العقائد ليست سوى خرافه، هو أنَّها تصدر عنهم بِغَيْرِ عِلْمٍ أى أنَّهم لا- يملكون أى دليل على هذه الأوهام.

من الملاحظ أنَّ القرآن استعمل لفظه «خرقوا» من الخرق، و هو تمزيق الشئ بغير رويه و لا- حساب، و هى فى النقطه المقابله تماما «للخلق» القائم على

ص: ٤٠٨

١- ١) - تفسير فى ظلال القرآن، ج ٣، ص ٣٢٦-الهامش.

٢- ٢) - تفسير المنار، ج ٨، ص ٦٤٨.

٣- ٣) - تفسير معجم البيان و تفاسير أخرى.

الحساب، هاتان اللفظتان: «الخلق و الخرق» قد تستعملان في حالات الكذب و الاختلاق، مع اختلاف بينهما هو أن (الخلق و الاختلاق) تستعمل في الأكاذيب المدروسة و (الخرق و الاختراق) فيما لا حساب فيه من الكذب.

أى أنهم اختلقوا تلك الأكاذيب دون أن يدرسوا جوانب الموضوع و بدون أن يعدوا له ما يلزم من الأمور.

أما الطوائف التي كانت تنسب لله البنين، فإن القرآن يذكر في آيات أخرى اسم طائفتين من هؤلاء:

الأولى: هم المسيحيون الذين قالوا: إن عيسى ابن الله.

و الأخرى: هم اليهود الذين قالوا: عزير ابن الله.

يستفاد من الآية (٣٠) من سورة التوبة، و مما توصل إليه المحققون عن دراسه الجذور المشتركة بين المسيحيه و البوذيه، و على الأخص في موضوع التثليث، أن المسيحيين و اليهود ليسوا و حدهم الذين نسبوا ابنا لله، بل كان هذا موجودا في المعتقدات الخرافيه القديمه.

أما بشأن نسبه بنات لله، فالقرآن نفسه يوضح ذلك في آيات أخرى:

وَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا

(١)

و كما سبقت الإشارة إليه، جاء في التفاسير و التواريخ إن قريشا كانت ترى الملائكه بنات الله من زواجه بالجن.

و القرآن يرفض تماما في نهايه الآيه كل هذه الخرافات التي لا أساس لها، و بعبارة حاسمه قاطعه: سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ .

و الآيه التاليه ترد على تلك العقائد الخرافيه فتؤكد أن الله هو ذلك الذى أبدع خلق السموات و الأرض: يَدْبَعُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ .

هل هناك غير الله من فعل ذلك أو يستطيع فعله كيما يكون شريكا له في

ص: ٤٠٩

عبادته؟ كلا، الجميع مخلوقاته و يطيعون أمره و محتاجون إليه.

ثم كيف يمكن أن يكون له أبناء دون أن تكون له زوجه؟! أُنَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً .

و ما حاجته إلى زوجه؟ ثم من التي تكون زوجته و هم جميعا مخلوقاته؟ و فضلا عن ذلك كله أنّ ذاته القدسيه منزّهه عن كل الصفات الجسمانيه، بينما الحاجه إلى زوجه و أبناء من الصفات الجسمانيه الماديه.

و مرّه أخرى تؤكّد الآيه مقامه باعتباره خالقا لكل شيء، و محيطا بكل شيء:

وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

الآيه الثالثه تؤكّد على سبيل الاستنتاج من كل ما سبق من ذكر خالقيه الله لكل شيء، و إبداعه السموات و الأرض و إيجادها، و كونه منزها عن الصفات و العوارض الجسميه و عن الحاجه إلى الزوجه و الأبناء و إحاطته العلميه بكل شيء: ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ فَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ غَيْرَهُ.

و لكي ينقطع كل أمل بغير الله، و تنقلع كل جذور الشرك و الاعتماد على غير الله، تختتم الآيه بالقول: وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ .

أى أنّ مفتاح حل مشاكلكم بيده وحده، و ما من أحد غيره قادر على حلها إذ ما من أحد-غيره-إلا و هو محتاج إلى إحسانه و كرمه، فلا موجب إذن لأن تطرح مشاكلك على غيره، و تطلب حلها من غيره.

لاحظ أنّ العبارة تقول: عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ و لم تقل: لكل شيء و كيل، و اختلاف المعنى واضح، لأنّ «على» تفيد التسلط و نفوذ الأمر، أمّا «اللام» فتفيد التبعية، أى أن التعبير الأول يدل على الولاية و الرعايه، و الثاني يدل على التمثيل و الوكاله.

الآيه الاخيريه من الآيات مورد البحث، و من أجل إثبات حاكميه الله

و إحاطته بكل شىء و حفاظه على كل شىء، و كذلك لإثبات أنه يختلف عن كل شىء، تقول: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ أى أنه الخبير بمصالح عبده و بحاجاتهم، و يتعامل معهم بمقتضى لطفه.

فى الحقيقة أنّ من يريد أن يكون حافظ كل شىء و مربيه و ملجأه لا بدّ أن يتصف بهذه الصفات.

كما أنّ الآيه تقول:إنّه يختلف عن جميع الأشياء فى العالم، لأنّ أشياء العالم بعضها يرى و يرى، كالإنسان، و بعضها لا يرى و لا يرى كصفاتنا الباطنيه، و بعض آخر يرى و لا يرى، كالجمادات، فالوحيد الذى لا يرى و لكنّه يرى كل شىء هو الله الواحد الأحد.

بحوث

إشارة

هنا نشير إلى بضع نقاط:

١- لا تدركه الأبصار:

ثبت الأدله العقليه أنّ الله لا- يمكن أن يرى بالعين، لأنّ العين لا تستطيع أن ترى إلاّ الأجسام، أو على الأصح بعضا من كفيات الأجسام، فإذا لم يكن الشىء جسما و لا- كفيه من كفيات الجسم، لا يمكن أن تراه العين، و بتعبير آخر، إذا أمكنت رؤيه شىء بالعين، فلأن لهذا الشىء حيزا و اتجاها و كتله، فى حين أنّ الله أرفع من أن يتصف بهذه الصفات، فهو وجود غير محدود و هو أسمى من عالم ماده المحدود فى كل شىء.

فى كثير من الآيات، و على الأخص فى الآيات التى تشير إلى بنى إسرائيل و طلبهم رؤيه الله، نجد القرآن ينفى بكل وضوح إمكان رؤيه الله (سوف يأتى

شرح ذلك في تفسير الآيه ١٤٣- من سورة الأعراف إن شاء الله).

و من العجيب أنّ كثيرا من أهل السنه يعتقدون أنّ الله سيرى يوم القيامه، و يعبر صاحب تفسير المنار عن ذلك بقوله: هذا من مذاهب أهل السنه و العلم بالحديث (١).

و الأعجب من ذلك أنّ بعض المحققين المعاصرين الواعين يميلون-أيضا- إلى هذا الاتجاه و يصرون عليه! أمّا الواقع فإنّ بطلان هذه الفكره إلى درجه من الوضوح بحيث لا- يستوجب نقاشا، لأنّ الأمر لا- يختلف بين الدنيا و الآخره (إذا قلنا بالمعاد الجسماني)، إنّ الله فوق الماده، و لا يتبدل يوم القيامه إلى وجود مادي، و لا يخرج من لا محدوديته ليصبح محدودا، و لا يتحول في ذلك اليوم إلى جسم أو إلى كيفية من كفيات الجسم أو هل الأدله العقليه على عدم إمكان رؤيه الله في الدنيا هي غيرها في الآخره؟ أم هل يتغير حكم العقل بهذا الشأن يومذاك؟! و لا يمكن تبرير هذه الفكره بأنّ من المحتمل أن يصبح للإنسان في الآخره نوع آخر من الرؤيه و الإدراك، لأنّ هذه الرؤيه و الإدراك إذا كانت في الآخره فكريه و عقلانيه، فإنّنا في هذه الدنيا أيضا نشاهد الله و جماله بعين القلب و قوه العقل، أمّا إذا كانت الرؤيه هي نفسها التي نرى بها الأجسام، فإنّ رؤيه الله بهذا المعنى مستحيله في هذه الدنيا و في الآخره على السواء.

و بناء على ذلك فإنّ القول بأنّ الإنسان لا يرى الله في هذه الدنيا، و لكن المؤمنين يرونه يوم القيامه غير منطقي و غير مقبول.

إنّ ما حمل هؤلاء على الذهاب إلى هذا المذهب و الدفاع عنه هو وجود أحاديث في كتبهم المعروفه تقول بإمكان رؤيه الله يوم القيامه، و لكن أليس من الأفضل أن نقول ببطلان هذا الرأى بالدليل العقلي، و نحكم باختلاق أمثال هذه

ص: ٤١٢

الزوايات و عدم اعتبار الكتب التي أوردت مثل هذه الزوايات،(اللهم إلا إذا قلنا أن المقصود من هذه الرؤية هي الرؤية القلبية)هل يصح أن نجانب حكم العقل و الحكمه من أجل أمثال هذه الأحاديث؟! أما الآيات القرآنيه التي يبدو منها لأوّل وهله أنّها تدل على رؤيه،مثل **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (١)** و **يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ (٢)** فإنّها من باب الكنايه و الرمز،إننا نعلم أنّ آيه قرآنيه لا يمكن أن تخالف حكم العقل و منطق الحكمه.

و الملفت للنظر أنّ الأحاديث و الزوايات الوارده عن أهل البيت عليهم السّلام تستنكر هذه العقيدة الخرافيه أشد استنكار،و تنتقد القائلين بها أشد انتقاد،من ذلك أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السّلام و اسمه(هشام)يقول:كنت عند الإمام الصادق عليه السّلام فدخل عليه معاويه بن وهب(و هو من أصحاب الإمام أيضا)و سأله قائلا:يا بن رسول الله،ما قولك في ما جاء بشأن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قد رأى الله، فكيف رآه؟و كذلك

في الحديث المروى عنه أنّه صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: إنّ المؤمنين في الجنّه يرون الله.فبأى شكل يرونه؟فتبسم الإمام الصّادق ابتسامه ألم،و قال:«يا معاويه بن وهب!ما أقبح أن يعيش المرء سبعين أو ثمانين سنه في ملك الله،و يتنعم بنعمه، ثم لا يعرفه حق معرفه يا معاويه،إنّ رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم لم ير الله رأى العين أبدا،إنّ المشاهده نوعان:المشاهده القلبية،و المشاهده البصريه،فمن قال بالمشاهده القلبية فقد صدق،و من قال بالمشاهده البصريه فقد كذب و كفر بالله و بآياته فإنّ رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم قال:من شبه الله بالبشر فقد كفر» (٣).

و

في(أمالى الصدوق)بإسناده إلى إسماعيل بن الفضل قال: سألت الإمام

ص: ٤١٣

١-١) -القيامه، ٢٣ و ٢٤.

٢-٢) -الفتح، ١٠.

٣-٣) -معانى الأخبار،نقلا عن «الميزان»، ج ٨، ص ٢٦٨.

الصِّادِق عليه السَّلَام عن الله تبارك و تعالی، و هل یرى فی المعاد؟ فقال: «سبحان الله و تعالی عن ذلك علوا كبيرا، یا ابن الفضل، إنَّ الأبصار لا تدرك إلا ما له لون و كیفیه، و الله تعالی خالق الألوان و الكیفیه» (١).

من الجدير بالانتباه أنَّ هذا الحديث يؤكِّد كلمه «لون» و نحن اليوم نعلم أنَّ الجسم بذاته لا یرى مطلقا، و إنما الذى نراه هو لونه، فإذا لم يكن للجسم أى لون فلن یرى.

(فى المجلد الأوَّل من هذا التفسیر بحث بهذا الشأن فى تفسیر الآیه (٤٦) من سوره البقره).

٢- الله خالق كل شیء

بعض المفسِّرين من أهل السنه، ممن یرى إلى الجبر یتخذ من قوله تعالی خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ دليلا. على صحه مذهبهم فى الجبر، فيقول: إنَّ أعمالنا و أفعالنا من «أشياء» هذا العالم أيضا، لأنَّ كلمه «شیء» تطلق على كل ذى وجود، ماديا كان أم غير مادى، و سواء كان من الذوات أم من الصفات، و عليه عند ما نقول: إنَّ الله خالق كل شیء، لا بد لنا أن نقبل أيضا بأنَّه خالق أفعالنا، و هذا هو الجبر بعينه.

بيد أنَّ القائلين بحريه الإراده و الإختيار یردون بجواب واضح على أمثال هذه الاستدلالات، و هو أنَّ خالقيه الله حتى بالنسبه لأفعالنا لا تتعارض مع حريتنا فى الإختيار، إذ أنَّ أفعالنا يمكن أن تنسب إلينا و إلى الله، فنسبها إلى الله قائمه على كونه قد وضع جميع مقدمات ذلك تحت تصرفنا، فهو الذى وهبنا القوه و القدره و الإراده و الإختيار، فما دامت جميع المقدمات من خلقه، فيمكن أن تنسب أفعالنا إليه باعتبارها خالقها، و لكن من حيث اتخاذ القرار النهائى فإننا بالاستفاده ممَّا وهبه الله لنا من القدره على الإراده و الإختيار نتخذ القرار بأداء

ص: ٤١٤

الفعل أو تركه، فمن هنا تنسب هذه الأفعال إلينا و نكون مسئولين عنها.

و بتعبير الفلاسفه: لا يوجد في هذا المقام علتان أو خالقان للفعل في عرض واحد.

بل هما ممتدتان طولاً، لأنّ وجود علتين تامّتين في عرض واحد لا معنى له، لكنّهما إذا كانا طوليين فلا مانع من ذلك، و لما كانت أفعالنا تستلزم المقدمات التي وهبها الله لنا، فيمكن أن ننسب هذه المستلزمات إليه أيضاً، إضافة إلى نسبتها إلى فاعلها.

هذا الكلام أشبه بالذي يريد أن يختبر عماله فيترك لهم الحريه في عملهم و اختياراتهم، و يهيء لهم جميع ما تطلبه عملهم من مقدمات و وسائل، فطبيعي أن تعتبر أفعالهم منسوبه إلى ربّ العمل، و لكن ذلك لا يسلبهم حريه العمل و الإختيار، بل يكونون مسئولين عن أعمالهم.

و سنبحث فكره الجبر و الإختيار- إن شاء الله- بالتفصيل عند تفسير الآيات المرتبطه بالموضوع.

٣- ما معنى «بديع»؟

سبق أن ذكرنا أن «بديع» تعنى موجد الشيء بغير سابق وجود، أى أنّ الله أوجد السموات و الأرض بغير أن يسبق ذلك وجود ماده أو خطه سابقه.

هنا يعترض بعضهم بقوله: كيف يمكن إيجاد شيء من عدم و نحن قد بحثنا هذا في تفسير الآية (١١٧) من سوره البقره، و ذكرنا ما ملخصه: إنّنا عند ما نقول إنّ الله أوجد الأشياء من العدم لا نعنى أنّ الماده الأوليه لخلقها هي «العدم» مثلما نقول: إنّ النجار صنع الكرسي من الخشب، فهذا بالطبع مستحيل، لأنّ «العدم» لا يمكن أن يكون ماده «الوجود».

إنّما المقصود هو أنّ موجودات هذا العالم لم تكن موجوده من قبل، ثمّ وجدت، وليس في هذا ما يصعب فهمه، وقد ضربنا لذلك أمثله في تفسير آيه (١١٧) من سورة البقره، و نضيف هنا قائلين: إنّنا قادرون على أن نوجد في أذهاننا أشياء لم تكن فيها من قبل مطلقا، ولا شك أنّ لهذه الموجودات الذهنيه نوعا من الوجود و الكينونه، رغم أنّه ليس وجودا خارجيا، و لكنّها موجوده في أفق أذهاننا، وإذا كان وجود الشيء بعد العدم مستحيلا، فما الفرق بين الوجود الذهني و الوجود الخارجي؟ و بناء على ذلك فإنّنا كما نستطيع أن نخلق في أذهاننا كائنات لم يكن لهم وجود من قبل، كذلك يفعل الله ذلك في العالم الخارجي، إنّ قليلا من التأمل في هذا المثال أو في الأمثله التي ضربناها هناك كاف لحل هذه المسأله.

٤- ما معنى «اللطيف»؟

«اللطيف» من ماده «لطف» و قد وردت هذه الصفه في الآيات السابقه كاحدى الصفات الالهيه، و اللطيف (١) إذا وصف به الجسم دل على الخفيف المضاد للثقل، و يعبر باللطافه و اللطف عن الحركه الخفيفه و عن تعاطى الأمور الدقيقه التي قد لا تدركها الحواس، و يصح أن يكون وصف الله تعالى باللطف على هذا الوجه لمعرفته بدقائق الأمور، و لخلقه أشياء دقيقه لطيفه غير مرئيه، و تتسم أفعاله بالدقه المتناهيه الخارجه عن قدره الإدراك.

يروى (الفتح بن يزيد الجرجاني) حديثا عن الإمام على بن موسى الرضا عليهما السّلام يعتبر معجزه علميه في هذا المجال يقول: قال الإمام عليه السّلام: «..إنّما قلنا اللطيف، للخلق اللطيف و لعلمه بالشيء اللطيف، أو لا ترى- و ففكك الله و ثبتك- إلى أثر صنعه في النبات اللطيف و غير اللطيف و من الخلق اللطيف و من الحيوان

ص: ٤١٦

الصغار و من البعوض و الجرجس و ما هو أصغر منها ما لا يكاد تستبينه العيون، بل لا يكاد يستبان لصغره الذكر من الأنثى، و الحدث المولود من القديم، لما رأينا صغر ذلك في لطفه و اهتدائه للسفاد و الهرب من الموت و الجمع لما يصلحه و ما فى لجج البحار و ما فى لحاء الأشجار و المفاوز و القفار و إفهام بعضها عن بعض منطقتها و ما يفهم به أولادها عنها و نقلها الغذاء إليها ثم تأليف ألوانها حمرة مع صفرة و بياض مع حمرة و أنه ما لا تكاد عيوننا تستبينه لدماحه خلقها لا تراه عيوننا و لا تلمسه أيدينا، علمنا أنّ خالق هذا الخلق لطيف بخلق ما سميناه بلا علاج و لا أداه و لا آله و أنّ كل صانع شىء فمن شىء صنعه و الله الخالق اللطيف الجليل خلق و صنع لا من شىء».

إنّ هذا الحديث الذى يشير إلى الجرائم و الكائنات المجهرية قبل أن يولد (پاستور) بقرون يفسر معنى اللطيف.

و يحتمل أيضا أن يكون المقصود من اللطيف هو أنّ ذاته المقدسه من اللطافه بحيث لا تدرك بالحواس، و عليه فإنّه «اللطيف» لأنّ أحدا لا علم له به، و هو «الخير» لأنه عالم بكل شىء.

و قد ورد هذا المعنى فى بعض روايات أهل البيت عليهم السّلام أيضا (1) و ليس هناك ما يمنع من إرادته المعنيين من هذه الكلمه.

ص: ٤١٧

اشاره

قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لِيَتَّقُوا
دَرَسَتْ وَ لِيُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا
أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧)

التفسير

اشاره

ليس من واجب الإكراه:

تعتبر هذه الآيات نتيجة للآيات السابقة، ففي البدايه تقول: قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ .

«بصائر» جمع «بصيره» من «البصر» بمعنى الرؤيه، و لكنّها فى الغالب رؤيه ذهنيه و عقلانيه، و قد تطلق على كل ما يؤدى إلى الفهم و الإدراك، و هذه الكلمه فى هذه الآيات تعنى الدليل و الشاهد، و تشمل جميع الدلائل التى وردت فى الآيات السابقه، بل إنّها تشمل حتى القرآن نفسه.

ثم لكى تبين أن هذه الأدلة و البراهين كافيه لإظهار الحقيقه لأنها منطقيه، تقول: فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا، أى أن إبصارهم يعود بالنفع عليهم و عماهم يسبب الإضرار بهم.

و فى نهايه الآيه تقول، على لسان النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ: وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيضٍ .

للمفسرين احتمالان فى تفسير هذا المقطع من الآيه:

الأول: إني لست أنا المسؤول عن مراقبتكم و المحافظه عليكم و ملاحظه أعمالكم، فالله هو الذى يحافظ على الجميع، و هو الذى يعاقب و يثيب الجميع، أن واجبى لا يتعدى إبلاغ الرساله و بذل الجهد لهدايه الناس.

و الآخر: أنا غير مأمور لأحملكم بالجبر و الإكراه على قبول الإيمان، إنما واجبى هو أن أدعوكم إلى ذلك بتبيان الحقائق بالمنطق و الحججه و أنتم الذين تتخذون قراركم النهائى.

و ليس ما يمنع من انطواء العبارة على كلا المعنيين.

الآيه التاليه تؤكد أن اتخاذ القرار النهائى فى إختيار طريق الحق أو الباطل إنما يرجع للناس أنفسهم، و تقول: وَ كَذَلِكَ نُصَيِّرُ الْآيَاتِ (١) أى كذلك نبين الأدله و البراهين بصور و أشكال متنوعه.

لكن جمعا عارضوا، و قالوا-دونما دليل و برهان-إنك تلقيت هذا من الآخرين (أى اليهود و النصارى): وَ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ (٢) .

إلا- أن جمعا آخر ممن لهم الاستعداد لتقبل الحق لما لهم من بصيره و فهم و علم، يرون وجه الحقيقه و يقبلونها: وَ لِيُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

إن اتهام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بأنه اقتبس تعاليمه من اليهود و النصارى قد تكرر

ص: ٤١٩

١- ١) -«نصرف» من «التصرف» و هو بمعنى رد الشىء من حاله أو إبداله بغيره، أى أن الآيات تنزل فى صور و أشكال متنوعه و لمختلف المستويات العقليه و العقائديه و الاجتماعيه.

٢- ٢) -«اللام» فى ليقولوا هى «لام العاقبه» لبيان العاقبه التى وصل إليها الأمر دون أن تكون هى الهدف المقصود، لقد كانت هذه تهمه يوجهها المشركون إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ.

من جانب المشركين، وما يزال المعارضون المعاندون يتابعونهم في ذلك، مع أنّ حياه الجزيره العرييه لم تكن فيها مدرسه و لا درس ليتعلم منها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شيئاً، كما أنّ رحلاته إلى خارج الجزيره كانت قصيره لا تدع مجالاً لمثل هذا الاحتمال، ثمّ إنّ معلومات اليهود و المسيحيين الذين كانوا يسكنون الحجاز كانت على درجه من التفاهه و تسطير الخرافات بحيث لا يمكن-أصلاً-مقارنتها بما في القرآن و لا بتعاليم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و سنشرح هذا الموضوع-إن شاء الله- عند تفسير الآيه (١٠٣) من سوره النحل.

ثمّ تبين الآيه واجب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في قبال معانده المعارضين و حقدهم و اتهاماتهم، فتقول: **إِتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَمَنْ وَاجِبُكَ أَيْضًا الْإِعْرَاضُ عَمَّا يُوْجِهُهُ إِلَيْكَ الْمَشْرُكُونَ مِنْ افْتِرَاءَاتٍ: وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ .**

هذا-في الواقع-ضرب من التسليه و التقويه المعنويه للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لكيلا ينتاب عزمه الراسخ الصلب أى ضعف في مواجهه أمثال هؤلاء المعارضين.

يتبين ممّا قلناه بجلاء أنّ عبارته وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ لا- تتعارض مطلقاً مع الأمر بدعوتهم إلى الإسلام و لا- مع الجهاد ضدهم، فالمقصود هو أن لا يلقى اهتماماً إلى أقوالهم الباطله و اتهاماتهم الكاذبه، بل يمضى في طريقه بثبات.

الآيه الأخيره يكرر القرآن فيما-مّزه أخرى-القول بأنّ الله لا يريد أن يكره المشركين و يجبرهم على الإسلام، إذ لو أراد ذلك لما كان هناك أى مشرك: **وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا مَا أَشْرَكُوا كَمَا يُؤَكِّدُ الْقَوْلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إِنَّكَ لَسْتَ مَسْئُولًا عَنْ أَعْمَالِ هَؤُلَاءِ، لِأَنَّكَ لَمْ تَبْعَثْ لِإِكْرَاهِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ: وَ مَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا، وَ لَا مِنْ وَاجِبِكَ حَمْلُهُمْ عَلَى عَمَلِ الْخَيْرِ: وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ .**

«الحفيظ» هو من يراقب أمراً أو شخصاً ليحفظه من أن يصاب بضرر، أمّا «الوكيل» فهو من يسعى لإحراز النفع لموكله.

لعل من المفيد أن نشير إلى أن نفي هاتين الصفتين «الحفاظ و الوكالة» عن رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم يعني نفي الإيجاب على دفع ضرر أو اجتلاب نفع، وإلا فإن رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم كان يدعوهم-ضمن تبليغه الرسالة-إلى عمل الخير و ترك الشر بصورة طوعيه و اختياريه.

إنّ الفكره التي تسود هذه الآيات تستلقت النظر، فهي تقول: إنّ الإيمان بالله و بتعاليم الإسلام لا- يكون عن طريق الإ-كراه و الإيجاب، بل يكون عن طريق المنطق و الاستدلال و النفوذ إلى أفكار الناس و أرواحهم، فالإيمان بالإكرام لا قيمه له، لأنّ المهم هو أن يدرك الناس الحقيقه فيقبلوها بإرادتهم و اختيارهم.

كثيرا ما يؤكّد القرآن حقيقه كون الإسلام بعيدا عن كل عنف و خشونه، كتلك الأعمال التي كانت ترتكبها الكنيسه في القرون الوسطى (1)، و محاكم تفتيش العقائد.

أمّا صلابه الإسلام في مواجهه المشركين فسوف نبحثها- إن شاء الله في بدايه تفسير سوره البراءه.

ص: ٤٢١

١- ١) -«القرون الوسطى» هي فتره الألف سنه التي امتدت بين القرن السادس الميلادي حتى نهايه القرن الخامس عشر، كما يطلق عليها اسم «الفترة المظلمه» التي مرت على أوروبا و المسيحيه، و الجدير بالذكر أنّ «العصر الذهبي الإسلامي» يقع في منتصف القرون الوسطى.

اشاره

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨)

التفسير

اشاره

تناولت الآيات السابقة موضوع قيام تعاليم الإسلام على أساس المنطق، وقيام دعوته على أساس الاستدلال و الإقناع لا الإكراه، وهذه الآيه تواصل نفس التوجيهات فتنهى عن سبب ما يعبد الآخرون-أى المشركون-لأنّ هذا سوف يدعوهم إلى أن يعمدوا هم أيضا-ظلما و عدوانا و جهلا-إلى توجيه السب إلى ذات الله المقدسه: وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ .

يروى أنّ بعض المؤمنين كانوا يتألمون عند رؤيتهم عباده الأصنام، فيشتمون أحيانا الأصنام أمام المشركين، وقد نهى القرآن نهيا قاطعا عن ذلك، و أكد التزام قواعد الأدب و اللياقه حتى فى التعامل مع أكثر المذاهب بطلانا و خرافه.

إنّ السبب واضح، فالسب و الشتم لا يمنعان أحدا من المضى فى طريق

الخطأ، بل إنَّ التعصب الشديد و الجهل المطبق الذى يركب هؤلاء يدفع بهم إلى التماذى فى العناد و اللجاجه و إلى التشبث أكثر بباطلهم، و يستسهلون إطلاق ألسنتهم بسبِّ مقام الربوبية جل و علا، لأنَّ كل أمه تتعصب عادة لعقائدها و أعمالها كما تقول العبارة التالىة من الآيه: كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ .

و فى الختام تقول الآيه: ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

بحوث

هنا ينبغى الانتباه إلى ثلاث نقاط:

١- هذه الآيه نسبت إلى الله تزيين الأعمال الحسنه و السيئه لكل شخص، و قد يثير هذا عجب بعضهم، إذ كيف يمكن أن يزين الله أعمال المرء السيئه فى نظره؟ سبق أن أجبنا مرات على مثل هذه الأسئلة فأمثال هذه التعبيرات تشير إلى صفه العمل و أثره، أى أن الإنسان عند ما يقوم بعمل ما بصورة متكرره، فإن قبح عمله يتلاشى فى نظره شيئاً فشيئاً، و يتخذ شكلاً جذاباً، و لما كان علّه العلل و سبب الأسباب و خالق كل شىء هو الله، و أن جميع التأثيرات ترجع إليه، فإن هذه الآثار تنسب أحياناً فى القرآن إلى الله (تأمل بدقه).

و بعبارة أوضح، إنَّ عبارة زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ تفسر هكذا: لقد أقحمتناهم فى نتائج سوء أفعالهم إلى الحد الذى أصبح القبيح جميلاً فى نظرهم.

يتضح من هذا أن القرآن ينسب -أحياناً- تزيين الأعمال إلى الشيطان، و هذا لا يتعارض مع ما قلناه، لأنَّ الشيطان يوسوس لهم لكى يرتكبوا الأعمال القبيحه، و هم يستسلمون لوسوسه الشيطان، فتكون النتيجة أنهم يلاقون عاقبه أعمالهم السيئه، و بالتعبير العلمى نقول: إنَّ السبب من الله، و لكنَّ هؤلاء هم الذين يوجدون

السبب، مدفوعين بوسوسة الشيطان (تأمل بدقه) (١).

٢- الأحاديث الإسلاميه- أيضا- تواصل منطق القرآن في ترك سب الضالين و المنحرفين، فقد أمر كبار قادة الإسلام بضروره الاستناد إلى المنطق و الاستدلال دائما، و بلزوم تجنب شتم عقائد الآخرين، و قد جاء في نهج البلاغه أنّ الإمام على عليه السلام خاطب فريقا من أصحابه الذين كانوا يسبون أتباع معاويه في حرب صفين،

فقال: «إني أكره لكم أن تكونوا سبائين، و لكنكم لو وصفتم أعمالهم و ذكرتم حالهم كان أصوب في القول و أبلغ في العذر» (٢).

٣- قد يعترض بعضهم قائلا: كيف يمكن لعبد الأصنام أن يسبوا الله مع أنهم في الغالب يؤمنون بالله و يعتبرون الأصنام مجرد شفعاء إلى الله.

و لكننا إذا أمعنا النظر في حاله العامه المعاندين المتعصبين أدركنا أنّ هذا ممكن و لا عجب فيه، فإنّ أمثال هؤلاء إذا أثير غضبهم سعوا للانتقام و الإثارة بأي ثمن كان، حتى و إن كان ذلك بالإساءه إلى عقائد مشتركه يقول الألوسي في «روح المعاني» إنّ بعض العوام من الجهله عند ما سمع بعض الشيعه يسب الشيعين أزعجه ذلك فراح يسب عليا عليه السلام، و إذا سئل عما دعاه إلى سب الإمام على عليه السلام الذي يحترمه، قال: كنت أريد أن أنتقم من ذلك الشيعي، و لم أجد ما يغضبه و يثيره خيرا من هذا، فحملوه على أن يتوب عما فعل (٣).

ص: ٤٢٤

١- ١) - في ثمانية مواضع من القرآن نسب تزيين الأعمال إلى الشيطان، و في عشره مواضع جاء التعبير بصيغه-المبنى للمجهول «زين»، و في موضعين إثنين نسب إلى الله، و ممّا سبق أن قلناه يتضح معنى هذه الحالات الثلاث.

٢- ٢) - نهج البلاغه، الكلام ٢٠٦.

٣- ٣) - الألوسي، «تفسير روح المعاني»، ج ٧، ص ٢١٨.

إشارة

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقِلَّتْ أَفْئِدَتُهُمْ وَ أَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)

سبب النزول

قيل فى نزول هذه الآية: إن قريش قالت: يا محمد تخبرنا أن موسى كانت معه عصا يضرب بها الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عينا، و تخبرنا أن عيسى كان يحيى الموتى و تخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقه فأتنا بآيه من الآيات كى نصدقك، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: أى شىء تحبون أن آتيكم به؟ قالوا: اجعل لنا الصفا ذهبا، و ابعث لنا بعض موتانا، حتى نسألهم عنك أحق ما تقول أم باطل، و أرننا الملائكة يشهدون لك، أو اثنتا بالله و الملائكة قبلا!! فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «فإن فعلت بعض ما تقولون، أ تصدقوننى؟» قالوا: نعم و الله لئن فعلت لتتبعنك أجمعين، و سأل المسلمون رسول الله أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا.

فقام رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يدعو الله تعالى أن يجعل الصفا ذهبا، فجاء جبرئيل عليه السلام

فقال له: إن شئت أصبح الصفا ذهاباً، ولكن إن لم يصدقوا عذبتهم، وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «بل يتوب تائبهم» فأُنزل الله تعالى الآيتين.

التفسير

وردت في الآيات السابقة أدله كثيرة كافيته على التوحيد، و ردّ الشرك و عباده الأصنام، و مع ذلك فإنّ فريقاً من المشركين المعاندين المتعصيين لم يرضخوا للحق، و راحوا يعترضون و ينتقدون، من ذلك أنّهم أخذوا يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم القيام بخوارق عجيبة و غريبه يستحيل بعضها أساساً (مثل طلب رؤيه الله)، زاعمين كذباً أنّ هدفهم من رؤيه تلك المعجزات هو الإيمان، في الآيه الأولى، يقول القرآن: أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا (١).

و في الردّ عليهم يشير القرآن إلى حقيقتين: يأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أولاً أن يقول لهم:

قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ

، أى أن تحقيق المعجزه لا يكون وفق مشترياتهم، بل إنّها بيد الله و بأمره.

ثمّ يخاطب المسلمين البسطاء الذين تأثروا بإيمان المشركين فيقول لهم:

وَ مَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ

(٢)

مؤكداً بذلك أنّ هؤلاء المشركين كاذبون في قسمهم.

كما أنّ مختلف المشاهد التي جرت بينهم و بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تؤكد حقيقته

ص: ٤٢٦

١- ١) - «الجهد» بمعنى السعى و بذل الطاقه، و المقصود هنا الجهد في توكيد القسم.

٢- ٢) - المفترضون غير متفقين على «ما»، أ هي استفهاميه أم نافية؟ و كذلك فيما يتعلق بتركيب الجملة، بعضهم يقول إنّ «ما» استفهاميه استنكاريه، و لو كانت كذلك لكان معنى الآيه: أنّي لكم أن تعلموا إنّهم لا يؤمنون إن رأوا معجزه، أى إنّهم قد يؤمنون، و هذا خلاف ما تريده الآيه، لذلك اعتبر بعضهم «ما» نافية، و هو الأقرب إلى الذهن، فيكون معنى الآيه: أنّتم لا تعلمون إنّهم حتى إذا تحققت لهم المعجزات لا يؤمنون، و على ذلك يكون فاعل «يشعر» مقدر بمعنى «شيء» و للفعل «يشعر» مفعولان «كم» و أنّها... (تأمل بدقه).

أنهم لم يكونوا يبحثون عن الحق، بل كان هدفهم من كل ذلك أن يشغلوا الناس و يبدروا في نفوسهم الشك و التردد.

الآيه التاليه تبين سبب عنادهم و تعصبهم، فنقول: وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَيْ أَنَّهُمْ بِإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْإِنْحِرَافِ وَ السَّيْرِ فِي طَرِيقِ مَلْتُو وَ تَعْصِبُهُمُ النَّاشِئَ عَنِ الْجَهْلِ وَ رَفْضِ التَّسْلِيمِ لِلْحَقِّ، أَضَاعُوا قُدْرَتَهُمْ عَلَى الرَّؤْيَةِ الصَّحِيحَةِ وَ الْإِدْرَاكَ السَّلِيمِ، فَارْحُوا يَعِيشُونَ فِي مَتَاهَاتِ الضَّلَالِ وَ الْحَيْرَةِ.

هنا أيضا نسب هذا الفعل إلى الله كما سبق من قبل، و هو في الواقع نتيجة أعمالهم و سوء فعالهم، و ما نسبه ذلك إلى الله إلا لأنه علّه العلل و مبدأ عالم الوجود، و كل خصيصه في أى شىء إنما هي بإرادته، و بعبارة أخرى: إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ مِنَ النَّاتِجِ الْحَتْمِيَةِ لِلْعِنَادِ وَ التَّعْصَبِ الْأَعْمَى وَ الْإِنْحِرَافِ أَنْ يَكُونَ لَهَا مِثْلُ هَذَا الْأَثْرِ، وَ هُوَ انْحِرَافُ الْإِنْسَانِ شَيْئًا فِشَيْئًا فِي هَذَا الطَّرِيقِ، فَلَا يَعُودُ يَدْرِكُ الْأُمُورَ إِدْرَاكَ سَلِيمًا.

ثم تشير الآيه في الخاتمه إلى أنّ الله، يترك أمثال هؤلاء في حالتهم تلك لكي يشتد ضلالهم و تزداد حريتهم: وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١).

نسأل الله أن يجنبنا الابتلاء بمثل هذا الضلال و الحيره الناتجه عن أعمالنا السيئه، و أن يمنحنا النظره السليمه الكامله لكى نرى الحقيقه ناصعه لا غبش عليها.

ص: ٤٢٧

الجزء الثامن من القرآن الكريم

ص: ٤٢٩

اشاره

وَ لَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَ حَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبَلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)

التفسير

اشاره

لماذا لا يعوى المعاندون؟

هذه الآيه تتبع سابقاتها فى تعقيب الحقيقه نفسها، وهدف هذه الآيات هو بيان كذب أولئك الذين طلبوا تحقيق معجزات عجيبيه و غريبه يستحيل تحقق بعضها كما مر (مثل رؤيه الله جهره).

فهم يظنون أنهم بطلبهم تلك المعجزات العجيبيه سوف يززعون أفكار المؤمنين و يزلزلون عقائد الباحثين عن الحق و يشغلونهم عن ذلك.

فيصريح القرآن فى الآيه المذكوره قائلا: وَ لَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَ حَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبَلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا (١). .

ص: ٤٣١

١ - ١) - حَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ تعنى: حققنا لهم كل طلباتهم، فالحشر بمعنى الجمع، و قبلًا بمعنى أمامهم و قبالتهم، و قد تكون «قبل» جمع «قبيل» بمعنى تجميع الملائكه و الأموات أمامهم جماعات.

ثم يؤكد ذلك أنهم لا يمكن أن يؤمنوا إلا في حالة واحدة و هي أن يجبرهم الله بإرادته على الإيمان: **إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِلَّا أَنْ** إيماننا كهذا لا ينفع في تربيتهم ولا يؤثر في تكاملهم وفي النهايه يقول: **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ**.

هناك كلام مختلف بين المفسرين عمن يعود إليهم الضمير «هم» في هذه العبارة، فقد يعود إلى المؤمنين الذين أصرروا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يحقق للمشركين طلباتهم و يأتيهم بكل معجزه يريدونها.

و ذلك لأن معظم هؤلاء المؤمنين كانوا يجهلون زيف الكفار في دعواهم، و لكن الله كان عالما بأنهم كاذبون، و لذلك لم يجبههم إلى طلباتهم، إلا- أن دعوه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يمكن أن تخلو-طبعاً-من معجزه، فقد حقق الله في مواضع خاصه معجزات مختلفه على يده.

و الاحتمال الآخر هو أن الضمير «هم» يعود إلى الكفار أصحاب الطلبات أنفسهم، أي أن أكثرهم يجهل قدره الله على تحقيق كل أمر خارق للعاده، و لعلمهم يعتبرون قدرته محدوده لذلك كانوا يصفون معجز الرسول بالسحر، يقول سبحانه: **وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً** **مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سِحْرٌ مَّبْصُورٌ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١)** فهم قوم معاندون و جاهلون و ينبغي أن لا يهتم أحد بكلامهم.

ص: ٤٣٢

اشاره

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُهُمْ ۚ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَ لِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَضُوهُ وَلِيَفْتَرُوا مَا هُمْ مُّقْتَرُونَ (١١٣)

التفسير

اشاره

وساوس الشياطين:

تشير هذه الآيه إلى أنّ أمثال هؤلاء المعاندين اللجوجين المتعصيين الذين أشارت إليهم الآيات السابقة، لم يقتصر وجودهم على عهد نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم، بل إنّ الأنبياء السابقين وقف في وجوههم أعداؤهم من شياطين الإنس والجن:

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ

، لا عمل لهم سوى الكلام المنمق الخادع يستغفل به بعضهم بعضا، يلقونه في غموض أو يهمس به بعض لبعض: يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا .

ولكن: لو أراد الله لمنع هؤلاء بالـإكراه عن ذلك و لحال دون وقوف هؤلاء الشياطين و أمثالهم بوجه الأنبياء: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ .

بيد أنّ الله لم يشأ ذلك، لأنه أراد أن يكون الناس أحرارا، و ليكون هناك مجال لاختبارهم و تكاملهم و تربيتهم، إنّ سلب الحريه و الإكراه لا يأتلف مع هذه

الأغراض، ثم إنَّ وجود أمثال هؤلاء الأعداء المعاندين المتعصبين لا يضر المؤمنين الصادقين، شيئاً، بل يؤدي بشكل غير مباشر إلى تكامل الجماعه المؤمنه، لأنَّ التكامل يسير عبر التضاد، ووجود عدو قوى له تأثير على تعبئه الطاقات البشريه و تقويه الإراده.

لذلك يأمر الله نبيه في آخر السوره أن لا يلقي بالا إلى أمثال هذه الأعمال الشيطانيه: فَذَرُهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ .

ملاحظات:

نسترعى الانتباه إلى النقاط التاليه:

١- في هذه الآيه ينسب الله إلى نفسه وجود شياطين الإنس و الجن في قبال الأنبياء بقوله: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا... و اختلف المفسرون في معنى هذه العبارة، و لكن كما سبق أن شرحنا جميع أعمال الناس يمكن أن تنسب إلى الله، لأنَّ ما يملكه الناس إنما هو من الله، فقدرتهم منه، و كذلك حريه اختيارهم و إرادتهم، لذلك فان أمثال هذه التعبيرات لا يمكن أن تعنى سلب حريه الإنسان و اختياره، و لا أن الله قد خلق بعض الناس ليتخذوا موقف العداه من الأنبياء، إذ لو كان الأمر كذلك لما توجهت إليهم أيه مسؤوليه بشأن عدائهم للأنبياء، لأنَّ عملهم في هذه الحاله يعتبر تنفيذاً لرسالتهم، و الأمر ليس كذلك... بالطبع.

و لا يمكن إنكار ما لوجود أمثال هؤلاء الأعداء-المختارين طبعاً- من أثر بناء غير مباشر في تكامل المؤمنين، و بتعبير آخر: يستطيع المؤمنون الصادقون أن ينتزعوا من وجود الأعداء أثراً إيجابياً متخذين منه وسيله لرفع مستواهم و وعيهم و إعدادهم للمقاومه، لأنَّ وجود العدو يحفز الإنسان لاستجماع قواه.

٢- للشياطين (جمع شيطان) معنى واسع يشمل كل طاغ معاند مؤذ، لذلك يطلق القرآن على الوضع الخبيث الطاغى من البشر اسم الشيطان، كما نلاحظ في هذه الآيه حيث ذكر شياطين الإنس و غير الإنس الذين لا نراهم، أمّا «إبليس»

فهو اسم خاص للشيطان الذى وقف بوجه آدم عليه السلام و هو فى الحقيقه رئيس جميع الشياطين، و عليه فالشيطان اسم جنس، و إبليس اسم على خاص (١).

٣- زُخْرَفَ الْقَوْلِ يعنى الكلام المعسول الخادع الذى يعجبك ظاهره و هو فى الباطن قبيح (٢) و«الغرور» هو الغفله فى اليقظه.

٤- تعبير يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فيه إشاره لطيفه إلى أَنَّهُمْ فى أقوالهم و أفعالهم الشيطانيه يرسمون خططا غامضه يتبادلونها فيما بينهم سراً لئلا يعرف الناس شيئاً عن أعمالهم حتى ينفذوا خططهم كامله، أن من معانى «الوحي» الهمس فى الأذن.

الآيه التاليه تشير إلى نتيجه كلام الشياطين المزخرف الخادع فتقول: أخيراً سيستمع الذين لا إيمان لهم- أى الذين لا يؤمنون بيوم القيامه- إلى تلك الأقوال و تميل قلوبهم إليها: وَ لَتَصْنَعُنَّ لِإِيَّهِ أَفْنَدَهُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ (٣).

«لتصغى» من «الصغو» و هو الميل إلى شىء، و لكنّه فى الأغلّب ميل ناشئ عن طريق السمع، فإذا استمع أحد إلى كلام مع الموافقه، فهو «الصغو» و «الإصغاء».

ثمّ يقول: إنّ نهايه هذا الميل هو الرضاع التام- بالمناهج الشيطانيه وَ لِيُرِضُوهُ .

و ختام كل ذلك كان ارتكاب أنواع الذنوب و الأعمال القبيحه: وَ لِيُقْتَرَفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ .

ص: ٤٣٥

١- ١) - انظر المجلد الأول بهذا الشأن.

٢- ٢) - «زخرف» تعنى أصلاً الزينه و الذهب الذى يستخدم للزينه، ثمّ أطلقت على الكلام ذى الظاهر الجميل المزين.

٣- ٣) - يختلف المفسّرون فى إعراب هذه الآيه، و فى ما عطفت عليه جمله «و لتصغى» أمّا الأقرب إلى مفهوم الآيه فهو أن الجملة معطوفه على «يوحى» و لامها «لام العاقبه» أى إنّ عاقبه أمر الشياطين ستكون أَنَّهُمْ يوحى بعضهم إلى بعض كلاماً خادعاً فيميل إليه الذين لا إيمان لهم، و قد تكون معطوفه على محل «غرورا» و هى مفعول لأجله (إذ أنّ الإنسان ينخدع أولاً ثمّ يميل إلى ما انخدع به) فتأمل بدقّه.

إشاره

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا. وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)

التفسير

هذه الآيه فى الواقع هى نتيجة الآيات السابقه، إذ تقول: بعد كل تلك الأدله و الآيات الواضحه التى تؤكد التوحيد: أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَىٰ حَكَمًا (١)؟ وهو الذى أنزل هذا الكتاب السماوى العظيم الذى فيه كل احتياجات الإنسان التربويه، وما يميز بين الحق و الباطل و النور و الظلمه، و الكفر و الإيمان: وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا .

و ليس الرسول و المسلمون وحدهم يعلمون أنّ هذا الكتاب قد نزل من الله، بل إنّ أهل الكتاب (اليهود و النصارى) يعلمون ذلك أيضا، لأنّ علائم هذا الكتاب

ص: ٤٣٦

١ - ١) - «الحكم» القاضى و الحاكم، و بعضهم يراه مساويا للحاكم من حيث المعنى، و لكن يرى بعضهم، و منهم الشيخ الطوسى رحمه الله، أنّ الحكم من لا- يحكم بغير الحق، أمّا الحاكم فقد يحكم بكليهما، و يرى آخرون، و منهم صاحب المنار أنّ الحكم من يختاره الطرفان للحكم، و ليس الحاكم كذلك.

السماوى قرءوها فى كتبهم و يعلمون أنه نزل من الله بالحق: وَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ .

و على ذلك لم يبق مجال للشك فيه، و كذلك أنت أيها النبى لا تشك فيه أبدا، فلا تُكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمَرِينَ .

هنا يبرز هذا السؤال: هل كان النبى صلى الله عليه و آله و سلم يداخله أدنى شك ليخاطب بمثل هذا القول؟ و الجواب: هو ما سبق أن قلناه فى مثل هذه الحالات، و هو أن المخاطب فى الحقيقة هم الناس، و ما مخاطبه النبى مباشرة إلا لتوكيد الموضوع و ترسيخه، و ليكون التحذير للناس أقوى و أبلغ.

الآيه التاليه تقول: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَ عَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

«الكلمه» بمعنى القول، و تطلق على كل جملة و كل كلام مطولا- كان أم موجزا، و قد تطلق على الوعد، كما فى الآيه: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ (الْحُسَيْنِ) عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا (١) ، لأنَّ الشخص عند ما يعد يتلفظ ببعض الكلمات المتضمنه لمفهوم الوعد.

و قد يأتى بمعنى الدين و الحكم و الأمر للسبب نفسه.

أما بالنسبه لاستعمالها فى هذه الآيه فقيل إنها تعنى القرآن، و قيل إنها دين الله، و قيل: وعد النصر الذى وعد الله نبيه صلى الله عليه و آله و سلم. و ليس بين هذه تعارض، فقد تكون الآيه أرادت هذه المعانى جميعا، و لأنَّ الآيات السابقه كانت تشير إلى القرآن، فتفسير الكلمه بالقرآن أقرب.

فيكون معنى الآيه إذن: إنَّ القرآن ليس موضع شك بأى شكل من الأشكال، فهو كامل من جميع الجهات و لا عيب فيه، و كل أخباره و ما فيه من تواريخ صدق،

ص: ٤٣٧

و كل أحكامه و قوانينه عدل.

و ربّما يكون معنى «كلمه» هنا هو الوعد الذى جاء فى العبارة التاليه لا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ إِذْ يَتَكَرَّرُ هَذَا التَّعْبِيرُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١) و قوله سبحانه وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (٢)، فى أمثال هذه الآيات تكون الآيه التاليه بيانا للوعد الذى ورد من قبل تحت لفظه «كلمه».

و على ذلك يكون معنى الآيه: لقد تحقق وعدنا بالصدق و بالعدل، و هو أنه ليس لأحد القدره على تبديل أحكام الله.

و قد تتضمن الآيه كل هذه المعانى.

و إذا كانت الآيه تعنى القرآن، فذلك لا يتعارض مع كون القرآن لم يكن قد اكتمل نزوله حينذاك، إذ المقصود هو أن ما نزل منه كان متكاملًا و لا عيب فيه.

و يستند بعض المفسرين إلى هذه الآيه لاثبات عدم تحريف القرآن، لأنّ تعبير لا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ تعنى أن أحدا لا يستطيع أن يحدث فى القرآن تبديلا أو تغييرا، لا فى لفظه، و لا فى إخباره، و لا فى أحكامه، و أن هذا الكتاب السماوى الذى يجب أن يبقى حتى نهايه العالم هاديا للناس سيقى محفوظا و مصونا من أغراض الخائنين و المحرفين.

ص: ٤٣٨

١-١) - هود، ١١٩.

٢-٢) - الصافات، ١٧١ و ١٧٢.

إشاره

وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧)

التفسير

نعلم أن آيات هذه السوره نزلت في مكه، يوم كان المسلمون قلّه في العدد، و لعل قلّتهم هذه و كثره المشركين و عبده الأصنام كانت مدعاه لتوهم بعضهم أنه إذا كان دين أولئك باطلا فلم كثر أتباعه؟! و إذا كان دين الإسلام حقًا، فما سبب قلّه معتنقيه؟ و لدفع هذا التوهم يخاطب الله نبيّه بعد ذكر أحقيّه القرآن في الآيات السابقه قائلًا: وَ إِنْ تُطِيعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .

و في الجملة التّاليه يبيّن سبب ذلك، و هو أنهم لا يتبعون المنطق و التفكير السليم، بل هم يتبعون الظنون التي تخالطها الأهواء و الأكاذيب و يمتزج بها الخداع و التخمين: إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١).

ص: ٤٣٩

١- (١) - «الخرص» هو كل قول أطلق عن ظن و تخمين، و أصله من تخمين كميّه الثمر على الأشجار عند استئجار البستان، و أمثال

فيكون مفهوم الآيه الشريفه أنّ الأكثرية لا يمكن أنّ تكون وحدها الدليل على طريق الحق، و من هذا نستنتج أنّه يجب التوجه إلى الله وحده لمعرفة طريق الحق، حتى لو كان السائرون في هذا الطريق قلّه في العدد.

و الدليل على ذلك يرد في الآيه التّاليه التي تؤكد على أنّ الله عليم بكل شيء و لا مكان للخطأ في علمه، فهو أعرف بطريق الهدايه، كما هو أعرف بالضالين و بالسائرين على طريق الهدايه: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١)

هنا يبرز سؤال: يفهم من الآيه أنّ الله سبحانه أعلم بطريق الهدايه، فهل هناك من يعلم طريق الهدايه بدون هدى الله حتى كون الله هو الأعم؟! و الجواب: إنّ الإنسان قادر-بلا شك- أن يتوصل بعقله إلى بعض الحقائق، و يدرك طريق الهدايه و الضلاله إلى حد ما، غير أنّ مديّات ضوء العقل لها حدود، و قد يظل بعض الحقائق خارج نطاق تلك الحدود، ثمّ إنّ معلومات الإنسان قد يعتمدها الخطأ، فيكون لذلك بحاجه إلى مرشدين و هداة إلهيين، لذلك فتعبير «الله أعلم» صحيح، و إن يكن قياسا مع الفارق.

لا أهميه للكثرة العددية:

على العكس ممّا يظنّه بعضهم بأنّ الكثرة العددية توافق الصواب دائما فإنّ القرآن ينفي هذا في كثير من آياته، و لا- يقيم للكثرة «العدديه» أي وزن، بل يرى- في الحقيقة- إنّ الكثرة «الكيفيه» هي المقياس، لا- الكثرة «الكميه» على الرغم من أنّ المجتمعات المعاصره لم تجد لإداره الحياه الاجتماعيه طريقا سوى

(١)

ذلك، ثمّ أطلق على كل ظن و تخمين قد يطابق الواقع و قد لا يطابقه، و الكلمه تستعمل في الكذب أيضا، و قد تكون في الآيه بكلا المعنيين.

ص: ٤٤٠

١-١) -صيغه التفضيل تتعدى عادة بالباء، فكان المفروض أن يقال «أعلم بمن يضل» و لكن الباء حذفت هنا و «من يضل» منصوبه بنزع الخافض.

الاستناد إلى الأكثرية، فلا ننس أن هذا- كما قلنا- نوع من الاضطراب و الوصول إلى طريق مسدود، إذ لا يمكن العثور في مجتمع مادي على وسيلة صحيحة و سليمة لاتخاذ القرارات و لسن القوانين.

لذلك نجد الكثير من العلماء مضطرين إلى القبول بفكره الأكثرية، على الرغم من اعترافهم بأن هذه القاعدة كثيرا ما يصاحبها الخطأ، و ذلك لأنّ عيوب الوسائل الأخرى أكثر.

بيد أنّ مجتمعا مؤمنا برسالة الأنبياء لا يجد نفسه مضطرا لاتباع نظر الأكثرية في سن القوانين، لأنّ مناهج الأنبياء الصادقة و قوانينهم الإلهية خالية من كل عيب و نقص، و لا يمكن مقارنتها بما تستصوبه الأكثرية المعرضة للخطأ.

لو ألقينا نظره على وضع العالم اليوم و على الحكومات القائمة على أساس رأى الأ-كثريه، و على القوانين السقيمة التي تمليها الأهواء ثمّ تقرأها الأكثرية، لرأينا أنّ الأكثرية العديده لم تداو جرحا، بل إنّ معظم الحروب و أكثر المفاسد أقرتها الأكثرية.

الاستعمار، و الاستغلال، و الحروب، و إراقة الدماء، و حريه تعاطى المسكرات، و القمار، و الإجهاض، و البغاء، و غير ذلك ممّا يندى له الجبين خجلا، قد أقرتها الأكثرية في المجالس النيابيه في كثير من البلدان التي تصف نفسها بأنّها متقدمه باعتبارها تعكس رغبه أكثرية عامه الناس، و هذا دليل على حقيقه ما نقول.

و من الناحيه العلميه نتساءل هل أنّ أكثرية المجتمعات صادقه؟ هل الأكثرية أمينه؟ أ تراها تمنع نفسها من الاعتداء على حقوق الآ-خرين، إذا استطاعت؟ هل تنظر الأ-كثريه إلى منافعها و منافع الآ-خرين بنظره واحده؟ الإجابات ناطقه بلسان الحال لا المقال، لذلك لا بدّ من الاعتراف بأنّ استناد العالم المعاصر إلى الأكثرية نوع من الإكراه تفرضه الأوضاع القائمه، و أنّه شر

مفروض على المجتمعات.

نعم، لو أنّ العقول المفكره، مصلحي المجتمعات البشريه المخلصين، و العلماء الهادين -و هم أقلية دائما- شنوا حمله شامله لتنوير أفكار عامه الناس بحيث تنال المجتمعات قسطا من الوعي و الرشد الفكري و الاجتماعي، لاقتربت وجهات نظر أكثرية كهذه إلى الحقيقه اقترابا كبيرا، غير أنّ أكثرية غير راشده و غير واعيه، بل فاسده و منحرفه و ضاله، لا- تستطيع أن تقيل عثره نفسها أو غيرها! لذلك فالأكثرية وحدها لا تكفي، و إنّها الأكثرية المهتمديه هي القادره على حل مشاكل المجتمع إلى الحد الذي يستطيعه بشر.

و إذا كان القرآن في كثير من المواضع يذم الأكثرية، فالمقصود هو الأكثرية غير الرشیده دون شك.

ص: ٤٤٢

إشاره

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنَّ كُنْتُمْ بآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُررْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠)

التفسير

إشاره

لابد من إزاله آثار الشرك:

هذه الآيات فى الحقيقه واحده من نتائج البحوث التى سبقت فى التوحيد و الشرك، لذلك تبدأ الآيه الأولى بفاء التفریع التى یؤتى بعدها بالنتیجه.

الآيات السابقة تناولت بأساليب متنوعه حقيقه التوحيد و إثبات بطلان الشرك و عباده الأصنام.

و من نتائج ذلك أنّ على المسلمين أن يمتنعوا عن أكل لحوم القرابين التى تذبیح باسم الأصنام، بل عليهم أن يأكلوا من لحم ما ذكر اسم الله عليه، حيث كان

من عادة العرب أن يذبحوا القرابين لأصنامهم، و يأكلوا من لحومها للتبرك بها، و كان هذا جزءا من عبادتهم الأصنام، لذلك يبدأ القرآن بالقول: فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ .

أى أنّ الإيمان ليس مجرد قول و ادعاء و عقيدة و نظريه، بل لا بدّ أن يظهر على صعيد العمل أيضا، فالذى يؤمن بالله يأكل من هذه اللحوم فقط.

بديهي أنّ الفعل «كلوا» لا يعنى الوجوب، بل يعنى إباحه أكلها و حرمة أكل ما عداها.

و من هذا يتبين أنّ حرمة الذبائح التى لم يذكر اسم الله عليها، ليست من وجهه النظر الصحيحه حتى يقال: ما الفائدة الصحيحه من ذكر اسم الله على الذبيحه بل لها خلفيه أخلاقية و معنويه و تستهدف تثبيت قواعد التوحيد و عبوديه الله الواحد الأحد.

الآية التّاليه تورد هذا الموضوع نفسه بعبارة مغايره مع مزيدٍ من الاستدلال، فتقول: لِمَ لَا تَأْكُلُونَ مِنَ اللَّحْمِ الَّتِي ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا، فِي الْوَقْتِ الَّذِي بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ؟ وَ مَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ .

مرّه أخرى نشير إلى أنّ التوبيخ و التوكيد ليسا من أجل ترك أكل اللحم الحلال، بل الهدف هو أنّ هذه هى التى ينبغى أن تأكلوا منها، لا من غيرها، و بعبارة أخرى: التوكيد يكون هنا على النقطة المقابله لمفهوم العبارة، من هنا استدل على ذلك بالقول: قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ .

أمّا موضع هذا التفصيل فقد يتصوّر البعض أنّه فى سورة المائدة، أو فى آيات من هذه السورة (الأنعام، ١٤٥).

و لما كانت هذه السورة قد نزلت فى مكّه، و سورة المائدة نزلت بالمدينه، و الآيات التّاليه من هذه السورة لم تكن قد نزلت بعد فإنّ أيّا من هذين

الاحتمالين غير صحيح، فالموضوع إما أن يكون الآية (١١٥) من سورة النحل التي تذكر بعض اللحوم المحرم أكلها، وخاصة التي لم يذكر عليها اسم الله، أو أن يكون المراد التعاليم التي كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بينها بشأن اللحوم، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يتحدث إلا بوحى.

□
ثم يستثنى من ذلك حالة واحدة: إلا ما اضطررتم إليه سواء كان هذا الاضطرار ناشئا من وجود الإنسان في البيداء و تحت ضغط الجوع الشديد، أو الوقوع تحت سيطره المشركين الذين قد يجبرونه على أكل لحومهم.

ثم تشير الآية إلى أن كثيرا من الناس يحاولون أن يضلوا الآخرين عن جهل أو عن إتباع الهوى: وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بَغَيْرِ عِلْمٍ .

و على الرغم من أن إتباع الهوى مصحوب دائما بالجهل، ولكنه يكرر ذلك للتوكيد فيقول: ...بِأَهْوَائِهِمْ بَغَيْرِ عِلْمٍ .

يستفاد من هذا التعبير أيضا أن العلم الصحيح لا يقترن بإتباع الهوى و الانسياق مع الخيال، و حيثما اقترن فهو الجهل لا العلم.

يلزم القول أن الجملة المذكورة ربما تكون إشاره إلى ما كان سائدا بين المشركين العرب الذين كانوا يسوغون لأنفسهم أكل لحوم الحيوانات الميتة بالقول: أ يجوز أن تعتبر لحوم الحيوانات التي نقتلها بأنفسنا حلالا، و لحوم الحيوانات التي يقتلها الله حراما؟ بديهى أن هذا لم يكن سوى سفسطه فارغه، لأن الحيوان الميت ليس حيوانا ذبحه الله ليتمكن مقارنته بالحيوانات المذبوحه، إذ إن الحيوان الميت بؤره الأمراض، و لحمه فاسد، و لهذا حرم الله أكله، و أخيرا يقول: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ الذين يحاولون بهذه الأدله الواهيه تنكّب طريق الحق، بل يسعون إلى إضلال الآخرين.

الآيه الثالثه تذكر قانونا عاما، لاحتمال أن يرتكب بعضهم هذا الإثم فى

الخفاء، و تقول: وَ ذُرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَ بَاطِنَهُ .

يقال إنهم فى الجاهليه كانوا يعتقدون أن الزنا إذا ارتكب فى الخفاء فلا بأس به، أما إذا ارتكب علنا فهو الإثم! أو اليوم-أيضا- نجد أناسا يسيرون وفق هذا المنطق الجاهلى فيخشون ارتكاب الإثم علانيه، ولكنهم يرتكبون فى الخفاء ما يشاءون من الآثام دون رادع من ضمير.

إن هذه الآيه لا تدين هذا المنطق فحسب، بل تحمل مفاهيم واسعه، فهى بالاضافه إلى ما قلناه آنفا تتضمن الكثير من التفاسير التى وردت للإثم الظاهر و الباطن، من ذلك مثلا-قولهم: إن الإثم الظاهر هو ما يرتكب بوساطه أعضاء الجسم، و الإثم الباطن هو ما يرتكب فى القلب و فى التيه و العزم.

ثم من باب تهديد المذنبين بما ينتظرهم من مصير مشؤوم و تذكيرهم بذلك، تقول الآيه: إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ .

عبارة يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ تعبير رائع يشير إلى أن الإنسان فى هذه الدنيا أشبه بأصحاب رؤوس الأموال الذين يدخلون سوقا كبيره، أن رؤوس أموالهم الذكاء و العقل و العمر و الشباب و الطاقات المختلفه التى هى مواهب الله، فالمسكين ذاك الذى «يكتسب» الإثم بدل أن يكتسب السعاده و الشخصيه الإنسانيه و التقوى و القرب إلى الله.

و«سيجزون» أى ينالون الجزاء فى المستقبل القريب... قد يشير إلى يوم القيامه، و أنه و إن بدا فى نظر بعضهم بعيدا، فهو فى الحقيقه قريب جدا، و إن هذا العالم سرعان ما تنطوى أيامه و يحين المعاد.

و قد يكون إشاره إلى أن أغلب أفراد البشر ينالون فى هذه الدنيا بعض ما يستحقونه من نتائج أعمالهم السيئه بشكل ردود فعل فرديه و اجتماعيه.

إشاره

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكُمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)

التفسير

دار الكلام في الآيات السابقه حول الجانب الإيجابي من مسأله اللحوم، أى أكل اللحوم الحلال، و في هذه الآيه تأكيد للجانب السلبي من المسأله:

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ

ثم في جملة واحده يدين هذا العمل:

وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ

و إثم و خروج عن طريق العبوديه و إطاعه الله.

و لكيلا يقع بعض البسطاء من المسلمين تحت تأثير وسوسه الشيطان، تخاطبهم الآيه: إِنَّ الشَّيَاطِينَ يوسوسون في الخفاء لأتباعهم لكي يدخلوا معكم في جدل و نقاش: وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكُمْ لِيُجَادِلُوكُمْ و لكن كونوا على حذر، و لا تطيعوهم: وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ .

لعل هذا الجدل و الوسوسه إشاره إلى ما كان سائدا بين المشركين بشأن أكل الميتة (و ذهب البعض إلى أنّ العرب المشركين أخذوه من المجوس) و قولهم: إِنَّا نَأْكُلُ الْمَيْتَةَ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَاتَهَا، و هي لذلك أفضل مما نقتله بأيدينا، معتقدين أن عدم

أكل الميتة نوع من الجفاء لعمل الله! غافلين أنّ الحيوان الميت موتا طبيعيا، إضافة إلى مرضه غالبا، يضم بين لحمه دما قدرا فاسدا يفسد معه اللحم، بسبب عدم انقطاع أوداجه، و لذلك أمر الله أن تؤكل -فقط- لحوم الحيوانات المذبوحه بطريقه خاصه، و المراق دمها خارج بدنها.

و يستفاد من هذه الآيه -ضمنيا- حرمة الذبيحه غير الإسلاميه، لأنها إضافة إلى الجهات الأخرى -لم يتقيد ذابحها بذكر اسم الله عليها.

ص: ٤٤٨

أشاره

أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣)

سبب النزول

قيل في نزول الآيه الأولى إنَّ أبا جهل الذي كان من ألد أعداء الإسلام و الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ آذى يوماً رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ إيذاءً شديداً، وكان «حمزه» عم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ - ذاك الرجل الشجاع - لم يسلم بعد، بل كان ما يزال يقلب الأمر في ذهنه، وقد خرج في ذلك اليوم كعادته للصيد في الصحراء، وعند عودته سمع بما جرى بين أبي جهل و ابن أخيه، فغضب غضباً شديداً و ذهب إلى أبي جهل و صفعه صفعه أسالت الدم من أنفه، و على الرغم من مكانه أبي جهل و نفوذه في عشيرته، فإنَّ لم يرد عليه لما يعرفه عن شجاعه حمزه.

و عاد حمزه إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ و أعلن إسلامه، و منذ ذلك اليوم أصبح

جنديا من جنود الإسلام، و دافع عنه حتى استشهد بين يدي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

هذه الآية نزلت بشأن هذه الحادثة و بينت إسلام حمزه، و إصرار أبي جهل على الكفر و الفساد.

و تفيد بعض الروايات الأخرى أنّ الآية نزلت بشأن إسلام عمار بن ياسر و إصرار أبي جهل على الكفر.

و مهما يكن، فإنّ هذه الآية-مثل الآيات الأخرى-لا تختص بواقعه نزولها، بل هي ذات مفهوم واسع يصدق على كل مؤمن صادق و كل معاند لجوج.

التفسير

إشاره

الإيمان و الرّؤية الواضحه:

ترتبط هذه الآية بالآيات السابقة من حيث كون الآيات السابقة أشارت إلى طائفتين من الناس: المؤمنين المخلصين، و الكافرين المعاندين الذين لا-يكتفون بضلالهم، بل يسعون حثيثا إلى تضليل الآخرين، هنا أيضا يتجسد وضع هاتين الطائفتين من خلال ضرب مثل واضح.

يشير المثال إلى طائفه من الناس كانوا من الضّالين، ثمّ غيروا مسيرتهم باعتناق الإسلام فهؤلاء أشبه بالميت الذي يحييه الله بإرادته: **أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ**.

كثيرا ما يستعمل القرآن «الموت» و «الحياه» بالمدلول المعنوي لهما لتمثيل الكفر و الإيمان، و هذا يدل على أنّ الإيمان ليس مجرد معتقدات جافه و أوراد و طقوس، بل هو بمثابة الروح التي تحل في النفوس الميتة غير المؤمنه، فتؤثر عليها في جميع شؤونها، و تمنح العيون الرؤيه، و الآذان قدره السمع، و اللسان قوه البيان، و الأطراف العزم على أداء النشاطات البناءه... الإيمان يغير الأفراد، و يشمل هذا التغيير كل جوانب الحياه، و تبدو آثاره في كل الحركات و السكنات.

و تفيد جملة فَأَحْيَيْنَاهُ أَنَّ الإيمان-و إن استلزم سعى الإنسان لنيله-لا يتم إلا بهدايه من الله! ثم تقول الآية عن أمثال هؤلاء: وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ .

على الرغم من وجود الاختلاف في تفسير هذا «التور» فالظاهر أنّ المقصود ليس القرآن و تعاليم الشرع فحسب، بل أكثر من ذلك، حيث يمنح الإيمان بالله الإنسان رؤيه و إدراكا جديدين...يمنحه رؤيه واضحه و يوسع من آفاق نظره لتتجاوز إطار حياته الماديه و جدران عالم ماده الضيق إلى عالم أرحب و أوسع.

و لما كان الإيمان يدعو الإنسان إلى أن يبنى نفسه،فانه يزيح عن عينيه أغشيه الأنانيه و التعصب و المعانده و الأهواء،و يريه حقائق ما كان قادرا على إدراكها من قبل.

إنه في ضوء هذه التور يستطيع أن يميز مسيره حياته بين الناس،و أنّ يصون نفسه و يحافظ عليها و يحصنها ضد ما يقع فيه الآخرون من أخطار الطمع و الجشع و الأفكار الماديه المحدوده،و الوقوف بوجه أهوائه و كبج جماحها.

إنّ ما نقرأه في الأحاديث الإسلاميه من أنّ «المؤمن ينظر بنور الله»إشاره إلى هذه الحقيقه،إنّ مجرد الوصف غير قادر على تبيان خصائص هذه الرؤيه الإيمانيه التي يمنحها الله للإنسان،بل ينبغي أن يذوق الإنسان طعمها لكي يدرك بنفسه مغزى هذا القول و يحس به.

ثم تقارن الآية بين هذا الإنسان الحي،الفعال،النير،و المؤثر،بالإنسان العديم الإيمان و المعاند،فتقول: كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا .

نلاحظ أنّ الآية لا تقول:«كمن في الظلمات»بل تقول: كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ يقول بعضهم:إنّ الهدف من هذا التعبير هو إثبات أنّ هؤلاء الأفراد غارقون في الظلمات و التعاسه إلى الحد الذي جعلهم مثلا يعرفه المدركون.

وقد يكون ذلك إشارة إلى معنى أدق هو: أنه لم يبق من وجود هؤلاء الأفراد سوى شبح، أو قالب، أو مثال أو تمثال، لهم هياكل خالية من الروح و أدمغه معطله عن العمل.

لا بدّ من القول-أيضا-إنّ «النور» الذي يهدى المؤمنين جاء بصيغه المفرد، بينما «الظلمات» التي يعيش فيها الكافرون جاءت بصيغه الجمع، وذلك لأنّ الإيمان ليس سوى حقيقه واحده، وهو يرمز إلى الوحده و التوحيد، بينما الكفر و عدم الإيمان مدعاه للتشتت و التفرقه.

و فى الختام تشير الآيه إلى سبب مصير هؤلاء المشؤوم فتقول: كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

سبق أن قلنا: إنّ من خصائص تكرار العمل القبيح أنّ قبحه يتضاءل فى عين الفاعل حتى يبدو له أخيرا و كأنّه عمل جميل، و يتحول إلى مثل القيد يشد أطرافه، و يمنع من الخروج من هذا الفخ، إنّ مطالعه بسيطه لحال المجرمين تكشف لنا هذه الحقيقه بجلاء.

و لما كان بطل هذه المشاهد فى جانبها السلبي هو «أبو جهل» الذى كان من كبار مشركى قريش و مكّه، فالآيه الثانيه تشير إلى حال هؤلاء الزعماء الضالين و قاده الكفر و الفساد، فتقول: وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا لِيْمَكُرُوا فِيهَا .

كررنا القول من قبل: أنّ سبب نسبه أمثال هذه الأفعال إلى الله، لكونه تعالى هو علّه العلل و مسبب الأسباب و مصدر كل القدرات، و الإنسان يستخدم ما وهبه الله من إمكانات طالحا كان هذا الفعل أم صالحا.

جمله «ليمكروا» تشير إلى عاقبه أعمالهم، و لا تعنى الهدف من خلقهم (1) أى أنّه عاقبه عصيانهم و كثره ذنوبهم أدت بهم إلى أن يصبحوا سدا على طريق الحق،

ص: ٤٥٢

و عاملاً على جر الناس نحو الانحراف و الابتعاد عن طريق الحق، فالمكر فى الأصل هو اللف و الدوران، ثم أطلق على كل عمل منحرف مقرون بالإخفاء.

و فى الختام تقول الآية: **وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ .**

و أى مكر و خديعه أعظم من أن يقوم هؤلاء باستخدام كل رؤوس أموال وجودهم، بما فى ذلك فكرهم و ذكاؤهم و ابتكاراتهم و أعمارهم و وقتهم و أموالهم، فى صفقه لا تعود عليهم بأى ربح، بل تثقل ظهورهم بأحمال الذنوب و الآثام الثقيله، طانين أنهم قد أحرزوا الربح و الإنتصار! كما يستفاد من هذه الآية أن النكبات و التعاسه التى تصيب المجتمع إنما تنشأ من كباره و قاداته، إذ إنهم هم الذين يتوسلون بالمكر و الحيله لتغيير معالم الطريق إلى الله، و يخفون وجه الحق عن الناس.

ص: ٤٥٣

اشاره

وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ أَغَلَمَ أَلَمْ يَجْعَلْ رِسَالَتَهُ سِيبًا لِلَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارًا عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابًا شَدِيدًا بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤)

سبب النزول

يقول العلامة الطبرسى فى «مجمع البيان»: نزلت هذه الآيه بشأن «الوليد بن المغيرة» (الذى كان من زعماء عبده الأصنام دماغهم المفكر) كان هذا يقول لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا كانت النبوه حقًا، فأنا أولى منك بها لكبر سننى و لكثرة مالى.

وقيل: إنهما نزلت بشأن «أبى جهل» لأنه كان يقول: مقام النبوه يجب أن يكون موضع تنافس، فنحن و بنو عبد مناف (قبيله رسول الله) كئنا نتنافس على كل شىء، و نجرى كفرسى رهان كتفا لكتف، حتى قالوا: إن نبيا قام فيهم، و أنه ينزل عليه الوحى فنحن لا نؤمن به إلا إذا نزل علينا الوحى كما ينزل عليه.

التفسير

اشاره

الله أعلم حيث يجعل رسالته:

تشير هذه الآيه بإيجاز إلى طريقه تفكير هؤلاء الأكابر أكابر مجرميها و إلى

مزاعمهم المضحكه الباطله، فتقول: وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ كَأَنَّهُمْ كَانُوا إِلَىٰ مَقَامِ الْوَيْلِ مِنَ اللَّهِ يَهْمُونَ ۚ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ كَأَنَّهُمْ كَانُوا إِلَىٰ مَقَامِ الْوَيْلِ مِنَ اللَّهِ يَهْمُونَ ۚ (١) على هؤلاء بوضوح قائلا: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .

بديهي أنّ الرسالة لا علاقه لها بالسنن ولا بالمال ولا بمراكز القبائل، لأنّ شرطها الأوّل هو الاستعداد الروحي، وطهاره الضمير، والسجايا الإنسانيه الأصيله، والفكر السامى، والرأى السديد ثمّ التقوى إلى درجه العصمه... إنّ هذه الصفات، وخصوصا الاستعداد لمقام العصمه لا يعلم بها غير الله، فما أبعد الفرق بين هذه الشروط و ما كان يدور بخلد أولئك.

كما إنّ من يخلف رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم لا بدّ أن تكون له جميع تلك الصفات عدا الوحي والتشريع، أى أنّه حامى الشرع والشريعة، والحارس على قوانين الإسلام، والقائد المادى والمعنوى للناس، لذلك لا بدّ له أن يكون معصوما عن الخطأ والإثم، لكى يكون قادرا على أن يوصل الرساله إلى أهدافها، وأن يكون قائدا مطاعا وقده يعتمد عليها.

و بناء على ذلك، يكون إختياره من الله أيضا، فهو وحده الذى يعلم أن يضع هذا المقام، فلا يمكن أن يترك ذلك للناس ولا للانتخابات والشورى.

و فى النهايه تشير الآيه إلى المصير الذى ينتظر أمثال هؤلاء المجرمين والزعماء الذين يدعون الباطل، فتقول: سَيَصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١) .

ص: ٤٥٥

١- ١) - «الإجرام» من «جرم» وأصله القطع، والمجرم هو الذى يقطع العهود وارتباطه بالله بعدم إطاعته، ولذلك أطلقت كلمه

كان هؤلاء الأنانيون بمواقفهم العدائيه يريدون أن يحافظوا على مراكزهم، و لكنّ الله سينزلهم إلى أدنى درجات الصغار و الحقاره بحيث إنهم سيتعذبون بذلك عذابا روحيا شديدا،مضافا إلى أنهم سيلاقون العذاب الشديد في الآخره لأنّ سعيهم على طريق الباطل كان شديدا أيضا.

(١)

«الجرم»على الإثم و الذنب،في هذا إشاره لطيفه إلى أنّ هناك في ذات الإنسان اتفاق مع الحق و الطهاره و العداله،و الإجرام هو قطع هذه الاتفاق الفطرى الإلهى.

ص: ٤٥٦

إشارة

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَهَذَا صِرَاطٌ رَبُّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَيَتَّبِعُهُمُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧)

التفسير

إشارة

الإمدادات الإلهية:

تعقيبا على الآيات السابقة التي دارت حول المؤمنين الصادقين و الكافرين المعاندين تشرح هذه الآية النعم الإلهية الكبيره التي تنتظر الفريق الأول، والشقاء الذي سيصيب الفريق الثاني، فتقرر أنّ الله ينعم بالهدايه على من يشاء،و ذلك بأن يفتح صدره لتقبل الإسلام، أما الذي لا يريد الله أن يوفقه لذلك-لسوء أعماله- يضيق صدره بحيث يجعله و كأنه يريد أن يصعد إلى السماء. فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ .

و لتوكيد هذه الأمر تضيف الآيه: كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ. فيسلبهم التوفيق و يركسهم فى التعاسه و الشقاء.

ملاحظات

اشاره

هنا يبغى أن نلاحظ النقاط التاليه:

١- ما المقصود من «الهدايه» و «الضلاله»؟

سبق لنا أن قلنا مرات عديده أن المقصود من لفظي «الهدايه» و «الضلاله» الإلهيين هو توفير الظروف و المقدمات المؤديه إلى الهدايه بالنسبه للذين لهم الاستعداد لذلك، و سلبها عن الذين لا استعداد لهم لذلك، بالنظر إلى أعمالهم.

إنّ السالكين طريق الحق و الباحثين عن الإيمان المتعطشين إليه، يضع الله فى طريقهم مصاييح مضيهه لكيلا يضيعوا فى ظلمات الطريق، و ليصلوا إلى منبع إكسير الحياه، أما الذين أثبتوا تماهلهم تجاه هذه الحقائق فهم محرومون من هذه الإمدادات الإلهيه، و سوف يتعثرون فى طريقهم بالكثير من المشاكل، و لا يوفقون لهدايه.

و بناء على ذلك، فلا- الفريق الأوّل مجبور على السير فى هذا الطريق، و لا- الفريق الثانى فى أعمالهم، و فى الواقع أنّ الهدايه و الضلال يكملان ما أرادوه هم بأنفسهم و اختاروه.

٢- المقصود من «الصدر»

هنا هو الروح و الفكر، و هذه الكنايه ترد كثيرا، و المقصود من «الشرح» هو بسط الروح و ارتفاع الفكر و اتساع أفق العقل البشرى، لأنّ تقبيل الحق يستدعى التنازل عن الكثير من المصالح الشخصيه، ممّا لا يقدر عليه إلا ذوو الأرواح العاليه و الأفكار الساميه.

٣- «الحرج» بمعنى الضيق الشديد

، و هذه هى حال المعاندين و فاقدى الإيمان، ففكرهم قاصر و روحهم ضيقه صغيره، و لا يتنازلون فى حياتهم عن شىء.

٤- معجزه قرآنيه علميه:

إن تشبيه أمثال هؤلاء بالذى يريد أن يصعد إلى السماء، جاء لأن الصعود إلى السماء صعب جدًا، فكذلك هو قبول الحق عند هؤلاء.

إننا فى كلامنا اليومى نتمثل بهذا التشبيه، فإذا أردنا أن نقول أن الوصول إلى الأمر الفلانى صعب نقول: أن تصل إلى السماء أقرب إليك من ذلك.

بالطبع لم يكن الطيران فى السماء للبشر آنذاك أكثر من تصور، ولكن على الرغم من تحقق ذلك اليوم، فهو ما يزال صعباً، وكثيراً ما يصادف رواد الفضاء المشاكل فى طيرانهم.

و يخطر فى الذهن معنى الطف من ذلك يكمل البحث السابق، وهو أنه ثبت اليوم علمياً أن الهواء المجاور للأرض مضغوط بشكل يصلح لتنفس الإنسان، ولكننا كلما ارتفعنا قلت كثافه الهواء ونسبه وجود الأوكسجين فيه، بحيث إننا إذا ارتفعنا بضع كيلومترات أصبح من الصعب أن نتنفس بسهولة (بغير قناع الأوكسجين)، وإذا ما واصلنا صعودنا ازداد ضيق تنفسنا وأصبنا بالإغماء، إن ذكر هذا التشبيه فى ذلك الزمن قبل أن تثبت هذه الحقيقه العمليه يعتبر واحده من معجزات القرآن العلميه.

٥- ما هو شرح الصدر؟

فى هذه الآيه يعتبر «شرح الصدر» من نعم الله الكبرى و«ضيق الصدر» من عقاب الله، كما جاء ذكر هذه النعمه فى قوله تعالى: أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) و يتضح هذا أكثر عند دراسه الأشخاص، فأنت ترى بعضهم على درجه من سعه الصدر بحيث إنهم قادرون على استيعاب كل حقيقه مهما كبرت، وعلى العكس منهم نرى صدر بعضهم من الضيق بحيث لا تكاد تنفذ إليها آيه حقيقه، فأفق

ص: ٤٥٩

رؤيتهم الفكرية محدود جدًا و مقتصر على الحياه اليوميه،فلو تهيأ لهم الأكل و النوم فكل شىء على ما يرام،و إذا اختل ذلك فقد انهارت حياتهم و انتهى كل شىء.

عند ما نزلت الآيه المذكوره أعلاه،

سئل رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم عن معنى شرح الصدر،فقال:«نور يقذفه الله فى قلب من يشاء فينشرح له صدره و ينفسح».

فسألوه:أ لذلك علامه يعرف بها؟ قال:«نعم،الإنايه إلى دار الخلود،و التجافى عن دار الغرور،و الاستعداد للموت قبل نزول الموت» (1) بالإيمان و العمل الصالح السعى فى سبيل الله.

الآيه التاليه تؤكد البحث السابق فتقول:إِنَّ الْمُدَدَ الْإِلَهِيَّ الَّذِي يَشْمَلُ السَّالِكِينَ سَبِيلَ اللَّهِ وَيَسْلُبُ عَنِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ،إِنَّمَا هُوَ سُنَّةُ إِلَهِيهِ مُسْتَقِيمَةٌ ثَابِتَةٌ لَا تَبْدَلُ وَ هَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا .

كما يحتمل أن يكون«هذا»إشاره إلى الإسلام أو القرآن،إذ إن الصراط المستقيم هو الطريق المستقيم المستوى.

و فى ختام الآيه توكيد آخر: قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ أَى لِمَنْ يَمْلِكُونَ قُلُوبًا وَاعِيَةً وَ آذَانًا سَامِعَةً.

الآيه الثالثه تشير إلى نعمتين من أكبر النعم التي يهبها الله للذين يطلبون الحق،إحداهما: لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ،و الثانيه: وَ هُوَ وَرِثَتُهُمْ،أى ناصرهم و حافظهم،و كل ذلك لما قاموا به من الأعمال الصالحات: بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

فأى فخر أجل و أرفع من أن يتولى الله أمور الإنسان و يتكفل بها فيكون حافظه و وليه،و أيه نعمه أعظم من أن تكون له دار السلام،دار الأمن و الأمان، حيث لا حرب و لا سفك دماء،و لا نزاع و لا خصام،و لا عنف و لا تنافس قاتل

ص : ٤٦٠

و مميت، و لا- تضارب مصالح، و لا كذب و لا افتراء، و لا اتهام و لا حسد و لا حقد، و لا هم و لا غم، بل الهدوء و الطمأنينه و الهناء؟ و لكن الآيه تقول أيضا: إنّ هذه النعم لا تأتي بمجرد الكلام، بل هي تعطى لقاء العمل... نعم العمل!

ص: ٤٤١

إشاره

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا
الَّذِي أَجَلْتَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا
كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩)

التفسير

تعود هاتان الآيتان إلى بيان مصير المجرمين الضالين و المضلين فتكملان ما بحث في السابق، فتذكران بيوم يقفون فيه وجهها
لوجه أمام الشياطين الذين كانوا يستلهمون منهم، فيواجه التابعون و المتبوعون سؤالاً - لا - جواب لديهم عليه، و لا ينالون سوى
التحسر و الحزن، إنَّها تحذيرات للإنسان كيلا ينظر فقط إلى أيامه المعدودات على الأرض، بل عليه أن يفكر بالعاقبه.

تذكر الآيه في البدايه بذلك اليوم الذي يجتمع فيه الجن و الإنس، ثم يقال يا أيها المضلون من الجن لقد أضللتكم كثيرا من
الناس: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا

«الجن» هنا هم الشياطين، لأن كلمة الجن - كما سبق أن قلنا - تشمل كل كائن غير مرئي والآية (٥٠) من سورة الكهف تذكر عن رئيس الشياطين، إبليس إنه كَانَ مِنَ الْجِنِّ .

الآيات السابقة التي تحدثت عن وسوسة الشياطين الهامسه إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ ، وكذلك الآيه التاليه التي تحدثت عن سيطره بعض الظالمين على الآخرين، قد تكون إشاره إلى هذا الموضوع.

و يبدو أَنَّ الشياطين المضلين لا جواب لديهم على هذا السؤال و يطرقون صامتين، غير أَنَّ أتباعهم من البشر يقولون: رَبَّنَا، هؤلاء استفادوا مِنَّا كما إِنَّا استفدنا منهم حتى جاء أجلنا: وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا .

أى كان شياطيننا فرحين بسيطرتهم علينا و كُنَّا نتبعهم مستسلمين، أمَّا نحن فكُنَّا مستمتعين بمباهج الحياه و لذائذها غير متقيدين بشيء و لا ملتفتين إلى سرعه زوالها، لما كان الشياطين يوسوسون به فى آذاننا و يظهرونه فى صور جميله جذابه.

هنا تختلف آراء المفتيرين بشأن المقصود من كلمه «أجل»، هل هى نهايه عمر الإنسان، أم يوم القيامة؟ و لكن الظاهر أَنَّ المقصود نهايه العمر لأن «الأجل» كثيرا ما استعمل فى القرآن بهذا المعنى.

غير أَنَّ الله يخاطب التابعين و المتبوعين الفاسدين و المفسدين جميعا: قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ .

إِنَّ الجملة الاستثنائية إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إمَّا أَنْ تكون إشاره إلى أن خلودهم فى العذاب و العقاب، و فى هذه الحالات لا يسلب القدره من الله على تغيير

الحكم، فهو قادر فى أى وقت يشاء أن يغير ذلك، وإن أبقاءه خالدا لجمع منهم.

و إما أن تكون إشاره إلى الذين لا يستحقون الخلود فى العذاب، أو الجديرون بنيل العفو الإلهى، فيجب استثناءهم من الخلود فى العذاب.

و فى الختام تقول الآية: إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ، فعقابه مبنى على حساب دقيق، وكذلك عفوّه، لأنّه عالم بمن يستحقهما.

الآيه التاليه تشير إلى سنّه إلهيه ثابتة بشأن هؤلاء الأشخاص، و تقرر أنّ هؤلاء الطغاه و الظالمين سيكون وضعهم فى الآخره كما كانوا عليه فى الدنيا يجر بعضهم بعضا نحو التهلكه و سوء المصير و الانحراف: كَذَلِكَ نُؤَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ و كما ذكرنا فى البحوث الخاصه بالمعاد فان يوم القيامه مشهد ردود الفعل فى صور مكبره، و ما يوجد هناك انعكاس عن أعمالنا فى هذه الدنيا.

جاء فى تفسير على بن إبراهيم القمى عن الإمام عليه السلام فى معنى هذه الآية قال:

«أى نولى كل من تولى أولياءهم فيكونون معهم يوم القيامه».

و من الجدير بالملاحظه أنّ جميع هؤلاء قد وصفوا بالظلم فى هذه الآية، و لا شك أنّ الظلم بمعناه الواسع يشملهم جميعا، فأى ظلم أكبر من أن يخرج الإنسان نفسه من ولايه الله ليدخل فى ولايه المستكبرين و يتبعهم فيكون فى العالم الآخر تحت ولايتهم أيضا.

ثمّ إنّ هذا التعبير، و كذلك تعبير بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ يشيران إلى أنّ هذا المصير السىء إنّما هو بسبب أعمالهم، و هذه سنه إلهيه و قانون الخليقه القاضى بأنّ السائرين فى الظلام لا بدّ أن يسقطوا فى هوه التعاسه و الشقاء.

إشاره

﴿مَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَ غَرَّتُهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ شَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَ أَهْلِهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَ لِمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢)﴾

التفسير

إشاره

إتمام الحجه:

ورد وصف مصير الظالمين من أتباع الشياطين يوم القيامة في الآيات السابقه و لكيلا يظن أحد أنهم في حاله من الغفله ارتكبوا ما ارتكبه من إثم، تبين هذه الآيات أن تحذيرهم قد تم بما فيه الكفايه و تمت عليهم الحجه، لذلك يقال لهم يوم القيامة: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا .

«معشر» من العدد «عشره»، و بما أن العشره تعتبر عددا كاملا، فالمعشر هي

الجماعه الكامله التى تضم مختلف الطوائف و الأصناف، أمّا بشأن الرسل الذين بعثوا إلى الجن هل كانوا منهم، أم من البشر؟ فهناك كلام بين المفسّرين، و لكن الذى يستفاد من آيات سوره الجن يدل بجلاء على أنّ الإسلام و القرآن للجميع بما فيهم الجن، و أنّ نبي الإسلام رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم إلى الجميع، و لكن هذا لا يمنع أن يكون لهم رسل و ممثلون من جنسهم عهد إليهم رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم بدعوتهم إلى الإسلام (سيأتى شرح ذلك بالتفصيل، و كذلك المعنى العلمى للجن فى تفسير سوره الجن فى الجزء ٢٩ من القرآن الكريم).

و لكن ينبغى أن نعلم أنّ «منكم» لا- تعنى أن أنبياء كل جنس يكونون من الجنس نفسه، لأننا عند ما نقول: «نفر منكم...» يمكن أن يكون هؤلاء من طائفه واحده أو من عدّه طوائف.

ثمّ تقول الآيه: **قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا** لأنّ يوم القيامه ليس يوم الكتمان، بل إنّ دلائل كل شىء تكون باديه للعيان، و ما من أحد يستطيع أن يخفى شىئا، فالجميع يعترفون أمام هذا السؤال الإلهى قائلين: **إِنَّا نَشْهَدُ ضِدَّ أَنْفُسِنَا** و نعرف أنّ الرسل قد جاؤونا و أبلغونا رسالاتك و لكننا خالفناها.

نعم... لقد كانت أمامهم آيات و دلائل كثيره من الله، و كان يميزون الخطأ من الصواب، إلا أنّ الحياه الدنيا ببريقها و مظاهرها قد خدعتهم و أضلتهم: **وَ غَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**.

هذه الآيه تدل بوضوح على أنّ العقبه الكبرى فى طريق سعاده البشر هى الحبّ اللامحدود لعالم الماده و الخضوع له بلا قيد و لا شرط، ذلك الحبّ الذى كبل الإنسان بقيود الأسر و دفعه إلى ارتكاب كل ألوان الظلم و العدوان و الإجحاف و الأنانيه و الطغيان.

مرّه أخرى يؤكّد القرآن أنّهم شهدوا على أنفسهم بالسنتهم بأنهم قد ساروا فى طريق الكفر و وقفوا إلى جانب منكرى الله: **وَ شَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا**

الآيه التّاليه تعيد المضمون السابق بصوره قانون عام و سنه ثابتة، و هي: أنّ الله لا يأخذ الناس فى المدن و المناطق المسكونه بظلمهم إذا كانوا غافلين، إلا بعد أن يرسل إليهم الرسل لينبهوهم إلى قبيح أعمالهم، و يحذروهم من مغبه أفعالهم:

ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ

قد تعنى «بظلم» أنّ الله لا يعاقب أحدا بسبب ظلمه و هو غافل عنه، و قبل أن يرسل الرسل، و قد تكون بمعنى أنّ الله لا يظلم أحدا بأن يعاقبه عمّا فعل و هو غافل، لأنّ معاقبتهم بهذه الصوره تعتبر ظلما، و الله أرفع من أن يظلم أحدا (١).

و تذكر الآيه الثالثه خلاصه ما ينتظر هؤلاء من مصير و تقرر أنّ لكل من هؤلاء-الأخيار و الأشرار، المطيعين و العصاه، طالبي العداله و الظالمين-درجات و مراتب يوم القيامه تبعا لأعمالهم، و إن ربك لا يغفل عن أعمالهم، بل يعلمها جميعا، و يجزى كلا بقدر ما يستحق: وَ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ .

هذه الآيه تؤكّد مرّه أخرى الحقيقه القائله بأنّ جميع «الدرجات» و «الدركات» التى يستحقها الإنسان إنّما هى وليده أعماله، لا غير.

إشاره

وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) إِنْ مَا تُوعَدُونَ لِبَآئٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَيَّ مَا كُنْتُمْ عَامِلِينَ فَمَنْ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥)

التفسير

الآيه الأولى تستدل على ما سبق في الآيات التي مَرَّت بشأن عدم ظلم الله تعالى، و يؤكد أن الله لا حاجه له بشيء و هو عطوف و رحيم، و عليه لا دافع له على أن يظلم أحدا أبدا، لأن من يظلم لا بد أن يكون محتاجا، أو أن يكون قاسى القلب فظا: وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ كما أنه لا- حاجه له بطاعه البشر، و لا- يخشى من ذنوبهم، بل إنه قادر على إزاله كل جماعه بشريه و وضع آخرين مكانها كما فعل بمن سبق تلك الجماعه: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ .

بناء على ذلك فهو غنى لا حاجه به إلى شيء، و رحيم، و قادر على كل شيء، فلا يمكن إذن أن نتصوره ظالما.

و إذا أدركنا قدرته التي لا حدود لها يتّضح لنا أنّ ما وعده بشأن يوم القيامة و الجزاء سوف يتحقق في موعده بدون أى تخلف: **إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ .**

كما أنّكم لا تستطيعون أن تخرجوا عن نطاق حكمه و لا أن تهربوا من قبضته العادلة: **وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١)** .

ثمّ يؤمر رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم يهددهم: **قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ .**

هنا أيضا نلاحظ أنّ كلمه «الكفر» استعويض عنها بكلمه «ظلم»، و هذا يعنى أنّ الكفر و إنكار الله نوع من الظلم الصريح، فهو ظلم بحق النفس، و ظلم بحق المجتمع، و لما كان الظلم يناقض العدالة العامه فى عالم الوجود، فهو محكوم بالإخفاق و الهزيمه.

ص: ٤٦٩

١ - ١) - «معجزين» من «أعجز» أى جعله عاجزا، فالآيه تقول: **إِنَّكُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عَاجِزًا** عن بعث الناس و تحقيق العدالة، و بعبارة أخرى: **أنتم لا تستطيعون مقاومه قدره الله.**

اشاره

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ مَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)

التفسير

لاقتلاع جذور الشرك و عباده الأصنام من الأذهان يعود القرآن إلى ذكر العادات و التقاليد و العبادات الخرافيه السائده بين المشركين، و يثبت في بيان واضح أنها خرافيه و لا أساس لها، فقد كان كفار مكه و سائر المشركين يخصصون لله سهما من مزارعهم و أنعامهم، كما كانوا يخصصون سهما منها لأصنامهم أيضا، قائلين: هذا القسم يخص الله، و هذا القسم يخص شركاءنا أى الأصنام: وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَ هَذَا لِشُرَكَائِنَا .

على الرغم من أن الآيه تشير إلى نصيب الله فقط، و لكن العبارات التاليه تدل على أنهم كانوا يخصصون نصيبا للأصنام أيضا، جاء في بعض الروايات: أنهم كانوا يصرفون ما يخصصونه لله على الأطفال و الضيوف، و النصيب المخصص للأصنام من الزرع و الأنعام كانوا يصرفونه على خدم الأصنام و القائمين على

معايدها و الأضحى و على أنفسهم أيضا (١).

سبب اعتبارهم الأصنام شركاءهم يعود إلى كونهم يرونها شريكه لهم فى أموالهم و حياتهم.

و تعبير مِمَّا ذَرَأَ أى مِمَّا خلق، يشير إلى بطلان مزاعمهم، إذ إنَّ كل أموالهم و ما يملكون هو ممَّا خلق الله فكيف يجعلون نصيبا منه لله و نصيبا منه للأصنام؟! ثم تشير الآية إلى واحد من أحكامهم العجيبه و هو الحكم بأنَّ ما خصصوه لشركائهم لا يصل إلى الله، و لكن ما خصصوه لله يصل إلى شركائهم فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ مَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ .

اختلف المفسرون بشأن المقصود من هذه الآية، و لكن آراءهم كلها تدور حول حقيقه واحده، هى أنه إذا أصاب نصيب الله ضرر على أثر حادثه قالوا: هذا لا أهميه له لأنَّ الله لا حاجه به إليه، و لكن إذا أصاب الضرر نصيب أصنامهم عوضوا عنه من نصيب الله، قائلين: إنَّ الأصنام أشد حاجه إليه.

كما أنَّهم إذا نفذ الماء المار بمزرعه الله إلى مزرعه الأصنام قالوا: لا مانع من ذلك، فالله ليس محتاجا، و لكن إذا حدث العكس منعوا الماء المتسرب إلى مزرعه الله، قائلين: إنَّ الأصنام أحوج! و فى الختام تدين الآية هذه الخرافات فتقول: سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .

إنَّ قبح عملهم -فضلا عن قبح عباده الأصنام- يتبيّن فى الأمور التاليه.

١- على الرغم من أنَّ كل شىء هو من خلق الله، و ملك له دون منازع، و أنه هو الحاكم على كل الكائنات و هو مدبرها و حافظها فإنَّهم إنَّما كانوا يخصصون جانبا من ذلك كله لله، و كأنَّهم هم المالكون الأصليون، و كأنَّ حق التقسيم بيدهم، (إنَّ جمله مِمَّا ذَرَأَ تشير إلى هذا كما قلنا).

٢- لقد كانوا فى هذا التقسيم يلزمون جانب الأصنام و يفضلون ما لها على ما

ص: ٤٧١

١-١) -تفسير المنار، ج ٨، ص ١٢٢.

لله، لذلك لم يكونوا يهتمون بما يصيب نصيب الله من ضرر، ولكنهم كانوا يجبرون كل ضرر يصيب نصيب الأصنام من نصيب الله، فكان هذا تحيزا إلى جانب الأصنام ضد الله! ٣- يتبين من بعض الروايات أنهم كانوا يهتمون اهتماما كبيرا بحصه الأصنام، فقد كان خدام الأصنام والقائمون على معابدها وكذلك المشركون يأكلون من حصه الأوثان، بينما كانوا يخصصون حصه الله للأطفال وللضيوف، و تدل القرائن على أن الأغنام السمينه و المحاصيل الزراعيه الجيده كانت من نصيب الأصنام، أى لمصلحه السدنه الخاصه.

كل هذا دل على أنهم فى هذا التقسيم لم يكونوا يعترفون لله حتى بمنزله مساويه لمنزله الأصنام.

فأى حكم أقبح و أدعى إلى العار من أن يعتبر إنسان قطعه من الحجر أو الخشب الذى لا قيمه له أرفع من خالق عالم الوجود، هل هناك هبوط فكرى أخط من هذا؟

ص: ٤٧٢

اشاره

وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ لِيُزِدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧)

التفسير

يشير القرآن في هذه الآيه إلى عمل قبيح آخر من أعمال عبده الأصنام القبيحه و جرائمهم الشائنه، و يذكر أنه كما ظهر لهم أن تقسيمهم الحصص بين الله و الأصنام عمل حسن بحيث إنه اعتبروا هذا العمل القبيح و الخرافى، بل و المضحك، عملا محمودا، كذلك زين الشركاء قتل الأبناء في أعين الكثيرين من المشركين بحيث إنهم راحوا يعدون قتل الأولاد نوعا من «الفخر» و «العباده»:

وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ

«الشركاء» هنا هم الأصنام، فقد كانوا أحيانا يقدمون أبناءهم قرابين لها، أو كانوا يندرون أنهم إذا وهبوا ابنا يذبحونه قربانا لأصنامهم، كما جاء في تاريخ عبده الأصنام القدامى و عليه فان نسبه «التريين» للأصنام تعود إلى أن شده تعلقهم بأصنامهم و حبهم لها كان يحدو بهم إلى ارتكاب هذه الجريمة النكراء و استنادا إلى هذا التفسير، فإن قتل الأولاد هذا لا علاقه له بواد البنات أو قتل

يحتمل أيضا أن يكون المقصود بتزيين الأصنام هذه الجريمة، هو أن القائمين على أمر الأصنام و المعابد هم الذين كانوا يحرضونهم على هذا العمل و يزينونه لهم، باعتبارهم الألسنة الداعية باسم الأصنام، فقد جاء في التاريخ أنّ العرب كانوا إذا عزموا على السفر أو الأعمال المهمّة، طلبوا الإذن من «هبل» كبير أصنامهم، و ذلك بأن يضربوا بالقداح، أى بأسهم الميسر، فقد كان هناك كيس معلق بجانب هبل فيه سهام كتب على مقابضها «افعل» أو «لا تفعل»، فكانوا يخلطون السهام ثم يسحبون واحدا منها، فما كتب عليه يكون هو الأمر الصادر من هبل، و بهذه الطريقة كانوا يتصورون أنّهم يكتشفون آراء أصنامهم، فلا يستبعد أنّهم فى مسأله قتل أولادهم قرايين للأصنام كانوا يلجأون إلى أولياء المعابد ليأتوهم بما تأمر به الأصنام.

هنالك أيضا الاحتمال القائل بأن وأد البنات-الذى كان سائدا، كما يقول التاريخ بين قبائل بنى تميم لرفع العار- كان أمرا صادرا عن الأصنام، فقد جاء فى التاريخ أنّ «النعمان بن المنذر» هاجم بعض العرب و أسر نساءهم و فيهن ابنه «قيس بن عاصم» ثم أقرّ الصلح بينهم و عادت كل امرأه إلى عشيرتها، عدا ابنه قيس التى فضلت البقاء عند العدو لعلها تتزوج أحد شبانهم، فكان وقع هذا شديدا على قيس، فاقسم بالأصنام أنّه إذا رزق بابنه أخرى فانه سوف يئدها حيه، ثم لم يمض زمن طويل حتى أصبح هذا العمل الشائن سنّه بينهم، و باسم الدفاع عن العرض راحوا يرتكبون أفظع جريمة بقتلهم أولادهم الأبرياء (1).

و عليه، فإنّ وأد البنات يمكن أن يكون مشمولا بمفهوم هذه الآيه.

هنالك أيضا احتمال آخر فى تفسير هذه الآيه و ان لم يتطرق إليه المفسرون .

(١-١) - يتصور بعض أنّ كلمه «أولاد» فى الآيه لا تنسجم مع هذا التفسير، غير أنّ لهذه الكلمه معنى واسعاً يشمل الأبناء و البنات، و كما جاء فى الآيه (٢٢٣) من سوره البقره: وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ

و هو أنّ عرب الجاهليه كانوا على درجه من التقدير و الاحترام لأصنامهم بحيث إنّهم كانوا يصرفون أموالهم الثمينه على تلك الأصنام و على خدامها المتنفيذين الأثرياء، و يبقون هم فى فقر مدقع إلى الحد الذى كان يحملهم هذا الفقر و الجوع على قتل بناتهم.

فهذا التعلق الشديد بالأصنام كان يزين لهم عملهم الشنيع ذاك.

و لكن التفسير الأول، أى التضحيه بأولادهم قربانا للأصنام، أقرب إلى نص الآيه.

ثم يوضح القرآن أنّ نتيجته تلك الأفعال القبيحه هى أنّ الأصنام و خدامها ألقوا بالمشركين فى مهاوى الهلاك، و شككواهم فى دين الله، و حرموهم من الوصول إلى الدين الحق: لِيُزِدُوهُمْ و لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ .

و مع ذلك كله، فإنّ الله قادر على أن يوقفهم عند حدّهم بالإكراه، و لكن الإكراه خلاف سنه الله، إنّ الله يريد أن يكون عباده أحرارا لكى يمهد أمامهم طريق التربيه و التكامل، و ليس فى الإكراه تربيه و لا تكامل: وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ .

و ما دام هؤلاء منغمسين فى أباطيلهم و خرافاتهم دون أن يدركوا شناعتهما، بل الأدهى من ذلك أنّهم ينسبونها أحيانا إلى الله، إذن فتركهم و اتهاماتهم و التفت إلى تربيه القلوب المستعده: فَذَرَهُمْ وَ مَا يَفْتَرُونَ .

إشاره

وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مِنْتَهُ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩)

التفسير

تشير هذه الآيات إلى بعض الأحكام الخرافية لعبده الأوثان، والتي تدل على قصر نظرهم و ضيق تفكيرهم، و تكمل ما مر في الآيات السابقة.

تذكر في البدايه أقوال المشركين بشأن من لهم الحق في نصيب الأصنام من زرع و أنعام، و تبين أنهم كانوا يرون أنها محرمة إلا على طائفه معينه: وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزَعْمِهِمْ .

و مرادهم المتولون أمور الأصنام و المعابد، و المشركون كانوا يذهبون إلى أن لهؤلاء وحدهم الحق في نصيب الأصنام.

يُتَّضح من هذا أنّ القسم الأوّل من الآيه يشير إلى كيفية تصرفهم فيما يخصصونه للأصنام من الزرع و الأنعام.

«الحجر» هو المنع، و لعلها مأخوذه كما يقول الراغب الأصفهاني في «المفردات» من الحجر، و هو أنّ يبني حول المكان بالحجاره ليمنع عما وراءه، و حجر إسماعيل سمي بذلك لأنه مفصول عن سائر أقسام المسجد الحرام بجدار من حجر، و على هذا الاعتبار يطلق على «العقل» اسم «الحجر»، أحياناً، لكونه يمنع المرء من ارتكاب الأعمال القبيحه، و إذا ما وضع أحد تحت رعايه أحد و حمايته قيل: إنّه في حجره، و المحجور هو الممنوع من التصرف في ماله (١).

ثمّ تشير الآيه إلى واحده أخرى من خرافاتهم تقضى بمنع ركوب بعض الدواب: وَ أَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا .

الظاهر أنّها هي الحيوانات التي مرّ ذكرها في تفسير الآيه (١٠٣) من سورة المائده، و هي «السائبه» و «البحيره» و «الحام» (انظر التفسير المذكور لمزيد من التوضيح).

ثمّ تشير إلى القسم الثالث من الأحكام الباطله فتقول: وَ أَنْعَامٌ لَا يَذُكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا .

و لعلها إشاره إلى الحيوانات التي كانوا يذكرون أسماء أصنامهم عليها فقط عند ذبحها، أو هي المطايا التي كانوا يحرمون ركوبها للذهاب إلى الحج، كما جاء ذلك في تفسير «مجمع البيان» و «التفسير الكبير» و «المنار» و «القرطبي» نقلاً عن بعض المفسرين، و في كلتا الحالتين كان الحكم خرافياً لا أساس له.

و الأعجب من ذلك أنّهم لم يقنعوا بتلك الأحكام الفارغه، بل راحوا ينسبون إلى الله كل ما يخطر لهم من كذب: إِنْ تَرَاءَ عَلَيْهِ .

و في ختام الآيه، و بعد ذكر تلك الأحكام المصطنعه، تقول إنّ الله:

ص: ٤٧٧

نعم، إذا أراد الإنسان-بفكره الناقص القاصر- أن يضع القوانين و الأحكام، فلا شك أن كل طائفه سوف تضع من القوانين ما ينسجم و أهواءهم و مطامعهم، فيحرمون على أنفسهم أنعم الله دون سبب، أو يحللون على أنفسهم أفعالهم القبيحه، و هذا هو سبب قولنا إن الله وحده هو الذى يسن القوانين لأنه يعلم كل شىء و يعرف دقائق الأمور، و هو سبحانه بمعزل عن الأهواء.

الآيه التالیه تشير إلى حكم خرافى آخر بشأن لحوم الحيوانات، يقضى بأن حمل هذه الأنعام يختص بالذكور، و هو حرام على الزوجات، أما إذا خرج ما فى بطونها ميتا، فكلهم شركاء فيه: وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ .

و لا بد من الإشاره إلى أن هذه الأنعام هى الحيوانات التى ذكرناها من قبل.

يرى بعض المفسرين أن عبارته ما فى بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ تشمل لبن هذه الأنعام، و لكن عبارته وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً تبين أن المقصود هو الجنين الذى إذا ولد حيا فهو للذكور، و إن ولد ميتا- هو ما لم يكن مرغوبا عندهم فهم جميعا شركاء فيه بالتساوى.

هذا الحكم لا- يقوم- أولا- على أى دليل، و هو- ثانيا- قبيح و بشع فيما يتعلق بالجنين الميت، لأن لحم الحيوان الميت يكون فى الغالب فاسدا و مضرا، ثم هو- ثالثا- نوع من التمييز بين الرجل و المرأة، بجعل الطيب للرجال فقط، و بجعل المرأه شريكه فى الفاسد فقط.

ينهى القرآن هذا الحكم الجاهلى، و يقرر أن الله سوف يعاقبهم على هذه الأوصاف، سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ .

«الوصف» هنا يشير إلى ما كانوا ينسبونه إلى الله، كأن ينسبون إليه تحريم

هذه اللحوم بالرغم من أنّ المقصود هو الصفه أو الحاله التي تستولى على المذنب على أثر تكرار، الإثم و تجعله مستحقا للعقاب، و ختاماً تقول: إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

فهو عليم بأعمالهم و أقوالهم و اتهاماتهم الكاذبه، كما أنه يعاقبهم وفق حساب و حكمه.

ص: ٤٧٩

اشاره

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ حَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ إِفْرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠)

التفسير

تعقيا على الآيات السابقة التي تحدثت عن بعض الأحكام التافهه و التقاليد القبيحه فى عصر الجاهليه السائن، كقتل الأبناء قربانا للأصنام، و وأد البنات خشيه العار، و تحريم بعض نعم الله الحلال، تدين هذه الآيه كل تلك الأعمال بشده، فى سبعة تعبيرات و فى جمل قصيره نافذه توضح حالهم.

ففى البدايه تقول: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فعملهم وصف هنا بأنه خسران بالمنظار الإنسانى و الأخلاقى، و بالمنابر العاطفى و الاجتماعى، و الخساره الكبرى هى الخساره المعنويه فى العالم الآخر. فهذه الآيه تعتبر عملهم أولًا «خسرانا» ثم «سفاهه» و خفه عقل، ثم «جهلا» و كل صفه من هذه الصفات الثلاث كافيه لإظهار قبح أعمالهم، فأى عقل يجيز للأب أن يقتل أولاده بيده؟ أو ليس هذا من السفاهه و خفه العقل أن يفعل هذا ثم لا يخجل من فعلته، بل يعتبرها نوعا من الفخر و العباده؟ أى علم يجيز للإنسان أن يعتبر هذه الأعمال قانونا اجتماعيا؟

من هنا نفهم ما قاله ابن عباس بشأن ضروره قراءه سورة الأنعام لمن شاء أن يدرك مدى تخلف الأقبام الجاهليين.

ثم يذكر القرآن أنّ هؤلاء قد حرّموا على أنفسهم ما رزقهم الله و أحله لهم و كذبوا على الله و نسبوا هذه الحرمة له سبحانه: وَ حَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ .

في هذه العبارة إدانته أخرى لأعمالهم، فهم-أولاً-حرّموا على أنفسهم النعمة التي «رزقهم» إيّاها و أباحها لهم و كانت ضروريه لحياتهم، فنقضوا بذلك قانون الله.

و هم-ثانياً-«افتروا» على الله قائلين إنه هو الذي أمر بذلك.

في ختام الآيه و في جملتين قصيرتين إدانته أخرى لهم، فهم: قَدْ ضَلُّوا، ثمّ إنّهم لم يسلكوا يوماً الطريق المستقيم: وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ .

ص: ٤٨١

اشاره

وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَ غَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَ لَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١)

التفسير

اشاره

درس عظيم على درب التوحيد:

لقد جاءت الإشارة في هذه الآيه إلى عدّه مواضيع، كل واحد منها متفرع عن الآخر، و نتيجه عنه.

فهو تعالى يقول أولاً: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي خَلَقَ أَنْوَاعَ البساتين و المزارع الحاويه على أنواع الأشجار و النباتات، فمنها ما يعتمد في موقفه على الأعمده و العروش حيث تحمل ما لذّ و طاب من الفواكه و الثمار، و تخلق بمنظرها الساحر العيون و الألباب، و منها ما لا- يحتاج إلى عريش، بل هو قائم على سوقه يلقي بظلاله الوارفه على رؤوس الأدميين، و يسدّ بثماره المتنوعه حاجه الإنسان إلى الغذاء: وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ .

لقد ذهب المفسرون فى تفسير كلمه «معروش» و«غير معروش» إلى ثلاثه احتمالات:

١- ما أشرنا إليه قبل قليل، فالمعروش هو الأشجار و النباتات التى لا- تقوم على سوقها بل تحتاج إلى عروش و سقف، و غير المعروش هو الأشجار و النباتات التى تقوم على سوقها و لا تحتاج إلى عروش و سقف، (لأنّ العرش يدلّ على ارتفاع فى شىء، و لهذا يقال لسقف البيت عرش، و يقال للسريـر المرتفع عرش).

٢- إنّ المراد من «المعروش» هو الأشجار المنزليه و ما يزرعه الناس و يحفظ بواسطه الحيطان فى البساتين، و من «غير المعروش» الأشجار البرّيه و النباتات الصحراويه و الجبلية و ما ينبت فى الغابات.

٣- «المعروش» هو ما يقوم على ساقه من الأشجار أو يرتفع على الأرض، و «غير المعروش» هو الأشجار التى تمتد على الأرض.

و لكن يبدو أنّ المعنى الأوّل أنسب، هنا، و لعلّ ذكر «المعروشات» فى مطلع الحديث إنّما هو لأجل بيان هذا النوع من الأشجار و تركيبها العجيب، فإنّ نظره عابره إلى شجره الكرم و قصبان العنب و سيقانها الملتويه العجيبه، و المزوده بكلا ليب و مقابض خاصّه، و كيفيه التفافها بكل شىء حتى تستطيع أن تنمو، و تثمر، خير شاهد على هذا الزعم.

ثمّ إنّ الآيه تشير إلى نوعين من البساتين و المزارع إذ تقول: وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ .

و ذكر هذين النوعين بالخصوص إنّما هو لأهميتهما الخاصّه فى حياه البشر، و دورهما فى نظامه الغذائى (و لا بدّ أن تعرف أن الجثّه كما تطلق على البستان، كذلك تطلق على الأرض التى غطاها الزرع).

ثمّ إنّّه تعالى يضيف قائلاً: إنّ هذه الأشجار مختلفه و متنوعه من حيث الثمر

و الطعم. فمع أنّ جميعها ينبت من أرض واحده و يسقى بماء واحد فإن لكل واحده منها رائحة خاصه، و نكهه معينه، و خاصيه تختص بها، و لا توجد فى غيرها: **مُخْتَلِفًا أَكُلُهُ (١)** .

ثم يشير سبحانه إلى قسمين آخرين من الثمار عظيمى الفائدة، جليلى النفع فى مجال التغذية البشرىه إذ يقول: **وَ الزَّيْتُونُ وَ الرُّمَّانُ** .

إن إختيار هاتين بالذكر من بين أشجار كثيره إنّما هو لأجل أن هاتين الشجرتين: (شجره الزيتون و شجره الرمان) رغم تشابههما من حيث الظاهر و المظهر تختلفان اختلافًا شاسعا من حيث الثمره، و من حيث الخاصيه الغذائيه، و لهذا عقب على قوله ذلك بهاتين الكلمتين: **مُتَشَابِهًا، وَ غَيْرَ مُتَشَابِهٍ (٢)** .

و بعد ذكر كلّ هذه النعم المتنوعه يقول سبحانه: **كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ، وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** .

ثم ينهى فى نهايه المطاف عن الإسراف إذ يقول تعالى: **وَ لَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** .

«الإسراف» تجاوز حد الاعتدال فى كل فعل يفعله الإنسان. و هذه الجملة يمكن أن تكون إشاره إلى عدم الإسراف فى الأكل، أو عدم الإسراف فى الإنفاق و البذل، لأنّ البعض قد يسرف فى البذل و الإنفاق إلى درجه أنّه يهب كل ما عنده إلى هذا و ذاك، فيقع هو و أبناؤه و أهله فى عسر و فقر و حرمان!!

بحوث

إشاره

١- ارتباط هذه الآيه بالآيات السابقه

فى الآيات السابقه من هذه السوره جرى حديث عن الأحكام الخرافيه التى

ص: ٤٨٤

١-١) - الأكل: بضم الألف و ضم أو سكون الكاف يعنى ما يؤكل.

٢-٢) - تقدم لنا توضيح فى هذا المجال عند تفسير الآيه (٩٩) من نفس هذه السوره.

كانت سائده بين الوثنيين،الذين كانوا يجعلون نصيبا من الزرع و الأنعام لله، و كانوا يعتقدون بأن ذلك النصيب يجب أن يصرف على نحو خاص،كانوا يحرمون ركوب بعض الأنعام،و يقدمون أولادهم قرابين إلى بعض الأصنام و الأوثان!! إن الآيه الحاضره،و الآيه اللاحقه تحملان ردًا على جميع هذه الأحكام و المقررات الخرافيه الجاهليه إذ تقولان بصراحه،إن الله تعالى هو خالق جميع هذه النعم،فهو الذى أنشأ جميع هذه الأشجار و الأنعام و الزروع،كما أنه هو الذى أمر بالانتفاع بها،و عدم الإسراف فيها،و على هذا الأساس فليس لغيره أى حق لا فى «التحريم»،و لا فى «التحليل».

٢-ماذا تعنى جمله

إِذَا أَمَرَ

مع ذكر «ثمره» قبل ذلك؟ فقد وقع فيه كلام بين المفسرين،و لكن الظاهر أن هذه الجملة تهدف إلى تقرير و بيان أن بمجرد ظهور الثمار على هذه الأشجار،و ظهور سنابل القمح،و الحبوب فى الزرع يجوز الانتفاع بها حتى إذا لم يعط منها حقوق الفقراء بعد،و إنما يجب إيتاء هذا الحق لأهله حين حصاد الزرع، و قطاف الثمر(يوم الحصاد)كما يقول تعالى: وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ .

٣-ما هو المراد من الحق الذى يجب إعطاؤه؟

يرى البعض أنها هى الزكاه الواجبه المفروضه،أى عشر أو نصف عشر المحصول البالغ حد النصاب الشرعى.

بيد أنه مع الالتفات إلى أن هذه السوره قد نزلت فى مكه،و أن حكم الزكاه نزل فى السنه الثانيه من الهجره أو بعد ذلك فى المدينه المنوره، يبدو مثل هذا الاحتمال بعيدا.

وقد عرّف هذا الحق في روايات عديدة وصلتنا من أهل البيت عليهم السّلام، وكذا في روايات عديدة وردت في مصادر أهل السنه بغير الزّكاه.

و جاء فيها أنّ المراد منه هو يعطى من المحصول إلى الفقير عند حضوره عمليه الحصاد أو القطف، وليس له حدّ معين ثابت (1).

و في هذه الحاله، هل هذا الحكم وجوبى أم استحبابى؟ يرى البعض أنه حكم وجوبى، أى أنّ إعطاء هذا الحق كان واجبا على المسلمين قبل تشريع حكم «الزّكاه» ولكنّه نسخ بعد نزول آيه الزّكاه، فحلّت الزّكاه بحدودها الخاصّه محل ذلك الحق.

و لكن يستفاد من أحاديث أهل البيت عليهم السّلام أن هذا الحكم لم ينسخ، بل هو باق في صورته الحكم الاستحبابى، و هذا يعنى أنه يستحبّ الآن إعطاء شىء من المحاصيل الزراعيه إلى من يحضر عند حصادها و قطفها من الفقراء.

٤- يمكن أن يكون التعبير بكلمه «يوم» إشاره إلى أنه يحتيد أن يوقع حصاد الزرع، و قطف الثمر فى النهار حتى إذا حضر الفقراء يعطى إليهم شىء منها، لا فى الليل كما يفعل بعض البخلاء لكيلا يعرف أحد بهم.

و قد أكّدت الرّوايات الواصله إلينا من أهل البيت عليهم السّلام على هذا الأمر أيضا (2).

ص: ٤٨٦

١- ١) - الأحاديث المذكوره ذكرها صاحب الوسائل فى كتاب الزّكاه فى أبواب زكاه الغلات فى الباب ١٣، و البيهقى فى كتاب السنن، ج ٤، ص ١٣٢.

٢- ٢) - راجع بهذا الصدد كتاب وسائل الشيعه كتاب الزّكاه، أبواب زكاه الغلات، باب كراهه الحصاد و الجذاذ بالليل، ج ٦، ص ١٣٦.

إشاره

وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَهُ وَفَرَشَاءَ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ إِثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ إِثْنَيْنِ قُلْ أَلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ إِثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ إِثْنَيْنِ قُلْ أَلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤)

التفسير

إن هذه الآيات - كما أشرنا إلى ذلك - بصدد إبطال أحكام خرافته جاهليته كان المشركون يدينون بها في مجال الزراعة و الأنعام.

ففي الآيه المتقدمه جرى الحديث حول أنواع المزروعات و الثمار التي

أنشأها الله، و في هذه الآيات يدور الحديث حول الحيوانات المحلّله اللحم، و ما تؤديه من خدمات، و ما يأتي منها من منافع.

يقول أولاً: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ حَيَوَانَاتٍ كَبِيرَةً لِلْحَمْلِ وَ النُّقْلِ، وَ أُخْرَى صَغِيرَةً: وَ مِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَ فَرَشًا (١).

و«حمولة» جمع و ليس لها مفرد- كما قال علماء اللغة- و تعنى الحيوانات الكبيره التي تستخدم للحمل و النقل كالإبل و الفرس و نظائرها.

و«فرش» هو بنفس المعنى المتعارف، و لكن فسّر هنا بالغنم و ما يشابهه من الحيوانات الصغيره، و الظاهر أنّ العله في ذلك هو أنّ هذا النوع من الأنعام لصغرها و اقترابها من الأرض كالفرش في مقابل الأنعام و الحيوانات الكبيره الجثه- التي تقوم بعملية الحمل و النقل، كالإبل- فعند ما نشاهد قطعياً من الأغنام و هي مشغوله بالرعى في الصحارى و المراعى بدت لنا و كأنها فرش ممدوده على الأرض، في حين أنّ قطع الإبل لا يكون له مثل هذا المنظر.

ثم إنّ تقابل «الحمولة» «الفرش» أيضاً يؤيد هذا المعنى.

و قد ذهب بعض المفسرين إلى احتمال آخر أيضاً، و هو أنّ المراد من هذه الكلمه هي الفرش التي يتخذها الناس من هذه الأنعام و الحيوانات، يعنى أنّ الكثير من هذه الحيوانات تستخدم للحمل و النقل، كما يستفاد منها في صنع الفرش. و لكن الاحتمال الأوّل أقرب إلى معنى الآية.

ثم إنّ الآية الشريفة تخلص إلى القول بأنه لما كانت جميع هذه الانعام قد خلقها الله تعالى و حكمها بيده، فإنّه يأمركم قائلاً: كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ .

أمّا أنّه لماذا لا يقول: كلوا من هذه الأنعام و الحيوانات، بل يقول: كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ؟ فلأنّ الحيوانات المحلّله اللحم لا تنحصر في ما ذكر في هذه الآيات، بل هناك حيوانات أخرى محلّله اللحم أيضاً و لكنّها لم تذكر في الآيات

ص: ٤٨٨

(١-١) - الواو في صدر الآية هي واو العاطفه و ما بعدها عطف على الجنات في الآية السابقه.

و لتأكيد هذا الكلام و إبطال أحكام المشركين الخرافيه يقول: **وَ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** فهو الذى أعلن الحرب على آدم منذ بدايه الخلق.

و هذه العبارة إشاره إلى أن هذه الأحكام و المقررات العاريه عن الدليل، و التى تنبع فقط من الهوى و الجهل، ما هى إلا وساوس شيطانيه من شأنها أن تبعدكم عن الحق خطوه فخطوه، و تؤدى بكم إلى متاهات الحيره و الضلاله.

هذا و قد مرّ توضيح أكثر لهذه العبارة عند تفسير الآيه (١٦٨) من سوره البقره.

الآيه الثانيه تبين قسما من الحيوانات المحلله اللحم، و بعض الأنعام التى يستفاد منها فى النقل، كما يستفاد منها فى تغذيه البشر و طعامهم أيضا فيقول: **إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لَكُمْ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الْأَنْعَامِ: زَوْجِينَ مِنَ الْغَنَمِ (ذَكَرٌ وَأُنْثَى)، وَ زَوْجِينَ مِنَ الْمَعْزِ: ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ (١) مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ .**

و بعد ذكر هذه الأزواج الأربعة يأمر تعالى نبيه فوراً بأن يسألهم بصراحه:

هل أن الله حرّم الذكور منها أم الإناث: **قُلْ أَلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثَيْنِ؟** أم أنه حرّم عليهم ما فى بطون الإناث من الأغنام، أم ما فى بطون الإناث من المعز؟:

أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ

؟! ثم يضيف قائلاً: إذا كنتم صادقين فى أن الله حرّم شيئاً ممّا تدعون، و كان لديكم ما يدلّ على تحريم أى واحد من هذه الأنعام فهاتوا دليلكم على ذلك:

ص: ٤٨٩

١- ١) - أزواج جمع «زوج» تعنى فى اللغه ما يقابل الفرد، و لكن يجب الانتباه إلى أنه ربّما يراد منه مجموع الذكر و الأنثى، و ربّما يطلق على كل واحد من الزوجين، و لهذا يطلق على الذكر و الأنثى معاً: زوجين، و استعمال لفظ الأزواج الثمانيه فى الآيه إشاره إلى الذكور الأربعة من الأصناف الأربعة، و الإناث الأربع من تلك الأصناف. و يحتمل أيضا أن يكون المراد من الأزواج الثمانيه فى الآيه: الأليف من تلك الأصناف الأربعة و ما يقابلها من الوحشى، أى الذكر و الأنثى من الغنم الأليف، و الذكر و الأنثى من الغنم الوحشى، و هكذا... فتكون الأزواج حينئذ الأزواج حينئذ ثمانيه.

ثم في الآيه اللاحقه يبين الأزواج الأربعة الأخرى من الأنعام التي خلقها الله للبشر، إذ يقول: وخلق من الإبل ذكرا و أنثى، و من البقر ذكرا و أنثى، فأى واحد من هذه الأزواج حرم الله عليكم: الذكور منها أم الإناث؟ أم ما فى بطون الإناث من الإبل و البقر: وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْبُقَرِّ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ، أمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ؟! و حيث أن الحكم بتحليل هذه الأنعام و تحريمها إنما هو بيد الله خالقها و خالق البشر و خالق العالم كله، من هنا يتوجب على كل من يدعى تحليل أو تحريم شىء منها، إما أن يثبت ذلك عن طريق شهاده العقل، و إما أن يكون قد أوحى له بذلك، أو يكون حاضرا عند النبى صلى الله عليه و آله و سلم عند صدور هذا الحكم منه.

و لقد صرح فى الآيه السابقه بأنه لم يكن لدى المشركين أى دليل علمى أو عقلى على تحريم هذه الأنعام، و حيث أنهم لو يدعوا أيضا نزول الوحي عليهم، أو النبوه، فعلى هذا يبقى الاحتمال الثالث فقط، و هو أن يدعوا أنهم حضروا عند أنبياء الله و رسله يوم أصدروا هذه الأحكام، و لهذا يقوم الله لهم فى مقام الإحتجاج عليهم: هل حضرتم عند الأنبياء و شهدتم أمر الله لهم بتحليل أو تحريم شىء من هذه الأنعام: أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا؟! و حيث إن الجواب على هذا السؤال هو الآخر بالنفى و السلب، يثبت أنهم ما كانوا يمتلكون فى هذا المجال إلا الافتراء، و لا يستندون إلا إلى الكذب.

و لهذا يضيف فى نهايه الآيه قائلا: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١).

فيستفاد من هذه الآيه أن الافتراء على الله من أكبر الذنوب و الآثام، إنه ظلم

ص: ٤٩٠

١ - ١) - ثم احتمالات عديده حول ما هو متعلق بالجار و المجرور فى قوله: «بغير علم»، و لكن لا- يبعد أن يكون هذا الظرف متعلقا بفعل: «يضل» يعنى أنهم بسبب جهلهم يضلون الناس.

للّٰه تعالى و لمقامه الربوى العظىم، و ظلم لعباد اللّٰه، و ظلم النفس، و للتعبىر ب«أظلم» فى مثل هذه الموارد كما قلنا سابقا، جانب نسى، و على هذا فلا مانع من استعمال نفس هذا التعبىر بالنسبه إلى بعض الذنوب الكبىره الأخرى.

كما و يستفاد من هذه الآىه أيضا أن الهدايه و الإضلال الإلهىين لا يكونان بالجبر، بل إن لهما مقدمات و عللا تبدأ من الإنسان نفسه و تتحقق بفعله هو، فعند ما يعمد أحد باختياره إلى ممارسه الظلم و الجور يحرمه اللّٰه حيثئذ من عنايته و حمايته، و يتركه يضيع فى متاهات الحيره و الضلاله.

ص: ٤٩١

اشاره

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا
لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥)

التفسير

اشاره

بعض الحيوانات المحرّمه:

ثم إنه تعالى-بهدف تمييز المحرمات الإلهيه عن البدع التي أحدثها المشركون و أدخلوها في الدين الحق-أمر نبيه صلى الله عليه
و آله و سلم في هذه الآيه بأن يقول لهم بكل صراحه،و من دون إجمال أو إبهام: لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مِنَ الشَّرِيعَةِ أَى شَيْءٍ
مِنَ الْأَطْعَمَةِ يَكُونُ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، وَ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ.
اللَّهُمَّ إِلَّا عَدَّةَ أَشْيَاءَ، الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً .

أو يكون دماً مسفوحاً و هو ما خرج من الذبيحه عند التزكيه بالقدر المتعارف (لا الدماء التي تبقى في جسم الذبيحه في عروقها
الشعريه الدقيقه، بعد

خروج قدر كبير منها بعد الذبح).

أَوْ لَحْمٍ خَنْزِيرٍ

لأن جميع هذه الأشياء رجس و منشأ لمختلف الأضرار فَإِنَّهُ رَجَسٌ .

إنّ الضمير في «فإنه» وإن كان ضمير الإفراد، إلا أنه يرجع -حسب ما يذهب إليه أكثر المفسرين- إلى الأقسام الثلاثة المذكوره في الآيه (الميته، الدم، لحم الخنزير) فيكون معنى الجملة الأخيره هي: فإن كل ما ذكر رجس (1). وهذا هو المناسب لظاهر الآيه و هو عوده الضمير إلى جميع تلك الأقسام، إذ لا شك في أن الميتة و الدم هما أيضا رجس كلحم الخنزير.

ثم أشار تعالى إلى نوع رابع فقال: أَوْ فِسْقًا أَهْلًا لِيُغَيِّرَ اللَّهُ بِهِ (2) أى التى لم يذكر اسم الله عليها عند ذبحها.

و الجدير بالتأمل أنه ذكرت لفظه «فسقا» بدلا عن كلمه «الحيوان».

و«الفسق» كما أسلفنا يعنى الخروج عن طاعه الله و عن رسم العبوديه، و لهذا يطلق على كل معصيه عنوان الفسق.

و أما ذكر هذه اللفظه في هذا المورد في مقابل الرجس الذى أطلق على الموارد الثلاثة المذكوره سابقا، فيمكن أن يكون إشاره إلى أنّ اللحوم المحرمه على نوعين:

اللحوم المحرّمه لخبائثها بحيث تنفر منها الطباع، و توجب أضرارا جسديه، و يطلق عليها وصف الرجس (أى النجس).

اللحوم التى لا تعدّ من الخبائث، و لا تستتبع أضرارا جسميه و صحّيه، و لكنّها -من الناحيه الأخلاقيه و المعنويه- تدلّ على الابتعاد عن الله و عن جاده التوحيد،

ص: ٤٩٣

(١-١) -و فى الحقيقه يكون معنى كلمه «فإنه» هو «فإن ما ذكر».

(٢-٢) -«أهلاً» أصله «الإهلال»، و هو مأخوذ فى الأصل من الهلال، و الإهلال يعنى رفع الصوت عند رؤيه الهلال، ثم استعمل لكل صوت رفيع، كما أنه يطلق على بكاء الصبى عند الولاده الاستهلال، و حيث أنّهم كانوا يذكرون أسماء أصنامهم بصوت عال عند ذبح الأنعام غير عن فعلهم هذا بالإهلال.

و لهذا حرّمت أيضا.

و على هذا الأساس لا- يجب أن نتوقع أن تنطوى اللحوم المحرّمه دائما على أضرار صحيّه، بل ربّما حرّمت لأجل أضرارها المعنويه و الأخلاقيه، و من هنا يتضح أنّ الشروط الإسلاميه المقرّره فى الذبح على نوعين أيضا:

بعضها-مثل قطع الأوداج الأربعة، و خروج القدر المتعارف من دم الذبيحه- لها جانب صحى.

و بعضها الآخر-مثل توجيه مقادير الذبيحه نحو القبلة عند الذبح، و ذكر اسم الله عنده، و كون الذابح مسلما- لها جانب معنوى.

ثمّ إنّّه سبحانه استثنى- فى آخر الآيه- من اضطر إلى تناول شىء ممّا ذكر من اللحوم المحرّمه، كما لو لم يجد أىّ طعام آخر و توقفت حياته على تناول شىء من تلك اللحوم، إذ قال: **فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاطِلٍ وَ لَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١)** يعنى أنّ من اضطرّ إلى أكل شىء ممّا ذكر من المنهيات فلا إثم عليه، بشرط أن يكون للحفاظ على حياته، لا للذمه، و لا مستحلاّ لما حرّمه الله، أو متجاوزا حدّ الضروره، ففى هذه الصوره **فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .**

و إنّما اشترط هذان الشرطان لكى لا يتذرع المضطرون بهذه الإباحه فيتعدّوا حدود ما قرره الله بحجه الاضطرار، و يتخذوا من ذلك ذريعه لتجاهل حمى القوانين الإلهيه.

و لكننا نقرأ فى بعض الأحاديث الوارده عن آل البيت عليهم السلام، مثل

الحديث المنقول عن الإمام الصادق عليه السلام: «الباغى: الظالم، و العادى: الغاصب» (٢).

كما نقرأ

فى حديث آخر منقول عن الإمام عليه السلام أنّه قال: «الباغى: الخارج على

ص: ٤٩٤

١-١) -«الباغى» من «الباغى» و هو يعنى الطلب، «و العادى» من «العدو» و هو يعنى التجاوز.

٢-٢) -بحار الأنوار، ج ٦٥، ص ١٣٦ و ١٣٧.

هذه الروايات و نظائرها تشير إلى أنّ الاضطرار إلى تناول اللحوم المحرمة يتفق عادة في الأسفار، فإذا أقدم أحد على السفر في سبيل الظلم أو الغصب أو السرقة ثمّ فقد الطعام الحلال في خلال السفر لم يجر له تناول اللحوم المحرّمة، و إن كانت وظيفته- للحفاظ على حياته من التلف- هو تناول من تلك اللحوم، و لكنّه يعاقب على إثمه هذا، لأنّه أوجد بنفسه المقدمات لمثل هذا السفر الحرام، و على كل حال فإنّ هذه الروايات تنسجم مع المفهوم الكلّي للآية انسجاما كاملا.

جواب على سؤال:

و هنا و يطرح سؤال هو: كيف حصرت جميع المحرمات الإلهيه- في مجال الأَطعمه- في أربعة أشياء، مع أنّنا نعلم بأنّ الأَطعمه المحرمة لا تنحصر في هذه الأشياء، مثل لحوم الحيوانات المفترسه، و لحوم الحيوانات البحريه (إلا ما كان له فلس من الأسماك) و ما شابه، فهذه كلّها حرام، في حين لم يجيء في الآيه أى ذكر عن تلك اللحوم، بل حصرت المحرمات في هذه الأشياء الأربعة؟! قال البعض في مقام الإجابة على هذا السؤال، بأنّ هذه الآيات نزلت في مكّه و حكم الأَطعمه المحرمة الأخرى لم ينزل بعد.

غير أنّ هذه الإجابة تبدو غير صحيحه، و الشاهد على ذلك أنّ نفس هذا التعبير أو نظيره قد ورد في السور المدنيه مثل الآيه (١٧٣) من سوره البقره.

و الظاهر أنّ هذه الآيه ناظره- فقط- إلى نفي الأحكام الخرافيه التي كانت شائعه و سائده في أوساط المشركين، فالحصر «حصر إضافي» لا حقيقي.

و بعبارة أخرى: كأنّ الآيه تقول: المحرمات الإلهيه هذه، و ليس ما نسجته أوها مكم.

ص: ٤٩٥

و لكي تتضح هذه الحقيقه لا بأس بأن نضرب لذلك مثلا.

يسألنا أحد:لها جاء الحسن و الحسين كلاهما،فنجيب:كلا- بل جاء الحسن فقط،لا شك أننا هنا نريد نفي مجيء الشخص الثاني(أى الحسين)و لكن لا مانع من أن يكون آخرون-ممن لم يكونوا محور حوارنا أصلا-قد جاؤوا أيضا، و هذا هو ما يسمى بالحصص الإضافي(أو النسبي).

نعم،لا- بدّ من الانتباه إلى نقطه مهمه،و هى أنّ ظاهر الحصص عاده-الحصص الحقيقي إلا فى الموارد التى يوجد فيها قرائن صارفه عن مدلول الظاهر مثل ما نحن فيه الآن.

ص: ٤٩٤

إشاره

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) فَإِن كَذَّبُوك فَكُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَتْهُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧)

التفسير

إشاره

ما حرم على اليهود:

في الآيات السابقه حصرت المحرمات من الحيوان في أربعة، غير أن هاتين الآيتين تشيران إلى بعض ما حرم على اليهود ليتبين أن أحكام الوثنيين الخرافيه و المجهوله لا تنطبق لا على أحكام الإسلام، و لا على دين اليهود (بل و لا على دين المسيح الذي يتبع في أكثر أحكامه الدين اليهودي).

ثم إنه قد صرح في هذه الآيات أن هذا النوع من المحرمات على اليهود كان له طابع المعاقبه و صفه المجازاه، و لو أن اليهود لم يرتكبوا الجنايات و المخالفات لما حرم عليهم هذه الأمور، و على هذا الأساس لسائل أن يسأل الوثنيين: من أين

أنتيم بهذه الأحكام المصطنعه؟ و لهذا يقول سبحانه فى البدايه: وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ .

و«الظفر» هو فى الأصل المخلب، و لكنّه يطلق أيضا على ظلف الحيوانات من ذوات الأظلاف (من الحيوانات التى لها أظلاف غير منفرجه الأصابع كالحصان لا كالغنم و البقر التى لها أظلاف منفرجه) لأنّ أظلافها تشبه الظفر، كما أنّه يطلق على خف البعير الذى يكون منتهاه مثل الظفر، و لا يكون فيه انشقاق و انفراج مثل انفراج الأصابع.

و على هذا الأساس فإنّ المستفاد من الآيه المبحوثة هو أنّ جميع الحيوانات التى لا تكون ذات أظلاف-دوابا كانت أو طيوراً- كانت محرّمه على اليهود.

و يستفاد هذا المعنى-على نحو الإجمال أيضا- من سفر اللاويين من التّوراه الحاضره الإصحاح ١١ حيث يقول:

«و أمر الربّ موسى و هارون: أوصيا بنى إسرائيل: هذه هى الحيوانات التى تأكلونها من جميع بهائم الأرض: تأكلون كل حيوان مشقوق الظّف و مجتر، أمّا الحيوانات المجتره فقط ذو المشقوقه الظلف فقط، فلا تأكلوا منها، فالجمل غير طاهر لكم لأنّه مجتر و لكنّه غير مشقوق الظلف» (١).

كما أنّه يمكن أن يستفاد من العبارة التّاليه فى الآيه المبحوثة التى تحدثت عن خصوص البقر و الغنم فقط حرمة لحم البعير على اليهود بصوره كليه أيضا.

(تأمل بدقّه).

ثمّ يقول سبحانه: وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا .

ثمّ يستثنى بعد هذا ثلاثه موارد: أولها الشحوم الموجوده فى موضع الظهر من هذين الحيوانين إذ يقول: إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا .

ص: ٤٩٨

و ثانيا: الشحوم الموجوده على جنيها، أو بين أمعائها: أو الحَوَايَا (١).

و ثالثا: الشحوم التى امتزجت بالعظم و التصقت به أو مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ .

و لكنّه صرّح فى آخر الآيه بأنّ هذه الأمور لم تكن محرّمه على اليهود-فى الحقيقة-و لكنّهم بسبب ظلمهم و بغيهم حرّموا- بحكم الله و أمره-من هذه اللحوم و لشحوم التى كانوا يحبونها ذلكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبِغْيِهِمْ .

و يضيف-لتأكيد هذه الحقيقة-قوله: وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ و إن ما نقوله هو عين الحقيقة.

بحثان

اشاره

١-ماذا كان يقترف بنو إسرائيل؟

لا-بدّ أن نرى هنا أى ظلم كان يقترفه بنو إسرائيل أو جب أن يحرم الله تعالى عليهم هذه النعم التى كانوا يحبونها؟! هناك مذاهب متباينه للمفسرين فى هذا الصعيد،و لكن ما يستفاد من الآيه (١٦٠ و ١٦١) من سوره النساء،هو أنّ علّه التحريم المذكور كان عدّه أمور:

ظلمهم للضعفاء،و معارضتهم للأنبياء،و منعهم من هدايه الناس،و أكل الربا، و أكل أموال الناس بالباطل، إذ يقول:

فَبَطَّلُوا مَنَ الدِّينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَهُمْ، وَ بَدَّوْهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا وَ أَخَذَهُمُ الرِّبَا، وَ قَدْ نُهِيَ عَنْهُ وَ أَكْلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ .

٢- ما معنى «إنا لصادقون»؟

إنّ عبارته وَ إِذَا لَصَدَقُونَ التى جاءت فى آخر الآيه يمكن أن تكون إشاره إلى هذه النقطه و هى: أنّ الصدق و الحق فى مسأله تحريم هذه الأطعمه هو ما قلناه لا ما قاله اليهود فى بعض كلامهم،و هو أنّ تحريم هذه الأطعمه و اللحوم إنّما

ص: ٤٩٩

كان من جانب إسرائيل (يعقوب)، لأن يعقوب - كما جاء في الآية (٩٣) من سورة آل عمران - لم يحكم بحرمه هذه الأشياء أبداً، و ليس هذا سوى تهمة ألصقتها اليهود به.

و لما كان عناد اليهود المشركين أمراً بيناً، و كان من المحتمل أن يتصلّبوا و يتمادوا في تكذيب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، أمر الله تعالى نبيّه في الآية الأخرى أنّهم إن كذبوه يقول لهم: إنّ ربّكم ذو رحمة واسعة فهو لا - يسارع إلى عقوبتكم و مجازاتكم، بل يمهلكم لعلكم تؤوبون إليه، و ترجعون عن معصيتكم، و تندمون من أفعالهم و تعودون إلى الله، فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ .

و لكن إذا أسأؤوا فهم أو استخدام هذا الإمهال الإلهي، و استمروا في كيل التهم فيجب أن يعلموا أنّ عقاب الله إيّاهم حتمى لا مناص منه، و سوف يصيبهم غضبه في المال: □ وَ لَا يَرُدُّ بِأَسْهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ .

إنّ هذه الآية تكشف - بوضوح - عن عظمة التعاليم القرآنية، فإنّه بعد شرح و بيان كل هذه المخالفات التي ارتكبتها اليهود و المشركون لا - يعمد إلى التهديد بالعذاب فوراً، بل يترك طريق الرجعة مفتوحاً، و ذلك بذكر عبارات تفيض بالحب مثل قوله: «ربّكم» «ذو رحمة» «واسعه» أو لا - حتى إذا كان هناك أدنى استعداد للرجوع و الإنابة في نفوسهم شوّقتهم هذه العبارات العاطفيه على العوده إلى لطريق المستقيم.

و لكن حتى لا تبعث سعه الرحمة الإلهيه هذه على التمدادى في غيهم، و تتسبّب في تزايد جرأتهم و طغيانهم، و حتى يكفوا على العناد و اللجاج هدّدهم في آخر جملة من الآية بالعقوبه الحتميه.

إشاره

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَيْلٌ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَوْلَا أَنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلَمْ شُهَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَاِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)

التفسير

إشاره

التملص من المسؤولية بحجه «الجبر»:

عقيب الكلام المتقدم عن المشركين فى الآيات السابقه، أشار فى هذه الآيات إلى طائفه من استدلالاتهم الواهيه، مع ذكر الأجوبه عنها.

فيقول أولًا: إنَّ المشركين سيقولون فى معرض الإجابه عن اعتراضاتك عليهم فى مجال الإشراك بالله، و تحريم الأ-طعمه الحلال: إنَّ الله لو أراد أن لا نكون

مشركين، و أن لا يكون آباؤنا و ثنين، و أن لا نحرم ما حرمنا لفعل: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ .

و يلاحظ نظير هذه العبارة في آيتين أخريين من الكتاب العزيز، في سورة النحل الآية ٣٥: وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ . و في سورة الزخرف الآية (٢٠): وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ .

و هذه الآيات تفيد أن المشركين-مثل كثير من العصاة الذين يريدون التملص من مسئولية العصيان تحت ستار الجبر-كانوا يعتقدون بالجبر، و كانوا يقولون: كل ما نفعله فإنما هو بإرادة الله و مشيئته و إلا لما صدرت منا مثل هذه الأعمال.

و في الحقيقة أرادوا تبرئة أنفسهم من جميع هذه المعاصي، و إلا فإن ضمير كل إنسان عاقل يشهد بأن الإنسان حرّ في أفعاله و غير مجبور، و لهذا إذا ظلمه أحد انزعج منه، و أخذه و وبخه، بل و عاقبه إذا قدر.

و كل ردود الفعل هذه تفيد أنه يرى المجرم حرّاً في عمله و مختار، فهو ليس على استعداد لأن يغض الطرف عن ردود الفعل هذه بحجّه أن الظلم الواقع عليه من قبل ذلك الشخص مطابق لإرادة الله و مشيئته (تأمل بدقه).

نعم هناك احتمال في هذه الآية، و هو أنهم كانوا يدّعون أن سكوت الله على عبادتهم للأصنام و تحريمهم لطائفه من الحيوانات دليل على رضاه، لأنه إذا لم يكن راضياً بها و جب أن يمنعهم عنها بنحو من الأنحاء.

و كانوا يريدون-بذكر عبارته و لا آباؤنا- أن يسبغوا على عقائدهم الفارغة لون القدم و الدوام، و يقولون: إن هذه الأمور ليست بجديده ندعيها نحن بل كان ذلك دائماً.

و لكن القرآن تصدّى لجوابهم و ناقشهم بشكل قاطع، فهو يقول أولاً: ليس

هؤلاء وحدهم يفترون على الله مثل هذه الأكاذيب: كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ (١) و لكنهم ذاقوا جزاء افتراءاتهم: حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا .

فهؤلاء- فى الحقيقة- كانوا يكذبون فى كلامهم هذا، كما أنهم يكذبون الأنبياء، لأن الأنبياء الإلهيين نهوا البشرىه- بصراحة- عن الوثنية و الشرك و تحريم ما أحله الله، فلا- أبأؤهم سمعوا ذلك و لا- هؤلاء، مع ذلك كيف يمكن أن نعتبر الله راضيا بهذه الأعمال؟.. و لو كان سبحانه راضيا بهذه الأمور فكيف بعث أنبياءه للدعوة إلى التوحيد؟! إن دعوه الأنبياء- فى الأساس- أقوى دليل على حرية الإرادة الإنسانية، و إختيار البشر.

ثم يقول سبحانه: قل لهم يا محمّد: هل لكم برهان قاطع و مسلم على ما تدعونه؟ هاتوه إن كان قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا .

ثم يضيف فى النهاية: إنكم ما تتبعونه ليس سوى أوهام و خيالات فجه: إن تتبعون إلا الظنّ و إن أنتم إلا تخرصون .

و فى الآيه اللاحقه يذكر دليلا آخر لإبطال ادعاء المشركين، و يقول: قل: إن الله أقام براهين جليه و دلائل واضحه و صحيحه على وحدانيته، و هكذا أقام أحكام الحلال و الحرام سواء بواسطة أنبيائه أو بواسطة العقل، بحيث لم يبق أى عذر لمعتذر: قل فليله الحجّه البالغه .

و على هذا الأساس لا يمكن أن يدعى أحد أبدا أن الله أمضى- بسكوته- عقائدهم و أعمالهم الباطله، و كذلك يسعهم قط أن يدعوا أنهم كانوا مجبورين، لأنهم لو كانوا مجبورين لكان إقامه الدليل و البرهان، و إرسال الأنبياء و تبليغهم و دعوتهم لغوا، إن إقامه الدليل دليل على حرية الإراده.

على أنه يجب الانتباه إلى أن «الحجه» الذى هو من «حج» يعنى القصد،

ص: ٥٠٣

١- ١) - «كذب» فى اللغة تأتي بمعنيين تكذيب الغير، و كذلك فعل الكذب.

و تطلق «الحجه» على الطريق الذى يقصده الإنسان، و يطلق على البرهان و الدليل «الحجه» أيضا، لأنّ القائل يقصد إثبات مدعاه للآخرين عن طريقه.

و مع ملاحظه لفظه «بالغه» يتضح أنّ الأدله التى أقامها الله للبشر عن طريق العقل و النقل و بواسطه العلم و الفكر، و كذا عن طريق إرسال الأنبياء واضحه لا لبس فيها من جميع الجهات، بحيث لا يبقى أى مجال للترديد و الشك لأحد، و لهذا السبب نفسه عصم الله سبحانه أنبياءه من كل خطأ ليعدهم عن أى نوع من أنواع التردد و الشك فى الدعوه و الإبلاغ.

ثمّ يقول فى ختام الآيه: و لو شاء الله أن يهديكم جميعا بالجبر لفعل: فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ .

و فى الحقيقه فإنّ هذه الجملة إشاره إلى أنّ فى مقدور الله تعالى أن يجبر جميع أبناء آدم على الهدايه، بحيث لا يكون لأحد القدره على مخالفته، و لكن فى مثل هذه الصوره لم يكن لمثل هذا الإيمان و لا- للأعمال التى تصدر فى ضوء هذا الإيمان الجبرى القسرى أى قيمه، إنّما فضيله الإنسان و تكامله فى أن يسلك طريق الهدايه و التقوى بقدميه و بإرادته و إختياره.

و على هذا الأساس لا منافاه أصلا بين هذه الجملة و الآيه السابقه التى ورد فيها نفى الجبر.

إنّ هذه الجملة تقول: إنّ إجبار الناس الذى تدّعونه أمر ممكن و مقدور لله تعالى، و لكنّه لن يفعله قط، لأنّه يخالف الحكمه و ينافى المصلحه الإنسانيه.

و كان المشركون قد تذرّعوا بالقدره و المشيئه الإلهيتين لاختيار مذهب الجبر، على حين أن القدره و المشيئه الآلهيتين حق لا شبهه فيهما، بيد أنّ نتيجهما ليست هى الجبر و القسر، بل إنّ الله تعالى أراد أن نكون أحرارا، و أن نسلك طريق الحق باختيارنا و بمحض إرادتنا.

جاء فى كتاب الكافى عن الإمام الكاظم عليه السلام أنّه قال:

«إِنَّ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجَّتِينَ حُجَّتِي ظَاهِرَةٌ وَحُجَّتِي بَاطِنَةٌ، فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرَّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْأَتْمَّةُ، وَأَمَّا الْبَاطِنَةُ فَالْعُقُولُ» (١).

و

جاء في أمالي الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام لما سئل عن تفسير قوله تعالى: [□]فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ أنه قال:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: عَبْدِي أَ كُنْتَ عَالِمًا، فَإِنْ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ لَهُ: أَ فَلَا عَمَلْتَ بِمَا عَلِمْتَ؟ وَإِنْ قَالَ: كُنْتُ جَاهِلًا، قَالَ لَهُ: أَ فَلَا تَعَلَّمْتَ حَتَّى تَعْمَلَ؟ فَيُخَصَّمُهُ، فَتَلْكَ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ» (٢).

إنَّ من البديهي أنَّ المقصود من الحديث المذكور ليس هو أنَّ الحُجَّةَ البالِغَةَ منحصرة في حوار الله تعالى مع عباده يوم القيامة، بل إنَّ لله حججا بالِغَةً عديده من مصاديقها ما جاء في الحديث المذكور من الحوار بين الله و بين عباده، لأن نطاق الحجج الإلهية البالِغَةَ واسع يشمل الدنيا و الآخرة.

و في الآيه التَّيَالِيَةِ -و لكي يتضح بطلان أقوالهم، و مراعاة لأسس القضاء و الحكم الصحيح- دعا المشركين ليأتوا بشهادتهم المعترين لو كان لهم، لكي يشهدوا لهم بأنَّ الله هو الذي حرَّم الحيوانات و الزروع التي ادَّعوا تحريمها، لهذا يقول: [□]قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا [□].

ثمَّ يضيف قائلا: إذا كانوا لا يملكون مثل هؤلاء الشهداء المعترين (و لا يملكون حتما) بل يكتفون بشهادتهم و ادَّعائهم أنفسهم فقط، فلا تشهد معهم و لا تؤيدهم في دعاويهم: [□]فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ .

اتضح ممَّا قيل إنَّه لا- تناقض قط في الآيه لو لوحظت مجموعه، و أمَّا مطالبتهم بالشاهد في البدايه ثمَّ أمره تعالى بعدم قبول شهاداتهم، فلا يستتبع إشكالا، لأنَّ المقصود هو الإشعار بأنَّهم عاجزون عن إقامة الشهود المعترين

ص: ٥٠٥

١- (١) -تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٧٤.

٢- (٢) -تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٧٦.

على القطع و اليقين، لأنهم لا- يمتلكون أى دليل من الأنبياء الإلهيين و الكتب السماويه يسند تحريم هذه الأمور، و لهذا فإنهم و حدهم الذين يدعون هذه الأمور سيشهدون، و من المعلوم أن مثل هذه الشهاده مرفوضه.

هذا مضافا إلى أن جميع القرائن تشهد بأن هذه الأحكام ما هي إلا أحكام مصطنعه مختلفه نابعه عن محض الهوى و التقليد الأعمى، و لا اعتبار لها مطلقا.

و لذلك قال فى العبارة اللاحقه: **وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١).**

يعنى أن وثنيتههم، و إنكارهم للقيامه و البعث، و الخرافات، و إتباعهم للهوى، شواهد حيّه على أن أحكامهم هذه مختلفه أيضا، و أن ادّعاهم فى مسأله تحريم هذه الموضوعات من جانب الله لا قيمه له، و لا أساس له من الصحه.

ص: ٥٠٦

١ - ١) - «يعدلون» مشتق من ماده «عدل» بمعنى الشريك و التشبيه، و على هذا الأساس فإنّ مفهوم جمله «و هم برّبهم يعدلون» هم أنّهم كانوا يعتقدون بشريك و شبيه الله سبحانه.

اشاره

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَنْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا أَلْفَاؤًا حِشًّا مِمَّا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)

التفسير

اشاره

الأوامر العشره:

بعد نفى أحكام المشركين المختلفه التي مرّت في الآيات المتقدمه، أشارت

هذه الآيات الثلاثة إلى أصول المحرمات في الإسلام، و ذكرت الذنوب الرئيسيـه الكبيره فى عشره أقسام بيان مقتضب، عميق و فريد، ودعت المشركين إلى أن يحضروا عند النبى و يستمعوا إلى ما يتلى عليهم من المحرمات الإلهيه الواقعيه، و يتركوا المحرمات المختلفه جانبا.

يقول أولا: قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .

١- أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا .

٢- وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ٣- وَ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ أَى بسبب الفقر و الحرمان لِأَنَّا نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيَّاهُمْ .

٤- وَ لَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ أَى لا تقربوها فضلا عن أن لا ترتكبوها.

٥- وَ لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ فلا تسفكوا الدماء البريئه، و لا تقتلوا النفوس التى حرم الله قتلها إلا ضمن قوانين العقوبات الإلهيه، فيجوز أن تقتلوا من أذن الله لكم بقتله.

ثم إنه تعالى بعد ذكر هذه الأقسام الخمسه يقول لمزيد من التأكيد: ذَلِكُمْ وَ صَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ فلا ترتكبوها.

٦- وَ لَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ فلا تقربوا مال اليتيم إلا بقصد الإصلاح حتى يبلغ أشده و يستوى.

٧- وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ فلا تطففوا و لا تبخسوا.

و حيث أن الإنسان- مهما دقق فى الكيل و الوزن- قد يزيد أو ينقص بما لا يمكن أن تضبطه الموازين و المكييل المتعارفه لقلته و خفائه، لهذا عقب على ما قال بقوله: لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا .

٨- وَ إِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى فلا تنحرفوا عن جاده الحق عند

الشهادة أو القضاء أو أمر آخر حتى ولو كان على القريب، فاشهدوا بالحق، و اقضوا بالعدل.

٩- وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا وَلَا تَنْفُوه. □

و أما ما هو المراد من العهد الالهى المذكور فى هذه الآيه؟ فقد ذهب المفسرون إلى احتمالات عديدة فيه، و لكن مفهوم الآيه يشمل جميع العهود الالهيه «التكوينيه» و «التشريعيه» و التكليف الالهيه و كل عهد و نذر و يمين.

ثم إنه سبحانه يقول فى ختام هذه الأقسام الأربعة- للتأكيد: □ ذَلِكُمْ □ وَصَاكُم □ بِهِ لَعَلَّكُمْ □ تَذَكَّرُونَ □ .

١٠- □ وَأَنَّ هَذَا □ صِرَاطٌ □ مُسْتَقِيمٌ □ فَاتَّبِعُوهُ □ وَلَا تَتَّبِعُوا □ السُّبُلَ □ فَتَفَرَّقَ □ بِكُمْ □ عَنْ □ سَبِيلِهِ □ إِنَّ □ طَرِيقِي □ هَذَا □ هُوَ □ طَرِيقُ □ التَّوْحِيدِ □ ، □ طَرِيقُ □ الْحَقِّ □ وَ □ الْعَدْلِ □ ، □ طَرِيقُ □ الطَّهْرِ □ وَ □ التَّقْوَى □ فَامشوا □ فيه □ ، □ و □ اتبعوه □ ، □ و □ اسلكوه □ و □ لا □ تسلكوا □ الطرق □ المنحرفة □ و □ المتفرقة □ ، □ فتؤدى □ بكم □ إلى □ الانحراف □ عن □ الله □ و □ إلى □ الاختلاف □ ، □ و □ التشرذم □ ، □ و □ التفرق □ ، □ و □ تزرع □ فيكم □ بذور □ الفرقة □ و □ النفاق □ .

ثم يختم جميع هذه الأقسام و للمره الثالثه- لغرض التأكيد بقوله: □ ذَلِكُمْ □ وَصَاكُم □ بِهِ لَعَلَّكُمْ □ تَتَّقُونَ □ .

بحوث

اشاره

إن هاهنا عدّه نقاط يجب أن نقف عندها، و هى:

١- الشروع بالتوحيد و الختم بنبذ الاختلاف

إن الملاحظ فى هذه الآيات أن هذه التعاليم و الأوامر العشره بدأت بتحريم الشرك الذى هو فى الواقع المنشأ الأصلى لجميع المفاسد الاجتماعيه و المحرمات الالهيه، و انتهت- أيضا- بالدعوة إلى نبذ التفرق و الاختلاف الذى

ص: ٥٠٩

يعدّ هو الآخر نوعاً من الشرك العملي.

إنّ هذا الموضوع يكشف عن أهميه مسأله التوحيد في جميع الأصول و الفروع الإسلاميه، و بالتالي يكشف عن أن التوحيد ليس مجرد أصل عقائدي بحت، بل يمثّل روح التعاليم الإسلاميه برمتها.

٢- التأكيدات المتتابعه

لقد تكرّرت عبارته **ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ** للتأكيد عند ختام كل آيه من الآيات الثلاث، مع فوارق في الفواصل طبعا، فقد ختمت العبارة في الآيه الأولى بجمله:

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

، و في الآيه الثانيه بجمله: **لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** و في الآيه الثالثه بجمله: **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** .

و يبدو أنّ هذه التعابير المختلفه إشاره إلى النقطه التّاليه و هي: أنّ المرحله الأولى عند تلقى أيّ حكم من الأحكام هو مرحله «التعقل» أي فهم ذلك الحكم و إدراكه.

و المرحله الثانيه هي: مرحله «التذكر» و هضم ذلك الحكم و امتصاص مفاده و استيعاب محتواه.

و المرحله الثالثه هي: المرحله النهائيه، و هي مرحله العمل و التطبيق، و قد أسماها القرآن بمرحله «التقوى».

صحيح أنّ كل واحده من هذه العبارات (و المراحل) جاءت بعد ذكر عدّه تعاليم من التعاليم العشره، إلاّ أنّه من الواضح أنّ هذه المراحل لا تختص بأحكام معيّنه، لأنّ كل حكم من الأحكام، و كل تعليم من التعاليم بحاجه إلى «التعقل» و «التذكر» و «التقوى» و العمل، إنّما هي رعايه جهات الفصاحه و البلاغه، التي اقتضت توزيع هذه التأكيدات (و المراحل) في أثناء تلك التعاليم العشره.

٣- التعاليم و الأوامر الخالده

لعلنا فى غنى عن التذكير بأن هذه التعاليم و الأوامر العشره لا تختص بالدين الإسلامى، بل كان نظيرها فى جميع الشرائع المتقدمه عليه و إن كانت قد حظيت فى الإسلام بعنايه أكبر و أوسع.

و فى الحقيقه أن هذه التعاليم ممّا يدركه العقل السوىّ و الضمير السليم بوضوح و جلاء و بعباره أخرى: هى من «المستقلات العقلية» و لهذا فإنها كما ذكرت فى القرآن الكريم، تلاحظ بشكل أو بآخر فى شرائع الأنبياء الآخرين (١).

٤- أهميه الإحسان إلى الوالدين

إن ذكر مسأله الإحسان للوالدين- بعد مكافحه الشرك مباشره، و قبل ذكر تعاليم مهمّه مثل حرمه قتل النفس و الأمر بالعدل- يدلّ على الأهميه القصوى التى يحظى بها حق الوالدين فى التعاليم الإسلاميه.

و يتّضح هذا الأمر أكثر عند ما نرى أن القرآن الكريم ذكر بدل تحريم أذى الوالدين الذى يلائم سياق هذه الآيه فى استعراضها للمحرمات، مسأله الإحسان إليهما، يعنى أنه ليس إزعاج الوالدين و إيذاؤهما محرّمًا فقط، بل يجب الإحسان إليهما.

و الأجل من هذا كلّه أن كلمه «الإحسان» عدّيت بحرف «الباء» فقال:

وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

و نحن نعلم أن الإحسان قد يعدّى بآلى و قد يعدّى بالباء، فإذا عدّ بآلى كان معناه: الإحسان إلى الآخر سواء كان بصوره مباشره، أو مع الواسطه. و لكنّه عند ما يعدّى بالباء يكون معناه: الإحسان بصوره مباشره و من دون واسطه.

و على هذه الأساس فإنّ هذه الآيه تؤكّد أنّ موضوع الإحسان إلى الوالدين

ص: ٥١١

من الأهميه البالغه بحيث يجب على الإنسان أن يباشر الإحسان بنفسه إلى الوالدين (١).

٥- قتل الأولاد من الإملاق و الجوع

يستفاد من هذه الآيات أنّ العرب فى العهد الجاهلى لم يقتصروا على قتل البنات و وأدهن بسبب بعض العصبيات الخاطئه فحسب، بل كانوا يقتلون أولادهم الذين كانوا يعدّون ثروه كبرى فى المجتمع يومذاك، و ذلك بسبب الفقر و خشيتهم من الفاقه، أيضا. و الله تعالى يلفت نظرهم إلى مائده النعم الإلهيه الواسعه التى يستفيد منها حتى أضعف الموجودات، و نهاهم سبحانه عن ذلك.

و لكن هذا العمل الجاهلى -و للأسف البالغ- يتكرّر الآن فى عصرنا فى صوره أخرى، إذ نلاحظ كيف يعمد الناس إلى قتل الأطفال الأبرياء و هم أجنّه عن طريق «الكور تاج» و الإجهاض بحجه نقصان الاحتمالى فى المواد الغذائيه.

إنّ إسقاط الجنين و إن كان يبّرر الآن بأدله و حجج أخرى أيضا، إلا أنّ مسأله الفقر و مسأله نقصان المواد الغذائيه، هى من أدلتها الأصليه.

هذه المسأله و المسائل المشابهه الأخرى تشير إلى أنّ العهد الجاهلى يتكرّر فى شكل آخر، و أنّ «جاهليه القرن العشرين» أكثر و حشيه من جاهليه ما قبل الإسلام.

٦- ما هو المقصود من الفواحش؟

«الفواحش» جمع «فاحشه» يعنى ما عظم قبحه من الذنوب. و على هذا الأساس فإنّ نقض العهد، و التطفيف و الشرك و ما شابه ذلك و إن كانت من الذنوب

ص: ٥١٢

الكبار، إلا أنّ ذكرها في مقابل الفواحش إنّما هو لأجل التفاوت المفهومي بينها.

٧- لا تقربوا هذه الذنوب

في الآيات الحاضره ورد التعبير بجمله لا تقربوا في موضعين، وقد تكرر هذا الموضوع (و هذا النهى) في القرآن لبعض الذنوب الأخر أيضا، و يبدو أنّ هذا التعبير قد ورد في مجال الذنوب المثيره كالزنا، و أموال اليتامى و ما شابهها، لهذا يحذّر الناس من الاقتراب إليها لكي لا يقعوا تحت إثارته.

٨- الذنوب الظاهره و الباطنه

لا شك في أنّ جملة **مَا ظَهَرَ مِنْهَا** و **مَا بَطَّنَ** تشمل كل الذنوب القبيحه الظاهره، و الخفيه، و لكن

جاء في بعض الأحاديث عن الإمام الباقر عليه السّلام «ما ظهر هو الزنا و ما بطن هو المخالّه» (أى اتخاذ الخليلات و الصديقات سرا و خفيه) و لكنّه واضح أنّ ذكر هذه الموارد إنّما هو بيان المصداق الواضح، لا أنّه يعنى انحصارها فيها.

٩- الوصايا العشر عند اليهود

نلاحظ في التّوراه في الفصل ٢٠- سفر الخروج أحكاما عشره تعرف عند اليهود بالوصايا، و هى تبدأ من الجمله الثانيه و تنتهى عند السابعه عشره من ذلك الفصل.

و لكن بالمقارنه بين الوصايا العشر، و بين ما جاء في الآيات الحاضره يتضح أنّ فرقا واسعا و بونا شاسعا بين هذين البرنامجين، و على أنّه لا- يمكن الاطمئنان إلى أنّ التّوراه الحاضره لم تنحرف في هذا المجال، كما تعرضت للتحريف في الأقسام الأخرى. و لكنّ ما هو مسلّم هو أنّ الوصايا العشر الموجوده في التّوراه

و إن كانت مشتمله على المسائل اللازمه، إلا أنها أقل مستوى بكثير- من حيث السعه و الأبعاد الأخلاقيه، و الاجتماعيه و العقيديه- من مفاد الآيات الحاضره.

١٠- كيف غيّرت هذه الآيات وجه المدينة المنوره؟

لقد وردت في بحار الأنوار، و كذا في كتاب أعلام الوري قصّه جميله تحكى عن تأثير هذه الآيات البالغ في نفوس المستمعين، و ها نحن ندرج هنا القصه المذكوره باختصار وفقا لما جاء في بحار الأنوار بروايه على بن إبراهيم.

قدم أسعد بن زراره، و ذكوان بن عبد قيس مكّه في موسم من مواسم العرب و هما من الخزرج، و كان بين الأوس و الخزرج حرب قد بقوا فيها دهرا طويلا، و كانوا لا يضعون السلاح لا بالليل و لا بالنهار، و كان آخر حرب بينهم يوم بعث، و كانت الغلبه فيها للأوس على الخزرج، فخرج أسعد بن زراره و ذكوان إلى مكّه يسألون الحلف على الأوس و كان أسعد بن زراره صديقا لعتبه بن ربيعه فنزل عليه، و قصّ عليه ما جاء من أجله فقال عتبه بن ربيعه في جواب أسعد: بعدت دارنا من داركم، و لنا شغل لا نتفرغ لشيء، قال أسعد: و ما شغلكم و أنتم في حرمكم و أمنكم؟ قال عتبه: خرج فينا رجل يدعى أنّه رسول الله، سفّه أحلامنا، و سب آلّهتنا، و أفسد شبابتنا، و فرق جماعتنا.

فقال له أسعد: من هو منكم؟ قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب، من أوسطنا شرفا، و أعظمتنا بيتا.

فلما سمع أسعد و ذكوان ذلك، أخذوا يفكران فيه، و وقع في قلبهما ما كانا يسمعانه من اليهود، أنّ هذا أوان نبي يخرج بمكّه يكون مهاجره بالمدينه.

فقال أسعد: أين هو؟ قال عتبه: جالس في الحجر (حجر إسماعيل) و أنّهم (أى المسلمون) لا يخرجون من شعبهم إلا في المواسم، فلا تسمع منه، و لا تكلمه، فإنّه ساحر يسحرك بكلامه، و كان هذا في وقت محاصره بنى هاشم في الشعب.

فقال أسعد لعته: فكيف أصنع، و أنا محرم لعمره لا بد لي أن أطوف بالبيت؟ قال: ضع في أذنيك القطن.

فدخل أسعد المسجد، وقد حشا أذنيه بالقطن فطاف بالبيت و رسول الله جالس في الحجر مع قوم من بني هاشم، فنظر إليه نظره فجازاه.

فلما كان في الشوط الثاني قال في نفسه: ما أجد أجهد مني. أ يكون مثل هذا الحديث بمكّه فلا أتعرفه حتى أرجع إلى قومي فأخبرهم؟ فأخذ القطن من أذنيه و رمى به، و

قال لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: أنعم صباحا. فرفع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم رأسه إليه، و قال: قد أبدلنا الله به ما هو أحسن من هذا، تحية أهل الجنة، السلام عليكم.

فقال له أسعد: إلى م تدعو يا محمّد؟ قال النبي صلى الله عليه و آله و سلم: إلى شهاده أن لا إله إلا الله، و أنّي رسول الله، و أدعوكم إلى...

(ثم تلا صلى الله عليه و آله و سلم الآيات الثلاثة المبحوثة هنا و التي تتضمن التعاليم العشره).

فلما سمع أسعد هذا قال له: أشهد أن لا إله إلا الله، و أنّك رسول الله، يا رسول الله بأبى أنت و أمى أنا من أهل يثرب من الخزرج، و بيننا و بين إخوتنا من الأوس حبال مقطوعه، فإن وصلها الله بك، و لا أجد أعزّ منك، و معى رجل من قومي، فإن دخل في هذا الأمر رجوت أن يتمم الله لنا أمرنا فيك.

و الله يا رسول الله، لقد كنّا نسمع من اليهود خبرك، و يبشروننا بمخرجك، و يخبروننا بصفتك، و أرجو أن تكون دارنا دار هجرتك عندنا فقد أعلمنا اليهود ذلك، فالحمد لله الذى ساقنى إليك، و الله ما جئت إلا لنطلب الحلف على قومنا، و قد آتانا الله بأفضل ممّا أتيت له.

ثم أسلم رفيق أسعد - ذكوان - أيضا - ثم طلبا من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أن يعث معهم رجلا يعلمهم القرآن، و يدعو الناس إلى أمره، و يطفى الحروب، فبعث رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم معهما إلى المدينة «مصعب بن عمير» و منذئذ أسست قواعد الإسلام فى المدينة و تغير وجه يثرب (1).

ص: ٥١٥

اشاره

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَ تَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّعَلَّهِمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَ هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُوكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَ إِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُمْ مِنَ رَبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ صَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)

التفسير

اشاره

رد حاسم على المتحججين و المتعللين:

في الآيات السابقة دار الحديث عن عشره من أحكام الإسلام الأساسية التي تشكل في الحقيقة-أساسا و قاعده للكثير من الأحكام الإسلامية،

و يستفاد من قوله تعالى: **أَنَّ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَنُظَائِرُهُ**، أنّ هذه الأحكام لم تكن مختصّه بدين معين أو شريعته خاصّه، خاصّه و أنّها من الأصول و المبادئ التي يحكم بها العقل و يؤيّدّها من دون تلكؤ أو تأخير، و بهذا يكون مضمون الآيات السابقه هو بيان الأحكام التي لم تكن مختصّه بالإسلام، بل هي موجوده و مقرره في جميع الأديان.

ثمّ قال عقيب ذلك في هذه الآيات: **ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ** فقد أتممتنا نعمتنا على المحسنين و الذين سلّموا لأمره و اتبعوه.

و ممّا قيل يتّضح معنى كلمه «ثمّ» تستعمل في اللغة العربيه عاده في «العطف مع التراخي» و يكون معنى الآيه هو: أنّنا آتينا هذه التعاليم و الوصايا العامه للأنبياء السابقين أولاً، ثمّ آتينا موسى كتابا سماويا و بينا فيه هذه التعاليم و البرامج و غيرها من التعاليم و البرامج اللازمه.

و بهذا لا حاجه إلى ما ذهب إليه بعض المفسرين من التوجيهات المختلفه، و الضعيفه أحيانا في هذا المجال.

كما تتّضح هذه النقطه أيضا، و هي أنّ عبارته: **الَّذِي أَحْسَنَ** إشاره إلى جميع المحسنين، و الذين يستجيبون للحق، و يقبلون بالأوامر الإلهيه.

وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ

فإن فيه كلّ شيء ممّا يحتاج إليه المجتمع، و ممّا له أثر في تكامل الإنسان و تربيته.

وَ هُدًى وَ رَحْمَةً

أى أنّ في هذا الكتاب الذي نزل على موسى مضافا إلى ما سبق: هدى و رحمه.

إنّ جميع هذه البرامج، ما هي إلاّ لكي يؤمنوا بيوم القيامة، و بلقاء الله، و لكي يطهروا عن طريق الإيمان بالمعاد أفكارهم، و أقوالهم، و أعمالهم و يزكوها:

لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ

هذا، و يمكن أن يقال: إذا كانت شريعته موسى شريعته كامله (كما يستفاد من

كلمه «تماماً» فما الحاجه إلى شريعه عيسى، و إلى الشريعه الإسلاميه؟ و لكن يجب أن يعلم أن كل شريعه من الشرائع إنما تكون شريعه جامعه و كامله بالنسبه لعصرها، و من المستحيل أن تنزل شريعه ناقصه من جانب الله تعالى.

بيد أن هذه الشريعه التي تكون كامله بالنسبه إلى عصر معين يمكن أن تكون ناقصه غير كامله بالنسبه إلى العصور اللاحقه، كما أن البرنامج الكامل الجامع المعدّ لمرحله الدراسه الابتدائيه، يكون برنامجاً ناقصاً بالنسبه إلى مرحله الدراسه المتوسطة، و هذا هو السرّ في إرسال الأنبياء المتعددين بالكتب السماويه المختلفه المتنوعه حتى ينتهي الأمر إلى آخر الأنبياء و آخر التعاليم.

نعم إذ تهيأ البشر لتلقى التعاليم النهائيه، و صدرت إليهم تلك التعاليم و الأوامر، لم يبق حاجه-بعد ذلك- إلى دين جديد، و كان شأنهم حينئذ شأن المتخرجين الذين يمكنهم بما عندهم من معلومات الحصول على نجاحات علميه عن طريق المطالعه و التأمل.

إن أتباع مثل هذه الشريعه، و مثل هذا الدين (النهائي) لن يحتاجوا إلى دين جديد، و إنما يكتسبون طاقه حركتهم و تقدمهم من نفس ذلك الدين الإلهي.

كما أنه يستفاد من هذه الآيه أيضاً أن القضايا المرتبطه بالقيامه قد وردت في التوراه الأصليه بالقدر الكافي. و إذا لم نلاحظ اشارته إلى قضايا الحشر و المعاد في التوراه الفعلية و الكتب الحاضره المرتبطه بها إلا نادراً، فالظاهر أن ذلك بسبب تحريف اليهود و أصحاب الدنيا الذين كانوا يرغبون في قلبه التحدّث في القيامه و قلبه السماع عنها.

على أنه قد وردت في التوراه الفعلية مع ذلك إشارات عابره و مختصره إلى مسأله القيامه، و لكنّها قليله إلى درجه دفع البعض إلى القول: إن اليهود لا يعتقدون بالمعاد و القيامه أساساً، و لكن هذا الكلام أشبه بالمبالغه من الواقع

كما أنه يجب أيضا أن نلفت نظر القارئ إلى أنّ المراد من إلقاء الله الذي ورد في الآيات القرآنية ليس هو اللقاء الحسى و الرؤيه البصريه، بل المراد هو نوع من الشهود الباطنى، و اللقاء الروحانى، الذى يتحقق فى يوم القيامة على أثر التكامل الإنسانى الحاصل للأشخاص، أو المقصود منه هو: مشاهده الثواب و العقاب فى العالم الآخر.

الآيه اللاحقه تشير إلى نزول القرآن و تعليماته القيمه، و بذلك أكملت البحث المطروح فى الآيه السابقه، يقول تعالى: وَ هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَهَذَا الْكِتَابُ الَّذِى أَنْزَلْنَاهُ كِتَابَ عَظِيمِ الْفَائِدَةِ، عَظِيمِ الْبِرْكَه، وَ هُوَ الْمَنْبَعُ لِكُلِّ أَنْوَاعِ الْخَيْرِ وَ الْبِرْكَه.

و لَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ وَ جَبَّ اتِّبَاعَهُ بِصُورِهِ كَامِلًا، وَ جَبَّ التَّزَوُّدَ بِالتَّقْوَى، وَ التَّجَنَّبَ عَنِ مَخَالَفَتِهِ، لِتَشْمَلَكُمْ رَحْمَةُ اللَّهِ وَ لَطْفُهُ فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

و فى الآيه الثالثه أبطل سبحانه جميع المعاذير و التحججات و سدّ جميع طرق التملّص و الفرار فى وجه المشركين، فقال لهم أوّلا- لقد أنزلنا هذا الكتاب مع هذه المميزات لكى لا- تقولوا: لقد نزلت الكتب السماويه على الطائفتين السابقتين (اليهود و النصرى) و كنّا عن دراستها غافلين، و ليس تمرّدنا على أوامر الله لكونها موجوده عند غيرنا من الأمم، و لم يبلغنا منها شىء: أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا، وَ إِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١) .

ثمّ إنه سبحانه ينقل عنهم- فى الآيه اللاحقه- نفس ذلك التحجج و لكن بصوره أوسع، و مقرونا هذه المرّه بنوع أشدّ من الغرور و الصّلف و هو: أنّ القرآن الكريم لو لم ينزل عليهم لكان من الممكن أن يدّعوا أنّهم كانوا أكثر استعدادا من

أيه أمته أخرى لقبول الأمر الإلهي: أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ .

و الآية المتقدمه كانت تعكس فى الحقيقه-هذا التحجج و هو: أن عدم اهتدائنا إنما هو بسبب غفلتنا و جهلنا بالكتب السماويه، و هذه الغفله و هذا الجهل ناشئ عن أن هذه الكتب نزلت على الآخرين، و لم تنزل علينا.

أما هذه الآية فتعكس صفه الإحساس بالتفوق و الادعاء الفارغ الذى كانوا يدعون عنه عن تفوق العنصر العربى على غيرهم.

و قد نقل نظير هذا المعنى فى سورة فاطر فى الآية(٤٢) عن مقاله المشركين فى شكل مسأله قاطعه و ليس من باب القضييه الشرطيه و ذلك عند ما يقول:

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِيحَادَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا .

و على آيه حال فإن القرآن يقول فى معرض الرد على هذه الادعاءات أن الله سبحانه سدّ عليكم كل سبل التملص و الفرار، و أبطل جميع الذرائع و المعاذير، لأن الله آتاكم كل الآيات، و أقام كل الحجج المقرونه بالهدايه الإلهيه و بالرحمه الربانيه لكم: فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ .

و الملفت للنظر أنه استعمل لفظ«البينه» بدل الكتاب السماوى، و هو إشاره إلى أن هذا الكتاب السماوى واضح المعالم، بين الحقائق من جميع الجهات، و مقرون بالدلائل القاطعه، و البراهين الساطعه اللامعه.

و مع ذلك فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ صَدَفَ عَنْهَا .

و«صدف» من«الصدف» و يعنى الإعراض الشديد-من دون تفكير-عن شىء، و هو إشاره إلى أنهم لم يكونوا ليعرضوا عن آيات الله فحسب، بل كانوا يتعدون عنها-أيضا-من دون أن يفكروا فيها أدنى تفكير. ربّما استعملت هذه اللفظه بمعنى آخر و هو منع الآخرين أيضا.

و فى خاتمه هذه الآيه بين الله تعالى العقاب الأليم الذى أعد لهؤلاء المخاصمين المعاندين الذين يرفضون الحقائق و ينكرونها من دون أن يفكروا فيها و يدرسوها و لو قليلا، بل و لا يكتفون برفضها إنما يعمدون إلى صدّ الآخرين عنها، و يحولون بينهم و بين سماعها و استيعابها، بين كل ذلك فى قوله الموجز و البليغ: سَيَنْجِزِي الَّذِينَ يَصِدُّونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصِدُّونَ .

و«سوء العذاب» و إن كان بمعنى العذاب السيء، و لكن حيث أن العذاب السيء عقاب شديد و موجع للغاية فى حدّ نفسه، لذلك فسره بعض المفسرين بالعقاب الشديد.

ثم إن تكرار لفظه «يصدفون» عند بيان جزاء الصادقين عن آيات الله لأجل توضيح هذه الحقيقة، و هى أن جميع البلايا و المحن التى تصيب هذا الفريق ناشئه من كونهم يعرضون عن الحقائق من دون أدنى تفكير و دراسته، و لو أنهم سمحوا لأنفسهم بالتفكير و الدراسة- كباحث عن الحقيقة و شاك يطلب اليقين- لما أصيبوا بمثل هذه العواقب الأليمه و المصير المؤلم.

اشاره

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَضِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨)

التفسير

اشاره

توقعات باطله و مطالب مستحيله:

في الآيات السابقه تبينت هذه الحقيقه و هي: أننا أتمنا الحجه على المشركين، و آتيناهم الكتاب السماوي (أى القرآن) لهدايتهم جميعا، لكي لا يبقى لديهم أى عذر يبزون به مخالفتهم للرساله و معارضتهم للدعوه.

و هذه الآيه تقول: و لكن هؤلاء الأشخاص المخاصمين المعاندين بلغوا فى لجاجهم و عنادهم حدا لا- يؤثر فيهم حتى هذا البرنامج الواضح البين، و كأنهم يتوقعون و ينتظرون هلاكهم، أو ذهاب آخر فرصه، أو ينتظرون أمورا مستحيله.

فيقول أولا: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ لتقبض أرواحهم.

أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ

إليهم فيرونه، حتى يؤمنوا به.

و يراد من هذا الكلام فى الحقيقه أنهم ينتظرون أموراً مستحيله، لا أن مجيء الله سبحانه و تعالى أو رؤيته أمور ممكنه.

و هذا النوع من البيان و الكلام أشبه ما يكون بمن يقول لشخص مجرم معاند، بعد أن يريه ما لديه من وثائق كافيه دامغه و هو مع كل هذا ينكر جنايته: إذا كنت لا- تقبل بكل هذه الوثائق، فلعلك تنتظر أن يعود المقتول إلى الحياه، و يحضر فى المحكمه ليشهد عليك بأنك الذى قتلته؟ ثم يقول: أو أنكم تنتظرون أن تتحقق بعض الآيات الإلهيه و العلامات الخاصه بيوم القيامه و نهايه العالم يوم تنسدّ كل أبواب التوبه: أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ؟ و على هذا الأساس فإنّ عباره آيَاتِ رَبِّكَ و إن جاءت بصوره كليّيه و على نحو الإجمال، و لكنّها يمكن أن تكون بقرينه العبارات اللاحقه التى سيأتى تفسيرها، بمعنى علامات القيامه، مثل الزلازل المخيفه، و فقدان الشمس و القمر و الكواكب لأنوارها و أضوائها، و ما أشبه ذلك.

أو يكون المراد من ذلك المطالب غير المعقوله التى يطلبونها من رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم، و من جملتها أنّهم لا يؤمنون به إلا أن تمطر عليهم السماء حجاره، أو تمتلئ صحارى الحجاز القفراء اليابسه بالينابيع و النخيل!! ثم يضيف عقيب ذلك قائلاً: يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا فَأَبْوَابُ التَّوْبَةِ حِينَ ذَاكَ مَغْلَقَةٌ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا إِلَى تِلْكَ السَّاعَةِ، لِأَنَّ التَّوْبَةَ سَاعَتُهُذَى تَكُونُ ذَاتَ صَبْغَةٍ اضْطِرَارِيَةٍ إِجْبَارِيَةٍ، وَ فَاقِدَةٍ لِمَعْطِيَاتِ الإِيمَانِ الإِخْتِيَارِيَةِ وَ قِيمَةِ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ.

هذا، و يتضح ممّا قيل أن عباره أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا تعنى أنّ الإيمان وحده لا ينفع فى ذلك اليوم، بل حتى أولئك الذين آمنوا من قبل، و لكنهم لم

يعملوا عملا صالحا، لم ينفعهم في ذلك اليوم أن يعملوا عملا صالحا، لأنّ أوضاعا كتلك تسلب من الإنسان قدره على ارتكاب الذنب، وتقوده نحو العمل الصالح بصورة جبريه لا مفرّ منها، فلا يكون لمثل هذا العمل أيه قيمه ذاتيه.

ثمّ إنّ في المقطع الأخير من الآيه يوجه تهديدا شديدا إلى هؤلاء الأشخاص المعاندين، إذ يقول بنبره شديده: قُلِ انْتَضِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ .

لا فائده للإيمان بدون عمل:

إنّ من النقاط الهامه التي نستفيدها من الآيه الحاضره هو أنّ الآيه تعتبر طريق النجاه منحصره في الإيمان، ذلك الإيمان الذي يكتسب المرء فيه خيرا و يعمل في ظلّه عملا صالحا.

ويمكن أن ينطرح هذا السؤال و هو: هل الإيمان وحده غير كاف و لو خلّى من جميع الأعمال الصالحه؟ و نجيب: صحيح أنّ المؤمن يمكن أن يزلّ أحيانا و يرتكب بعض الذنوب المعاصي ثمّ يندم على فعله و يعمد إلى إصلاح نفسه، و لكن من لم يعمل أيّ عمل صالح طوال حياته، و لم يستغل الفرص الكثيره و الكافيه لذلك، بل على العكس من ذلك صدر منه كل قبيح و وقعت منه كل معصيه، و اقترف كل إثم، فإنّه يبدو من المستبعد جدا أن يكون من أهل النجاه، و من الذين ينفعهم إيمانهم، لأنّه لا يمكن أن نصدّق بأنّ شخصا ينتمى إلى دين من الأديان، و لكنّه لا يعمل بأيّ شيء من تعاليم ذلك الدين و لا مرّه واحده في حياته، بل كان يرتكب خلافها دائما، إذ أنّ حالته و موقفه هذا دليل قاطع و بيّن على عدم إيمانه، و عدم اعتقاده.

و على هذا الأساس يجب أن يقترن الإيمان و لو بالحدّ الأدنى من العمل الصالح، ليبدل ذلك على وجود الإيمان.

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠)

التفسير

اشاره

رفض المفرقين للصفوف و نبيهم:

تعقيبا على التعاليم و الأوامر العشر التي مرّت في الآيات السابقة،و التي أمر في آخرها بإتباع الصراط الإلهي المستقيم،و بمكافحه أى نوع من أنواع النفاق و التفرقه،جاءت هذه الآيه تتضمن تأكيدا على هذه الحقيقه،و تفسيراً و شرحاً لها.

فيقول تعالى أولاً: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ (١) أى أنّ الذين اختلفوا في الدين و تفرقوا فرقا و طوائف لا يمتون إليك

ص: ٥٢٥

١- ١) -«الشيعة»من حيث اللغه تعنى الفرق و الطوائف المختلفه و أتباع الأشخاص المختلفين،و على هذا فإنّ مفرد كلمه يعنى من يتبع مدرسه أو شخصا معينا،هذا هو المعنى اللغوى لكلمه الشيعة.

بصله أبدا، كما لا يرتبطون بالدين أبدا، لأنّ دينك هو دين التوحيد، ودين الصراط المستقيم، و الصراط المستقيم ما هو إلا واحد لا أكثر.

ثمّ قال تعالى-مهّددا موبّخا أولئك المفرّقين- إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ أَي أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي سَيؤَاخِذُهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ وَ هُوَ عَلِيمٌ بِهَا، لا يغيّب شىء منها.

بحثان

اشاره

و هاهنا نقطتان يجب الالتفات إليهما:

١- من هم المقصودون فى الآيه؟

يعتقد جماعه من المفسّرين أنّ هذه الآيه نزلت فى اليهود و النصارى الذين اختلفوا و تفرّقوا إلى فرق و طوائف مذهبيه مختلفه، و تباغضوا و تشاحنوا و تنازعوا فيما بينهم.

و لكن يرى آخرون أنّ هذه الآيه اشاره إلى الذين يفرّقون صفوف هذه الأُمّه (الإسلاميه) بدافع التعصب و حبّ الاستعلاء، و حب المنصب و الجاه.

و لكن محتوى هذه الآيه يمثل حكما عاما يشمل كل من يفرّق الصفوف، و كل من يبذر بذور النفاق و الاختلاف بين عباد الله بابتداع البدع، من دون فرق بين من كان يفعل هذا فى الأُمم السابقه أو فى هذه الأُمه.

و ما نلاحظه من الرّوايات المنقوله عن أهل البيت عليهم السّلام و هكذا روايات أهل السنّه التى تصرّح بأن هذه الآيه اشاره إلى مفرّقى الصفوف و أهل البدع فى هذه

(١)

و لكن لفظه الشيعه معنى آخر فى الاصطلاح، فهو يطلق على من يتبع أمير المؤمنين عليا عليه السّلام و يشايعه، و لا- يصح أن نخلط بين المعنيين اللغوى و الاصطلاحى.

ص: ٥٢٤

الأئمة، فهو من باب بيان المصداق (١)، لأنه لو لم يذكر هذا المصداق لظن البعض أنّ المقصود بالآية هم الآخرون خاصه، وأنّ الضمير عائد إلى غيرهم فيبرّءوا بذلك ساحتهم.

ففى روايه منقوله عن الإمام الباقر عليه السّلام فى ذيل هذه الآيه-على ما فى تفسير على بن إبراهيم-قال فى تفسيرها: «فارقوا أمير المؤمنين عليه السّلام و صاروا أحزابا» (٢).

و هناك أحاديث آخر رويت عن رسول الله صلّى الله عليه وآله و سلّم حول افتراق هذه الأئمة و تشتتها و تشرذمها إلى فرق ذكرها على سبيل التنبؤ، جميعها تؤيد هذه الحقيقه أيضا.

٢- بشاعه التفرقه و زرع الاختلاف

هذه الآيه تكثّر مرّه أخرى-و بمزيد من التأكيد-هذه الحقيقه، و هى أنّ الإسلام دين الوحده و الاتحاد، و أنّه يرفض كل لون من ألوان التفرقه و إلقاء الاختلاف فى صفوف الأئمة، و تقول لرسول الله صلّى الله عليه وآله و سلّم: إنّ عملك و برنامجك لا يشابه عمل المفرقين للصفوف، ناشرى الخلاف فيها مطلقا، و انهم بالتالى لا يمتون إليك و لا تمت إليهم بصله أبدا، و إنّ الله المنتقم الجبار سوف ينتقم منهم، و يريهم عاقبه أعمالهم الشريره.

إنّ التوحيد الحقيقى ليس واحدا من أصول الإسلام و قواعده فحسب، بل إنّ جميع أصول الإسلام و فروعها، و جميع برامجها المتنوعه، تدور حول محور التوحيد، و تنطلق منه و تنتهى إليه التوحيد روح ساريه فى كيان التعاليم الإسلاميه برمتها، و التوحيد هو الأساس الحضارى الذى تقوم عليه مبادئ الإسلام عامته.

و لكن هذا الدين الذى يتألف من أقصاه إلى أقصاه من عنصر الوحده

ص: ٥٢٧

١-١) -نور الثقلين، المجلد الاوّل، ص ٧٨٣.

٢-٢) -نور الثقلين، المجلد الاوّل، ص ٧٨٣.

والاتحاد قد وقع اليوم-مع شدة الأسف-فريسه بأيدي مفزقي الصفوف، و مثيرى الاختلاف بحيث فقد وجهه الحقيقى.

فبين يوم و آخر ينق ناعق،و يثر نغمه جديده خبيثه،و يقوم معقد أو معتوه أو غبى و يخالف حكما من أحكام الإسلام،و برنامجا من برامج،فيلتف حوله فريق من الجهله و البسطاء،فيفرز تمزقا جديدا.

على أنّ للجهل الذى يعانى منه فريق من العامه دورا مؤثرا فى هذه التفرقه و الاختلافات،لا يقل عن تأثير ذكاء الأعداء و فطنتهم و يقظتهم فى إذكاء التمزق الداخلى.

فربما طرح البعض أمورا أكل عليه الدهر و شرب،من جديد،و أحدثوا حولها ضجّه غبيّه ليشغلوا بها بال الناس،و لكن الإسلام- كما صرحت الآيه غريب عن أعمالهم،و أعمالهم غريبه عن الإسلام،و ستفشل فى المآل كل محاولات المفرقين للصفوف،تذهب أدراج الرياح،و لن يحصلوا منها سوى الخيبه و الخسران.

حملات كاتب «المنار» الظالمه على الشيعة:

يعانى كاتب تفسير المنار من سوء ظن بالغ الشده بالنسبه إلى الشيعة، و بنفس القدر يعانى من الجهل بعقائد الشيعة و تاريخهم.

ففى ذيل هذه الآيه يعقد فصلا حول الشيعة تحت غطاء الدعوه إلى الاتحاد، و يصفهم بأنهم يفرقون الصفوف و يخالفون الإسلام،و أنهم ممن يعملون ضدّ الإسلام و يقومون بنشاطات سياسيه تخريبيه تحت غطاء المذهب و العقيده الدّينيه،و كأنّ وجود كلمه «شيعا» فى الآيه الحاضره و التى ليس لها أى ارتباط بقضيه التشيع و الشيعة ذكره بهذه الأمور التافهه،فاندفع يتّهم هذه الجماعه المؤمنه من دون تورّع.

إن كتاباته أفضل جواب على أقواله، و خير شاهد على عدم معرفته بعقائد الشيعة، و تأريخهم، و ذلك لأنه:

١-يربط بين الشيعة و«عبد الله بن سبأ» اليهودى المشكوك فى أصل وجوده من وجهه نظر التاريخ، و الذى ليس له-على فرض وجوده-أدنى دور فى تاريخ التشيع و الشيعة! بينما نجده من جانب آخر يربط بين الشيعة و«الباطنية» بل حتى بين الشيعة و الفرقه البهائية التى هى أعدى أعداء الشيعة.على حين تكشف أدنى معرفه بتاريخ الشيعة أنّ هذه الأحاديث و المزاعم ليست سوى مزاعم و أحاديث خياليه وهميه، بل محض افتراء و اتهام و اختلاق.

و الأعجب من كل ذلك هو أنّ هذا الكاتب يربط بين جماعه«الغلاة»(و هم الذين يرفعون عليا عليه السلام إلى درجه الألوهيه غلوًا) و بين الشيعة فى حين أن الفقه الشيعى أفرز فصلا للغلاة تحت عنوان إحدى الفرق و الطوائف المقطوع بكفرها، و يتهم الشيعة بأنهم يعبدون أهل البيت، و غير ذلك من النسب الباطله الرخيصة.

إن من المسلم أن كاتب«المنار» لو لم يكن قد تأثر بالأحكام المتسرّعه و العصبيات العمياء و سمح لنفسه بأن يسمع عقائد الشيعة من أفواههم أنفسهم، و يأخذها منهم، و يستقرئها من كتبهم لا من كتب أعدائهم لعرف جيدا بأن ما نسبه إلى الشيعة ليس مجرد افتراءات و أكاذيب، بل هو مهازل مضحكه.

و الأعجب من ذلك كله أنّه عزا نشأه التشيع إلى الإيرانيين، على أنّ التشيع كان فاشيا فى العراق و الحجاز و مصر قبل أن يتشيع الإيرانيون بقرون مديده، و الوثائق التاريخيه شواهد حيّه على هذه الحقيقه.

٢-إنّ ذنب الشيعة هو أنّهم عملوا بما صدر عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم قطعاً، و الذى ورد-كذلك-فى أوثق المصادر السيّئه و هو

قوله صلّى الله عليه و آله و سلّم: «إنى تارك فيكم الثقلين

ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا أبدا كتاب الله و عترتى أهل بيتى» (١).

إنّ ذنب الشيعة هو أنّهم يعتبرون أهل البيت النبوى أدري و أعرف من غيرهم بدين النّبي و رسالته، فجعلوهم الملجأ و المرجع فى المشاكل الدينيه، و أخذوا عنهم حقائق الإسلام.

أنّ ذنب الشيعة هو أنّهم فتحوا باب «الاجتهاد» أخذوا بحكم المنطق و العقل، و القرآن و السنه و بذلك منحوا الفقه الإسلامى فاعليه متحرکه، و لم يحصروه ب «أربعة أشخاص» و يجبروا الناس على إتباعهم.

أليست خطابات القرآن و السنه و موجّهه إلى عموم المؤمنين فى جميع الدهور و العصور؟ أم هل كان أصحاب رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم يتبعون فى فهم الكتاب و السنه أشخاصا معينين، فلما ذا نحصر الإسلام فى حصار قديم من الجمود باسم «المذاهب الأربعة» الحنفى، الحنبلى، المالكى، الشافعى؟! إن ذنب الشيعة هو أنّهم يقولون: إنّ صحابه رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم مثل سائر المسلمين يجب أن يقيّموا بمقياس إيمانهم و فى ضوء أعمالهم، فمن وافق عمله الكتاب و السنه كان صالحا، و من خالف عمله الكتاب و السنه-سواء أ كان فى عصر النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم أو جاء بعده-رفض و طرد، و لا تكفى مجرد الصحبه ليتستر بها المجرمون و الجناه، فلا يجوز أن يقدّس و يحترم رجال كمعاويه الذى داس كل القيم و تجاهل جميع الضوابط الإسلاميه، و خرج على إمام زمانه الذى رضيت به الأُمّه الإسلاميه، و على الأقل فى ذلك العصر (و نعى عليا عليه السّلام)، و أراق تلك الدماء الكثيره!...لا يجوز تقديس هذا الشخص و أمثاله لمجرد صحبته لرسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم، و لا بعض الصحابه المرتزقه ممن مالاه و سار فى ركابه.

ص: ٥٣٠

١-١) -راجع صحيح الترمذى مجلد ٣ الصفحه ١٠٠، و سنن البيهقى المجلد الأوّل الصفحه ١٣ و المجلد الثانى الصفحه: ٤٣١، و كتر العمال المجلد الأوّل الصفحه ١٥٤ و ١٥٩، و الطبقات الكبرى لابن سعد المجلد الثانى، الصفحه ٢ و كتباً أخرى.

نعم هذه هي ذنوب الشيعة و هم يعترفون بها،و لكن هل وجدتم في عالمنا هذا من هو أشدّ مظلوميّه من الشيعة،بحيث تعتبر أفضل نقاط القوّه في تاريخها و عقائدها نقاط ضعف،و يكيلون لها سيلا من الاتهامات و الأكاذيب،بل و لا يسمحون لها بأن تنشر معتقداتها في أوساط المسلمين و تعرضها عليهم بحريه، كما يفعل غيرها من الطوائف،بل يأخذون عقائدها من غيرها.

ترى إذا عملت جماعه بأمر نبيهم في حين لا- يعمل الآخرون به،فهل يعتبر عمل تلکم الجماعه تفريقا للصفوف،و شقا لعصى الأمم؟و هل يجب صرف هذه الجماعه عن مسارها ليتحقق الاتحاد،أو تقويم من يسلك غير سبيل المؤمنين؟ ٣-إنّ تاريخ العلوم الإسلاميه يشهد أنّ الشيعة كانوا السّباقين في أكثر هذه العلوم و المعارف إلى درجه أنه اعتبر الشيعة،البناء المؤسسين لعلوم الإسلام. (١)

إنّ الكتب التي ألفها علماء الشيعة في مجال التّفسير و التّاريخ،و الحديث و الفقه،و الأصول،و الرجال و الفلسفه الإسلاميه،ليست أمورا يمكن تجاهلها و إنكارها أو إخفاؤها،فهى موجوده في جميع المكتبات(اللهم إلاّ اكثر مكتبات أهل السنه الذين لا يسمحون عادة بدخول هذه المؤلّفات و الكتب إلى مكتباتهم، في حين أننا نسمح بدخول مؤلفاتهم في مكتباتنا منذ قرون مديده)و هذه الكتب شواهد حيّه على ما ذكرناه.

فهل هؤلاء الذين صنّفوا و ألفوا كل هذه الكتب حول الإسلام و تعاليمه،في سبيل نشرها و بثّها و تعميقها،كانوا أعداء للإسلام؟ و هل عرفتم عدوّا يحبّ الإسلام بهذه الدرجه؟! أم هل يستطيع أحد أن يخدم الإسلام الحنيف بمثل هذه الخدمه الكبيره،إذا كان محبّا مخلصا،و عاشقا متيما؟! هذا و نقول في ختام حديثنا:إذا أردتم أن نزيل كل هذا الاختلاف و الفرقة

ص: ٥٣١

١- (١) -للقوف على أدله هذا الموضوع راجع كتاب «تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام»،و كتاب «أصل الشيعة و أصولها».

تعالوا نعمل شيئاً آخر بدل التراشق بالاتهامات، وذلك أن يتعرف بعضنا على بعض و يفهم بعضنا بعضاً، لأنّ مثل هذه النسب و الافتراءات الباطله ليس من شأنها أن تحقق الوحده الإسلاميه، بل توجه ضربه قاضيه إلى أسس الوحده الإسلاميه.

ثواب أكثر، عقاب أقل:

في الآيه اللاحقه إشاره إلى الرحمه الإلهيه الواسعه، و إلى الثواب الإلهي الواسع العذى ينتظر الأفراد الصالحين المحسنين، و قد كملت التهديدات المذكوره في الآيه بهذه التشجيعات و يقول: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .

ثُمَّ قَالَ: وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا .

و للتأكيد يضيف هذه الجمله أيضا فيقول: وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ و إنما يعاقبون بمقدار أعمالهم.

و أمّا ما هو المراد من «الحسنه» و «السّيئه» في الآيه الحاضره و هل هما خصوص «التوحيد» و «الشرك» أو معنى أوسع؟ فيبين المفسرين خلاف مذکور في محلّه، و لكن ظاهر الآيه يشمل كل عمل صالح و فكر صالح و عقيدته صالحه أو سيئه، إذ لا دليل على تحديد أو حصر الحسنه و السيئه.

بحوث

إشاره

و هاهنا نكات يجب التوجه إليها و التوقف عندها:

-1

إنّ المقصود من قوله: «جاء به»

كما يستفاد من مفهوم الجمله هو أن يجيء بالعمل الصالح أو السىء معه، يعنى إذا مثل الإنسان أمام المحكمه الإلهيه العادله يوم القيامه فإنّه لا يحضر بيد فارغه خاليه من العقيدته و العمل الصالحين، أو عقيدته أو أعمال طالحه، بل هي معه دائماً، و لا تنفصل عنه أبداً، فهي قربنته في

ص: ٥٣٢

الحياه الأبدية و تحشر معه.

لقد استعمل مثل هذا التعبير فى الآيات القرآنيه الأخرى بهذا المعنى أيضا..

ففى الآيه (٣٣) من سوره (ق) نقرأ قوله تعالى: مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَ جَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ إِنَّ الْجَنَّةَ لَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ عَنْ طَرِيقِ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، و خافه و أتى إلى ساحه القيامه بقلب تائب مملوء بالإحساس بالمسؤوليه.

٢- أجر الحسنه، عشره أضعاف

نقرأ فى الآيه الحاضره أن الحسنه يثاب عليها بعشره أضعافها، بينما يستفاد من بعض الآيات القرآنيه أنه اقتصر على عباره أضعافاً كَثِيرَةً من دون ذكر عدد الأضعاف (كما فى الآيه ٢٤٥ من سوره البقره) و فى بعض الآيات بلغ ثواب بعض الأعمال مثل الإنفاق إلى سبعمائه ضعف (كما فى الآيه ٢٦١ من سوره البقره) بل ربّما إلى أكثر من ذلك مثل قوله: **إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١)**.

إنّ من الواضح أنه لا تناقض بين هذه الآيات أبداً، إذ إنّ أقل ما يعطى للمحسنين هو عشره أضعاف الحسنه، و هكذا يتصاعد حجم الثواب مع تعاضم أهميه العمل و الحسنه، و مع تعاضم درجه الإخلاص، و مع ازدياد مقدار السعى و الجهد و المبدول فى سبيل العمل الصالح، حتى يصل الأمر إلى أن تتحطم الحدود و المقادير، و لا يعلم حدّ الثواب و مقداره إلاّ الله تعالى.

فمثلا الإنفاق الذى يحظى بأهميه بالغه فى الإسلام يتجاوز مقدار ثوابه الحدّ المتعارف للعمل الصالح الذى هو عشره أضعاف الحسنه، و يصل إلى «الأضعاف الكثيره» أو «سبعمائه ضعف» و ربّما أكثر من ذلك.

و الاستقامه التى هى أساس جميع النجاحات و السعادات، و لا تبقى عقيدته

ص: ٥٣٣

أو عمل صالح ولا يستمر بدونها قد ذكر القرآن لها ثوابا خارجا عن حد الإحصاء والحساب.

و من هنا أيضا يتضح عدم المنافاه بين هذه الآيه و بين الروايات التي تذكر لبعض الأعمال الحسنه مثوبه أكثر من عشره أضعاف.

كما أنّ ما نقرؤه في الآيه (٨٤) من سوره القصص في قوله تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا لَا يَنْفَى الْآيَةَ الْحَاضِرَةَ حَتَّى نَحْتَاجَ إِلَى الْقَوْلِ بِنَسْخِ الْآيَةِ، لَأَنَّ لِلْخَيْرِ مَعْنَى وَاسِعًا يَتَلَاءَمُ مَعَ عَشْرِهِ أضعاف أيضا.

٣- لماذا كفاره يوم واحد ستين يوما؟

ربّما يتصور البعض: أنّ وجوب صوم «ستين يوما» من باب الكفاره في مقابل إفطار يوم من شهر رمضان، و العقوبات الأخرى في الدنيا و الآخره من هذا القبيل، لا تتلاءم مع الآيه الحاضره التي تقول: السئنه تجازى بمثلها فقط.

و لكن مع الالتفات إلى نقطه واحده يتضح جواب هذا الاعتراض أيضا و هي أنّ المراد من المساواه بين «المعصيه و العقوبه» ليس هو المساواه العدديه، بل لا بدّ من أخذ كيفية العمل أيضا بنظر الاعتبار.

إنّ إفطار يوم واحد من أيام شهر رمضان المبارك مع ماله من الأهميه، ليست عقوبته صوم يوم واحد بدله من باب الكفاره، بل عليه أن يصوم أياما عديده حتى تساوى مبلغ احترام ذلك اليوم من شهر رمضان المبارك، و لهذا نقرأ في بعض الروايات أنّ عقوبه الذنوب في شهر رمضان أشد و أكبر من عقوبه الذنوب في الأيام و الأشهر الأخرى. كما أنّ ثواب الأعمال الصالحه في تلك الأيام أكثر و أزيد، إلى درجه أنّ ثواب ختمه واحده للقرآن في هذا الشهر يعادل ثواب سبعين ختمه للقرآن في الأشهر الأخرى.

إنَّ النقطه الأجل في المقام هي أنَّ الآيه الحاضره جسدت منتهى اللطف و الرحمه الإلهيه في حق الإنسان.

فهل عرفت أحدا بيده كل أزمه الإنسان و شؤونه، كما أنه محيط بجميع أعماله و شؤونه، يبعث قاده و مرشدين معصومين لهداياته و إرشاده، ليوفق إلى الإتيان بالعمل الصالح في هدى رسله، مستفيدا من الطاقه الإلهيه الممنوحه له، مع ذلك يشبهه على حسناته بعشر أمثالها، ولكنّه لا يجازيه على السيئه إلاّ بمثلها، ثمّ يجعل باب التوبه و نيل العفو مفتوحا في وجهه؟!

يقول أبو ذر: قال الصادق المصدّق [أى رسول الله]

: «إنَّ الله قال الحسنه عشر أو أزيد، و السيئه واحده أو أغفر، فالويل لمن غلبت آحاده أعشاره» (١).

ص: ٥٣٥

اشاره

قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنْ صَالَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)

التفسير

اشاره

هذا هو طريقى المستقيم

هذه الآيه و الآيات الأخر التى سنقرؤها فيما بعد و التى ختمت بها سوره الأنعام، تعتبر خلاصه الأبحاث المطروحه فى هذه السوره التى بدأت و انتهت بمكافحه الشرك و الوثنيه، و تركزت أحاديثها على توضيح هذا الأمر. فقد بدأت هذه السوره بالدعوه إلى التوحيد و مكافحه الشرك، و ختمت بنفس ذلك البحث أيضا.

ففى البدايه أمرت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بأن يقول فى مواجهه معتقدات المشركين و الوثنيين و مزاعمهم الجوفاء و العاريه عن المنطق السليم: قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ أى طريق التوحيد، و رفض كل أشكال الشرك و الوثنيه.

و الجدير بالذكر أنّ هذه الآيه و طائفه كبيره من الآيات السابقه و اللاحقه لها تبدأ بجمله: «قل» و لعلّه لا توجد فى القرآن الكريم سورته كررت فيها هذه الجمله بهذا القدر مثل هذه السوره، و هذا يعكس فى الواقع مدى شدّه المواجهه بين رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم و بين منطق المشركين.

كما أنّه يسدّ كل أبواب العذر فى وجوههم، لأنّ تكرار كلمه «قل» علامه على أنّ كل ما يقوله لهم رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم إنّما هو بأمر الله، بل هو عين كلام الله، لا أنّها آراء رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم و أفكاره و قناعاته الشخصيه.

و من الواضح أنّ ذكر كلمه «قل» فى هذه الآيات و أمثالها فى نص القرآن، إنّما هو لحفظ أصاله القرآن، و للدلاله على أنّ ما يأتى بعدها هو عين الكلمات التى أوحيت إلى رسول الله.

و بعبارة أخرى: الهدف منها هو الدلاله على أنّ رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم لم يحدث فيها أىّ تغيير فى الألفاظ التى أوحيت إليه، و حتى كلمه «قل» التى هى خطاب إليه قد ذكرها عينا.

ثمّ إنّ تعالى يوضح «الصراط المستقيم» فى هذه الآيه و الآيتين اللاحقتين.

فهو يقول أولاً: إنّ الدين المستقيم الذى هو فى نهايه الصحه و الاستقامه، و هو الأبدى الخالد القائم المتكفل لأمر الدين و الدنيا و الجسد و الروح: ديناً قيماً (١).

و حيث أنّ العرب كانوا يكتّون لإبراهيم عليه السّلام محبّه خاصّه، بل كانوا يصفون عقيدتهم و دينهم بأنّه دين إبراهيم هو هذا الذى أدعو أنا إليه لا ما تزعمونه: ملّه إبراهيم .

إبراهيم عليه السّلام الذى أعرض عن العقائد الخرافيه التى كانت سائده فى عصره و بيئته، و أقبل على التوحيد حنيفاً .

ص: ٥٣٧

١- ١) - «قيماً» قد تأتى أيضاً بمعنى الاستقامه، و قد تأتى بمعنى الثبات و الدوام و كذلك تأتى بمعنى القائم بأمر الدين و الدنيا.

و«الحنيف» يعنى الشخص أو الشىء الذى يميل إلى جهة ما، وأما فى المصطلح القرآنى فيطلق هذا الوصف على من يعرض عن عقيدته عصره الباطله و يولى وجهه نحو الدين الحق و العقيدته الحقه.

و كأنّ هذا التعبير جواب و ردّ على مقاله المشركين الذين كانوا يعيبون على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم مخالفته للعقيدته الوثنيه التى كانت دين أسلافهم من العرب، فقال النبى فى معرض الردّ على مقالتهم هذه، بأنّ نقض السنن الجاهليه و الإعراض عن العقائد الخرافيه السائده فى البيئه ليس هو من فعلى فقط، بل كان إبراهيم - الذى نحترمه جميعا - كذلك أيضا.

ثمّ يضيف للتأكيد قائلا: **وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**، بل هو بطل الكفاح ضد الوثنيه، و حامل الحرب ضد الشرك، الذى لم يفتأ لحظه واحده عن محاربتته و كفاحه.

إنّ تكرار جملة **حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** فى عدّه موارد من آيات القرآن الكريم مع قوله: «مسلمًا» أو بدونها، إنّما هو للتأكيد على هذه المسأله و هى أنّ إبراهيم الذى يفتخر به العرب الجاهليون مبرأ و منزّه عن كل هذه العقائد و الأعمال الخاطئه (1).

الآيه اللاحقه تشير إلى أنّه على التّبين أن يقول: **إِنِّي لست موحدا من حيث العقيدته فحسب، بل إنى أعمل كل عمل صالح: قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَ نُسُكِي وَ مَحْيَايَ وَ مَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**، فأنا أحيى لله، و له أموت، و أفدى بكل شىء لأجله، و كل هدفى و كل حبى بل كل وجودى له.

و«النسك» يعنى فى الأصل العباده، و لذا يقال: للعابد: ناسك، و لكن هذه الكلمه تطلق فى الأغلب على أعمال الحج فيقال: مناسك الحج.

و قد احتمل البعض أن يكون الموارد من «النسك» هنا هو «الأضحيه».

ص: ٥٣٨

و لكن الظاهر أنه يشمل كل عباده، و هو إشاره أولاً إلى الصّلاه كأهم عباده، ثم إلى سائر العبادات بشكل كلى، يعنى صلاتى و كل عباداتى، بل و حتى موتى و حياتى كلها له تعالى.

ثم فى الآيه الثالثه يضيف للتأكيد، و إبطالا لأى نوع من أنواع الشرك و الوثنيه قائلاً: لا شريك له .

ثم يقول فى ختام الآيه: وَ بِذَلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ .

كيف كان النبى أول مسلم؟

فى الآيه الحاضره وصف رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بأنه أول المسلمين.

و قد وقع بين المفسرين كلام حول هذه المسأله، لأننا نعلم أنه إذا كان المقصود من «الإسلام» هو المعنى الواسع لهذه الكلمه فإنه يشمل جميع الأديان السماويه، و لهذا يطلق وصف المسلم على الأنبياء الآخرين أيضاً، فاننا نقرأ حول نوح عليه السلام: وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١) .

و نقرأ حول إبراهيم الخليل عليه السلام و ابنه إسماعيل أيضاً: رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ (٢) .

و جاء فى شأن يوسف عليه السلام: تَوَفَّنِي مُسْلِمًا (٣) .

على أن «المسلم» يعنى الذى يسلم و يخضع أمام أمر الله، و هذا المعنى يصدق على جميع الأنبياء الإلهيين و أممهم المؤمنه، و مع ذلك فإن كون رسول الإسلام أول المسلمين، إما من جهه كيفيه إسلامه و أهميته، لأنّ درجه إسلامه و تسليمه أعلى و أفضل من الجميع، و إما لأنه كان أول فرد من هذه الأمه التى

ص: ٥٣٩

١-١) - يونس، ٧٢.

١-٢) - البقره، ١٢٨.

١-٣) - يوسف، ١٠١.

قبلت بالإسلام و القرآن.

و قد ورد فى بعض الروايات- أيضا- أنه صلى الله عليه و آله و سلم أول من أجاب فى الميثاق فى عالم الذر، فإسلامه متقدم على إسلام الخلائق أجمعين (1).

و على أى حال فإن الآيات الحاضره توضح روح الإسلام، و تعكس حقيقه التعاليم القرآنيه و هى: الدعوه إلى الصراط المستقيم، و الدعوه إلى دين محطم الأصنام إبراهيم الخالص، و الدعوه إلى رفض أى نوع من أنواع الشرك و الثنويه... هذا من جهه العقيده و الإيمان.

و أمّا من جهه العمل: المدّعه إلى الإخلاص، و إلى تصفيه التيه، و الإتيان بكل شىء لله تعالى، الحياه لأجله، و الموت فى سبيله، و طلب كل شىء منه، و محبته، و الانقطاع إليه، و عن غيره، و التولى له، و التبرؤ من غيره.

فما أكبر الفرق بين ما جاء فى الدعوه الإسلاميه الواضحه، و بين أعمال بعض المتظاهرين بالإسلام الذين لا يفهمون من الإسلام سوى التظاهر بالدين، و لا يفكرون فى جميع الموارد إلا فى الظاهر، و لا يعتنون بالباطن و الحقيقه، و لهذا فليس حياتهم و مماتهم و اجتماعهم و مفاخرهم و حرّيتهم سوى قشور خاويه لا غير.

ص : ٥٤٠

(١-١) - تفسير الصافي، ذيل هذه الآيه.

إشارة

قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤)

التفسير

إن التأكيدات المتتابعة المتواليه والاستدلال المتنوع في هذه السوره في صعيد التوحيد و مكافحه الشرك تنبئ عن أهميه كبرى للموضوع.

و هذه الآيه شجبت منطق المشركين من طريق آخر، حيث قال سبحانه لنبينه:

قل لهم و اسألهم: هل من الصحيح أن أطلب ربًا غير الله الواحد في حين أنه هو المالك و المربى، و هو رب كل شيء و بيده أزمه جميع الكائنات، و حكمه جار في جميع ذرات الوجود بلا استثناء: قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ .

ثم إنه يردّ على جماعه من المشركين المتحجرين ممن قالوا لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: اتبعنا و علينا وزرك إن كان خطأ، قائلًا: وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ فلا يعمل أحد إلا لنفسه، و لا يحمل أحد وزر أحد.

ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

فما لكم إليه و هو يخبركم عن جميع ما اختلفتم فيه.

إن هاهنا نقطتين يجب أن نقف عندهما و نلتفت إليهما:

١-ربما حملنا وزر غيرنا

قد يتوهم أن الآيه الحاضره التي تبين أصلين من الأصول المنطقيه المسلّمه لدى جميع الأديان و الشرائع (أى مبدأ: لا يعمل أحد إلا- لنفسه، و لا- يعاقب أحد بذنب غيره) تتنافى مع الآيات القرآنيه الأخرى، كما لا توافق جملة من الروايات فى هذه المجال، لأنّ الله تعالى يقول فى سورة النحل الآيه ٢٥: لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَ مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ .

فإذا لم يحمل أحد وزر أحد فكيف يحمل هؤلاء المضلون وزر الضالين أيضا.

كما أن الأحاديث المرتبطه ب«السنة الحسنه» و«السنة السيئه» المرويه بطرق الشيعة و السنة. تتنافى مع مفهوم الآيه الحاضره

كقول رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «من سنّ سنّه حسنه كان له أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شىء، و من سنّ سنّه سيئه كان عليه وزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شىء».

و لكن الإجابة على هذا السؤال واضحه، فإنّ الآيه المبحوثه هنا تقول: إنّه لا يحمل أحد وزر أحد من دون سبب، و لكنّ الآيات و الروايات المشار إليها سلفا تقول: إذا كان الإنسان مؤسسا لعمل صالح أو سىء يعمل وفقه الآخرون، أى كان له «التسيب» و الدلاله فى قيام الآخرين بعمل معين، و كانت له بالتالى دخاله فى وقوعه، فإنّه- و لا شك- يشترك معهم فى نتائجه و عواقبه، لأنّه يعتبر- فى الحقيقه عمله و فعله، فلا مناص من أن يتحمل تبعاته إنّ خيرا فخير، و إن شرا فشر، لأنّه هو الذى وضع بيده أساسه الذى قام عليه صرح العمل، و ارتفع بنيانه.

إنَّ التَّوَهُّمَ الآخِرَ الذّي يمكن أن يخالغ الأذهان حول هذه الآيه هو: أنَّ الآيه تقول: إن عمل كل إنسان لا ينفع إلا نفسه، وعلى هذا فإن الأعمال الصالحه التى تهدى إلى الأموات، بل و حتى الأحياء أحيانا، لا يمكن أن تنفعهم، فى حين نقرأ فى روايات كثيره مرويه عن طريق الشيعة و السنه عن النَّبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ الأئمّه من أهل البيت عليهم السّلام أن مثل هذه الأعمال قد تنفع الآخريين، و إن هذا ينطبق على الجميع، فلا- ينحصر بعمل الولد لوالديه، بل يشمل كل من يعمل عملا و يهذى ثوابه للآخريين.

هنا مضافا إلى أننا نعلم أن الثواب يرتبط بتأثير العمل الصالح المأتى به على روح الإنسان و دوره فى تكامل الإنسان و رقيه، و لكنّ الذى لم يعمل عملا- صالحا قط، بل و لم يكن له أيه دخاله فى مقدماته كذلك، فكيف يمكن أن ينشأ منه أثر روحى و معنى؟؟ و لقد واصل البعض طرح هذا الإشكال بصورة مسهبه، و لم يكن الأفراد العاديون و حدهم هم الذين طرحوه، بل تأثر به بعض المفسّرين و الكتاب، مثل كاتب «المنار» إلى درجه أنّهم تناسوا كثيرا من الأحاديث و الروايات المسلّمه، و لكن مع الالتفات إلى نقطتين يتضح الجواب على هذا الإشكال.

١- صحيح أن عمل كل إنسان سبب لتكامله بالخصوص، و أنّ نتائج الأعمال الصالحه و آثارها الواقعيه عائده إلى القائم بالعمل الصالح، تماما كما تكون «الرياضه»، و «التعليم و التّربيه» من كل أحد سببا لتقويه جسم فاعلها و روحه و نفسه، و تكاملهما.

و لكن عند ما يعمل أحد عملا صالحا لشخص آخر، فإنّه إنّما يفعله حتما لأجل أن ذلك الشخص يمتلك امتيازا على غيره و صفه حسنه، أو لأنّه كان مريّبا صالحا، أو تلميذا صالحا، أو صديقا طيبا أو جارا و فيا له، أو كان عالما خدوما

للمجتمع، أو مؤمنا مخلصا، أو يمتلك أدنى حد من الصلاح في حياته، يوجب جلب أنظار الآخرين، و يسبب في أن يعملوا أعمالا صالحه و يهدونها إليه.

و على هذا فذلك العمل- في الحقيقة- إنما يكون نتيجة لذلك الامتياز، و نتيجة للصفه الحسنه المذكوره، و للنقطه المضيئه في شخصيته و حياته، و لهذا يكون قيام الآخرين بالأعمال الصالحه له إنما هو أشعه من ضوء علمه الطيب أو نيته الصالحه، و نتيجة لتلك الخصله الحسنه التي يتصف بها.

٢- المثوبات التي يعطيها الله تعالى للأشخاص على نوعين: مثوبات تتناسب مع وضع تكاملهم الروحي و صلاحيتهم، يعنى أن أرواحهم و نفوسهم قد تسمو بسبب قيامهم بالأعمال الصالحه سموا كبيرا، و ترتقى في سلم الكمال رقا عظيمًا إلى درجه يصلحون للعيش في عوالم أعلى و أفضل، و يرتفعون بما صنعوه على أجنحه العقيده و العمل الصالح.

و لكن حيث أن أى عمل صالح هو إطاعه لأمر الله سبحانه، و يستحق المطيع لإطاعته أجرا و مثوبه، فإنه يمكنه أن يهدى ذلك الثواب و الأجر إلى غيره بإرادته و رغبته، تماما، مثل أستاذ متخصّص في شعبه مهمّيه من العلوم يدرّس في جامعه من الجامعات، فإنه لا ريب في أنه يصل بتدريسه إلى نتيجتين:

فهو من جهه يصل في ضوء تدريسه- إلى درجات علميه أكمل و أقوى، و هو في نفس الوقت يحصل على أموال لقاء خدمته، و لا ريب في أنه لا يستطيع أن يهدى النتيجة الأولى لأحد لأنها خاصه به، و لكنّه يمكنه أن يقدم (أو يهدى) النتيجة الثانيه إلى من يرغب و يحب.

إنّ إهداء (ثواب) الأعمال الصالحه من جانب العاملين بها إلى الأموات، بل و إلى الأحياء أحيانا، إنما هو من هذا النمط و من هذا القبيل.

و بهذا يرتفع و ينتفى أى إبهام يحوم حول هذه الأحاديث.

و لكن يجب أن نعلم بأنّ المثوبات التي تصل إلى الآخرين عن هذا الطريق لا

يمكن أن تضمن سعادتهم، بل تصيبهم منها آثار قليلة و الأصل و الأساس في نجاتهم إنما هو إيمانهم و عملهم أنفسهم.

ص: ٥٤٥

إشاره

وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)

التفسير

إشاره

في هذه الآيه التي هي آخر الآيات من سوره الأنعام إشاره إلى أهميه مقام الإنسان و مكانته في عالم الوجود لتكميل الأبحاث الماضيه في مجال تقويه دعائم التوحيد، و مكافحه الشرك، يعنى أن يعرف الإنسان قيمه نفسه، كأرقى و أفضل كائن في عالم الخلق، و لا- يسجد للخشب و الحجر، و لا يركع أمام الأصنام المختلفه الأخرى، و لا يقع في أسرها، بل يكون أميرا و حاكما عليها بدل أن يكون أسيرا و محكوما لها.

لهذا قال تعالى في مطلع كلامه: هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ (١).

إن الإنسان الذي هو خليفه الله في أرضه، و الذي سخرت له كل منابع هذا

ص: ٥٤٦

١ - ١) - «الخلايف» كما في المفردات للراغب - جمع خليفه «و خلفاء» جمع «خليف» و هما بمعنى من يقوم مقام أحد بعده، و التاء المضافه إلى الكلمه تفيد المبالغه، و قال جمع آخر من أهل اللغه: الخلايف جمع خليف و خليفه.

العالم و صدر الأمر بحكومته على جميع الموجودات من جانب الله تعالى، لا يجوز أن يسمح لنفسه بالسقوط إلى درجة السجود للجمادات.

ثم أشار سبحانه إلى اختلاف المواهب و الاستعدادات فى المواهب البدنيه و الروحيه لدى البشر، و الهدف من هذا الاختلاف و التفاوت، فيقول: وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغُكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ مِنَ الْمَوَاهِبِ الْمَتْنوعه و المتفاوته و يختبركم بها.

ثم تشير فى خاتمه الآيه الحاضره إلى حريه الإنسان فى إختيار طريق السعاده و طريق الشقاء نتيجة هذه الاختبارات و الابتلاءات، إذ يقول: إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ، فَإِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ مَعَ الَّذِينَ يَفْشَلُونَ فِي هَذَا الْاِخْتِبَارِ، وَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِلَّذِينَ يَنْجَحُونَ فِيهِ وَ يَسْعَوْنَ لِإِصْلَاحِ أَخْطَائِهِمْ.

التفاوت بين أفراد البشر و مبدأ العدالة:

لا- شك أن بين أفراد البشر طائفه من الاختلافات و الفوارق المصطنعه، التى هى نتيجة المظالم التى يمارسها بعض أفراد البشر ضد الآخرين، فهناك مثلا جماعه يمتلكون ثروات هائله، و جماعات أخرى تعاني من الفقر المدقع، جماعه يعانون من الجهل و الأميه بسبب عدم توفر مستلزمات الدراسه، و جماعه أخرى تبلغ المراتب العليا فى الثقافه و العلم بسبب توفر كل الوسائل اللازمه للتحصيل و الدراسه.

جماعه يعانون من المرض و العله بسبب سوء التغذيه و ندره الوسائل الصحيه، فى حين يحظى أفراد معدودون بقدر كبير من السلامه و العافيه، بسبب توفر جميع الإمكانيات.

إنّ مثل هذه الفوارق و الاختلافات: الشروه و الفقر، و العلم و الجهل، و السلامه المرض، هى فى الأ-غلب وليده الاستعمار و الاستثمار، و هى مظاهر مختلفه

للعبودية و المظالم الظاهره و الخفيه.

إنّ من المسلمّ أنه لا- يمكن أن تعتبر هذه الأمور من فعل المشيئه الإلهيه، و ليس من الصحيح مطلقا الدفاع عن مثل هذه الاختلافات غير المبرّره أساسا.

و لكن في نفس الوقت لا- يمكن إنكار أنّه حتى لو روعيت جميع أصول العداله في المجتمع الإنساني-أيضا-فإنّه لا- يتساوى الناس جميعا من حيث القابليات و من حيث الفكر، و الذوق، و في الذكاء، و السليقه و حتى من جهه التركيب البدنيّ.

و لكن هل وجود هذه الاختلافات و الفوارق مخالف لمبدأ العداله، أو أنّه على العكس يكون هو العدل بمعناه الواقعي، يعني أنّ مبدأ وضع كل شيء في محلّه يوجب أن يكون الأفراد غير متساوين.

إذا كان جميع الأفراد في المجتمع الإسلامي متساوين و متشابهين في المواهب و القابليات كالقمماش أو الأواني التي تخرج من مصنع واحد، كان المجتمع الإنساني-حينئذ-مجتمعا ميتا ساكنا جامدا عاريا عن التحرك و التكامل.

انظروا إلى نبتة الورد، فهناك جذور قويه متينه، و سوق رقيقه، و لكنّها متينه نوعا ما، و فروع ألطف، ثمّ أوراق و أوراد بعضها ألطف من بعض، و هذه المجموعه المتنوعه في تراكيبيها و المختلفه في متانتها و لطافتها تشكل نبتة وردة جميله تختلف فيها الخلايا بحسب اختلافها في وظائفها، و تختلف فيها القابليات و الاستعدادات بحسب اختلافها و وظائفها.

إن نفس هذا الموضوع يلحظ في العالم البشري، فأفراد البشر يشكلون من حيث المجموع شجره كبيره واحده يقوم كل فرد برساله خاصّه في هذا الصرح العظيم، و له بنيان مخصوص يتلاءم مع وظائفه.

و لهذا يقول القرآن الكريم: إنّ هذه الفوارق و هذا التفاوت و سيله لاختباركم

و امتحانكم، لأن الاختبار و الامتحان الإلهي - كما قلنا سابقا- يعنى «التربيه».

و بهذا يجاب على كل اعتراض و إشكال يورد فى المقام على أثر الفهم الخاطئ لمفهوم الآيه.

خلافه الإنسان فى الأرض:

إنّ النقطة الأخرى الجديده بالاهتمام، هى أن القرآن الكريم وصف الإنسان مرارا بالخلافه، و أنّه خليفة الله فى أرضه، أن هذا الوصف، و هذا التعبير ضمن بيانه لمكانه الإنسان بين هذه الحقيقه أيضا، و هى: أن الله تبارك و تعالى هو المالك الأصلي و الحقيقى للأموال و الثروات و القابليات، و جميع المواهب الإلهيه الممنوحه للإنسان، و ما الإنسان- فى الحقيقه- إلاّ خليفة الله و كيل من جانبه، و مأذون من قبله.

و من البديهي أن الوكيل- مهما كان- فهو غير مستقل فى تصرفاته، بل يجب أن تخضع تصرفاته لإذن صاحبها الأصلي، و تقع ضمن إجازته.

و من هنا يتضح أن الإسلام- مثلا- يختلف عن النظام الشيوعى، و كذا عن النظام الرأسمالى فى مسأله المالكيه، لأنّ الفريق الأوّل يخصّص المالكيه بالجماعه، و الفريق الثانى يخصصها بالفرد، بينما يقول الإسلام: المالكيه لا هى للفرد و لا هى للمجتمع، بل هى فى الحقيقه لله تعالى، و الناس و كلاء الله، و خلفاؤه.

و بهذا الدليل نفسه يراقب الإسلام طريقه تصرف الأفراد فى الأموال كسبا و صرفا، و يضع لكل ذلك قيودا و شروطا تجعل الاقتصاد الإسلامى نظاما متميّزا فى مقابل الأنظمه الأخرى.

«ختم سورة الانعام»

ص: ٥٤٩

سوره الأعراف

اشاره

مكيه و عدد آياتها مائتان و ستّ آيات

ص: ٥٥١

سوره الأعراف هذه السوره من السور المكيه إلا قوله تعالى: وَ سَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ -إلى- بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ،الذى نزل فى المدينه.
عدد آيات هذه السوره(٢٠٦)آيه أو(٢٠٥)كما عليه البعض.

لمحه سريعه عن محتويات هذه السوره:

إن أكثر السور القرآنيه(٨٠ إلى ٩٠ سوره)-كما نعلم-نزلت فى مكه،و نظرا إلى الأوضاع التى كانت سائده فى المحيط المكى،و حاله المسلمين خلال ١٣ عاما،و كذا بالإمعان فى صفحات التأريخ الإسلامى بعد الهجره،يتضح بجلاء أن هناك فرقا بين لحن السور المكيه و السور المدينه.

ففى السور المكيه يدور الحديث-غالبا-حول المبدأ و المعاد،و حول إثبات التوحيد،و يوم القيامه،و مكافحه الشرك و الوثنيه،و تقويه مكانه الإنسان و دعم موقعه فى عالم الخلق،لأنّ الفتره المكيه كانت تشكل فتره بناء المسلمين من حيث العقيدته،و تقويه أسس الإيمان كأسس و قواعد ل«نهضه متجزده».

ففى الفتره المكيه كان على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أن يطهر العقول و الأذهان من جميع الأفكار الوثنيه الخرافيه،و يغرس محلها روح التوحيد،و العبوديه لله تعالى،و الإحساس بالمسئوليه لأفراد الطبقة المسحوقه و المحقره فى اطار العهد الوثنى بشخصيتهم الحضاريه و هويتهم و كرامتهم الإنسانيه،و حقيقه موقعهم فى نظام الوجود،و عالم الخلق،ليصنع-بالتالى-من ذلك الشعب الوضع المشحون

بالخرافه، أمه ذات شخصيه قويه، و ذات إرادته صلبه، و إيمان فاعل، و قد كان هذا البناء العقائدى القوى الذى تم على يد رسول الإسلام فى هدى القرآن فى مكّه، هو السبب فى تقدم الإسلام المطرّد فى المدينه.

إن آيات السور المكيه كذلك تتناسب جميعها مع هذا الهدف الخاص.

أمّا الفتره المدينه، فقد كانت فتره تشكيل و تأسيس الحكومه الإسلاميه، فتره الجهاد فى مقابل الأعداء، فتره تأسيس و بناء مجتمع سليم على أساس القيم الإنسانيه، و العداله الاجتماعيه.

و لهذا تهتم السور المدينه فى كثير من آياتها بتفاصيل القضايا الحقوقيه، و الأخلاقيه و الاقتصاديه، و الجزائيه، و غير ذلك من الحاجات الفرديه و الاجتماعيه.

و إذا أراد المسلمون اليوم أن يستعيدوا عظمتهم الغابره، و مجدهم القديم، و جب عليهم أن يتفقدوا هذا البرنامج بالذات، و أن يطووا هاتين الفترتين بصوره كامله، فإنّه ما لم تتوطد الأسس العقائديه، و ما لم يتم بناؤها بشكل محكم لم تحظ اللبّات الفوقيه و البناء الحضارى للمجتمع بالمتان و القوه اللازمه.

و على كل حال فحيث أن سوره الأعراف من السور المكيه، لذلك تجلّت فيها جميع خصائص السوره المكيه و لهذا نرى:

كيف أنّها أشارت فى البدء إلى مسأله «المبدأ و المعاد».

ثمّ بهدف إحياء شخصيه الإنسان شرحت-باهتمام و عنايه كبيره- قصّه خلق آدم.

ثمّ عدّدت-بعد ذلك-المواثيق التى أخذها الله تعالى من أبناء آدم فى مسير الهدايه و الصلاح، واحدا واحدا.

ثمّ للتدليل على هزيمه و خسران الجماعات التى تحيد عن سبيل التوحيد و العداله و التقوى. و كذا للتدليل على نجاح المؤمنين الصادقين و انتصارهم،

ذكرت قصص كثير من الأقسام الغابرة و الأنبياء السابقين مثل «نوح» و«لوط» و«شعيب» و ختمت ذلك بيان قصه بنى إسرائيل، و جهاد «موسى» ضد فرعون، بصورة مفصلة.

و فى آخر السوره عادت مرّه أخرى إلى مسأله المبدأ و المعاد، بهذا تتناغم البدايه و الخاتمه.

أهميه هذه السوره:

جاء فى تفسير العياشى عن الإمام الصادق أنه قال: «من قرأ سوره الأعراف فى كل شهر كان يوم القيامة من الذين لا خوف عليهم و لا- هم يحزنون... فإن قرأها فى كل جمعه كان ممن لا- يحاسب يوم القيامة (و كذا قال): أما أن يكون فيها محكما فلا تدعوا قراءتها و القيام بها فإنّها تشهد يوم القيامة لمن قرأها» (١).

إن ما يستفاد من الحديث الحاضر بوضوح هو أن هذه الروايات و الأحاديث الوارده فى فضل السور لا تعنى أن مجرد قراءتها تنطوى على كل تلك النتائج، و الثمرات الكبرى، بل إنّ ما يعطى هذه القراءة قيمه النهائيه هو الإيمان بمضامين السوره، ثم العمل على طبقها.

و لهذا جاء فى الروايه الحاضر: قراءتها و تلاوتها و القيام بها. كما أننا نقرأ

فى هذه الروايه أنه عليه السلام قال: «من قرأ هذه السوره كان يوم القيامة من الذين لا خوف عليهم و لا هم يحزنون».

و فى الحقيقه فإنّ هذه إشاره لطيفه إلى الآيه (٣٥) من هذه السوره، التى يقول فيها سبحانه: **فَمَنْ اتَّقَىٰ وَ أَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ**.

فهذه المنزله- كما يلاحظ القارئ الكريم- مخصصه بالذين اتقوا، و سلكوا سبيل الصلاح، هذا مضافا إلى أنّ القرآن الكريم كتاب «عقيدته» و «عمل»

ص: ٥٥٥

و القراءه و التلاوه تعتبران مقدمه لهذا الموضوع.

قال الراغب في كتاب «المفردات» في ماده: تلاوه: قوله: يَتْلُوْنَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ (١)، إتباع القرآن بالعلم و العمل.

و هذا يعنى أنّ للتلاوه مفهومأ أعلى من مفهوم القراءه، فهى مقرونه بنوع من التدبر و التفكير و العمل.

ص: ٥٥٦

١-١) -البقره، ١٢١.

إشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْمص (١) كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَيْدِرِكَ حَرْجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣)

التفسير

فى مطلع هذه السوره نواجه مره أخرى «الحروف المقطعه» وهى هنا عباره عن: الألف و اللام و الميم، و الصاد.

و قد سبقت منا أبحاث مفصله عند تفسير هذه الحروف فى مطلع سوره «البقره» و كذا: «آل عمران».

و هنا نلفت النظر إلى تفسير آخر من التفاسير المطروحه فى هذا الصعيد استكمالاً للبحث و هو: أنه يمكن أن يكون أحد الأهداف لهذه الحروف هو جلب انتباه المستمعين، و دعوتهم إلى السكوت و الإصغاء، لأن وجود هذه الحروف فى مطلع الكلام موضوع عجيب لم يسبق له مثيل فى نظر العرب، و من شأنها أن تشير فى العربى حب الاستطلاع، و تدعوه إلى متابعه الكلام إلى نهايته.

و من الاتفاق أن غالب السور المبدوءه بالحروف المقطعه هى السور التى نزلت فى مكه، و نحن نعلم أن المسلمين فى مكه كانوا أقلية، و كان أعداؤهم و خصومهم خصوصاً ألداء اشتد عنادهم إلى درجه أنهم ما كانوا على استعداد

حتى لاستماع كلام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، بل ربّما أثاروا ضجيجا، ورفعوا الأصوات في وجه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عند قراءته للآيات القرآنية ليضع في زحمتها وخصمها نداؤه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وهو ما أشارت إليه بعض الآيات (مثل الآية ٢٦ سورة فصلت السجده).

كما أننا نقرأ في بعض الروايات والأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ هذه الحروف رموز وإشارة إلى أسماء الله، ف«المص» في السورة المبحوثة مثلا إشارة إلى جملة: أنا الله المقتدر الصادق.

و بهذا الطريق يكون كل واحد من الحروف الأربعة صورته مختصره عن أحد أسماء الله تعالى.

ثم إنّ موضوع إحلال الصياغات المختصره محلّ الصياغات المفصّله للكلمات كان أمرا رائجا من قديم الزمان، وإن حصل مثل هذا في عصرنا أيضا بشكل أوسع، حيث اختصرت الكثير من العبارات الطويلة، وكذا أسامي المؤسسات أو الهيئات في كلمة قصيرة أو أحرف معدوده.

على أن ثمة نقطه تستحق التنويه بها هنا، وهي أنّ التفاسير والتحليل المختلفه عن «الحروف المقطعه» لا تتنافى ولا تتناقض فيما بينها، ويمكن أن تكون جميع التفاسير بطونا مختلفه من بطون القرآن.

ثم يقول تعالى في الآية اللاحقه: **كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ .**

و«الخرج» في اللغه يعنى الشعور بالضيق و أى نوع من أنواع المعاناه، و الخرج فى الأصل يعنى مجتمع الشجر الملتف أولا- ثم المنتشر، و هو يطلق على كل نوع من أنواع الضيق.

إنّ العبارة الحاضره تسلى النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و تطمئن خاطره بأنّ هذه الآيات نازله من جانب الله تعالى فيجب أن لا يشعر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأى ضيق و خرج، لا من ناحيه ثقل

الرساله الملقاه على عاتقه، و لا من ناحيه ردود فعل المعارضين و الأعداء الألداء تجاه دعوته، و لا من ناحيه النتيجة المتوقعه من تبليغه و دعوته.

هذا و يمكن إدراك المشكلات التي كانت تعرقل حركه النبى صلى الله عليه و آله و سلم إدراكا كاملا- إذا عرفنا أن هذه السوره من السور المكّيه، و نحن و إن كنا نعجز عن تصوّر جميع الجزئيات و التفاصيل المرتبطه بحياه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و صحبه فى المحيط المكى، و فى مطلع الدّعوه الإسلاميه، و لكن مع الالتفات إلى حقيقه أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم كان عليه أن يقوم بنهضه ثوريه فى جميع المجالات و الأصعده فى تلك البيئه المتخلفه جدا و فى مدّه قصيره، يمكن أن نتصور على نحو الإجمال أبعاد و أنواع الصعاب التي كانت تنتظره.

و على هذا الأساس يكون من الطبيعى أن يعمد الله سبحانه إلى تسليه النبى و تطمينه بأن لا يشعر بالضيق و الحرج، و أن يطمئن إلى نتيجته جهوده.

ثمّ يضيف تعالى فى الجملة اللاحقه أن الهدف من نزول هذا الكتاب العزيز هو إنذار الناس و تحذيرهم من عواقب نواياهم و أعمالهم الشريره، و تذكير المؤمنين الصادقين، إذا يقول: لْتُنذِرَ بِهِ وَ ذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١).

هذا و مجيء قضيه «الإنذار» فى صوره الأمر العام الموجّه للجميع، و اختصاص «التذكير» بالمؤمنين خاصّه، إنّما هو لأجل أنّ الدّعوه إلى الحق، و مكافحه الانحرافات يجب أن تتمّ بصوره عامّه و شامله، و لكن من الواضح أنّ المؤمنين هم وحدهم الذين ينتفعون بهذه الدّعوه، أولئك الذين تتوفر لديهم أرضيات مستعدّه لقبول الحق، و قد أبعادوا عن أنفسهم روح العناد و اللجاج و سلّموا أمام الحقائق.

ص: ٥٥٩

١- ١) - و على هذا الأساس فإن جملة «لتنذر» تتعلق ب«أنزل» و ليس بجملة «فلا يكن» و لعل جعل هذه الجملة (أى جملة لتنذر) بعد جملة «فلا يكن فى صدر ك حرج» لأجل أنّه يجب أولا إعداد النبى فى طريق الدّعوه، ثم اقتراح الهدف و هو الإنذار عليه (تأمل جيدا).

وقد جاءت هذه العبارة بعينها في مطلع سورة البقره إذا يقول تعالى: ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (و للمزيد من التوضيح راجع تفسير الآيه ٢ من سورة الحمد).

ثم إنه سبحانه يوجه خطابه إلى عامه الناس يقول: اِتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ و بهذا الطريق يكون قد بدأ الحديث عن رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم و مهمته و رسالته، و انتهى بوظيفه الناس و واجبههم تجاه رساله.

و للتأكيد يضيف سبحانه قائلا: وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَلَا تَتَّبِعُوا غَيْرَ أَمْرِ اللَّهِ، و لا تختاروا و ليا غير الله.

و حيث إن الخاضعين للحق و المذكرين قليلون، لذا قال في ختام الآيه:

قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ

و من هذه الآيه يستفاد أن الإنسان يواجه طريقين (أو خيارين) إمّا القبول بولاية الله و قيادته، و إمّا الدخول تحت ولايه الآخرين، فإذا سلك الطريق الأول كان الله وليه، و إمّا إذا دخل تحت ولايه الآخرين فإن عليه -حينئذ- أن يخضع في كل يوم لواحد من الأرباب، و أن يختار ربًا جديدًا.

و كلمه «الأولياء» التي هي جميع «ولى» إشاره إلى هذا المعنى.

إشاره

وَ كَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَبُجَاءَهَا بِأَسْنَانٍ يُبَايِتَاتٌ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَانٍ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥)

التفسير

إشاره

الأقوام التي هلكت و بادت:

هاتان الآيتان تشيران إلى العواقب المؤلمة التي تترتب على مخالفة الأوامر التي تم بيانها في الآيات السابقة، كما أنّهما تعدّان-في الواقع- فهرستا إجماليا عن قصص الأقوام المتعددة أمثال نوح، و قوم فرعون، و قوم عاد و ثمود، و قوم لوط التي ستأتي فيما بعد.

إنّ القرآن الكريم يحذر و ينذر بشدّه في هذه الآيه كل أولئك الذين يتمردون على تعاليم الأنبياء و يقومون بزرع الفجور و الفساد بدل إصلاح أنفسهم و إصلاح الآخرين، بأن يتدبروا قليلا في حياه الأقوام السالفه و ينظروا كم من قريه عامره أبادها الله، و أهلك سكانها الفاسقين: وَ كَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا .

ثمّ يبيّن كيفيه هلاكهم بأنّ العذاب الأليم جاءهم في منتصف الليل و هم يقضون ساعات الراحة و السكون، أو في وسط النهار و هم يمضون لحظات الاستراحه و الاسترخاء بعد رحله من العمل و النشاط اليومي الدائب: فَبُجَاءَهَا

ثم يواصل الحديث في الآيه اللاحقه هكذا: فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْرُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فعند ما يتوزطون في البلاء، و تتحطم حياتهم بعواصف الجزاء يتركون كبرياءهم و نخوتهم و ينادون معترفين بظلمهم: إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ.

بحوث

إن هاهنا نقاطا عديده ينبغى الالتفات إليها:

١- «القرية» مأخذه أصلا من «قرى» (على وزن نهى) و هى تعنى الاجتماع، و حيث إن القرية مركز لاجتماع أفراد البشر أطلق عليها هذا الاسم.

من هنا يتضح أن القرية لا تعنى الرستاق فقط، بل تشمل كل موضع عامر اجتمع فيه أفراد البشر، و قد أطلقت هذه اللفظه فى كثير من آيات القرآن الكريم -على المدينه، أو أیه منطقه عامره مدينه كانت أو رستاقا.

و«قائلون» اسم فاعل من «القبيلوله» يعنى النوم فى نصف النهار، و أصله الراحة، و لهذا يقال الإقاله فى البيع لأنه الإراحه منه بالإعفاء من عقده.

و«الليال» أى عند الليل.

٢- إن ما نقرؤه فى هذه الآيات من أن عقاب الله تعالى و عذابه يصيب الظالمين ليلا، أو عند منتصف النهار، لأجل أن يذوقوا طعم العذاب و الجزاء، و ذلك عند ما تنهدم راحتهم و سكونهم به انهداما كاملا، كما سبق لهم أن هدموا راحه الآخرين و سكونهم و عكروا صفوهم، و بهذا يكون جزاؤهم مناسبا لذنبهم و من جنسه.

٣- يستفاد من الآيه الحاضره -أيضا- أن جميع الأقسام العاصيه الجانيه عند ما تواجه العقاب، و تنكشف عن عيونها أغطيه الغفله و الغرور، و تعترف -برمتها-

بذنوبها، و لكن لا يجديها مثل هذا الاعتراف، لأنه نوع من الاعتراف «الجبرى و الاضطرارى» الذى يضطر إليه حتى أشد الناس غرورا.

و بعبارة أخرى، إن هذه اليقظه نوع من اليقظه الكاذبه و العابره و غير المؤثره التى لا- تحمل أية علامه من علامات الانقلاب و التحوّل الروحى، بهذا لا يكون لها أية نتيجة... نعم، إذا كانوا يظهرون هذه الحقيقه فى حاله الإختيار و الحريره كان ذلك دليلا على انقلابهم الروحى و سببا لنجاتهم.

٤- من المباحث المطروحه عند المفسرين فى مجال الآيه الحاضره هو:

لماذا قال القرآن أولًا: أَهْلَكُنَا هَا ثُمَّ أَعْقَبَ هَذِهِ الْجُمْلَةَ بِجُمْلَةٍ أُخْرَى مَبْدُوءَةٌ بِفَاءِ التَّفْرِيعِ الَّتِي هِيَ عَادَةٌ لِلتَّرْتِيبِ الزَّمَانِيِّ فَقَالَ: فَجَاءَهَا بِأُسْنَا بَيَاتًا فِي حِينٍ أَنْ مِثْلَ هَذَا الْعِقَابِ (أَي مَجِيئِ الْبَأْسِ بَيَاتًا) كَانَ قَبْلَ الْهَلَاكِ لَا بَعْدَ الْهَلَاكِ.

و لكن يجب أن نعلم أنّ الجملة المبدوءه بالفاء قد تكون شرحا و تفصيلا للجمله السابقه لا لبيان حادثه أخرى، و فى المقام أشار أولا إلى موضوع الإهلاك على نحو الإجمال، ثم عمد إلى شرح هذا الموضوع المجمل بقوله:

فَجَاءَهَا بِأُسْنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ

و لهذا فى الأدب العربى نظائر كثيره.

٥- إنّ هذا النوع من الآيات يجب أن لا تعتبر شرحا لقصص الأمم الغابره، و بالتالى ممّا يرتبط بالزمن الغابر و الأمم الماضيه فقط.

إنّ هذه الآيات تحذيرات صاعقه لهذا العصر و ما يليه من العصور، لنا و للأمم و الأقبام القادمه، لأنه لا معنى للتبعيض فى السنه الإلهيه.

و الإنسان المسلح بالتكنولوجيا المتقدمه مع كلّ ما أوتى من قوّه هو الآخر عاجز أمام الزلازل و العواصف، و أمام السيول و الأمطار الغريزه، تماما مثل عجز الأمم ما قبل التأريخ و ضعفها.

و على هذا فليست مثل تلك العواقب السيئه و الأليمه التى أصابت ظلمه

الأمم الغابرة، و جباريها، و حلت بالمغرورين و الفسقه و المتمردين ليلا و حطمتهم، ببعيده عن الإنسان الحاضر. بل إنَّ قوه الإنسان المعاصر و قدراته الكبرى يمكن أن تكون مصدر بلاء عظيم له، و تجرّه إلى أحضان حروب مدمّره لا تنتج سوى فناء جيله، ألا يجب أن نعتبر بهذه الحوادث و نستيقظ من نوم الغفله!؟

ص: ٥٦٤

إشارة

فَلَنَسِئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسِئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقْصُنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩)

التفسير

إشارة

التحقيق الشامل:

لقد تضمنت الآيات السابقة إشاره إلى معرفه الله و نزول القرآن الكريم، و أما الآيات أعلاه فانها تتحدث عن المعاد فهي مكمله للآيات السالفه، مضافا إلى أن الآيه المتقدمه تحدثت عن الجزاء الدنيوى للظالمين، و هذا الآيات تبحث فى الجزاء و العقاب الأخرى لهم، و بهذا يتضح الارتباط بينها.

يقول تعالى أولا- و هو يقرر سنه عامه: فَلَنَسِئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ أَى أَنَا سنسأل فى يوم القيامه كل من أرسلنا لهدايته رسولا، حتما و دون ريب.

بل و نسأل كذلك الأنبياء أيضا: ماذا فعلوا فى مجال تبليغ رسالتهم:

و على هذا الأساس فالجميع مسئولون، قاده و أتباعا، رسلا و مرسلا إليهم، غاية ما فى الأمر أنه يختلف السؤال و المسئوليات من طائفه إلى أخرى.

و ثمه

حديث مروى عن الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام فى هذا الصعيد يؤيد هذا المعنى أيضا، إذا يقول: «فيقام الرسل فيسألون عن تأديه الرسائل التي حملوها إلى أممهم، فأخبروا أنّهم قد أدوا ذلك إلى أممهم» (١).

هذا و قد صرّح فى حديث آخر فى تفسير على بن إبراهيم بهذا المعنى أيضا (٢).

فى الآيه اللاحقه-و لكى لا- يتصور أحد بأنّ سؤال الله للأنبياء يعنى أن الأمر قد خفى على الله و غاب عن علمه قال تعالى بصراحه مزيجه بالقسم، بأننا سوف نشرح لهم كل أعمالهم بعلمنا، لأنّه ما غاب عنّا شيء من أفعالهم، و ما غابوا هم عنّا، فقد كنا معهم فى كل حين و مكان: فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَ مَا كُنَّا غَائِبِينَ .

«لنقصن» مأخوذه من «القصة» و هى فى الأصل تعنى ما يتلو بعضه بعضا، و حيث أن القضايا عند شرحها يتلو بعضها بعضا أطلق عليها لفظ القصة، و هكذا أطلق على العقوبه التي تتلو الجنايه لفظ «القصاص»، و منه «المقصص» لأنّه يقطع الشعر بالتوالى، و يقال عمن يبحث عن شيء أنّه «قصص» لأنّه يبحث الحوادث واحدا بعد واحد.

و حيث إنّ فى هذه الجملة أربعة أنواع من التأكيد (لام القسم، و نون التأكيد، و كلمه علم، التي جاءت بصوره النكره، و المراد من ذلك بيان عظمته، و جمله ما كان غائبين) لذلك يستفاد منها أنّ المقصود هو: إنّنا نشرح لهم تفاصيل أعمالهم جميعها القذّه بالقذّه و تباعا، ليعلموا أنّه لا يخفى عنّا شيء من نيه أو عمل قط (٣).

ص: ٥٦٦

١-١) -تفسير نور الثقلين، المجلد الثانى، الصفحه ٤.

٢-٢) -المصدر السابق.

٣-٣) -تفسير «مجمع البيان»، و تفسير «التبيان» عن معنى القصة فى ذيل الآيه الحاضره ورد البحث أعلاه فى.

إنّ أول ما يطرح نفسه هنا هو: نحن نعلم أنّ الله سبحانه يعلم بكل شيء، فهو الحاضر في كل زمان و مكان، الناظر لكل شيء من نيه أو عمل، فما الحاجه إلى مساءله الرسل و الأمم عامّه و بدون استثناء؟! الجواب على هذا السؤال واضح، لأنّ السؤال لو كان للاستعلام و الاستفهام، و بهدف الوقوف على الحقيقه لم يصح أن يقع من العالم العارف.

و أمّا إذا كان المقصود منه هو إلفات الشخص إلى ما عمله، أو إتمام الحجّه عليه، أو ما أشبه ذلك، لم يكن في ذلك بأس و لا ضير، إذ يشبه ذلك تماما ما لو أسدينا إلى أحد خدمات كثيره و قابلنا بالإساءه و الخيانه، و كان كل ذلك معلوما معروفا عندنا، و مع ذلك فإننا نساءله و نقول: ألسنا قد أسدينا إليك كذا و كذا من الخدمه؟ فهل كان هذا جزاء الإحسان إليك؟؟ إنّ مثل هذه المساءله ليست لاكتساب العلم، و اكتشاف الحقيقه المجهوله، بل هي لتفهيم الطرف الآخر و إيقافه على الحقيقه، أو أنّه لتثمين خدمه قام بها أحد المسؤولين و تشجيعه، فنسأله: ماذا فعلت في هذه السفره التي كلفت فيها بمهمّه؟ مع أنّنا نعرف من قبل بتفاصيل عمله.

التّوفيق بين آيات المساءله في القرآن:

قد يظنّ أن الآيات المطروحه هنا على بساط البحث، و التي تصرح بكل تأكيد بأن الله يسأل الجميع عمّا فعلوه و ارتكبوه، تنافى بعض الآيات القرآنيه الأخرى في هذا الصعيد مثلما ما جاء في سورة الرحمان: **فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ... يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ... (١)**.

و كذا الآيات الأخرى التي تنفى السؤال؟

ص: ٥٦٧

فكيف يمكن التوفيق و الجمع بين تلك الآيات و الآيات الحاضره التي تثبت قضيه المساءله يوم القيامه؟! إن الإيمان فى هذه الآيات كفيل بأن يكشف كل إبهام عنها، فإنه يستفاد من مجموع الآيات الوارده فى مجال المساءله فى يوم القيامه أن الناس يمرون فى ذلك اليوم بمراحل مختلفه متنوعه، ففى بعض المراحل لا يسألون عن أى شىء مطلقاً، بل يختم على أفواههم، و تتكلم أعضاؤهم و جوارحهم التي تحتفظ بآثار أعمالهم فى نفسها، كشاهد حتى لا يردّ يروى أعمالهم بدقه متناهيه.

و فى المرحله الأخرى يرفع الختم عن أفواههم فيتحدثون و يسألون فيعترفون عند ذلك -بعد مشاهدته الحقائق التي انكشفت فى ضوء شهادته الجوارح- بأعمالهم، تماماً كالمجرم الذى لا يرى بداً من الاعتراف بجرمه عند مشاهدته الأدله العينية.

و قد احتمل بعض المفسرين أيضاً فى تفسير هذه الآيات، أن الآيات النافيه للسؤال إشاره إلى نفى المساءله الشفاهيه، و الآيات المثبتة إشاره إلى السؤال من الجوارح و هى تجيب بلسان الحال -مثل حمرة وجه الإنسان خجلاً من انكشاف جرمه- بالحقائق.

و فى هذه الصوره يرتفع التنافى بين هاتين الطائفتين من الآيات.

فى الآيه اللاحقه -تكميلاً لمبحث المعاد- يشير تعالى إلى قضيه «وزن الأعمال» الذى جاء ذكره فى السور القرآنيه الأخرى مثل ما جاء فى سوره «المؤمنون» فى الآيه (١٠٢ و ١٠٣) و سوره القارعه الآيه (٦ و ٨).

فيقول أولاً: إِنَّ وَزْنَ الْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْرٌ وَقَعَ لَا رَيْبَ فِيهِ: وَ الْوَزْنُ يُؤْمِنُ الْحَقُّ (١).

ص: ٥٦٨

١-١) -بناء على هذا يكون الوزن هنا بمعناه المصدرى و هو مبتدأ و «الحق» خبره، و إن أعطيت احتمالات فى تركيب الجمله الحاضره و لكن ما قلناه أقرب من الجميع.

لقد وقع كلام كثير بين المفسرين و المتكلمين حول كيفية وزن الأعمال يوم القيامة، و حيث أنّ البعض تصور أنّ وزن الأعمال و ميزانها فى يوم القيامة يشبه الوزن و الميزان المتعارف فى هذه الحياه، و من جانب آخر لم يكن للأعمال البشرية وزن، و خفه و ثقل يمكن أن يعرف بالميزان، لهذا لا بدّ من حلّ هذه المشكله عن طريق فكره تجسم الأعمال، أو عن طريق أن الأشخاص أنفسهم يوزنون بدل أعمالهم فى ذلك اليوم.

حتى أنّه روى عن «عبيد بن عمير» أنه قال: «يؤتى بالرجل الطويل العظيم فلا يزن جناح بعوضه» إشاره إلى أن أولئك الأشخاص كانوا فى الظاهر أصحاب شخصيات كبيره، و أمّا فى الباطن فلم يكونوا بشيء (1).

و لكن لو تركنا مسأله المقارنه و المقايسه بين الحياه فى ذلك العالم و الحياه فى هذا العالم، و علمنا بأن كل شيء فى تلك الحياه يختلف عمّا عليه فى حياتنا هذه، تماما مثلما تختلف أوضاع الفتره الجنيهيه عن أوضاع الحياه الدنيا، و علمنا -أيضا- أنه ليس من الصحيح أن نبحث فى فهم معانى الألفاظ -عن المصاديق الحاضره و المعينه دائما، بل لا بدّ أن ندرس المفاهيم من حيث النتائج، اتضحت و انحلت مشكله «وزن الأعمال فى يوم القيامة».

و توضيح الأمر هو: أننا لو كنا نتلفظ فيما مضى من الزمن بلفظ المصباح كان يتبادر إلى ذهننا صورته و وعاء خاص فيه شيء من الزيت، و نصب فيه فتيل من القطن. و ربّما أيضا تصوّرنا زجاجه وضعت على النار لتحفظها من الانطفاء بسبب الرياح، على حين يتبادر من لفظ المصباح إلى ذهننا اليوم جهاز خاص لا مكان فيه للزيت، و لا للفتيل أمّا ما يجمع بين مصباح الأمس و مصباح اليوم، هو

ص: ٥٦٩

١-١) -رويت هذه الروايه من عبيد بن عمير فى تفسير «مجمع البيان» و تفسير «الطبرى» و ظاهر العبارة يوحى بأن الكلام هو لعبيد و ليس لرسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم.

الهدف من المصباح و النتيجة المتوخاه أو المتحصله منه، يعنى الأداة التى نزيل الظلمه.

و الأمر فى قضيه «الميزان» على هذا الغرار، بل و فى هذه الحياه ذاتها نرى كيف أن الموازين تطوّرت مع مرور الزمن تطورا كبيرا، حتى أنه بات يطلق لفظ الميزان على وسائل التوزين الأخرى، مثل مقياس الحراره، و مقياس سرعه الهواء و أمثال ذلك.

اذن، فالمسلّم هو أن أعمال الإنسان توزن فى يوم القيامه بأداه خاصّه لا بواسطه موازين مثل موازين الدنيا، و يمكن أن تكون تلك الأداة نفس وجود الأنبياء و الأئمّه و الصالحين، و هذا ما يستفاد-أيضا- من الأحاديث المرويه عن أهل البيت عليهم السّلام.

ففى بحار الأنوار ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير قوله تعالى: وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ أَنه قال: «و الموازين الأنبياء، و الأوصياء، و من الخلق من يدخل الجنّه بغير حساب» (١).

و

جاء فى روايه أخرى: إنّ أمير المؤمنين و الأئمّه من ذريته عليهم السّلام هم الموازين (٢).

و نقرأ فى إحدى زيارات الإمام أمير المؤمنين المطلقه:

السلام على ميزان الأعمال.

و فى الحقيقه أن الرجال و النساء النموذجيين فى العالم هم مقاييس لتقييم أعمال العباد، فكل من شابههم كان له وزن بمقدار مشابهته لهم، و من بعد عنهم كان خفيف الوزن، أو فاقد الوزن من الأساس.

بل إنّ أولياء الله فى هذا العالم هم أيضا مقاييس للوزن و التقييم، و لكن حيث

ص: ٥٧٠

١-١) -بحار الأنوار، الطبعه الجديده، ج٧، ص ٢٥٢ و ٢٥١.

٢-٢) -المصدر السابق.

أَنَّ أَكْثَرَ الْحَقَائِقِ فِي هَذَا الْعَالَمِ تَبْقَى خَلْفَ حِجَابِ الْإِبْهَامِ وَالْغُمُوضِ. تَبْرُزُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِمَقْتَضَى قَوْلِهِ تَعَالَى: وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١) وَتُنْكَشَفُ هَذِهِ الْحَقَائِقُ وَتَنْجَلِي لِلْعِيَانِ.

وَمِنْ هُنَا يَتَّضِحُ لِمَاذَا جَاءَ لَفْظُ الْمِيزَانِ فِي الْآيَةِ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ: «الْمَوَازِينُ» لِأَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ الَّذِينَ يُوزَنُ بِهِمُ الْأَعْمَالُ مُتَعَدِّدُونَ.

ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ اِحْتِمَالًا آخَرَ أَيْضًا، وَهُوَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَانَ مُمْتَرِزًا فِي صِفَةٍ مَعِينَةٍ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِيزَانًا لِلتَّقْيِيمِ فِي إِحْدَى الصِّفَاتِ وَالْأَعْمَالِ الْبَشَرِيَّةِ، وَحَيْثُ أَنَّ أَعْمَالَ الْبَشَرِ وَصِفَاتِهِمْ مُخْتَلِفَةٌ، لِهَذَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْمَعَايِيرُ وَالْمَقَايِسُ مُتَعَدِّدَةً.

وَمِنْ هُنَا أَيْضًا يَتَّضِحُ أَنَّ مَا جَاءَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ وَالْأَخْبَارِ، مِثْلُ مَا وَرَدَ

عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيْثُ سَأَلُوهُ: مَا مَعْنَى الْمِيزَانِ؟ قَالَ: «الْعَدْلُ» لَا يَنَافِي مَا ذَكَرْنَاهُ، لِأَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ، وَالرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ النَّمُودَجِيينَ فِي هَذَا الْعَالَمِ هُمُ مَظَاهِرُ الْعَدْلِ مِنْ حَيْثُ الْفِكْرِ، وَالْعَدْلُ مِنْ حَيْثُ الْعَقِيدَةِ، وَالْعَدْلُ مِنْ حَيْثُ الصِّفَاتِ وَالْأَعْمَالِ (تَأَمَّلُوا) (٢).

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ فِي الْمَقْطَعِ الْآخَرَ مِنَ الْآيَةِ: فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ.

إِنَّ مِنَ الْبَدِيهِ أَنْ الْمَرَادُ مِنَ الْخَفَّةِ وَالثِقَلِ فِي الْمَوَازِينِ لَيْسَ هُوَ خَفَةٌ وَثِقَلٌ نَفْسِ الْمِيزَانِ، بَلْ قِيمَةٌ وَوِزْنُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُوزَنُ بِوَسْطِهِ تَلْكَ الْمَوَازِينِ، وَتُقَاسُ بِتِلْكَ الْمَقَايِسِ.

ثُمَّ إِنَّ فِي التَّعْبِيرِ بِجُمْلَةِ «خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» إِشَارَةً لَطِيفَةً إِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ.

ص: ٥٧١

١- ١) - إبراهيم، ٤٨.

٢- ٢) - تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٥.

و هي أن هؤلاء قد أصيبوا بأكبر الخسارات، لأنّ الإنسان قد يخسر ماله، أو منصبه، و لكنّه قد يخسر أصل وجوده من دون أن يحصل على شيء في مقابل ذلك، و تلك هي الخساره الكبرى، و الضرر الأعظم.

إنّ في التعبير ب«كانوا بآياتنا يظلمون» في آخر الآيه إشاره إلى أن مثل هؤلاء لم يظلموا أنفسهم فحسب، بل ظلموا-كذا-البرامج الإلهيه الهاديه، لأنّ هذه البرامج كان ينبغي أن تكون سبلا للهدايه و وسائل للنجاه، و لو أنّ أحدا تجاهلها، و لم يكثرث بها، فلم يحصل منها هذا الأثر، كان ظالما لها.

و قد جاء في بعض الروايات و الأخبار أنّ المراد من الآيات هنا هم أئمه الهدى عليهم السلام، على أن هذا النمط من التفسير-كما أسلفنا مرارا-لا يعنى حصر مفهوم الآيه فيهم، بل هم المصاديق الأتمّ و الأظهر للآيات الالهيه.

هذا، و فسّر بعض المفسرين الظلم في الآيه بالكفر و الإنكار، و هذا المعنى ليس بعيدا عن مفهوم الظلم، إذ قد ورد الظلم في بعض الآيات القرآنيه الأخرى بهذا المعنى.

اشاره

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (١٠)

التفسير

اشاره

مكانه الإنسان و عظمه في عالم الوجود:

عقيب الآيات التي أشارت إلى المبدأ و المعاد، يدور البحث في هذه الآيه و الآيات اللاحقه حول عظمه الإنسان و أهميه مقامه، و كيفيه خلق هذا الكائن و المفخر التي وهبها الله له، و الموثيق التي أخذها الله منه لقاء هذه المواهب و النعم، كل ذلك لتقويه قواعد و أسس تربيته و تكامله.

و في البدايه اختصر جميع هذه الأمور في هذه الآيه، ثم شرحها و فصلها في الآيات اللاحقه.

فهو يقول البدايه: نحن الذين منحناكم الملكيه و الحاكميه و سلطناكم على الأرض: **وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ .**

و أعطيناكم وسائل العيش بجميع أنواعها: **وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ .**

و لكن مع ذلك لم تشكروا هذه النعم إلا قليلا قليلا **مَّا تَشْكُرُونَ .**

و«التمكين» هنا ليس بمعنى أن يوضع شخص في مكان ما، بل معناه أن

يعطى و يوفر له كل ما يستطيع بواسطته على تنفيذ مآربه، و تهيئه أدوات العمل له، و رفع الموانع و إزالتها عن طريقه، و يطلق على مجموع هذا لفظ «التمكين»، فإننا نقرأ فى القرآن الكريم حول يوسف: **وَ كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ (١)** أى أننا جعلنا جميع الإمكانيات تحت تصرفه.

إن هذه الآيه-مثل بعض الآيات القرآنيه الأخرى-تدعو الناس-بعد ذكر و تعداد النعم الإلهيه و المواهب الربانيه-إلى شكرها، و تدم كفران النعم.

إن من البديهي أن بعث روح الشكر و التقدير لدى الناس فى مقابل النعم الإلهيه، إنما هو لأجل أن يخضعوا لواهب النعم تمشياً و استجابته لنداء الفطره، و لكى يعرفوه و يطيعوه عن قناعه فيهدوا و يتكاملوا بهذه الطريقه، لا- أن الشاكر يؤثر بشكره فى مقام الربوبيه العظيم، بل الأثر الحاصل من الشكر-مثل سائر آثار العبادات و الأوامر الإلهيه-جميعاً-يعود إلى الإنسان لا غير.

ص: ٥٧٤

اشاره

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ أَخْرُجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)

التفسير

اشاره

قصه عريان إبليس

لقد أشير إلى مسأله خلق الإنسان و كيفية إيجاده فى سبع سور من سور

القرآن الكريم، والهدف من ذكر هذا الموضوع- كما سبق أن أشرنا في الآيه السابقه- هو بيان شخصيه الإنسان، ومقامه، ومنزلته بين كائنات العالم، وبعث روح الشكر و الحمد فيه.

لقد جاء ذكر خلق الإنسان من التراب، و سجود الملائكه له، و تمرّد الشيطان و عصيانه، ثم موقفه تجاه النوع الإنسانى فى هذه السور بتعابير مختلفه.

و فى الآيه المبحوثة الآن يقول الله تعالى: **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ .**

و يمكن أن يكون ذكر «الخلق» فى الآيه الحاضره قبل «التصوير» إشاره إلى:

أننا أوجدنا الماده الأصلية للإنسان أولاً، ثم أفضنا عليها الصورة الإنسانيه.

بحثان

إشاره

١- سجود الملائكه لم يكن سجود عباده

كما قلنا فى ذيل الآيه (٣٤) من سوره البقره: إن سجود الملائكه لآدم لم يكن سجود عباده، لأن العباده مخصوصه الله سبحانه، بل السجده هنا بمعنى التواضع (أى الخضوع أمام عظمه آدم و سمو منزلته فى عالم الخلقه) أو بمعنى السجود لله الذى خلق مثل هذا المخلوق المتعادل المتوازن.

٢- إبليس لم يكن من الملائكه

إن «إبليس»- كما قلنا فى ذيل تلك الآيه- لم يكن من الملائكه، بل هو حسب صريح الآيات القرآنيه من قسم آخر من الكائنات يدعى «الجن» (و للمزيد من التوضيح راجع المجلد الأول من هذا التفسير فى الحديث عن

سجود الملائكة لآدم).

في الآيه اللاحقه يقول تعالى: أنه أخذ إبليس على عصيانه و طغيانه، وقال مَّا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْبُحًا إِذْ أَمَرْتُكَ. فتذرع-في مقام الجواب-بعذر غير وجيه إذ:

قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ

و كأن إبليس كان يتصوّر أنّ النار أفضل من التراب، و هذه هي أكبر غلطاته و أخطائه، و لعلّه لم يقل ذلك عن خطأ و التباس، بل كذب عن وعي و فهم، لأننا نعلم أنّ التراب مصدر أنواع البركات، و منبع جميع المواد الحياتيه، و أهم وسيله لمواصله الموجودات الحيه حياتها، على حين أن الأمر بالنسبه إلى النار ليس على هذا الشكل.

صحيح أنّ النار أحد عوامل التجزئه و التركيب في الكائنات الموجوده في هذا الكون، و لكن الدور الأصلي و الأساسى هو للمواد الموجوده في التراب، و تعدّ النار وسيله لتكميلها فقط.

و صحيح-أيضا-أنّ الكره الأرضيه انفصلت في بدايه أمرها-عن الشمس، و كانت على هيئه كره ناريه فبردت تدريجا، و لكن يجب أن نعلم أن الأرض ما دامت مشتعله، و حاره لم يكن عليها أى كائن حي، و إنّما ظهرت الحياه على سطح هذا الكره عند ما حلّ التراب و الطين محلّ النار.

هذا مضافا إلى أنّ أيه نار ظهرت على سطح الأرض كان مصدرها مواد مستفاده من التراب، ثمّ إنّ التراب مصدر نموّ الأشجار، و الأشجار مصدر ظهور النار، و حتى المواد النفطيه أو الدهون القابله للاشتعال و الاحتراق تعود-أيضا-إلى التراب أو إلى الحيوانات التي تتغذى من المواد النباتيه.

على أنّ ميزه الإنسان-بغض النظر عن كل هذه الأمور-لم تكن في كونه من التراب، بل إنّ ميزته الأصليه تكمن في «الروح الإنسانيه» و في خلافته لله تعالى.

و على فرض أنّ ماده الشيطان الأصليه كانت أفضل من ماده الإنسان، فإن

ذلك لا يعنى تسويغ عدم السجود للإنسان الذى خلق بتلك الروح، و وهبه الله تلك العظمه، و جعله خليفه له على الأرض.
و الظاهر أنّ الشيطان كان يعرف بكل هذه الأمور، و لكن التكبر، و الأنايه هما اللذان منعا عن امتثال أمر الله، و كان ما أتى به من العذر حجه داحضه، و محض تحجج و تعلل.

أول قياس هو قياس الشيطان:

القياس فى الأحكام و الحقائق الدينيه مرفوض بشكل قاطع فى أحاديث عديده وردت عن أهل البيت عليهم السّلام، و نقرأ فى هذه الأحاديث أنّ أول من قاس هو الشيطان.

قال الإمام الصادق عليه السّلام لأبى حنيفه: «لا تقس، فإن أول من قاس إبليس» (١).

و قد روى هذا المطلب فى تفاسير أهل السنه قديما و حديثا مثل تفسير «الطبرى» عن «ابن عباس» و تفسير المنار و «ابن سيرين» و «الحسن البصرى» (٢).

و المراد من القياس هو أن نقيس موضوع على آخر يتشابهان من بعض الجهات، و نحكم للثانى بنفس الحكم الموجود للموضوع الأوّل من دون أن نعرف فلسفه الحكم و أسراره كاملا، كأن نقيس «بول» الإنسان المحكوم بالنجاسه، و وجوب الاجتناب عنه بعرق الإنسان، و نقول: بما أنّ هذين الشيئين يتشابهان من بعض الجهات و فى بعض الأجزاء، لهذا يسرى حكم الأوّل إلى الثانى فيكون كلاهما نجسين، فى حين أنّهما حتى لو تشابها من جهات فهما متفاوتان مختلفان من جهات أخرى أيضا، فأحدهما أرق و الآخر أغلظ،

ص: ٥٧٨

١- ١) - نور الثقلين، المجلد الثانى، الصفحه ٦.

٢- ٢) - تفسير المنار، المجلد ٨ الصفحه ٣٢١، و تفسير الطبرى، الجزء ٨ و ٩، و تفسير القرطبي، ج ٤ الصفحه ٢٠٦٧.

و الاجتناب من أحدهما سهل، و من الآخر صعب و شاق جدًا، هذا مضافا إلى أنه ليست فلسفه الحكم الأوّل معلومه لنا بالكامل، فمثل هذا القياس ليس سوى قياس تخمينى لا أكثر.

و لهذا السبب منع أنمّتنا عليهم السّلام من القياس بشدّه، استلهاما من كلام النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و أبطلوه، لأنّ فتح باب القياس يتسبب فى أن يعمد كل أحد بالاعتماد على دراسته المحدوده و فكره القاصر و بمجرد أن يعتبر موضوعين متساويين من بعض الجهات... أن يعمد إلى إجراء حكم الأوّل على الثانى، و بهذا تتعرض قوانين الشرع و أحكام الدين إلى الهرج و المرج.

إنّ بطلان القياس عقلا ليس مقصورا على القوانين الدينيه فحسب، فالأطباء هم أيضا يؤكّدون فى توصياتهم على أن لا تعطى و صفه أى مريض لمريض آخر مهما تشابها من بعض النواحي، و فلسفه هذا النهى واضح، لأنّه قد يتشابه المريضان فى نظرنا من بعض النواحي، و لكن مع ذلك يتفاوتان من جهات عديده، مثلا من جهه القدره على تحمّل الدواء، و فئه الدم، و مقدار السكر فى الدم، و لا يستطيع الأشخاص العادّيون من الناس أن يشخّصوا هذه الأمور، بل تشخيصها يختص بالأطباء و ذوى الاختصاص فى الطب، فلو أعطيت أدويه مريض لآخر دون ملاحظه هذه الخصوصيات، فمضافا إلى احتمال عدم الانتفاع بها، فإنّها ربّما تكون منشأ لسلسله من الأخطار غير القابله للجبران.

و الأحكام الإلهيه أدقّ من هذه الجهه، و لهذا جاء فى الأحاديث و الأخبار أنه لو عمل بالقياس لمحق الدين، أو كان فساده أكثر من صلاحه (1).

أضف إلى ذلك أنّ اللجوء إلى القياس لاكتشاف الأحكام و معرفتها دليل على قصور الدين، لأنّه إذا كان لكل موضوع حكم فى الدين لم يكن أیه حاجه إلى القياس، و لهذا فإنّ الشيعه حيث أنّهم أخذوا جميع احتياجاتهم من الأحكام

ص: ٥٧٩

الدينه من مدرسه أهل البيت ورثه النبي الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لم يروا حاجه إلى اللجوء إلى القياس، و لكن فقهاء السنه حيث أنهم تجاهلوا مدرسه أهل البيت الذين هم حسب نص النبي الملجأ الثاني للمسلمين بعد القرآن الكريم لذلك واجهوا نقصا في مصادر الأحكام الإسلاميه و أدلتها، و لم يروا مناصا من اللجوء إلى القياس.

و أمّا في مورد الشيطان، فنحن نقرأ في النصوص و الروايات أنه كان أول من قاس، و النكته فيها أنه قاس خلقتة-من الناحيه الماديه-بخلقه آدم، و تمسك بأفضليه النار على التراب في بعض الجهات، و اعتبر ذلك دليلا- على أفضليه النار من جميع النواحي، من دون أن يلتفت إلى امتيازات التراب، بل و من دون أن يلتفت إلى امتيازات آدم الروحانيه و المعنويه، فحكم على طريق ما يسمّى بقياس الأولويه، و لكن قياسا على أساس التخمين و الظن و الدراسه السطحيه و المحدوده، بأفضليته على آدم، بل و دفعه هذا القياس الباطل إلى تجاهل الأمر الإلهي.

و الملفت للنظر أنه

ورد في بعض الروايات المرويّه عن الإمام الصادق عليه السّلام في مؤلفات الشيعة و السنه معا أنه قال: «من قاس أمر الدين برأيه قرنه الله تعالى يوم القيامة بإبليس» (١).

و باختصار، إنّ قياس موضوع بموضوع آخر من دون علم بجميع أسرارّه و فلسفته، لا يصح أن يكون دليلا على اتحاد حكمهما، و لو أنّ القياس تطرق إلى مسائل الدين و قضايا الشريعه لم تبق للأحكام ضابطه ثابتة، إذ يمكن حينئذ أن يقيس شخص ما موضوعا بنحو، و يصدر حكما بحرمته، و يقيس شخص آخر الموضوع نفسه بنحو آخر و يصدر حكما بحليته.

و المورد الوحيد الذي يمكن استثناءه من هذا الأمر هو ما إذا ذكر المقتن أو الطبيب نفسه دليل حكمه و فلسفه قانونه، ففي هذه الحاله يجوز لنا إذا رأينا هذا

ص: ٥٨٠

الدليل و هذه الفلسفه فى موضوع آخر أن نجرى الحكم فيه و نعدّيه إليه أيضا، و هذا هو ما اصطلاح عليه بالقياس «المنصوص العله» مثلا: إذا قال الطبيب للمريض: يجب أن تتجنب تناول الفاكهه الفلانيه لأنها حامضه، علم المريض بأن الحموضه تضرّه، و أنّه يجب أن يتجنب الحموضه و إن كان فى فاكهه أخرى.

و هكذا إذا صرّح القرآن الكريم أو صرّحت السنّه الشريفه بأن: تجنّبوا الخمر لأنه مسكر، علمنا أنّ كل مسكر حرام (و إن لم يكن خمرا) و يجب اجتنابه.

إنّ هذا القياس ليس باطلا و لا ممنوعا، لأنه معلوم الدليل و منصوص العله مقطوع بها و القياس الممنوع هو فيما إذا لم نعلم بدليل الحكم و فلسفته بصوره القطع و من جميع الجهات.

على أن مبحث القياس مبحث واسع الأطراف، و ما مضى من البحث ما إلّا هو عصاره منه، و لمزيد التوضيح و الاطلاع راجعوا كتب أصول الفقه و كتب الأخبار، باب القياس، و نحن نختم البحث الحاضر بذكر حديث فى هذا المجال.

جاء فى كتاب «علل الشرائع» دخل أبو حنيفه على الإمام الصادق عليه السّلام فقال له: «يا أبا حنيفه، بلغنى أنّك تقيس؟ قال: نعم، أنا أقيس. قال: لا تقس فإنّ أول من قاس إبليس حين قال: خلقتنى من نار و خلقتة من طين فقاس ما بين النار و الطين، و لو قاس نوريه آدم بنوريه النار عرف فضل من بين الثورين و صفاء أحدهما على الآخر» (١).

جواب على سؤال:

بقى هنا سؤال و هو: كيف كان يتحدث الشيطان مع الله، فهل كان ينزل عليه الوحي؟ الجواب هو: أنّ كلام الله لا يكون بالوحي دائما، فالوحي عباره عن رساله

ص: ٥٨١

النَّبْؤَه، فلا- مانع من أن يكلم الله أحدا لا بعنوان الوحي و الرسالة، بل عن طريق الباطنى أو بواسطة بعض الملائكة، سواء كان من يحادثه الله من الصالحين الأبرار مثل مريم و أم موسى، أو من غير الصالحين مثل الشيطان! و لنعد الآن إلى تفسير بقيه الآيات:

حيث أن امتناع الشيطان من السجود لآدم عليه السلام لم يكن امتناعا بسيطا و عاديا و لم يكن معصيه عاديه، بل كان تمردا مقرونا بالاعتراض و الإنكار للمقام الربوبى، لأنه قال: أنا أفضل منه، و هذه الجملة تعنى فى حقيقه الأمر أن أمرك بالسجود لآدم أمر مخالف للحكمه و العداله و موجب لتقديم «المرجوح» على «الراجح» لهذا فإن مخالفته كانت تعنى الكفر و إنكار العلم و الحكمه الإلهيين، فوجب أن يخسر جميع مراتبه و درجاته، و بالتالى كل ما له من مكانه عند الله، و لهذا أخرج الله من ذلك المقام الكريم، و جرده من تلك المنزله السامقه التى كان يتمتع بها فى صفوف الملائكة، فقال له: فَأَهْبِطْ مِنْهَا .

و قد ذهب جمع من المفسرين فى ضمير «منها» إلى إرجاعه إلى «السماء» أو «الجنه» و ذهب آخرون إلى إرجاعها إلى «المنزله الدرجه»، و هما لا يختلفان كثيرا من حيث النتيجة.

ثم إنه تعالى شرح له منشأ هذا السقوط و التنزل بالعباره التاليه: **فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا .**

و أضاف للتأكيد قائلا: **فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ** يعنى إنك بعملك و موقفك هذا لم تصبح كبيرا، بل على العكس من ذلك أصبته بالصغار و الذله.

إن هذه الجملة توضح بجلاء أن شقاء الشيطان كله كان وليد تكبره، و إن أنانيته هذه التى جعلته يرى نفسه أفضل مما هو، هى التى تسببت فى أن لا يكتفى بعدم السجود لآدم، بل و ينكر علم الله و حكمته، و يعترض على أمر الله، و ينتقده، فخسر على أثر ذلك منزلته و مكانته، و لم يحصد من موقفه إلا الذله

و الصغار بدل العظمه و هذه يعنى أنه لم يصل إلى هدفه فحسب، بل بات على العكس من ذلك.

و نحن نقرأ فى نهج البلاغه «الخطبه القاصعه» فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام عند ذمّه للتكبر و العجب ما يلى:

«فاعتبروا بما فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل، و جهده الجهد، و كان قد عبد الله ستة آلاف سنه... عن كبر ساعه واحده، فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته؟ كلا، ما كان الله سبحانه ليدخل الجنه بشرا بأمر أخرج به منها ملكا، إن حكمه فى أهل السماء و أهل الأرض الواحد» (١).

و

قد جاء أيضا عن الإمام على بن الحسين عليه السلام أنه قال: «إن للمعاصى شعبا فأول ما عصى الله به الكبر، و هى معصيه إبليس حين أبى و استكبر و كان من الكافرين، و الحرص و هى معصيه آدم و حواء... ثم الحسد و هى معصيه ابن آدم حيث حسد أخاه فقتله» (٢).

و كذا

نقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «أصول الكفر ثلاثة: الحرص و الاستكبار و الحسد، فأما الحرص فإن آدم حين نهى عن الشجره حمله الحرص على أن أكل منها، و أما الاستكبار فإبليس حيث أمر بالسجود لآدم فأبى، و أما الحسد فإبنا آدم حيث قتل أحدهما صاحبه» (٣).

و لكن قصه الشيطان لم تنته إلى هذا الحد، فهو عند ما عرف بأنه صار مطرودا من حضره ذى الجلال زاد من طغيانه و لجاجته، و بدل أن يتوب و يثوب إلى الله و يعترف بخطئه فإن الشىء الوحيد الذى طلبه من الله تعالى هو أن يمهلّه و يؤجل موته إلى يوم القيامة: قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ .

و لقد استجاب الله لهذا الطلب، ف قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ .

ص: ٥٨٣

١-١) -إطلاق «الملك» على الشيطان إنما هو لأجل أنه كان له مكان فى صفوف الملائكه، و كان رديفا لهم لا أنه كان منهم و من جنسهم كما قلنا سابقا.

٢-٢) -سفينه البحار، ماده كبر.

٣-٣) -أصول الكافي، ج ٢، ص ٢١٩، باب أصول الكفر.

إن هذه الآيات و ان لم تصرح بالمقدار الذى استجيب من طلب الشيطان من حيث الزمن، إلا أننا نقرأ فى الآية (٣) من سورة الحجر أنه تعالى قال له: فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ وهذا يعنى أن مطلب الشيطان لم يستجب له بتمامه و كماله، بل استجيب إلى الوقت الذى يعلمه الله تعالى (و سوف نبحت عند تفسير الآية (٣) من سورة الحجر حول معنى قوله إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ إن شاء الله).

غير أن الشيطان لم يبع من مطلبه هذا (أى الإمهال الطويل) الحصول على فرصه لجبران ما فات منه أو ليعمر طويلا، إنما كان هدفه من ذلك هو إغواء بنى البشر و قَالَ فِيمَا أَعْوَيْنِي لَأَفْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ أى لأغوينهم كما غويت، ولأضلنهم كما ضللت.

إبليس أول القائلين بالجبر:

يستفاد من الآية الحاضره أن الشيطان لتبرئه نفسه نسب إلى الله الجبر إذ قال:

فِيمَا أَعْوَيْنِي

لأغوينهم.

بعض المفسرين أصر على تفسير جملة فِيمَا أَعْوَيْنِي بنحو لا يفهم منه الجبر، إلا أن الظاهر هو أنه لا موجب لمثل هذا الإصرار. شاهد هذا القول هو ما

روى عن أمير المؤمنين عليه السلام: «كان أمير المؤمنين جالسا بالكوفه بعد منصرفه من صفين إذا أقبل شيخ فاجثا بين يديه ثم قال له: يا أمير المؤمنين: أخبرنا عن مسيرنا إلى أهل الشام أ بقضاء الله و قدره؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «أجل مه يا شيخ ما علوتم تلعه و لا هبطتم بطن واد إلا بقضاء من الله و قدر».

فقال له الشيخ: عند الله أحسب عنائى يا أمير المؤمنين.

فقال له عليه السلام: «يا شيخ فو الله لقد عظم الله تعالى لكم الأجر فى مسيرتكم و أنتم سائرون و فى مقامكم و أنتم مقيمون و فى منصرفكم و أنتم منصرفون و لم تكونوا

فى شىء من حالاتكم مكرهين و لا إله مضطرين».

فقال له الشيخ: و كيف لم نكن فى شىء من حالاتنا مكرهين و لا- إله مضطرين و كان بالقضاء و القدر مسيرنا و منقلبنا و منصرفنا. (فاستفاد السائل من هذه الإجابة الجبريه).

فقال له عليه السلام: «أو تظن أنه كان قضاء حتما و قدرا لازما أنه لو كان كذلك لبطل الثواب و العقاب و الأمر و النهى و الزجر من الله تعالى و سقط معنى الوعد و الوعيد فلم تكن لائمه للمذنب و لا محمده للمحسن و لكان المحسن أولى بالعقوبه من المذنب تلك مقاله اخوان عبده الأوثان و خصماء الرحمن و حزب الشيطان و قدره هذه الأئمه و مجوسها...» (١).

و من هذا يتضح أن أول من وقع فى ورطه الاعتقاد بالجبر هو الشيطان.

ثم إن الشيطان أضاف- تأكيدا لقوله- بأنه لن يكتفى بالقعود بالمرصاد لهم، بل سيأتيهم من كل حدب و صوب، و يسد عليهم الطريق من كل جانب ثم لا تبيّن أيديهم و من خلفهم و عن أيمنهم و عن شمائلهم و لا تجد أكثرهم شاكرين .

و يمكن أن يكون هذا التعبير كناية عن أن الشيطان يحاصر الإنسان من كل الجهات و يتوسل إلى إغوائه بكل وسيله ممكنه، و يسعى فى إضلاله، و هذا التعبير دارج فى المحاورات اليوميه أيضا، فنقول: فلان حاصرته الديون أو الأمراض من الجهات الأربع.

و عدم ذكر الفوق و التحت إنما هو لأجل أن الإنسان يتحرك عادة فى الجهات الأربع المذكوره، و يكون له نشاط فى هذه الأنحاء غالبا.

ص: ٥٨٥

لقد نقل في حديث مروى عن الإمام الباقر عليه السلام تفسير أعمق لهذه الجهات الأربع حيث قال: «ثم قال: لا تبتهم من بين أيديهم، معناه أهون عليهم أمر الآخرة، و من خلفهم، أمرهم بجمع الأموال و البخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم. و عن أيمنهم، أفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة و تحسين الشبهه. و عن شمائلهم، بتحبيب اللذات إليهم و تغليب الشهوات على قلوبهم» (١).

و في آخر آيه من الآيات المبحوثة هنا يصدر مرّه أخرى الأمر بخروج الشيطان من حريم القرب الإلهي و المقام الرفيع، بفارق واحد هو أن الأمر بطرده هنا اتّخذ صورته أكثر ازدراء و تحقيراً، و أشدّ عنفاً و وقعا، و لعلّ هذا كان لأجل العناد و اللجاج الذي أبداه الشيطان بالإلحاح على الوسوسة للإنسان و إغوائه و إغرائه، يعنى أن موقفه الأثيم في البدايه كان منحصرًا في التمرد على أمر الله و عدم امتثاله، و لهذا صدر الأمر بخروجه فقط، و لكن عند ما أضاف معصيته أكبر إلى معصيته بالعزم على إضلال الآخرين جاء الأمر المشدّد: **قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا**.

ثم حلف على أن يملأ جهنم منه و من اتباعه لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ .

فلسفه خلق الشيطان و حكمه إمهاله:

في مثل هذه الأبحاث تتبادر إلى الأذهان-عاده أسئلة متنوعه و مختلفه أهمها سؤالان:

١- لماذا خلق الله الشيطان، مع أنه علم بأنه سيكون منشأ للكثير من الوسوس و الضلالات؟ ٢- بعد أن ارتكب الشيطان مثل تلك المعصيه الكبيره، لماذا قبل الله طلبه في

ص: ٥٨٦

الإمهال، و تأخير الأجل؟ و قد أجبنا على السؤال الأوّل فى المجلد الأوّل من تفسيرنا هذا(الأمثل) و قلنا:

أوّلاً: إنّ خلق الشيطان كان فى بدايه الأمر خلقاً جيداً، لا عيب فيه، و لهذا احتل موقعا فى صفوف المقربين إلى الله، و بين ملائكته العظام، و إن لم يكن من جنسهم ثمّ إنّ بسوء تصرّفه فى حرّيته بنى على الطغيان و التمرد، فطرد من ساحه القرب الإلهى، و اختصّ باسم الشيطان.

ثانياً: إنّ وجود الشيطان ليس غير مضرّ بالنسبه سالكى طريق الحقّ فحسب، بل يعدّ رمزا لتكاملهم أيضاً، لأنّ وجود مثل هذا العدو القوىّ فى مقابل الإنسان يوجب تربيته الإنسان و تكامله و حنكته، و أساساً ينبثق كل تكامل من بين ثنايا التناقضات و التدافعات، و لا يسلك أى كائن طريق كماله و رشده إلّا إذا واجه ضداً قوياً، و نقيضاً معانداً.

فتكون النتيجة أنّ الشيطان و إن كان بحكم إرادته الحرّه مسئولاً تجاه أعماله المخالفه، و لكن وساوسه لن تضرّ عباد الله الذين يريدون سلوك طريق الحقّ، بل يكون مفيداً لهم بصوره غير مباشره.

و الجواب على السؤال الثانى يتضح ممّا قلناه فى الجواب على الاعتراض الأوّل، لأنّ مواصله الشيطان لحياته كفضيه سلبيه يكون وجودها ضرورياً لتقويه نقاط إيجابيه، لا يكون غير مضرّ فحسب، بل هو مؤثّر و مفيد أيضاً، فإنّه مع غصّ النظر عن الشيطان، هناك مجموعه من الغرائز المختلفه فى داخلنا، و هى بوقوفها فى الطرف الآخر من قوانا العقليه و الروحيه تشكّلان ساحه صراح و تناقض قويين، و فى مثل هذه الساحه يتحقق تقدم الإنسان و تكامله، و تربيته و رشده.

و استمرار حياه الشيطان- هو الآخر- لتقويه عوامل هذا التناقض المثمر المفيد.

و بعباره أخرى: إنّ الطريق المستقيم يتميّز دائماً بالالتفات إلى الطرق

المنحرفه حوله و لولا هذه المقاييسه و المقارنه لما أمكن تمييز الطريق المستقيم عن الطريق المنحرف.

كلّ هذا بغض النظر عن أنّنا نقرأ في بعض الأحاديث أنّ الشيطان بعد قيامه بذلك الذنب، عرض سعادته و نجاته في العالم الآخر للخطر بصوره كليّه، و لهذا فإنّه طلب من الله تعالى أن يعطيه عمرا طويلا في هذه الدنيا في مقابل عباداته التي كان قد أتى بها قبل ذلك، و كانت العدالة الإلهيه تقتضى قبول مثل هذا الطلب.

إنّ النقطه المهمه الأخرى التي يجب الانتباه إليها-أيضا-هي أنّ الله تعالى و إن كان ترك الشيطان حرّا في القيام بوساوسه، و لكنّه من جانب آخر لم يدع الإنسان مجرّدا من الدفاع عن نفسه.

لأنّه أولا: و هبه قوه العقل التي يمكن أن توجد سدا قويا منيعا في وجه الوسوس الشيطانيه خاصه إذا لقيت تربيّه صالحه.

و ثانيا: جعل الفطره النقيّه و حبّ التكامل في باطن الإنسان كعامل فعال من عوامل السعاده.

و ثالثا: يبعث الملائكه التي تلهم الخيرات إلى الذين يريدون أن يعيشوا بمنأى عن الوسوس الشيطانيه، كما يصرّح القرآن الكريم بذلك إذ يقول: **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ (١)** إنّها تنزل عليهم لتقويه معنوياتهم بإلهامهم ألوان البشارات و التطمينات لهم.

و نقرأ في موضوع آخر: **إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا (٢)** و سدّدوا خطاهم في طريق الحق.

ص: ٥٨٨

١-١) -فضّلت، ٣٠.

٢-٢) -الأنفال، ١٢.

فرضيه تطور الأنواع و خلقه آدم:

هل هناك تلاؤم بين ما يقوله القرآن الكريم في خلقه آدم، مع ما هو مطروح في فرضيه الأنواع في أبحاث العلوم الطبيعيه، أو لا؟
و أساسا هل بلغت فرضيه التطور و التكامل مرحله القطعيه و اليقين من وجهه نظر العلماء، أو لا؟...

كل هذه الأمور بحاجه إلى أبحاث مفصله سوف نخوضها بمشيئه الله في ذيل آيات أكثر تناسبا، مثل الآيات (٢٦) إلى (٣٣) من
سوره الحجر.

ص: ٥٨٩

إشاره

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا لَهْمًا مِمَّا مَوْرَى عَنْهُمَا مِنْ سَوَآتِهِمَا وَقَالَ مِمَّا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَسَيْمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِمَنِ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢)

التفسير

إشاره

وساوس شيطانيه في حل خلايه:

تبيّن هذه الآيات و تستعرض فصلا آخر من قصه آدم، فتقول أولاً: إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ أَمْرُ آدَمَ وَ زَوْجَتِهِ حَوَاءَ بَأْنَ يَسْكُنَا الْجَنَّةَ: يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ .

و يستفاد من هذه العبارة أنّ آدم و حواء لم يكونا في بدء الخلقه في الجنة،

إنّما خلقا أولاً ثمّ هديا إلى السكّنى فى الجنّه و أنّ القرائن تفيّد- كما أسلفنا فى ذيل الآيات المتعلّقه بقصه خلق آدم فى سوره البقره- أنّ تلك الجنّه لم تكن جنّه القيامه، بل هى- كما ورد فى أحاديث أهل البيت عليهم السّلام أيضا جنّه الدنيا، أى أنّها كانت بستانا جميلا أخضر من بساتين هذا العالم، وقرّ الله سبحانه فيها جميع أنواع النعم و الخيرات.

و فى هذه الأثناء صدر أوّل تكليف و أمر و نهى إلى آدم و حواء من جانب الله تعالى، بهذه الصوره: فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ أى أنّ الأكل من جميع أشجار هذه الجنّه مباح لكما، إلّا شجره خاصّه لا تقرباها، و إلّا كنتما من الظالمين.

ثمّ إنّ الشيطان الذى طرد من رحمه الله تعالى بسبب إحجامه عن السجود لآدم، و كان قد صمّم على أن ينتقم لنفسه من آدم و بنيه ما أمكن، و يسعى فى إضلالهم ما استطاع، و كان يعلم جيدا أنّ الأكل من الشجره الممنوعه تعرّض آدم للإخراج من الجنّه، عمد إلى الوسوسه لآدم و زوجته، و بغيه الوصول إلى هذا الهدف نشر شباكا متنوعه على طريقهما.

ففى البدايه- و كان يقول القرآن الكريم- بدأ بنزع لباس الطاعه و العبوديه لله، عنهما، فأبدى عورتها التى كانت مخبأه مستوره: فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا .

و للوصول إلى هذا الهدف رأى أنّ أفضل طريق هو أن يستغلّ حبّ الإنسان و رغبته الذاتيه فى التكامل و الرقى و الحياه الخالده، و ليوفّرّ لهما عذرا يعتذران و يتوسلان به لتبرير مخالفتها لأمر الله و نهيه، و لهذا قال لآدم و زوجته: مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ .

و بهذه الطريقه صوّر الأمر الإلهى فى نظرهما بشكل آخر، و صوّر المسأله و كأنّ الأكل من «الشجره الممنوعه» ليس غير مضرّ فحسب، بل يورث عمرا

خالدا أو نيل درجه الملائكه.

و الشاهد على هذا الكلام هو العبارة التي قالها إبليس في سورة طه الآية ١٢٠: يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لَّا يَبْلَى .

فقد جاء في روايه رويت في تفسير القمي عن الإمام الصادق عليه السلام، و في «عيون أخبار الرضا» عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: فجاء إبليس فقال:

«إِنَّكُمْ إِنْ أَكَلْتُمْ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَاكَمُ اللَّهُ عَنْهَا صِرْتُمْ مَلَائِكَةً، وَ بَقِيتُمْ فِي الْجَنَّةِ أَبَدًا، وَ إِنْ لَمْ تَأْكُلَا مِنْهَا أَخْرَجَكُمُ اللَّهُ مِنَ الْجَنَّةِ» (١).

و لما سمع آدم هذا الكلام غرق في التفكير، و لكنّ الشيطان-من أجل أن يحكم قبضته و يعمق وسوسته في روح آدم و حواء- توّسل بالآيمان المغلّظه للتدليل على أنه يريد لهما الخير! وَ قَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ .

لم يكن آدم يمتلك تجربه كافيه عن الحياه، و لم يكن قد وقع في حبال الشيطان و خدعه بعد، و لم يعرف بكذبه و تضليله قبل هذا، كما أنه لم يكن في مقدوره أن يصدّق بأن يأتي بمثل هذه الايمان المغلّظه كذبا، و ينشر مثل هذا الحبال و الشباك على طريقه.

و لهذا وقع في حبال الشيطان، و انخدع بوسوسته في المآل، و نزل بحبل خداعه المهترئ في بئر الوسوس الشيطانيه للحصول على ماء الحياه الخالده و الملك الذي لا يبلى، و لكنّه ليس فقط لم يظفر بماء الحياه كما ظنّ، بل سقط في ورطه المخالفه و العصيان للأوامر الإلهيه، كما يعبر القرآن عن ذلك و يلخصه في عبارته موجزه إذ يقول: فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ (٢).

و مع أن آدم-نظرا لسابقه عداء الشيطان له، و مع علمه بحكمه الله و رحمته

ص: ٥٩٢

(١-١) -نور الثقلين، المجلد الثاني، ص ١٣.

(٢-٢) -دلى من ماده التديليه و تعنى إرسال الدلو في البئر بحبل تدريجا، و هذه-في حقيقتها-كنايه لطيفه عن أنّ الشيطان أنزل بحبل مكره و خداعه آدم و زوجته من مقامهما الرفيع، و أرسلهما إلى قعر بئر المشكلات و الابتعاد عن الرحمه الإلهيه.

الواسعه، ومحبه و لطفه- كان من اللازم أن يبدد كل الوسوس و يقاومها، و لا يسلم للشيطان، إلا أنه قد وقع ما وقع على كل حال.

و بمجرد أن ذاق آدم و زوجته من تلك الشجره الممنوعه تساقط عنهما ما كان عليهما من لباس و انكشفت سوءاتهما فلما ذاقا الشجره بدت لهما سوءاتهما .

و يستفاد من العبارة أعلاه أنهما بمجرد أن ذاقا من ثمره الشجره الممنوعه أصيبا بهذه العاقبه المشؤومه، و فى الحقيقه جزدا من لباس الجنه الذى هو لباس الكرامه الإلهيه لهما.

و يستفاد من هذه الآيه جيدا أنهما قبل ارتكابهما لهذه المخالفه لم يكونا عاريين، بل كانا مستورين بلباس لم يرد فى القرآن ذكر عن حقيقه ذلك اللباس و كفيته، و لكنّه على اى حال كان يعدّ علامه لشخصيه آدم و حواء و مكانتهما و احترامهما، و قد تساقط عنهما بمخالفتهما لأمر الله، و تجاهلتهما لنهييه.

على حين تقول التوراه المحرفه: إنّ آدم و حواء كانا فى ذلك الوقت عاريين بالكامل، و لكنهما لم يكونا يدركان قبح العرى، و عند ما ذاقا و أكلا من الشجره الممنوعه التى كانت شجره العلم و المعرفه، انفتحت أبصار عقولهما، فرأيا عريهما، و عرفا بقبح هذه الحاله.

إنّ آدم الذى تصفه التوراه لم يكن فى الواقع إنسانا، بل كان بعيدا من العلم و المعرفه جدا، إلى درجه أنه لم يكن يعرف حتى عريه.

و لكن آدم الذى يصفه القرآن الكريم، لم يكن عارفا بوضعه فحسب، بل كان واقفا على أسرار الخلقه أيضا (علم الأسماء)، و كان يعدّ معلّم الملائكه، و إذا ما استطاع الشيطان أن ينفذ فيه فإنّ ذلك لم يكن بسبب جهله، بل استغلّ الشيطان صفاء نيتته، و طيب نفسه.

و يشهد بهذا القول الآيه (٢٧) من نفس هذه السوره، و التى تقول: يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّ كَمَا أَخْرَجَ أَبْوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا .

و ما كتبه بعض الكتاب المسلمين من أن آدم كان عاريا منذ البدايه،فهو خطأ بين نشأ مما ورد في التوراه المحرفه.

و على كل حال فإن القرآن يقول: إن آدم و حواء لَمَّا وجدا نفسيهما عاريين عمدا فورا إلى ستر نفسيهما بأوراق الجنه: وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْنِهُمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ (١).

و في هذا الوقت بالذات جاءهما نداء من الله يقول: ألم أحذركما من الاقتراب و الأكل من هذه الشجره؟ ألم أقل لكما: إن الشيطان عدو لكما؟ فلما ذا تناسيتم أمرى و وقعتم فى مثل هذه الأزمه: وَ نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَ أَقُلُّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفَّاءٌ عَدُوٌّ مُبِينٌ .

من المقايسه بين تعبير هذه الآيه و الآيه الاولى التى أجاز الله فيها لآدم و حواء أن يسكنا الجنه، يستفاد بوضوح أنّهما بعد هذه المعصيه ابتعدا عن مقام القرب الإلهى إلى درجه أنّ أشجار الجنه أيضا اضحت بعيده عنهما. لأنه فى الآيه السابقه تمت الإشاره إلى الشجره بأداه الإشاره القريبه (هذه الشجره) و أمّا فى هذه الآيه فقد استعملت مضافا إلى كلمه (نادى) التى هى للخطاب من بعيد، استعملت (لكما) التى هى للإشاره إلى البعيد.

بحوث

إشاره

إنّ فى هذه الآيه نقاطا لا بدّ من التوقف عندها:

١- كيفية وسوسه الشيطان

يستفاد من عبارته (وسوس له) نظرا إلى حرف اللام (التي تأتي فى العاده

ص: ٥٩٤

١- ١) - «يخصفان» من ماده «الخصف» و تعنى فى الأصل ضم شىء إلى شىء آخر، و الجمع، ثم أطلق على ترفيع النعل أو الثوب المتمزق و خياطته فليل: خصف النعل أو الثوب، أى جمع الأجزاء المتفرقه و ضم بعضها إلى الآخر.

للفائدة و النفع) أنّ الشيطان كان يتخذ صفه الناصح، و المحبّ لآدم، في حين أن (وسوس إليه) لا ينطوى على هذا المعنى، بل يعنى فقط مجرّد النفوذ و التسلّل الخفّى إلى قلب أحد.

و على كل حال يجب أن لا يتصور أن الوسوس الشيطانيه مهما بغلت من القوه تسلب الإراده و الإختيار من الإنسان، بل يمكن للإنسان-رغم ذلك- و بقوّه العقل و الإيمان أن يقف في وجه تلك الوسوس و يقاومها.

و بعبارة أخرى: إن الوسوس الشيطانيه لا تجبر الإنسان على المعصيه، بل قوّه الإراده و حاله الإختيار باقيه حتى مع الوسوس، و إنّ مقاومتها تحتاج إلى الاستقامه و الصمود الأكثر و ربّما إلى تحمّل الألم و العذاب و كذلك فإنّ الوسوس الشيطانيه لا تسلب المسؤوليه عن أحد و لا تجرّده عنها، كما نلاحظ ذلك في آدم.

و لهذا نرى أنه رغم جميع العوامل التي حفت بآدم، و دعتة إلى مخالفه أمر الله و نهيه، و شجعتة عليها، و التي أقامها الشيطان في طريقه، فإنّ الله سبحانه اعتبره مسئولا عن عمله، و لهذا عاقبه على النحو الذي سيأتي بيانه.

٢- ماذا كانت الشجره الممنوعه؟

جاءت الإشارة إلى الشجره الممنوعه في ست مواضع من القرآن الكريم، من دون أن يجري حديث عن طبيعه أو كيفيه أو اسم هذه الشجره، و أنها ماذا كانت؟ و ماذا كان ثمرها؟ بيد أنّه ورد في المصادر الإسلاميه تفسيران لها، أحدهما «مادى» و هو أنّها كانت «الحنظله» (١) كما هو المعروف في الروايات.

و يجب الانتباه إلى نقطه، و هي أن العرب تطلق لفظه «الشجره» حتى على النبتة، و لهذا أطلقت في القرآن الكريم-لفظه الشجره على نبتة اليقطين، إذ قال

ص: ٥٩٥

١- ١) - و للاطلاع على هذه الروايات يراجع تفسير نور الثقلين، المجلد الأول، الصفحه ٥٩ و ٦٠ و المجلد الثاني، الصفحه ١١، في تفسير آيات سورة البقره و سورة الأعراف.

سبحانه: وَ أَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجْرَةً مِنْ يَفْطِينٍ (١).

و التفسير الآخر «معنوى» و هو أنّ المقصود من تلك الشجرة- كما فى الروايات- هو ما عبّر عنها بـ «شجرة الحسد» لأنّ آدم طبقاً لهذه الروايات- بعد ملاحظه مكانته و مقامه- تصوّر أنّه لا يوجد فوق مقامه مقام، و لا فوق مكانته مكانه، و لكن الله تعال أطلعه على مقام ثله من الأولياء من ذريته و أبناؤه (رسول الإسلام و أهل بيته)، فحصل عند ما يشبه الحسد، و كانت هذه هى الشجرة الممنوعه التى أمر آدم بأن لا يقربها.

و فى الحقيقة تناول آدم- طبقاً لهذه الروايات- من شجرتين، كانت إحداهما أقلّ منه مرتبه و أدنى منه منزله، و قد قادتة إلى العالم المادى، و كانت هى «الحنطه». و الأخرى هى الشجرة المعنويه التى كانت تمثل مقام ثله من أولياء الله، و الذى كان أعلى و أسمى من مقامه و مرتبته، و حيث أنّه تعدّى حدّه فى كلا الصعيدين ابتلى بذلك المصير المؤلم.

و لكن يجب أن نعلم أن هذا الحسد لم يكن من النوع الحرام منه، بل كان مجرد إحساس نفسانى من دون أن تتبعه أية خطوه عمليه على طبقه.

و حيث إنّ للآيات القرآنيه- كما أسلفنا مرارا- معان متعدده، فلا مانع من أن يكون كلا المعنيين مرادين من الآيه.

و من حسن الاتفاق أنّ كلمه «الشجرة» قد استعملت فى القرآن الكريم فى كلا المعنيين، فحينما استعملت فى المعنى المادى التعارف للشجرة مثل: وَ شَجْرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ (٢) التى هى إشاره إلى شجرة الزيتون، و تاره استعملت فى الشجرة المعنويه مثل وَ الشَّجْرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ التى يكون المراد منها إمّا طائفه من المشركين، أو اليهود، أو الأقوام الطاغيه الأخرى مثل

ص: ٥٩٦

١- ١) -الصفات، ١٤٦.

٢- ٢) -المؤمنون، ٢٠.

على أنّ المفسّرين أبدوا احتمالات متعدده أخرى حول الشجره الممنوعه، و لكن ما قلناه هو الأبين و الأظهر من الجميع.

و لكن النقطة التى يجب أن نذكر بها هنا،هى أنه وصفت الشجره الممنوعه فى التّوراه المختلفه-المعترف بها اليوم من قبل جميع مسيحيى العالم و يهودييه- بشجره العلم و المعرفه و شجره الحياه (١) تقول التّوراه: إن آدم لم يكن عالما و لا عارفا قبل أكله من شجره العلم و المعرفه،حتى أنه لا- يعرف و لم يميّز عريه، و عند ما أكل من تلك الشجره،و صار إنسانا بمعنى الكلمه طرد من الجنّه خشيه أن يأكل من شجره الحياه أيضا فيخلد كما الآلهه.

و هذا من أوضح القرائن الشاهده على أنّ التّوراه الرائجه ليست كتابا سماويا،بل هى من نسيج العقل البشرى القاصر المحدود،الذى يعتبر العلم و المعرفه عيبا و شيئا للإنسان،و يعتبر آدم بسبب ارتكابه معصيه تحصيل العلم و المعرفه مستحقا للطرد من جنه الله،و كأنّ الجنّه لم تكن مكان العقلاء الفاهمين و منزل العلماء العارفين!! و لملفت للنظر أنّ الدّكتور«ويليم ميلر»الذى يعدّ من مفسرى الإنجيل القديرين و البارزين بل من مفسّرى العهدين(التّوراه و الإنجيل معا)يقول فى كتابه المسمى«ما هى المسيحيه»:«إنّ الشيطان تسلّل إلى الجنّه فى صورته حيّه، و أقنع حواء بأن تأكل من ثمره تلك الشجره،ثم أعطت حواء من تلك الثمره إلى آدم،فأكل منها آدم أيضا،و لم يكن فعل أبويننا الأوليين مجرّد خطأ عادى،أو غلطه ناشئه من عدم التفكير،بل كان معصيه متعمّده ضدّ الخالق،و بعبارة أخرى:

إنّ آدم و حواء كانا يريدان بهذا الصنيع أن يصيرا آلهه،إنّهما لم يرغبا فى أن يطيعا الله،بل كانا يريدان أن يعملا وفق رغباتهما و ميولهما الشخصيه،فما ذا كانت

ص: ٥٩٧

النتيجة؟ لقد وبّخهما الله تعالى بشده، وأخرجهما من الجنة، ليعيشا في عالم مليء بالعذاب والألم والمحنة».

لقد أراد مفسّر التّوراه والإنجيل هذا أن يبرر شجره التّوراه الممنوعه، ولكّنه نسب أعظم الذنوب و هو مضاده الله و محاربتة-إلى آدم...أمّا كان من الأفضل أن يعترف-بدل إعطاء مثل هذه التّفسيرات-بتطرق التحريف و التلاعب إلى هذه الكتب المسماه بالكتب المقدسه؟!

٣- هل ارتكب آدم معصيه؟

يستفاد ممّا نقلناه من الكتب المقدسه-لدى اليهود و النصارى- أنّهم يعتقدون بأن آدم ارتكب معصيه، بل ترى كتبهم أن معصيته لم تكن معصيه عاديه، و إنما كانت معصيه كبيره و إثما عظيما، بل إن الذي صدر عن آدم هو مضاده الله و الطموح فى الألوهيه و الربوبيه، و لكن المصادر الإسلاميه-عقلا- و نقلا- تقول لنا: إنّ الأنبياء لا يرتكبون إثما، و إنّ منصب إمامه الناس و هدايتهم لا يعطى لمن يرتكب ذنبا و يقترف معصيه. و نحن نعلم أن آدم كان من الأنبياء الإلهيين، و على هذا الأساس فإنّ كل ما ورد فى هذه الآيات مثل غيرها من التعابير التى جاءت فى القرآن حول سائر الأنبياء الذين نسب إليهم العصيان، جميعها تعنى «العصيان النسبى» و «ترك الأولى» لا العصيان المطلق.

و توضيح ذلك: أن المعصيه على نوعين: «المعصيه المطلقة» و «المعصيه النسبيه»، و المعصيه المطلقة هى مخالفه النهى التحريمى، و تجاهل الأمر الإلهى القطعى، و هى تشمل كلّ نوع من أنواع ترك الواجب و إتيان الحرام.

و لكن المعصيه النسبيه هى أن يصدر من شخصيه كبيره عمل غير حرام لا يناسب شأنه و لا يليق بمقامه، و ربّما يكون إتيان عمل مباح-بل و مستحب-لا يليق بشأن الشخصيات الكبيره، و فى هذه الصوره يعدّ إتيان ذلك العمل «معصيه

نسيه»، كما لو ساعد مؤمن واسع الثراء فقيرا لإنقاذه من مخالب الفقر بمبلغ تافه، فإنه ليس من شك في أن هذه المعونه المالىه مهما كانت صغيره وحقيره لا- تكون فعلا- حراما، بل هى أمر مستحب، و لكن كل من يسمع بها يذم ذلك الغنى حتى كأنه ارتكب معصيه و اقترف ذنبا، و ذلك لأنه يتوقع من مثل هذا الغنى المؤمن أن يقوم بمساعده أكبر.

و انطلاقا من هذه القاعده و على هذا الأساس تقاس الأعمال التى تصدر من الشخصيات الكبيره بمكانتهم و شأنهم الممتاز، و ربّما يطلق على ذلك العمل- مع مقياسه بذلك- لفظ «العصيان» و «الذنب».

فالصلاه التى يقوم بها فرد عادى قد تعتبر صلاه ممتازه، و لكنّها تعدّ معصيه إذا صدر مثلها من أولياء الله، لأن لحظه واحده من الغفله فى حال العباده لا تناسب مقامهم و لا تليق بشأنهم. بل نظرا لعلمهم و تقواهم و منزلتهم القريبه يجب أن يكونوا حال عباده الله تعالى مستغرقين فى صفات الله الجماليه و الجلاليه، و غارقين فى التوجه إلى عظمته و حضرته.

و هكذا الحال فى سائر أعمالهم، فإنّها على غرار عباداتهم، يجب أن تقاس بمنزلهم و شؤونهم، و لهذا إذا صدر منهم «ترك الأولى» عوتبوا من جانب الله، و المراد من ترك الأولى، هو أن يترك الإنسان فعل ما هو الأفضل، و يعتمد إلى عمل جيد أو مستحب أدنى منه فى الفضل.

فإننا نقرأ فى الأحاديث الإسلاميه أن ما أصيب به يعقوب من محنه فراق ولده يوسف، كان لأجل غفلته عن إطعام فقير صائم و وقف على باب بيته عند غروب الشمس يطلب طعاما، فغفل يعقوب عن إطعامه، فعاد ذلك الفقير جائعا منكسرا خائبا.

فلو أن هذا الصنيع صدر من إنسان عادى من عامه الناس لما حظى بمثل هذه الأهميه و الخطوره، و لكن يعدّ صدوره من نبيّ إلهيّ كبير، و من قائد أمّه أمرا

مهّمًا و خطيرا استتبع عقوبه شديده من جانب الله تعالى (١).

إنّ نهى آدم عن الشجره الممنوعه لم يكن نهيا تحريميا، بل كان ترك أولى، و لكن نظرا إلى مكانه آدم و مقامه و مرتبته عدّ صدوره أمرا مهما و خطيرا، و استوجب مخالفه هذا النهى (و إن كان نهيا كراهيا و تنزيهيا) تلك العقوبه و المؤاخذه من جانب الله تعالى.

هذا و قد احتمل بعض المفسرين-أيضا- أنّ نهى آدم عن الشجره الممنوعه كان «نهيا إرشاديا» لا نهيا مولويا، و توضيح ذلك: أنه قد ينهى الله تعالى عن شىء من منطلق كونه مالك الإنسان و صاحب أمره و مولاه، و طاعه هذا النوع من النهى واجبه على كل أحد من الناس، و هذا النوع من النهى يسمى نهيا مولويا.

و لكنّه قد ينهى عن شىء لمجرّد أن ينبه الإنسان على أن ارتكاب هذا النهى ينطوى على أثر غير محمود تماما، مثل نهى الطبيب عن الأَطعمه المضره، و لا-شك فى أنّ المريض لو خالف الطبيب لا يكون قد أهان الطبيب، و لا أنّه خالف شخصه، بل يكون بتجاهله نهى الطبيب قد تجاهل إرشاده، و جرّ إلى نفسه التعب و النصب.

و فى قصه آدم أيضا قال الله تعالى له: إنّ نتيجة الأكل من الشجره الممنوعه هى الخروج من الجنّه، و الوقوع فى التعب و النصب، و كان هذا مجرّد إرشاد و ليس أمرا، و بهذا فإنّ آدم خالف نهيا إرشاديا فقط، لا أنّه أتى عصيانا و ذنبا واقعا.

و لكن التفسير الأوّل أصحّ، لأنّ النهى الإرشادى لا يحتاج إلى مغفره، فى حين أنّ آدم-ما سنقرأ فى الآيه اللاحقه- يطلب من الله تعالى الغفران، هذا مضافا إلى أنّ فتره الجنّه كانت تعدّ فتره تدريبيه و تعليميه بالنسبه لآدم...، فتره الوقوف على التكليف و الأوامر و النواهى الإلهيه... فتره معرفه الصديق و العدو... فتره

ص: ٦٠٠

الوقوف على نتائج العصيان و ثمره مخالفه الأمر الإلهي و اتباع الشيطان و قبول وساوسه، و نحن نعلم أنّ النهي الإرشادي ليس في حقيقته تكليفاً، و لا ينطوي على تعهد، و لا يورث مسئوليته.

و في خاتمه هذا البحث نذكر القارئ بأنّ كلمه «النهي» و «العصيان» و «الغفران» و «الظلم» تبدو في بادئ النظر و كأنها تعطي معنى المعصيه المطلقه و الذنب الحقيقي و آثاره، و لكن نظرا لمسأله عصمه الأنبياء الثابته بالدليل العقلي و النقلى تحمل جميع هذه التعابير على «العصيان النسبي» و هذا الأمر لا يبدو بعيدا عن ظاهر اللفظ بالنظر إلى منزله آدم و سائر الأنبياء العظيمه و سموّ مقامه.

ص: ٦٠١

إشاره

قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥)

التفسير

إشاره

رجوع آدم إلى الله وتوبته:

و في المال عند ما عرف آدم و حواء بكيد إبليس، و خطته و مكره الشيطاني، و رأيا نتيجة مخالفتهم فكرا في تلافى ما فات، و جبران ما صدر منهما، فكانت أول خطوه خطياها هي: الاعتراف بظلمهما لنفسيهما أمام الله: قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

و الخطوه الأولى في سبيل التوبه و الإنابه إلى الله و إصلاح المفسد هي: أن ينزل الإنسان عن غروره و لجاجه، و يعترف بخطئه اعترافا بناء واقعا في سبيل التكامل.

و الملفت للنظر أن آدم و حواء يظهران أدبا كبيرا مع الله في توبتهما و طلبهما العفو و الغفران منه تعالى فلم يقولوا: ربنا اغفر لنا، بل يقولان: إِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا

ولا شك أنّ مخالفه أوامر الله و نواهيه ظلم يورده الإنسان على نفسه، لأنّ جميع البرامج و الأوامر الإلهية تهدف إلى خير الإنسان، و تتكفل سعادته و تقدمه، و على هذا الأساس فإنّ أيّه مخالفه من جانب الإنسان تكون مخالفه لتكامل نفسه، و سببا لتأخرها و سقوطها، و آدم و حواء و إن لم يذنبا و لم يرتكبا معصيه، و لكن نفس هذا الترك للأولى أنزلهما من مقامهما الرفيع، و استوجب حطّ منزلتهما.

إنّ توبه آدم و حواء الخالصه و إن قبلت من جانب الله تعالى - كما نقرأ ذلك فى الآيه (٣٧) من سوره البقره ﴿قَاتَبَ - و لكنهما لم يستطيعا على كل حال التخلص من الأثر الوضعى و النتيجة الطبيعه لعملهما، فقد أمرا بمغادره الجنه، و شمل هذا الأمر الشيطان أيضا: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ .

كما ذكر الجميع بأنهم سيتعرضون فى الأرض للموت بعد الحياه، ثم يخرجون من الأرض مره أخرى للحساب ﴿قَالَ فِىهَا تَحْيَوْنَ وَ فِىهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ .

و الظاهر أن المخاطبين فى هذه الآيه: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ هُم آدم و حواء و إبليس جميعا، و لكن لا يبعد أن يكون المخاطبين فى الآيه اللاحقه هم آدم و حواء فقط لأنهما هما اللذان يخرجان من الأرض.

قصه آدم و مستقبل هذا العالم:

إن بعض المفسرين الذين تأثروا بموجه الأفكار الغربيه الإلحاديه عاده، و حاولوا أن يصفوا على قصه آدم و حواء من بدايتها إلى نهايتها طابع التشبيه و الكنايه و المجازيه، أو ما يسمّى الآن بالرمزيه، و يحملوا جميع الألفاظ المتعلقة بهذه الحادته - على خلاف الظاهر - على الكنايه عن المسائل المعنويه.

و لكن الذى لا شك فيه أن ظاهر هذه الآيات يحكى عن حادته واقعيه عينيه وقعت لأبينا و أمنا الأولين: آدم و حواء، و حيث أن هذه القصه لا تتضمن أيّه نكته

غير قابله للتفسير حسب الظاهر، كما ليس فيها ما يخالف الموازين العقلية (ليكون قرينه على حملها على المعنى الكنائى) لهذا ليس هناك أى دليل على أن نعرض عن ظاهر الآيات، ولا نحملها على معناها الحقيقى.

و لكن مع ذلك يمكن أن تحمل هذه الحادته الواقعيه الحسيه إشارات إلى حياه النوع البشرى فى مستقبل هذه العالم.

يعنى أنّ الإنسان المركب من قوّه «العقل» و من «الغرائز الجامحه» و التى تجرّه كل واحده منهما إلى جهه و ناحيه يواجه فى خضم هذه الحياه الصاخبه دعاه كذّابين أصحاب سوابق سيئه مثل الشيطان، يحاولون بوساوسهم المتواصله إلقاء الستار و الحجاب على عقله بغيه عزله عنه، و بغيه خداعه و إضلاله و تركه حائرا فى متاهات الحياه يبحث عن سراب.

إنّ أوّل نتيجته للاستسلام أمام الوسوس هو انهيار حاجز التقوى، و سقوط لباسه، و انكشاف مساوئه و سوءاته.

و الأخرى هى الابتعاد عن مقام القرب إلى الله، و سقوط الإنسان عن مقام الإنسانيه الكريم، و الإخراج من جنه الأمن و الطمأنينه، و الوقوع فى دوامه الحياه الماديه المضنيه.

و فى هذه الحاله يمكن لقوّه العقل -أيضا- أن تساعد الإنسان و تعينه على النهوض من كبوته، فيفكر فوراً فى تلافى ما فاته، و جبران ما بدر منه، فيبعثه العقل و التفكير إلى أن يعود إلى الله كى يعترف بكل شجاعه و صراحه بذنوبه، اعترافا ببناء واعيا مفيدا يعدّ منعطفاً فى حياته.

و فى هذا الوقت تمتد إليه يد الرحمه الإلهيه مرّه أخرى، و تنقذه و تخلصه من السقوط الأبدى، و إن كان لا يستطيع مع ذلك التخلص من آثار معصيته الوضعيه و نتائجها الطبيعيه مهما كانت قليله و محدوده. و لكن هذه الحادته ستكون له درسا و عبره، و سيمكنه ذلك من أن يتخذ من هذه الهزيمه قاعده صلبه لانتصاره فى مستقبل الحياه، و يستفيد من هذا الضرر نفعا كبيرا فى المراحل القادمه من حياته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آواده اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب فى طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩